



میر فرانس

# اودیا والاشار المصنعة



شرحہ

ایراہیم محمد ایراہیم

راجہ وقادہ

دکتر عبد الرحمن الشیخ



بيتر فرانس  
أدبًا وإثارةً مصرية

ترجمة  
إبراهيم محمد إبراهيم

راجعته وقدم له  
دكتور عبد الرحمن الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

أَوَّلُ بَابٍ فِي الْأَشْأَارِ الْمَصْرِئَةِ

## الألف كتاب الثانى نافذة على الثقافة العالمية

رئيس مجلس الإدارة  
د. ناصر الأنصارى

رئيس التحرير  
د. محمد عنانى

مدير التحرير  
عزت عبد العزيز

مدير التحرير الفنى  
محسنة عطية

سكرتير التحرير  
هند فاروق

متابعة  
نجوى إبراهيم  
زوبة صالح  
رشا محمد

تصحيح  
محمد حسن  
بدر شفيق

### • الكتاب: أوروبا والآثار المصرية

The Rape of Egypt

How the Europeans Stripped Egypt of its Heritage

• الكاتب: بيتر فرانس PETER FRANCE

• الكتاب الأصلي صادر باللغة الإنجليزية ويصدر

باللغة العربية بإذن خاص

Copyright © Peter France 1991

• جميع حقوق الطبعة العربية فى العالم محفوظة للهيئة

المصرية العامة للكتاب

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة.

ت: ٢٥٧٧٥٠٠ / ٢٥٧٧٥٢٢٨

فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢)

ص.ب: ٢٣٥ - الرقم البريدى: ١٧٩٤ ارمسيس

WWW.gebo.gov.eg

Email: info@gebo.gov.eg

فرانس، بيتر .

أوروبا والآثار المصرية/ تأليف بيتر فرانس؛ ترجمة

إبراهيم محمد إبراهيم؛ راجعه وقدم له عبد الرحمن

الشيخ. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٠٠٩.

٢٨٠ ص؛ ٢٤ سم. - (الألف كتاب الثانى)

تدمك ٨ ١٦١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - أوروبا - تاريخ - عصر النهضة

٢ - الآثار الفرعونية

أ - إبراهيم، إبراهيم محمد. (مترجم).

ب - الشيخ، عبد الرحمن. (مراجع ومقدم).

ج - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٣٧٧ / ٢٠٠٩

8-161-421-977-978-I.S.B.N

ديوى ٩٤٠,٢١



### الألف كتاب فى سطور .....

صدر مشروع الألف كتاب الأول عام ١٩٥٥ بإشراف الإدارة العامة للثقافة، التابعة لوزارة التربية والتعليم. وقد اهتم بأمهات الكتب العالمية والكلاسيكيات، كما شمل العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية، والمعارف العامة، والفلسفة وعلم النفس، والديانات، والعلوم الاجتماعية، واللغات، والفنون الجميلة، والأدب بفروعه، والتاريخ والجغرافيا والتراجم. وتوقف العمل به عام ١٩٦٩.

صدر مشروع الألف كتاب الثانى عام ١٩٨٦ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد اهتم بترجمة الكتب الحديثة محاولة منه للاتصال بالثورة العلمية والثقافة العالمية المعاصرة .

وقد قُسمت إصدارات المشروع إلى ١٩ فرعًا هى: الموسوعات والمعاجم، والدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر، والعلوم والتكنولوجيا، والاقتصاد والعلوم الإدارية، ومصر عبر العصور، والكلاسيكيات، والفن التشكيلى والموسيقى، والحضارات العالمية، والتاريخ، والجغرافيا والرحلات، والفلسفة وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية، والمسرح، والطب والصحة، والآداب واللغة، والإعلام، والسينما، وكتب غيرت الفكر الإنسانى، والأعمال المختارة.

(أنظر القائمة آخر الكتاب)

## الفهرس

٧	.....	مقدمة المراجع
١٥	.....	مقدمة المؤلف
		الفصل الأول
٢٣	.....	الجنرال بونابرت، عضو الأكاديمية
		الفصل الثانى
٤٤	.....	ساحة للنهب
		الفصل الثالث
٧٩	.....	لصالح الأجيال المتعاقبة
		الفصل الرابع
١٠٥	.....	الثعلب والقنفذ والكولونيل
		الفصل الخامس
١٣١	.....	الاتصال الحضارى
		الفصل السادس
١٥٢	.....	عين الغيور
		الفصل السابع
١٧٨	.....	علم الآثار لا يعرف العواطف
		الفصل الثامن
١٩٣	.....	سياسات الآثار
		الفصل التاسع
٢١٣	.....	علم آثار التوافه المهمة
		الفصل العاشر
٢٣٧	.....	فاصل مسرحى قصير وختام فخم
٢٦٣	.....	قائمة المراجع



## مقدمة المراجع

ربما يُدهش القارئ العربى عندما نطالعه فى صدر مقدمة كتاب عن الآثار المصرية، أن هذه الآثار كانت — ولا زالت — صفحة مهمة فى تاريخ الفكر الأوروبى بل والعالمى، وليست مجرد صفحة لتأصيل عراقة مصر وأهل مصر.

لقد استعرض المؤلف (بيتر فرانس) بالإضافة لهذا، تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، وجهود محمد على لإقرار الأمن فيها، وتتبع مواقف الولاة والباشوات، والخديو إسماعيل من القوى الأوربية المتصارعة، ومن الآثار المصرية، بل إنه خصص الفصل الثامن للسياسة الأثرية، أى ارتباط الآثار بالسياسات المختلفة داخليا وخارجيا.

لكن الذى نريد أن نركز عليه حقيقة، هو أهمية هذه الصفحات فى تاريخ الأديان (كل الأديان)، وتاريخ العبادات الباطنية (الصوفية أو النيوصوفية)، فليس من السهل فهم أى دين دون الرجوع لآثار الحضارات السابقة، والحضارة المصرية على نحو خاص، ومن هنا كان الحفاظ على الآثار واجبا دينيا، فالكتب السماوية جميعا تدعونا "للسير" فى الأرض، لننظر عاقبة من كانوا "قبلنا".

وهذه الصفحات أيضا ذات أهمية كبيرة لتبيان أثر الحضارة المصرية فى أوربا — حتى فى عصر التنوير — فكرا وفنا ودينا.

والتكالب على آثار مصر يعكس أيضا الصراع السياسى والعسكرى لفرض الإرادة على مصر، واستعمارها، ومن خلال صفحات هذا الكتاب الشائق سنستعرض — مع استطرادات ضرورية — هذه الأفكار جميعا.

نبدأ — كما بدأ المؤلف — بحكاية رجل، أو إن شئت: دجال، طبقت شهرته الآفاق فى العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر (أى فى عصر التنوير)، قال إنه حُمِلَ إلى مصر حين كان طفلا صغيرا، وأخذ إلى كهف يقع تحت الهرم الأكبر، فتجلّت له روح القبط الأكبر Great copht، فأطلعته على أسرار النيل الخالدة، وأن الوصول "للحقيقة" لا يكون إلا بأداء طقوس بعينها بشكل صحيح، وكان يعنى طقوسا مصرية قديمة. وكلفه القبط الأكبر بالتبشير بهذه الطقوس لتكون أساسا لحركة الماسونية الدولية (أو حركة البنائين الأحرار).

وأسس الرجل بعد ذلك ما أسماه (مجمع الماسونية المصرية). كل هذا مهم، لكن الأهم أن هذا الرجل لم يجد مجالا يطبق فيه الحكمة السرية المصرية القديمة سوى الطاقة الجنسية وإعادة الشباب. لقد راح يجوب العالم يبيع شرابا يقوى الطاقة الجنسية، يأتي بقوة مفعوله بفعل تعرضه لطقوس وتعاويز مصرية قديمة، وتحمس له لمشروبه ملوك وأمراء منهم لويس الخامس عشر (فرنسا) وكاترين (روسيا)، وانتقل الحماس له إلى الجمهور. لقد حقق الرجل شهرة كبيرة، إذ كان الناس يتجمعون حوله بكثرة كثيرة إذا ما ظهر، لدرجة أنه كان يضطر السلطات إلى استدعاء حرس مسلح لحفظ النظام.

إلى هنا، وقد يبدو الأمر مفهوما، فالرجل قد دق على وتر اللذة، وهو وتر حساس، وربطه بطقوس قديمة، وهو وتر غيبى مثير.

### معنى الكلام

لكن الرجل بشر بأنه تلقى الحكمة من كائن "غيبى"، ومعنى هذا أنه هو — وحده — مالك زمامها. وأن هذا الكائن "الغيبى" كلفه "بالدعوة" إليها. إنه إذن يهدد المسيحية فى الصميم، ويلغى حكمة العهدين؛ القديم والجديد. لذا تحرك البابا وشكل محكمة دينية حكمت على الرجل — وإن شئت قلت الدجال — بالإعدام، ثم خفف

الحكم إلى السجن مدى الحياة، ومات "نبي القبط الأكبر" في محبسه، وبذلك طُويت صفحته.

لقد كان حديثنا فى السطور السابقة عن أليساندرو دى كاجليوسترو Alessandro Di Cagliostro، الذى عُرف باسم أكثر بساطة هو: جيوسب بالسامو Giuseppe Balsamo، الذى صدر حكم بإعدامه فى سنة ١٧٩١، ثم خفف الحكم — كما سبق القول — إلى السجن مدى الحياة.

لكن بالسامو هذا لم يكن نهاية المطاف فى هذا الاتجاه الغيبي الأوربي المرتبط بمصر القديمة، ففي عام ١٧٩١ راح ساراستو الكاهن المسيحى الأعلى فى فيينا ينادى الإلهين المصريين القديمين إيزيس وأوزوريس، متوسلاً إليهما أن يدلّاه إلى حكمة العصور.

### الآثار المصرية، والإصلاح الدينى فى أوربا

وكما كانت الآثار المصرية إلهاما للصوفيين والنيو صوفيين والغيبيين؛ كانت أيضا — وهذا هو الأهم — دليلا ساقه رجال الدين المسيحى، واليهودى، باختلاف اتجاهاتهم، لدعم روايات العهد القديم (الأسفار الخمسة الأولى منه هى التوراة)، أو لتنفيذها وإظهار منافاتها للحقيقة.

ولاشكّ لدىّ أنه كان للآثار المصرية — ولايزال — دور مهم للتخفيف كثيرا من وطأة الغلو الدينى فى الغرب وغير الغرب .

فكما أكّد علماء الآثار فى الغرب، بدأ عصر نارمر (الملك مينا) فى الألف الرابعة قبل الميلاد (حوالى ٣١٠٠ ق.م)، وسبقته حضارات أخرى كثيرة لم تكن مصر فيها موحّدة تحت تاج واحد، بل لقد كانت مصر عامرة بالسكان فى العصر الحجرى القديم (على وفق التقسيم الجيولوجى الذى أخذ به الجيولوجيون)، فكيف إذن نفهم أن الله (أو الثالوث على وفق العبارة الواردة فى الكتاب)، قد خلق الإنسان فى ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م، فى الساعة التاسعة صباحا ؟

لاحظ أن التقويم العبرى يأخذ بهذا حتى يومنا هذا. هنا وجدنا الفكر الدينى المسيحى فى أوربا ينقسم انقساماً واضحاً، وهو انقسام طبيعى نجده فى أديان أخرى:

قسم تمسك بالنص الدينى رغم الحقيقة العلمية الواضحة، المتمثلة هنا بالآثر المصرى المادى الواضح المحسوس الملموس، الذى يمكن تحديد عمره الزمنى بوسائل علمية لا تحتل الشك.

وقسم رفض أن يغمض عينيه عن هذه الحقيقة العلمية الماثلة (الآثر المصرى)، وتمخض موقفهم هذا بدوره عن موقفين: موقف "كفر" بالكتاب المقدس (خاصة العهد القديم)، وموقف طالب بإعادة تفسيره.

وسنورد هنا نتفاً من هذين القسمين. نجد أن جون ليتفوت John Lightfoot الاختصاصى فى الكتاب القدس وكتابات الحاخامات (بما فى ذلك التلمود وغيره) يؤكد أن خلق الإنسان ليس أقدم من هذا (٤٠٠٤ ق.م) ما دامت السماوات والأرض قد خلقها (الله) فى وقت واحد. وأكد هذا الأسقف جيمس أشر James Ussher، الذى لم يكتف بهذا التأييد وإنما كتب عبارة دالة عليه فى هامش إحدى نسخ الكتاب المقدس، وجرى طبعها بعد ذلك فى النسخ المطبوعة، ومنذ سنة ١٧٠١ اعتبرت ضمن النص المقدس نفسه، وقرأها الناس على أنها جزء منه. العالم المسيحى الأول (ليتفوت) عاش فى القرن السابع عشر، والعالم المسيحى الثانى (أشر) عاش فى أواخره، وطُبعت إضافته فى مطلع القرن الثامن عشر، واستمرت بعد ذلك .

فى ظل هذه المعلومات، وهذه التحليلات، يمكننا أن نتساءل: هل كانت آثار مصر بعيدة عن موقف فولتير من الكتاب المقدس؟ وهل كانت آثار مصر بعيدة عن موقف الثورة الفرنسية من الكتاب المقدس ومن البابا — فى بعض مراحلها؟ وهل كانت آثار مصر بعيدة عما عُرف باسم التناول النقدى للعهد القديم على نحو ما نتناول أى كتاب آخر — وهو اتجاه شاع فى أوربا كلها فى القرن الثامن عشر، ولازال حتى اليوم؟

لقد حاول البعض الخروج من هذا المأزق التاريخي للتوفيق بين الحقيقة الأثرية الماثلة، وما يناقضها، بأن قال: إن الله قد خلق العالم سنة ٤٠٠٤ ق.م، بما فى ذلك الأحفورات والآثار القديمة، ثم أرجع زمانها (بقدرته) إلى ما قبل هذا. وهو موقف اتخذته بعض علماء الدين اليهود بمن فيهم جيولوجيون، للتوفيق بين الحقائق العلمية الماثلة الملموسة ورواية التوراة، وقد أفاض فى هذا "ألان أنترمان" وهو يهودى تحول للمسيحية فى كتابه: (اليهود؛ عقائدهم وشريعتهم)، وهو كتاب أظنه سيصدر قريباً فى هذه السلسلة. لكن هل ستصمد هذه المحاولات التوفيقية أمام آثار مصر؟ هذا ما نشك فيه .

تماماً كما تهاوت الخرافات التى تحلقت حول الأهرام من القول بأن الذين بنوها هم الذين "هبطوا من السماء"، أو بقايا سكان قارة أطلنيس، أو بتطهير أحجارها فى الفضاء بفعل تأثير الحروف العبرية، والقبالة اليهودية - لقد تهاوى كل هذا أمام الحقيقة العلمية الأثرية الواضحة الباقية الملموسة: تلك هى مساكن بناء الأهرام، وهذه هى جثثهم، بل وهذا هو أثاثهم، بل وهذه هى بقايا ما كانوا يأكلون .

الحفاظ على الآثار إذن واجب وفريضة، ليس من منظور أنها صفحة من تاريخ الإنسانية فحسب، بل من منظور دينى يخدم الدين، أى دين، والذين يحطمونها أو يهملونها أو يسعون لذلك لا يفهمون حتى دينهم. فلننظر فى الأرض لنرى "عاقبة" الذين كانوا قبلنا.

لقد طالب نابليون علماء الحملة الفرنسية بأن يحرزوا تقدماً فى دراسة التاريخ الحقيقى true لمصر الفرعونية، وفى تفهم "الدلالة الحقيقية real signi ficance" لآثارها القديمة (انظر الفصل الأول من هذا الكتاب).

ولقد رفض دينون المصاحب للحملة الترتيب الزمنى الوارد فى الكتاب المقدس والذى تقره الكنيسة، اعتماداً على أن الفن (الآثار) الذى وجده فى دندرة فن قديم، ومع هذا فهو ليس فناً بدائياً. يقصد أنه لا بد أن يكون مسبقاً بمراحل طويلة تطور فى أثنائها إلى أن وصل إلى هذا المستوى الراقى: "فكم مضى من العصور حتى تصل أمة خلاقة إلى هذه النتائج.. وإلى هذه الدرجة من الكمال..".



ونجد فى الصفحة الأخيرة من الفصل الثالث أن رجال الدين الفرنسيين كانوا يتصدون ضد شراء الآثار التى قد "تنقص من سلطان الكتاب المقدس". وسيجد القارئ فى الفصل السابع طوفانا من الآراء المتناقضة فى إنجلترا، محورها الربط بين الآثار المصرية والنزاع حول صحة الكتاب المقدس (العهد القديم خاصة)، مما يؤكد أن الآثار المصرية إن كانت صفحة مجيدة فى تاريخ مصر فهى أيضا صفحة فاعلة مؤثرة فى الفكر الأوروبى.

فى ضوء كل هذا، ألا يدهش المرء لأن المؤسسات العلمية والتعليمية الدينية — والإسلامية منها خاصة — لم تدرج بعد مقررات عن الآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم فى مقرراتها عن تاريخ الأديان؟

إنها دعوة إذن للأزهر الشريف لإنشاء قسم للآثار، لا الآثار الإسلامية فحسب، وإنما الآثار المصرية القديمة، وآثار العصور الأخرى المتعاقبة، ففى هذا تأصيل للفكر الدينى.

بقى القول إننى استعنت مع الأستاذ المترجم فى تحقيق المصطلحات الفرعونية وضبطها بالمطبوعين التاليين:

— معجم الحضارة المصرية القديمة، الذى ألفه جورج بوزنر وآخرون، وترجمه أمين سلامة، وراجعه د.سيد توفيق. والكتاب من منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب.

— الموسوعة الأثرية العالمية، التى أشرف على إعدادها ليونارد كوتريل، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، ود. زكى إسكندر، وراجعها د.عبد المنعم أبو بكر، ط٢ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧).

أما فيما يتعلق بحكام مصر من أسرة محمد على، ومن تولى مناصب مهمة من أفراد الأسرة الآخرين، فقد استعنا لضبط أسمائهم بالمرجعين التاليين:

— موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم، للدكتور ناصر الأنصارى .

— هؤلاء حكموا مصر، إعداد حمدي عثمان، ومراجعة د. ناصر الأنصاري.

ولقد وجدت اختلافا طفيفا بين ما أورده مؤلف كتابنا هذا وما ورد في المرجعين المذكورين فيما يتعلق بصلات القرابة بين هؤلاء الحكام، ونوهنا عنه في حينه .

بقى القول إن الأخ إبراهيم، كان متمكنا تماما من فهم المعاني المقصودة، مالكا لخاصية اللغتين، وقد أبقى على أسلوبه كما هو دون تغيير يُذكر، وهذا هو عهدى به منذ راجعت ترجمته المهمة لكتاب (المجتمع المصري في العهد العثماني).

وعلى الله قصد السبيل .

د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ



## مقدمة المؤلف

### بلاد العراق

فى ٢١ مارس ١٧٩١، أصدرت محكمة التفتيش الكهنوتية فى روما حكما بالإعدام على الكونت أليساندرو دى كاجليوسترو. وتم تخفيف الحكم إلى السجن المؤبد فى إحدى القلاع تحت حراسة مشددة دون أدنى أمل فى العفو. ورغم هذا الحكم لم يكن الكونت يمثل أى تهديد على استقرار الكنيسة العالمية، فهو لم يزد ببساطة عن كونه مجرد دجال جوال، يدعى علاج الأمراض، عاش فى عصر كانت فيه المنافسة فى المهنة التى اختارها لنفسه منافسة ضارية.

بعد أن طرد الكونت أثناء شبابه من أحد الأديرة، حيث كان يتلقى تدريباً كهنوتياً، انغمس فى حياة الفسق والفجور، فتزوج من امرأة جميلة لا خلاق لها هى لورينزا فيليتشيانو، وسافر معها فى أنحاء العالم المختلفة يبيع شراباً سحرياً للحب، وأنواعاً من أكسير الشباب والجمال. وأخذ الكونت يكسب كسباً غير شريف فى معمل للكيمياء السحرية القديمة فى شارع هوايت بلندن. فأدى ذلك إلى عدد من القضايا القانونية، لذا انتقل إلى ساليسبورج. وفى ذلك البلد، وجد فى أمير روهان الكبير شخصاً شديد الحماس لتصديقه، فقام بتقديم هذين الزوجين اللذين يسويان العجائب إلى أعلى الدوائر الأوروبية.

ولقى الكونت وزوجته كل التكريم والحفاوة فى بلاط ملوك مثل لويس الخامس عشر وكاترين العظيمة، وسرعان ما امتدت شهرتهما إلى جميع مستويات المجتمع، حتى إنهما حينما كانا يظهران علنا كان الحرس العسكرى يُستدعى للقيام بحفظ النظام.

حين نطقت محكمة التفتيش الكهنوتية بحكمها، أخيراً، تم إرسال لورينزا فيليتشيانو إلى أحد الأديرة، أما الكونت، فقد تم إرساله إلى قلعة سان ليو، حيث مات هناك عام ١٧٩٥.

إن حياة الكونت كاجليوسترو تجعل من يقرأها يشعر وكأنه يقرأ حكاية من الحكايات القوطية المرعبة القديمة، بل إنها أوحى بالروايات لكتاب من أمثال دوما وشيلر، وأعمال هجائية لأناس مثل جوته وكاترين العظمى، وإذا كان هناك من يتذكر كاجليوسترو اليوم، فإنما ذلك يكون على صفحات الكتابات الغامضة الخرافية المثيرة للتسلية. غير أنه يستحق مكاناً فى التاريخ باعتباره شاهداً على شيء أكثر أهمية من حياته العملية: ونعنى بذلك الاستحواذ على خيال عصره للأرض والبلاد التى زعم أنها مصدر قوته الخارقة للطبيعة. وكانت هذه البلاد هى مصر. ومع أن الكونت كان اسمه ببساطة جوسيب بالسامو، وكان ابناً لأسرة فقيرة فى باليرمو، كما كان يقول لجمهوره، إلا أنه قد حمل إلى مصر حين كان طفلاً، وأخذ إلى كهف يقع تحت الهرم الأكبر، حيث ظهرت له روح تسمى القبط الأكبر، وأطلعته على أسرار النيل التى لا يحدها زمن. وقيل للصبي إن الحقيقة العظمى التى عين الفراعنة سدنة عليها، يمكن الوصول إليها من خلال أداء سلسلة من الطقوس الغامضة تعرف باسم الطقوس المصرية. وكلف جوسيب بإعادة إدخال هذه الطقوس إلى العالم، وذلك بجعلها أساس البنائين الأحرار الدولية أو الماسونية الدولية. وبعد ذلك بسنوات، أسس مجرد محفل يسمى "أتباع الماسونية العليا المصرية" فى باريس. وبنى معبداً مقدساً لإيزيس يتولى هو رئاسته باعتباره إعادة لتجسيد القبط الأعظم.

وبهذا الدور جلب الكونت على نفسه الحكم الذى حكمت به روما عليه، ذلك لأن الكنيسة لم تكن تنتظر بعين الرضا للماسونية أو لمصر ذات الأسرار الغامضة.

كان الظن بأن مصر تمتلك نوعاً ما من الحكمة القديمة ظناً شائعاً منذ الأزمنة الرومانية، وبين الآباء المسيحيين الأوائل. وتم إحياء هذا الظن أثناء عصر العقل (التفكير) الذي كان سائداً في حوالى القرن الثامن عشر والقائل بالاعتماد على العقل، ومن أبرز فلاسفته ديكارت.

إذ انجذب الناس إلى فيزياء نيوتن وفلسفة لوك، وابتعدوا عما أسماه فولتير "الخصوع الدليل لإرادة السماء" كما يملئها الكهنوت. وكانوا يفضلون الاستماع إلى تعاليم الحرية والاعتدال، وفسروها على أنها حرية المرء فى أن يكون معتدلاً فى أمور الدين. ولم تكن هذه سوى مجرد خطوة قصيرة نحو إبدال الإيمان الدينى بالمثالية الأخلاقية. غير أن الكثيرين، عموماً، وجدوا أن المبادئ الأخلاقية بدون سند صوفى أو خارق للطبيعة ليس فيها يرضى الخيال. فأخذت تزدهر تلك العبادات السرية التى تدعو إلى الكمال الأخلاقى عن طريق الحقائق السرية التى لا تتكشف إلا للمطلعين على طريقة أداء طقوس خاصة لا يعرفها سواهم. فانتعش الصلورديون (؟) (أعضاء الصليب الوردى Rosicrucians) والماسونيون، إذ زعم كلاهما لأسراره الغامضة أصلاً مصرياً. وفى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر، دشنت رواية سيثوس فترة من الهوس الأدبى بمصر، ذلك أن هذه الرواية سجلت المحاولات والطقوس اللازمة من أجل الوصول للحكمة؛ فبدأت المبانى على الطراز المصرى تزين صور المنظر الطبيعى فى أوروبا.

وصارت المسلات والأهرام شائعة فى الإقطاعات الكبرى؛ وكان كاسل هوارد يمتلك أربعة أهرامات كبيرة؛ كما كان المنتزه فى ستوبه مقصورتان مسقوفتان بهرمين، بالإضافة إلى هرم مصرى يبلغ ارتفاعه ستين قدماً، قام بتصميمه سير جون فانبرو. كذلك كانت بوابة قلعة شيربورن فى دورسيت تحمل شخوصاً مصرية تمسك بالنذور. كما كان برج كنيسة سينت لوك بفينزبورى يتخذ شكل مسلة مصرية. وزينت قاعة البلياردو فى بيت كيرنيس بأباردينشير برسومات مصرية متكررة. كما ذاعت كتب التنجيم والكونيات والكيمياء (السيمياء) القديمة والسحر. وزعم الكثير من هذه الكتب أن مصدرها هو الكتابات الهيروغليفية التى كتبها هيرمز تريسمجستوس، وهو اسم يرمز لكم هائل من كتابات السحر والكيمياء القديمة، التى اعتبرها الإغريق معادلة للإله المصرى توت. ومع أن

الدارسين كانوا يجادلون بانتظام في صحة نسب هذه الكتابات وشخصية مؤلفها، إلا أن مصر كانت من البعد والقدم والغموض بحيث يمكن أن يشار إليها ويستدل بها بكل ثقة من جانب من يتطلعون إلى استدعاء ما هو غامض واستكشاف كنهه ما يستعصى على الإدراك. لذا ففي ١٧٩١، نفس السنة التي أدين فيها كونت كاجليوستو، وطنت أقدام تامينو وبامينا أرض مسرح المراعى فى فيينا كى يستمعا إلى الكاهن الأعظم ساراسترو وهو ينادى الإلهين المصريين بأن يقوداهم إلى حكمة العصور.

لم تكن مصر فى القرن الثامن عشر هى أرض الآثار التى وضع فيها الغيبون بوتقات فنونهم الممنوعة، كما لم تكن مصدر الإلهام لبستانيى المناظر الطبيعية كى يرضوا بها عملاءهم بما يقدمون من مناظر غريبة غير مألوفة — فحسب — وإنما كانت أيضا الحلبة التى كان يتصارع فيها متصلبو الرأى من رجال العلم مع الكنيسة. فكانت عراقى مصر تواجه بنفس الحماس الذى كانت تواجه به معجزات الكتاب المقدس. فطبقا لما قاله د. جون لايتفوت، نائب مستشار جامعة كيمبريدج الشهير فى القرن السابع عشر، باعتباره عالما فى الكتاب المقدس وكتب الحاخامات، فإن عمر الكون ليس ببعيد مادامت السماء والأرض والمركز ومحيطه خلقت معا فى نفس البرهه، وكانت السحب مليئة بالمياه. وقعت هذه الحادثة وخلق الثالوث الإنسان فى الثالث والعشرين من أكتوبر ٤٠٠٤ ق.م. فى التاسعة صباحا. وقد أيد هذه التواريخ جيمز أشر، أسقف آرماج. كما كتبت على هوامش الطبعة المعتمدة للكتاب المقدس من ١٧٠١، واعتبر هذا الهامش معصوما من الخطأ شأنه شأن النص ذاته. وعلى ذلك، فقد صار من المقبول بحكم الكتاب المقدس أن مصر لا تكاد تكون لها أية حضارة قديمة فى زمن الكتاب المقدس، لأن العالم لم يكن قد وجد منذ وقت كاف من الزمن. بل إن مصر هى الأرض البدائية التى هرب إليها الآباء فى زمن المجاعة. فهى مجرد مكان للخرافة والهمجية لم يخلصها سوى رسالة الإنجيل.

وتم تحدى هذه النظرة للتاريخ، إذ أشار سير وولتر رالى فى كتابه تاريخ العالم (١٦٠٣-١٦١٦) إلى أنه فى زمان إبراهيم "كانت بمصر الكثير من المدن الرائعة ... ولم تكن تلك المدن مبنية بالطوب وإنما بالحجارة المقطعة بالمعول....

وهذه الروعة لأبد لها من أصل أكثر قدما مما افترضه هؤلاء الناس". واتجه قديس فلسفة الشك القديم، فولتير، إلى العهد القديم بحثا عن الأدلة، وأعاد إلى الذاكرة قصة الهبات التي تلقاها إبراهيم من الفرعون مقابل عطف زوجته: من أغنام وثيران وأتن وخدم وخدامات وإبل، ومن المؤكد أن هذا كان مؤشرا على أن مصر كانت حضارة غنية قوية في ذلك الوقت، ومن ثم حضارة قديمة.

أثناء القرن الثامن عشر، كان رجال اللاهوت والفلاسفة قادرين على الدخول في مناقشات وهم يستريحون على مقاعد وثيرة تتناول عراقة مصر، لأن عددا قليلا من الناس كانوا قد زاروها في ذلك الوقت بالفعل. فكان الكثير مما كان يعرف عن مصر على نطاق واسع، غير حقيقي، وكانت حقيقة مصر مجهولة. فربما كان هيرودوت هناك في منتصف القرن الخامس ق.م، ذلك أنه قد كتب عن النيل وما به من حيوانات، وكذلك الآلهة والملوك، واصفا ممارسة التحنيط بالتفصيل. وكان هو أول من أوحى بأن الإغريق ربما تعلموا طقوسهم الدينية وأساطيرهم التي تتناول الآلهة، من المصريين.

كما كان هناك زميله الصقلي ديودوروس. وقد أعطى هذا الرجل اسمه لمكتبة من الكتب (المقصود عدد كبير من الكتب) زعم أنها تضم العديد من الرحلات من بينها رحلات إلى مصر ٦٠ ٥٧ ق.م، وكان من كبار المزودين بالحكايات التي لم يتم فحصها. وكان ديودوروس، في العصور القديمة، يعتقد أن مصر هي أكثر المناطق من حيث الكثافة السكانية في العالم المعروف، وأنها قد أسهمت بالكثير في ثقافة أثينا.

في وقت مبكر من القرن الثامن عشر، خاطر بعض الرحالة بالدخول إلى المناطق التي يسهل الوصول إليها من دلتا النيل، وأحضروا معهم حكايات وأشياء تثير الفضول من الإسكندرية أو القاهرة. ففي عام ١٧٢٣ جلب توماس سيرجينت أحد جامعي الآثار، لجمعية علماء الآثار في لندن، طردا من الآلهة المصرية جاءت مؤخرا من القاهرة الكبرى. كان يتكون من أوزيريس نحاسي، وهاروبكراتيز Harpocrates من النحاس، وتيرمينوس، وشكلا عاريا نحاسيا مشوها عن الذوق



الأفضل، وإيزيس، وتمثال لطفل، وكاهن مصرى صغير، وقطة، وخنفس حجرى له أجنحة وكتابة هيرغليفية مكتوبة بمعجون غريب أزرق اللون.

وفيما بين عام ١٧٢٠ وعام ١٧٣٣، سافر صاحب النيافة توماس شو حول الإسكندرية والجيزة. ويعد هذا الرجل رائدا لجماعة من علماء الدين، وقام بعمل دراسة خاصة للكتاب المقدس والنباتات. كما قام بفحص أبى الهول والأهرام، وخرج باستنتاج مؤداه أن الأهرام كانت معابد ولم تكن قبورا. ونشر ماتوصل إليه فى عام ١٧٣٨ وقال: "لا يوجد ما هو أكثر إثارة للتفكير من السفر على صفحة النيل".

وفى ١٧٣٧، خاطر صاحب النيافة ريتشارد بوكوك بالذهاب إلى ما هو أبعد من هذا، وذلك بالإبحار فى النيل حتى فيلة. وعاد لينشر مجلدين ضخمين من كتاب "وصف للشرق" (١٧٤٣ - ٥). وفى نفس الوقت، كان فريدريك لودفيج نوردين يقوم برحلات بشكل منفصل، وهو قبطان بحرى دنماركى نشر مجموعة من الرسوم وأعمال النحت.

وبلغ تأثر نوردين بما رآه فى مصر حدا جعله يعلن أن وجهة النظر التى كان يقول بها الكلاسيكيون من أن اليونان وروما هما مهد الحضارة الأوربية، تعد وجهة نظر خاطئة، واتخذ جانب هيرودوت وديودوروس فكتب: "فليتوقفوا عن الحديث عن روما، ولتصمت اليونان". غير أن الدارسين الكلاسيكيين لم يكن ليرهبهم قبطان بحرى دنماركى.

لقد كان الجدل حول الترتيب التاريخى حسب ما جاء فى الكتاب المقدس والتفوق الثقافى جدالا ضاريا، يدور فى فراغ من الجهل الذى يكاد يكون جهلا مطبقا.

وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٧٥، استمعت جمعية علماء الآثار إلى ورقة قدمها د. جون وودورد، عضو الجمعية الملكية، التى استنكرت بقوة ما يقوله أولئك الذين زعموا أن شعب إسرائيل أو الإغريق يمكن أن يكونوا قد تعلموا أى شىء من مصر. إذ لا يمكن أن تكون على هذا القدر من القدم فى حين أن كل ما بها من هندسة معمارية

يتألف من الأهرام، وهى مجرد أكداى بسيطة من الحجارة وضع الواحد منها فوق الآخر: "وأما المعابد التى احتفى بها الرحالة كل هذه الحفاوة، فهى همجية سيئة التصميم، وما بها من أشكال تزينا جامدة تفتقر إلى التناسب. وأما عن القول بأن الزخارف ابتكرت كى تحتفى بالانتصارات فى الحروب، فما هى تلك الانتصارات التى يمكن أن يكون المصريون قد حققوها كى يحتفوا بها؟ ألم يفتح قمبىز البلاد بأكملها، واستولى على بلسيوم بسهولة، وذلك بأن وضع القطط والكلاب ببساطة أمام جيش مصر مما جعل الجنود يستسلمون بدلا من المخاطرة بإيذاء حيواناتهم المقدسة، وبالنسبة للفكرة القائلة بأن مصر قد تضم بعضا من الحكمة الخالدة، فقد أشار د. وودورد إلى أن المصريين كان من عادتهم نزع المخ والأحشاء من الجثث قبل حفظها كى تستخدمها الأرواح الهائمة فى المستقبل. فما فائدة الجسد إذا ما خلا من المخ والأحشاء؟".

ومع اقتراب عصر التنوير من نهايته، بدا أن أرض مصر تعنى كل شىء لكل شخص حسب تفكيره: فكانت تعنى بالنسبة للثقافة التحتية الخاصة بالغموض والأسرار مستودعا للأسرار الغامضة القديمة، أما بالنسبة لأصحاب النزعة الإنسانية(القائلة بأن الإنسان هو محور الكون)، فكانت مصر تقدم الأدلة التى يمكن أن تقوض نظرة الكتاب المقدس للتاريخ والترتيب الزمنى الذى وضعته الكنيسة. أما بالنسبة للكنيسة، فكانت بلادا همجية خلعت رؤى موسى عليها قداسة، وكذلك خلع عليها القداسة وجود يسوع. ورأى الفنانون أنها تتحدى الأفكار الموروثة عن الجمال والتناسب. ورأى فيها المؤرخ تهديدا للتفوق الحضارى لروما واليونان القديمة. فمن المعروف، عموما، أن التأمل والتخمين لا يزدهر إلا مع غياب المعرفة اليقينية. وفى ربيع ١٧٩٨ كانت جماعة من العلماء تتجمع فى ميناء طولون من أجل القيام بغزو مصر أخيرا من عالم ألف ليلة وليلة كى تتبوا مكانها الصحيح فى تاريخ البشرية.



## الفصل الأول

### الجنرال بوناپرت، عضو الأكاديمية

كان الأسطول الفرنسي الذي تجمع في ميناء طولون في الأشهر الأولى من ربيع ١٧٩٨ قوة غزو سيرت كي تسدد ضربة لإنجلترا. وكان قائده الأعلى نابليون بوناپرت (٢٨ سنة) قد قبل المنصب بنية أخذ الجيش عبر القنال الإنجليزي وهزيمة الإنجليز على أرضهم. إن ما حدث أنه كان هناك بعض التأخير في تنظيم السفن؛ إذ كانت مطالبة الحكومة بقرض قيمته ثمانية ملايين فرنك لتمويل الغزو قد فشلت. كما كانت عودة المقاتلين إلى فرنسا من حملات على إيطاليا وألمانيا تضع ثقلًا جديدًا على كاهل الجمهورية، فتم إلغاء الحملة على الجزر البريطانية.

في ذلك الوقت، كانت كراهية الإنجليز عاطفة شائعة (بين الفرنسيين)، فهم الذين كانوا يقفون في طريق التوسع الفرنسي في أوروبا. لذا حين اقترح الجنرال بوناپرت مهاجمتهم من خلال غزو مصر، مما يهدد الهند البريطانية، وافقت حكومة الإدارة الفرنسية بكل سرور. وكان لدى أعضاء الإدارة أسبابهم التي تجعلهم يسرون بأن يروا بوناپرت وقد اتجه إلى بلاد أجنبية؛ فكان كل همهم أن يروه يرحل إلى أي مكان، إذ صار بؤرة جذوة حماس وطني رأى أعضاء حكومة الإدارة أنها من حقهم.

ولم تكن مصر بعيدة عن باريس بعدا كافيا فحسب، وإنما كانت هدفا مناسباً لغزو فرنسى فى ذلك الوقت: كان الفتح الفرنسى لشمال ووسط إيطاليا يعنى وجود سفن جاهزة لأسطول البحر المتوسط، إذ قدمت البندقية وحدها تسع سفن واثنى عشر فرقاطة. فمع وجود وسائل النقل والمخازن، واستقدام البحارة من جنوا وسفيتا Civitta وفيكشيا Vecchia وأنكونا Ancona، أمكن جمع أسطول لغزو مصر دون إصابة الخزانة بالعجز. وتمت الموافقة على الخطة. وكان بونابرت يرى مصر ثمرة يسهل قطافها، إذ كانت البلاد، من الناحية النظرية، مركزا متقدما للإمبراطورية العثمانية التى صارت، مع نهاية القرن الثامن عشر شديدة الضعف والفوضى، بحيث يصعب عليها الدفاع عن نفسها.

كان المماليك يحكمون مصر لما يزيد عن خمسة قرون ونصف. وهم قوة عسكرية من أصول جورجية وشركسية، ولم تكن مصر تدفع للباب العالى، وهو البلاط العثمانى فى اسطنبول، سوى إتاوة صغيرة وغير منتظمة، ولم يكن لدى المماليك سوى سلاح الفرسان يدافعون به عن أنفسهم فى مواجهة المدفعية الفرنسية. وكانت الإسكندرية، مكان نزول القوات الفرنسية، بلا حماية ومكشوفة لأى هجوم. وبمجرد فتح مصر، سيكون فى إمكان الجيش الفرنسى أن ينقض على الإمبراطورية العثمانية وربما الهند البريطانية أيضا. ويمكن لهذا الجيش أيضا أن يواصل السير شمالا وشرقا على خطى المثل الأعلى لبونابرت، وهو الإسكندر الأكبر، وقد يمكنه تكرار انتصاراته. ومن حيث سير الأحداث، أظهر الغزو بالفعل محاكاة لبونابرت لبطله، ولكن ليس فى الخطط العسكرية كقائد فاتح. إذ كانت للإسكندر، وهو تلميذ أرسطو، عادة اصطحاب فريق من العلماء فى غزواته — من الجغرافيين وعلماء الفلك والجيولوجيا وعلماء طبقات الجو والفنانين — بحيث تكون كل حملة عسكرية هى أيضا حملة استكشافية. فقرر بونابرت، بطريقة مشابهة، أن يحضر معه فى غزوه لمصر عددا من العلماء يمكنهم البحث فى المصادر الثقافية والطبيعية فى البلاد. وبينما انتهت الحملة العسكرية بالهزيمة، وضع علماؤها الأساس لاكتشاف وادى النيل الذى تبع ذلك .

ربما يكون الجنرال بونابرت قد حقق القليل فى مصر؛ إلا أن عضو الأكاديمية بونابرت يستحق أن يذكره التاريخ. لقد كان بونابرت قد انتخب، عند عودته من

إيطاليا ١٧٩٧ عضواً في أكاديمية العلوم، وهي قسم من معهد فرنسا. وقد يكون هذا التكريم نتيجة لما أثرى به المتاحف الفرنسية من كنوز روما وفلورنسا أكثر منه اعترافاً بتميزه الفكري. وكان بونايرت معترفاً بهذا الانتخاب حتى إنه كان يوقع على خطابه وماراسيمه كـ: "عضو المعهد" قبل توقيع القائد العام. كما كان يحضر اجتماعات الأكاديمية بانتظام مرتدياً زي الأكاديمية الرائع الذي صممه جاك لوى دافيد .

وكان للأكاديمي بونايرت اهتمام خاص بمصر. ففي ربيع عام ١٧٩٨ ألقى خطاباً أمام الأكاديمية عن أهمية وادي النيل بالنسبة للأبحاث الدولية، وأصدر أوامره بأن يحسم العلماء الفرنسيون الذين يصحبون قوة الغزو للأبد مسأله إسهام مصر في حضارة العالم القديم. وبناء على ذلك، تم جمع لجنة العلوم والفنون، وكانت مهمتهم المباشرة والعملية هي أن يقدموا أدق ما يمكن من معطيات علمية للمساعدة في إدارة الحرب، وبالتالي إنشاء مستعمرة فرنسية دائمة حتى يتم إحراز النصر.

كان المشروع بسيطاً: أن تستفيد فرنسا من استيراد المنتج الزراعي المصري الذي ستنم زراعته بأحدث مشورة علمية، كما تستفيد من تصدير بضائعها المصنعة. وسوف تكسب مصر بأن تكون لها حكومة مستقرة متحضرة بالإضافة إلى سوق خارجية مضمونة. وبهذه الطريقة يتم دخول المصريين ببطء في مضمار الحضارة عن طريق الاتصال الوثيق مع أرقى ثقافات أوروبا الحديثة. وفي مقابل ذلك، سوف تتقدم الأبحاث الأوروبية وذلك بالبحث المتعمق في التاريخ الحقيقي لمصر الفرعونية، والمغزى الحقيقي لآثارها القديمة .

كانت اللجنة تتألف من واحد وعشرين من علماء الرياضيات، وثلاثة من علماء الفلك، وسبعة عشر من المهندسين المدنيين، وخمسة عشر من ضباط الإمداد والمساحة، وثلاثة من المخططين الهندسيين، وثلاثة من خبراء البارود. ويبدو أن وظائف هؤلاء الفنيين في قوة غازية مستعمرة وظائف واضحة؛ كما تم إلحاق أناس أقل نفعاً مثل النحاتين والموسيقيين والأدباء. وأخذوا معهم مكتبة تضم ما يقرب من خمسمائة مجلد، بما في ذلك: دائرة المعارف بأكملها، وسجلات أكاديمية العلوم،

وأعمال فولتير، والقرآن، والكتابات المقدسة عند الهندوس (الفيذا)، بالإضافة إلى مجموعة من حكايات الرحلات، وكتيبات عن التاريخ العسكرى، وأعمال فنية تقنية عن الهندسة والجراحة. وكان معظم أعضاء اللجنة من الشباب، البعض منهم فقط فى العشرينيات من عمرهم، وكان أكثرهم وقارا هو عالم الرياضيات جاسبار مونج، الذى يبلغ من العمر الثانية والخمسين، بالرغم من أن زوجته كانت تعارض فى أن يذهب فى مثل هذه السن المتقدمة، إذ كانت تطلق عليه "المجنون العجوز". ونفخ فيهم بونايرت جذوة الحماس التى كانت تغور من حماسه، وبينما كانوا يبحرون، عبر مونج عن حالة اللجنة فى خطاب موجه للقائد العام: "ها أنا ذا قد تحولت إلى مغامر شبيه بالذين اتجهوا إلى أمريكا بحثا عن الذهب Argonaut إنها إحدى معجزات جيسون الجديد<sup>(\*)</sup> الذى لا يحرق البحار من أجل غزو فليس Fleece الذى لا قيمة له، وإنما هو يحمل شعلة العقل إلى بلاد لم يتسلل إليها الضوء لفترة طويلة من الزمن، إنه يمد نطاق الفلسفة ويحمل المجد الوطنى إلى ميادين بعيدة".

وما إن صعد بونايرت على ظهر السفينة لوريانت (الشرق)، وهى سفينة بها ١٢٠ مدفعا، حتى قضى معظم الرحلة البحرية إلى مصر فى قمريته، التى اختارها خصيصا الأمير لاي بروى بحيث تناسب قائدا عاما توقع أن يصاب بدوار البحر طوال الرحلة. وكان بونايرت قد أمر مونج بأن يضع على السفينة مطبعتين، واحدة للغة العربية والأخرى لليونانية، حتى يمكنه أن يبدأ حرب الدعاية قبل بدء القتال الفعلى. وأدرك بونايرت، وهو يخطط لإنشاء مستعمرة فرنسية فى مصر أن لا أمان للقوى الاستعمارية إلا بخضوع من يحكمونهم على الأقل، إن لم يكن بموافقتهم. لذا كان عليه أن يقنع الأهالى المصريين بأنه يجب الترحيب بتغيير السادة. وكانت الخطوة الأولى هى إقناعهم بأن الفرنسيين لم يأتوا لاستعبادهم وإنما لتحريرهم.

وبينما كان الأسطول يتحرك من مالطة، شعر بونايرت بأنه فى صحة جيدة تسمح له بإملاء بيانه للمصريين: "ماذا يميز الممالك من حكمة أو مواهب أو

(\*) Jason والإشارة هنا لنابليون نفسه، إشارة إلى إيالة هوميروس إذ كانوا متأثرين بالأدب الإغريقى.

فضائل حتى ينعموا وحدهم بحياة رغبة بهيجة؟ هل توجد أرض طيبة؟ إنها تخص المماليك. هل يوجد عبد جميل، أو دار جميلة؟ كلها تخص المماليك. لو كانت مصر إقطاعا خاصا بهم، فليبينوا الإذن الذى منحه لهم الله".

وبينما كانت الصيحة ضد الامتيازات الراسخة لها مفعول مدهش فى فرنسا الثورية، كانت الإشارة إلى الله محفوفة بالمخاطرة فى مصر، لأن المصريين، كمسلمين، لم يكن من المحتمل أن يرحبوا بقوة من الكفار مهما حسنت نواياهم، لذا استمر البيان يقول: "يا أهل مصر، سيقال لكم إنى جئت كى أقضى على دينكم؛ فلا تصدقوا ذلك، وأجيبوا بأنى أحترم الله، ورسوله محمد، والقرآن، أكثر مما يفعل المماليك ... ألم نقم نحن بتحطيم فرسان مالطة لأنهم، بجنونهم، ظنوا أن الله أراد منهم أن يهبوا لحرب المسلمين؟"، وفيما بعد تعرض عزم بونابرت على أن يقدم نفسه باعتباره متعاطفا مع أتباع النبى لامتحان قاس فى القاهرة. وحين كان على ظهر سفينة القيادة، ذكر قواته فقط بأنهم إذا ما قبلوا كمحررين لأهل مصر، فليكبحوا أى دافع للتصرف كفاتحين: "إن الناس الذين سوف نعيش معهم يتبعون دين محمد؛ وأول ركن فى عقيدتهم هو: "لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" فلا تعارضوهم؛ واسلكوا معهم كما سلكنا مع اليهود والإيطاليين، وأظهروا الاحترام لمفاهيم وأمتهم كما فعلتم مع الحاخامات والأساقفة... فالكتاب الرومانية كانت تحمى جميع الأديان".

عبر البيان عن عاطفة طيبة، ولا يوجد ما يدعو للنظر إليه نظرة ربيبة. فبونابرت كان يرى مهمته باعتبارها مهمة لنشر الحضارة، وكان أول جوهر للحضارة فى التراث الذى كان يحاول محاكاته هو التسامح الدينى، فمضى يمنع قواته منعا باتا من الانغماس فى السلب والنهب: "... إن السلب لا يثرى إلا عددا قليلا؛ وهو يجلب لنا العار ويحطم مواردنا؛ ويكسبنا عداوة الأهالى الذين من مصلحتنا أن نكسب صداقتهم". وأعلن أن النهب جريمة كبرى، ولم يكن ذلك تهديدا فارغا. كان بونابرت يراوح الأمل فى أن تفتح مدينة الإسكندرية أبوابها ترحيبا بجيش التحرير الفرنسى، فاتضح أن دفاعاتها هزيلة، إذ كانت حصونها مزدحمة بالنساء والأطفال وهم يصيحون بهتافات التحدى، وكان لابد من إدخال القوات. وبعد بضع ساعات من القتال فى الشوارع، تمكن بونابرت من إنشاء مقر فى وسط



المدينة، حيث تلقى استسلام قواد الحاميات. وكان المدنيون قد أطلقوا النار على القوات الفرنسية، ولكن حين مثل جندي فرنسي أمامه متهما بأخذ خنجر من عربى مسالم، تم التحقق من الواقعة، وأمر بونابرت بأن يطلق الرصاص على الرجل فى الحال.

وبعد ذلك توجه إلى القاهرة. تم تقسيم القوات إلى طابورين، أحدهما يسير حول الساحل إلى رشيد، يصحبه أسطول صغير من القوارب تحمل المؤن. والطابور الآخر يسير إلى الداخل مباشرة لموعد على النيل، حيث يتجه الجيش بعد التحامه فيدخل المدينة.

تعد حملة ٢٥ يوليو من أكثر الحملات إثارة فى التاريخ العسكرى. إذ سارت القوات الفرنسية، التى عرقلتها الدوزنتاريا، عبر الصحراء. وكانت قبائل البدو تنهكها بالإضافة إلى مراد بك وفرسان المماليك. وتقدموا نحو النصر فى موقعة الأهرام، وجمعهم قائدهم بأن ذكرهم بأن أربعين قرنا تنتظر إليهم. وتم توزيع بيانات بونابرت التى تم طبعها على ظهر السفينة لوريان (الشرق) على نطاق واسع، قبل وصول الجيش إلى القاهرة، وحملها بحارة مصريون إلى المدينة. وقيل لهم أن ينشروا الأخبار بأن الفرنسيين قد جاءوا "كمسلمين حقيقيين" لتحرير إخوتهم من المماليك. لم يكن لهذه البيانات أى تأثير، إذ شعر السكان بالذعر، وحين بلغتهم أنباء هزيمة جيش المماليك، أصابهم الفزع، فكس التجار بضائعهم على ظهر الحمير واتجهوا إلى أطراف المدينة، حيث هاجمهم المواطنون الفارون وسرقوهم، فى حين أشعل الدهماء النار فى القصور وقاموا بنهبها. بعد يومين شاهد الجيش الفرنسى الحرائق عبر النهر، وخفت حدة الهستيريا ودخل بونابرت مدينة خاضعة، كى يواجه سكانا يملؤهم الفضول والتوجس لكنهم أصبحوا غير معادين.

واستولى القائد العام المنتصر على قصر فى وسط المدينة كان يملكه قاسم بك، أحد أكثر المماليك ثراء. وبدأ فى كسب ود زعماء الأهالى، فأنشأ مجلسا من شيوخ المصريين كى يُسدوا له النصح، وكان يظهر أمامهم بالزى المصرى. وكان يقيم لهم الولائم، التى كان يأكل فيها بأصابعه ويجلس القرفصاء على الأرض. ويروى أنه قال لهم: "حين أكون فى فرنسا أكون مسيحيا؛ وحين أكون فى مصر، فأنا من

أتباع محمد". وأخيرا أطلق على بونايرت السلطان الكبير، وأمر بأن الأعياد التى تحتفل بحياة النبى يجب أن تحتفل بها القوات الفرنسية أيضا.

والأهم من ذلك أنه أصدر أمرا فى ٢ أغسطس ١٧٩٨ لاختيار مبنى مناسب ليضم معهد مصر، وكان من المقرر أن يكون على غرار معهد فرنسا، ينتخب له العلماء والفنانون الممتازون لدفع المعرفة بحال مصر الراهنة وتاريخها وعلومها وفنونها. وتم اختيار مجموعة من القصور فى ضاحية النصرية Nasrieh (?) تعكس بشكل مناسب تطلعات المعهد الرفيعة. بها يوجد المرصد، والمعمل الكيميائي، وورش الهندسة، بالإضافة إلى العينات الكثيرة التى كانت منتظرة. وكانت بقصر قاسم بك قاعة اجتماعات راقية يمكن أن يجتمع فيها علماء فرنسا ويتحدثون مع بعضهم البعض، بالإضافة إلى حدائق ظليلة يستطيعون التمشى فيها وتبادل الأفكار. وكانت أهداف المعهد محددة بشكل رسمى كما يلى:

تقدم ونشر المعرفة فى مصر. بحث ودراسة ونشر المعطيات الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر. تقديم المشورة فى مختلف المسائل التى تستشيرها فيها الأقسام — الرياضيات والطبيعة والسياسة الاقتصادية والأدب والفن — ويكون بكل قسم اثنا عشر عضوا.

فى الاجتماع الأول للمعهد فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨، تم انتخاب بونايرت نائبا للرئيس وأصر بأن ينادى، داخل أسوار المعهد ببساطة، "بالمواطن بونايرت" إلى أن يحين وقت تزداد فيه معارفه فيبتوأ مكاناً أرفع. وكان بونايرت يرى فى المعهد تجسيدا لأفضل مبادئ المثالية الثورية. فكل المعارف يمكن الوصول إليها بروح البحث العلمى الحرة، وما دامت المعرفة تسبغ النبل على البشر، فحتى جيش الاحتلال الذى مازال يتصارع مع عدو لم يتم إخضاعه لا يجب أن يهمل السعى إليها. وهكذا بينما كان الجيش الفرنسى يتقدم أعلى وادى النيل، ويتصادم مع حشود المماليك، كان مواطنوهم من الباحثين يتجمعون فى قصر قاسم بك وهم يتنسمون هواءه العليل، كى يستمعوا إلى أوراق أبحاث عن "الظاهرة البصرية التى تعرف بالسراب"، و"بعض الملحوظات عن جناح النعامة".

ولم يكن الاندفاع فى وادى النيل ببساطة عملية استكشاف، مع أن الاكتشافات التى تمت وسجلت كانت أخذ ما يذكر بها.

كان مراد بك، زعيم المماليك قد استقر مع ما يقرب من ٢٠٠٠ رجل، بالقرب من واحة الفيوم، وانضم إليه ٥٠٠٠ من الفرسان العرب غير النظاميين. وكان قادرا أيضا على أن يعول على الدعم من البدو للإغارة على الفرنسيين، كما كان على صلة مع المتمردين فى القاهرة والإسكندرية. فأدرك بونابرت أنه سوف يهزم أو يدفع إلى أعلى الوادى إذا كانت خطة إقامة مستعمرة مسالمة قد تكون لها أية فرصة فى النجاح. فأرسل بونابرت قوة من ٥٠٠٠ رجل تحت قيادة الجنرال ديزى كى يتعامل مع زعيم المماليك.

وكان بارون دومينيك فيفان دينون، ممثل معهد مصر، مع القوة الفرنسية أو وراءها قليلا فى الكثير من الأحيان. إذ كان البارون قد طلب من بونابرت أن يصحبه إلى مصر لأنه فى سن الواحدة والخمسين كان عليه أن يكون أكثر اهتماما بتاريخ البشرية من اهتمامه بمستقبلها. وكان دينون الفنان والكاتب المسرحى وعالم الآثار والدبلوماسى صديقا لفولتير ومن ذوى الحظوة فى بلاط لويس الخامس عشر. وحين قامت الثورة كان دينون فى إيطاليا، فعاد إلى فرنسا كى ينقذ ممتلكاته، بدلا من أن يعد نفسه محظوظا بنجاته. فى الوقت الذى كان فيه معظم أفراد الأستقرابية يتخذون الاتجاه المعاكس. وكانت ممتلكاته قد صودرت وأعيد توزيعها. وفى الوقت الذى عاد فيه إلى بلاده كان قد انحدر به الحال إلى العمل لدى الفنان جاك لوى دافيد، حيث أوكل إليه العمل المهين وهو نسخ تصاميم الموضة.

على أى حال؛ كان دينون يتمتع بأصدقاء قدامى وكذلك بشخصية أسرة مكنته من اكتساب أصدقاء جدد من بينهم روبسبير. وسرعان ما استنفذت معظم أملاك دينون وأعيدت إليه، وبدأ يتلقى الدعوات لحضور حفلات الاستقبال المسائية فى صالون جوزيفين دى بوهارنيه حيث التقى ببونابرت، فنسى ما لحق به من إذلال، وأعيدت له مكانته كفنان على مستوى وطنى، ثم انتخب عضوا فى الأكاديمية. وكان دينون يستقبل استقبالا حماسيا فى صالونات باريس بسبب أعماله الفنية

الماجنة بصفة رئيسية<sup>(\*)</sup>، وكانت توزع بين أصدقائه، ونشرت عام ١٧٩٣. وكان من المتوقع أن تكون الصحراء هي إلهامه في مصر، ولم يعقه التزامه بالكلاسيكية عن النظر للآثار المصرية نظرة غير متحيزة .

أثناء القرن الثامن عشر، كان أشد الكتب أثرا في فرنسا حول الآثار المصرية هو كتاب مونفوكون Monfaucon "الآثار المشروحة والممثلة بالأشكال" (١٧١٩-١٧٢٤) L'Antiquité Expliquée et representée en figures ومع أن الكتاب أخرج وكتب بطريقة بديعة، إلا أن مونفوكون حكم على الفن المصري جريا على ما كان متبعاً في ذلك الزمان، فنعته بالفظاعة والشذوذ وسوء الذوق. وكان دينون رجلاً يحظى بالقبول باعتباره رجلاً متعللاً يتمتع بالسلطة؛ وكان مقدراً لاستجابته لفن وادى النيل وعمارته أن تشكل استجابة جيّلة. وكان دينون مولعاً بالجمال، فحين تطوع بأن يصطحب الجنرال ديزي إلى الصحراء كان يعلم أن الرحلة سوف تكون في أرض غريبة لا يضمن المرء فيها بقاءه. ولم يكن أحد في الحملة قد جرب بعد الظروف التي كان على ديزي ورجاله مواجهتها، من حرارة وعواصف رملية، وعداء أناس مجهولين في الجنوب، وعدم التأكد من توافر المؤن، والمضايقة المنتظمة من عدو تتنامى قوته، يعرف الأرض. فكتب دينون: "كنت معتاداً على العيش المؤقت في المخيمات ولم أكن أخشى تناول طعام الجيش".

خرجت الحملة في ٢٥ أغسطس ١٧٩٨ بقوة قدرها ٣٠٠٠ من المشاة يرتدون أزياء ثقيلة من الجوخ وحللاً ذات قبات قرمزية وصفراء، و٢٠٠ من الخيل، وثمانى قطع من المدفعية، كلها تكون طابورا يزيد طوله عن ميلين، يجوس في الرمال. وعلى رأس هذا الطابور كان هناك شخص صغير الحجم بدا أنه يزداد حماساً مع قرب العدو: كان الجنرال ديزي جندياً محترفاً نشطاً يبلغ الثلاثين من عمره؛ وكان دينون في مؤخرة الجيش وأحياناً ما يكون غارقاً في رسوماته حتى إنه لا يرى الطابور، إنه الفنان الأرستقراطي دينون.

وجمع مراد بك قواته من أجل القيام بهجوم رمزي في واحة الفيوم إذ أدرك أن هذا هو التكتيك المضمون لإيقاع خسائر فادحة بالفرنسيين، حيث كانت قواته

(\*) هي سلسلة من الرسوم المستوحاة من فاليك، وهو إله إغريقي يرمز إلى الفحولة الجنسية. (المترجم).

أكثر قدرة على الحركة من الفرنسيين بما يحملونه من مؤن ومدفعية. بناء على ذلك تراجع إلى أعلى الوادى وعسكر بجانب النهر إلى أن أصبح الفرنسيون بالقرب منه تماماً، قبل أن يتحرك جنوباً إلى داخل الأرض المجهولة. وكان، من آن لآخر، يميل إلى الخلف كي يهاجم الطابور الفرنسى من المؤخرة، فيقطع خطوط إمداده.

واستمرت الحملة طوال الجزء الأخير من الصيف الحار. وكان ديزى نافذ الصبر ويرغب فى اللحاق بالعدو لإجباره على الدخول فى معركة حامية؛ أما دينون، فكان قانعاً بالاندھاش من العجائب التى كانت تتكشف مع المسير من أحد المعابد إلى أحد الآثار إلى إحدى المدن القديمة، فحين كان يرسم رسوما سريعة كان يفعل ذلك كي يحتفظ بالمناظر لنفسه وللأجيال من بعده. وكانت هناك العديد من الأشياء المشتركة بين ديزى ودينون بالرغم من اختلاف مهنتيهما، وبالرغم من أن جيلاً كان يفصل بينهما. فكان دينون يستحوذ على نفسه جمال ما يراه من حوله حتى إنه لم يكن يبالي بشدة الحرارة، ومرور الوقت، أو سلامته الشخصية. وكان كثيراً ما يتخلف عن اللحاق بالطابور، فلا يحس أحد بغيبابه إلا حين يقام المعسكر فى نهاية اليوم، فكانوا يرسلون بقوة كي تحميه من البدو.

فى تلك الأوقات لم يكن دينون يهتم بما يأكل أو يلبس. وأثناء القيام بحملة، كان ديزى، بالمثل، تستغرقه المهمة التى يقوم بها. وكتب بونابرت عن القائد المفضل لديه أنه "فى المعركة، دائماً ما يكون سيئ الملبس، وأحياناً ما تكون ملابسه قديمة، يكره الراحة والوسائل السهلة... وكان ديزى يلقي بنفسه تحت أحد المدافع، وهو ملفوف بعباءة، وينام نوما هنيئاً وكأنما هو فى أحد القصور".

ولكن مصر كان لها أثر مختلف تمام الاختلاف على كل من الرجلين. ففي الصحراء الشاسعة حيث تتعب العين من الفراغ غير المحدود، وحيث يسود "صمت انعدام الوجود فى العزلة فى المكان الشاسع" كما كتب دينون، كان ديزى يشعر بالكآبة. فى إحدى الأمسيات، وبينما كانا يتحدثان فى خيمتهما على حافة الصحراء، أسر لدينون بأنه يعتقد أن مصر أرض منسية، أو أرض غير كاملة. فبعد أن قدمت العناية الإلهية بسخاء ما يحتاجه بقية العالم، لابد أن ما لديها قد نفذ حين جاء الدور على مصر، فتركت الأرض دون أن تكملها. ومما يثير الدهشة أن رد دينون كان

ردا حديثا، إذ لام الإنسان على ذلك وليس العناية الإلهية، حيث كان يرد: "أليس ذلك، بالأحرى هو عجز هذا الجزء من العالم الذى سكنه الناس من الأزمنة السحيقة، أليس من الممكن أن يكون فعل البشر السيئ هو الذى انحدر بها إلى هذا؟".

ظلت الآثار تذهل دينون. وفي هيرموبوليس فى مصر الوسطى، زار بهو الأعمدة الشهير، وأعلن أنه مبنى ظل ينتظر لمدة أربعة آلاف سنة كي يبهره بما يتمتع به من كمال. وكتب فى تحد للافتتان بالعصور الكلاسيكية: "إن الإغريق لم يبدعوا أى شىء ذى طابع أكثر جلالا". ثم اضطره ديزى إلى ترك المكان قبل أن تتوافر له الفرصة حتى يكمل رسومه، وظل متضايقا لمدة ثلاثة أسابيع، لأن ضرورات الحملة العسكرية لم تتوافق مع تواجده فى مواقع الآثار القديمة .

ثم تحرك مراد بك متقدما أكثر نحو الجنوب مرة أخرى، فوصل الفرنسيون إلى دندرة، وهم يلحقون به، فتأكد اقتناع دينون بأن مصر — وليست اليونان — هى التى أنجبت أسمى ما لدى البشرية من فنون.

أثناء عصر العقل، كان يعد من الضروري للأحكام الجمالية والعلمية أن تكون مبنية على العقل، فالجمال الحقيقى هو تعبير عن التناسب، والعقل. ولم يكن حماس دينون لما رأى استثناء من ذلك. إذ رأى أن معمار المعبد فى دندرة يتسق تماما مع العقل. والنقوش الموجودة على جدرانه "المبنية دوما على العقل، تتفق دوما مع بعضها البعض... وهو ذوق أساسه الصدق وتسلسل للتفكير العميق". وفى هذا الكلام تتجلى الكلاسيكية فى أنقى صورها بلا إفراط أو رومانسية. "فلا إهمال ولا إفراط فى العبقرية الممتازة؛ فالوحدة والتجانس يحكمان كل شىء". وهنا يكمن مفتاح السؤال عن عراقة مصر، ذلك السؤال الذى انقسم حوله الباحثون عبر قرون من الزمن.

لقد كان دينون قادرا على المجادلة ضد الترتيب الزمنى فى الكتاب المقدس كما وضعته الكنيسة، وذلك بأن أشار إلى أن الفن الموجود فى دندرة فن قديم دون أن يجعله ذلك فنا بدائيا. وكان معنى هذا أن مصر، هى بحق مهد الحضارة: .. فكم مضى من العصور كى تقود أمة خلاقة حتى تصل إلى هذه النتائج، إلى هذه

الدرجة من الكمال، والسمو فى الفن، وكم يلزم من العصور كى يحدث نسيان تام لهذه الكثرة من الأشياء ولإعادة توجيه الإنسان ... إلى حالة الطبيعة التى وجدناه عليها".

فى دندرة، كان دينون يرسم بجنون. ففى أى لحظة قد تصلهم الأنباء بأن مراد بك على مقربة منهم، فيكون عليهم حزم أمتعتهم وترك أسمى بقعة فى مصر، ربما إلى الأبد. مما جعله يكتب: "ليس لدى ما يكفى من الأيادى والعيون، ورأسى أصغر جدا من أن يرى، ويرسم، ويصنف كل ما يثيرنى". وعندما فرغ ما كان معه من أقلام أخذ يصهر الطلاقات كى يرسم بها إلى أن تصل الإمدادات.

فى دندرة، حيث كانت تعبد هاتور مرضعة الملك، المرأة الذهبية منذ أقدم ما سجل فى التاريخ، بدا أن شيئا روحانيا خارقا للطبيعة يعلق بالبناء المنعزل العظيم عند حافة الصحراء. إذ اعترف أحد الضباط لدينون قائلا: "منذ أن حضرت إلى مصر شعرت بأنى كنت ضحية الغش فى كل شىء، وكنت دائم الكآبة والسقم، إلى أن عالجتى تننارا Tentara (والمقصود دندرة)، فما رأيته اليوم عوضنى عن كل ما مر بى من بؤس، وليست عابئا بما يقع لى أثناء الفترة الباقية فى هذه الحملة. ولسوف أكون سعيدا دائما بوجودى فيها".

وبينما كانوا يتحركون من دندرة، وهم ينتقلون جنوبا فى أعلى النهر لتعقب المماليك، حدثت حادثة بدا أنها تبين أن هذا الضابط لم يكن هو الوحيد الذى يستجيب لألوان الجمال التى تملأ مصر. فى التاسعة صباحا حين داروا حول منحى فى النهر، رأوا حطام مدينة الأقصر والكرنك تنتشر أمامهم؛ البانوراما الكاملة لطيبة القديمة. فتوقف الفريق بأكمله فى استجابة تلقائية لهذا المنظر الرائع، وكتب أحد الضباط: "وبدون أن يصدر أمر، شكل الناس صفوفًا وحركوا أذرعهم فى مصاحبة الطبول والفرق الموسيقية". ربما يكون فى هذا القول مس من الرومانسية الغالية<sup>(\*)</sup>، ولكن هناك روايات مستقلة تتحدث عن توقف القوات من فرط الإعجاب، كما تتحدث عن تصفيقهم. لم يخالج دينون أى شك فى حماس الرجال لما فى المباني القديمة من جمال، إذ كانوا يتحلقون حوله كى يحموا ظهره

(\*) الغال هو جنس مكون للفرنسيين. (المترجم).

من لفح الشمس وهو يرسم. وكتب عن "العاطفة التي تسرى كالكهرباء في جيش من الجنود، الذين جعلنى إحساسهم الراقى أمتلئ فرحا لكونى فى صحبتهم، والفخر بكونى فرنسياً."

وصلت الأنباء إلى ديزى بأن مراد بك يعسكر فى إسنا Esna، نحو ثلاثين ميلا إلى الجنوب، وكانت هى آخر قرية لها حجم يمكن أن يقال عنه إنه قرية فى ذلك الوقت. ومرة أخرى حرم دينون من مواصلة رسومه من أجل الانطلاق فى أثر العدو. ولكنهم وصلوا بعد رحيل المماليك بساعات فقط، بعد أن أحرقوا خيامهم وأمتعتهم الثقيلة كى تخف حملهم أثناء الفرار. ومع ذلك، كانت هناك مباحج فنية فى إسنا، تعوضهم عن الإحباط العسكرى. وقال دينون عن حطام المعبد إنه: "أكمل بقايا للهندسة المعمارية القديمة". ووجد هناك المزيد من الأدلة على أسبقية وسيادة المصريين. كانت نقوش المعبد عبارة عن تصوير للمنتجات الطبيعية فى مصر؛ ومنها زهرة اللوتس والكرم والنخيل والغاب أو البوص وما إلى ذلك، مما يبين أن المصريين لم يقتبسوا من أحد فى وصولهم بفنهم إلى الكمال: إنهم اقتبسوا من الطبيعة. وكتب دينون: "لم يصف الإغريق سوى القصص الخرافية أو الأساطير إلى أعمال اللصوصية التى ارتكبوها فى حق المصريين".

وبقيت مشكلة، وهى كيف أن ثقافة وصلت إلى مثل هذا القدر من الكمال فى الأزمنة القديمة يمكن أن تتحدرد إلى وضعها الحاضر فى نهاية القرن الثامن عشر. وعثر دينون على إجابة عن السؤال، وكانت هذه الإجابة تبعث الرضى العميق فى صدر أحد مثالي عصر التنوير: لقد هبطت منزلة مصر نتيجة نفس التأثير الذى أخر تقدم أوربا لعدة قرون، أى نفس الطغيان الذى حررت فرنسا منه لتوها، أى الكهنة. فتماما كما خلعت الكنيسة على أسرارها رداء من اللغة الميتة كى تحتفظ بقبضتها على عقول الناس العاديين، كذلك فإن كهنة مصر القديمة أخفوا أسرارهم الغامضة فى أسرار الكتابة الهيروغليفية التى تستعصى على الفهم، والتى غطت جدران المعابد.

فكان دينون يرى توازيا واضحا بين اليسوعيين فى زمانه وكهنة مصر القديمة: "استبداديون وضعاء مراؤون... يمتلكون جميع المعارف ويلفونها فى



شعار ولغز حتى يقيموا حاجزا بينهم وبين الناس. فكان الكهنة يخدمون الملك، وينصحونه ويطعمونه ويعظونه". حتى روعة طيبة استغزت ضميره الاجتماعي فأخذ يكتب بانفعال: "المعابد مازالت المعابد.. دائما المعابد... فلا جدران ولا أرصفة ولا جسور ولا حمامات؛ لا ولا صرح للاستخدام العام؛ أو الراحة".

وإذا عدنا إلى المعهد، فإن حدود المعرفة كانت تتسع في حذر. ففي كل خمسة أيام، كان الباحثون يجتمعون في قاعة قصر قاسم بك، لمناقشة أحدث الاكتشافات والخطط. وكان الكيميائي بيرترولى يقرأ أوراقا أو أبحاثا عن تكون الأمونيا، وعن طرق المصريين لإنتاج النيلة أو النيلج الأزرق التي تحضر من النباتات، واقترح دوتيتز خطة عامة لإنشاء مدرسة حول الجاذبية الدقيقة الشعرية، وفوري وكورى يتناقشان حول الرياضيات الرفيعة. وكانت هناك ورقة في القرن التالي أعدها عالم الجيولوجيا دولوميو تحتوي على اقتراحات لانتقاء وحفظ ونقل آثار مصرية قديمة من مصر إلى فرنسا.

إذن كانت مناقشات هؤلاء العلماء في المعهد ترهص بالنشاط الذي كان مقدراً له أن يجلب علماء المصريات وزوار وادى النيل الأقل وقارا. ولا توجد أدلة تفيد بأن هذه الاقتراحات أثارت ما يقلق الضمير. فما هي إلا اتباع لسوابق أقرت في إيطاليا التي "حررت" كنوزها الوطنية من متاحف الإيطالية، كي تجد لها ملجأ آمنا في اللوفر، إذ بدا أنه من المعقول أن الأمة التي ناداها القدر كي تكشف المغزى الحقيقي لمصر يجب أن تتخمد متاحفها بالآثار. فأنشئت مجموعة من الآثار في المعهد كخطوة أولى نحو عملية النقل. وأنيطت المسئولية بدولوميو، ومنح مساعدون يقومون "بالجمع بحرص لجميع الآثار القديمة التي يمكنهم الحصول عليها، مع إيلاء الاهتمام بتلك الآثار التي ترى المصلحة المحلية أنها جديرة بالانتباه ولكن لا يمكن نقلها دون إحداث تلف بها". وسوف نتحدث لاحقا عن ذلك.

وجاءت أوائل العينات إلى المعهد من منطقة الدلتا، ولم ينس ديزي واجبه في المساهمة في هذا حتى وهو في ذروة ملاحقته للممالك. فأرسل بتمثالين كي ينضموا للمجموعة، أحدهما لأبولو والآخر لأنتينو Antinoe، غير أن الفلاح الذي كلف بنقل أبولو وجد أن التمثال شديد الثقل، فألقى به إلى النيل من على ظهر السفينة. لم يكن

المعهد بالنسبة لبونابرت مجرد مركز للمعرفة أو للحصول على الآثار المصرية، بل كان يرى فيه وسيلة للفوز باحترام زعماء البلاد وثقتهم، ذلك أنه لم يكن قد أحرز تقدما كبيرا في هذا الاتجاه. لقد كان على وعى، ربما على غير عادته، بالحاجة إلى حكم بلد من البلاد من خلال من وجد أنهم مسئولون لأنهم تقليديا فى يدهم مقاليد الأمور. ولطريقة الحكم غير المباشر هذه الكثير من المميزات، كنظام للاحتفاظ بالسلطة الاستعمارية فى الحكم، غير أنها تتوقف على الوعى الحساس بالتقافة والزعامة التقليدية التى تسعى السلطة الاستعمارية لتسييرها. وكان بونابرت يفتقر الى هذا الوعى.

كان يعرف أنه ينبغى أن يرى وهو يساند سلطة المفتين<sup>(\*)</sup> والمشايخ، وقرر أن إحدى الطرق لفعل ذلك هى السماح لهم بالاستمرار فى حمل السلاح، وهو حق حرم منه بقية السكان. كما راعى بونابرت مسألة تقديرهم لذاتهم تقديرا صحيحا، وذلك بأن أمر بأن يلقوا الاحترام فى العلن، حتى من قبل القوات الفرنسية. ولكن حين واصل مهمته بأن أصر على أن يرتدوا وشاحا ثلاثى الألوان كشعار يدل على منزلتهم حتى تتعرف قواته عليهم، كان بذلك يعاملهم معاملة الموظفين الفرنسيين فى الأقاليم، فرفضوا هذا التشريف. إذ بينما كان المستشرقون قادرين على نصح بونابرت فيما يتعلق بالنظريات الراهنة فى الآثار المصرية، كانوا يعلمون القليل عن الثقافة المصرية فى أيامه. فكان بونابرت يسبح فى بحار مجهولة فى سعيه للفوز بثقة أناس كانت طريقتهم فى الحياة غريبة عنه.

ثمة أولوية واحدة كان يشترك فيها المصريون مع مواطنى التنوير: هى احترام التعليم. كانت القاهرة هى مقر جامع الأزهر صاحب الشهرة الدولية. وكان الأزهر دارا مقدسة للعبادة كما كان جامعة إسلامية. وفى وقت حكام مصر الذين حملوا لقب خديوى<sup>(\*\*)</sup> كان يحضر للدراسة فيه بانتظام ١٢٠٠٠ طالب من كل أنحاء العالم، يدرسون عددا كبيرا من المواد الدينية والدنيوية. فإذا ببونابرت يجد

(\*) ربما يعنى علماء الدين. (المترجم).

(\*\*) من المفهوم أن فترة حاملى لقب الخديوى أتت بعد هذه الفترة الزمنية التى كانت فيها الحملة الفرنسية على مصر، وربما كان المقصود سلاطين المماليك. (المراجع).

أن "سوربون الأزهر" قد تقلص إلى ما يقرب من ١٢٠٠ طالب، كانوا يقضون كل وقتهم في دراسة القرآن والموضوعات الإسلامية الجامدة. غير أن فخاخ الإغراء بالبحث كانت ما تزال بادية: فهناك الطلبة المخلصون للعلم، والمكتبة، ودورات المحاضرات، والأساتذة الملتحون الذين دعاهم بونابرت كلفتة كرم بين الدارسين لزيارة المعهد. فكتب الجبرتي بما يفيد أنه حين كان أحد المسلمين يريد أن يزور المؤسسة، لم يكن أحد يمنعه من ذلك، بل على العكس، كان يلقي الترحيب .. فأنا نفسي كانت لي الفرصة في أن أزور المكتبة عدة مرات. ورأيت هناك من بين ما رأيت مجلدا كبيرا عن تاريخ نبينا عليه الصلاة والسلام، وكانت ملامحه المقدسة ظاهرة — بقدر ما سمحت به معرفة الفنانين — على هذا المجلد. ... وكان هناك الكثير من الكتب الإسلامية بترجمة فرنسية ... وكان بعض الفرنسيين يدرسون اللغة العربية ويحفظون آيات من القرآن".

وكان علماء الأزهر شديدي التأثير، حتى إنهم نشروا الأنباء بين زعماء القاهرة بأن اهتمام الفرنسيين بالإسلام اهتمام صادق، فبدؤوا يحضرون مناقشات في علم الكلام في المعهد بدعوة من بونابرت، الذي كان يلعب دور الباحث المخلص عن الحقيقة، والباحث النزيه. وحين اتضح لبونابرت أنه يحقق مزيدا من التقدم في الفوز باحترام هؤلاء الناس، وذلك بترأس المناقشات الدينية، أكثر مما كان يحققه بارتداء الزي المصري وأكل عيون الأغنام، قرر المضي قدما في اغتنام هذه الميزة. فسأل: "أليس من المحتمل أن النجاح الذي واكب حملته علامة على فضل الله؟"، واستطاع أن يقتبس مقاطع من القرآن، زوده بها باحثوه، يمكن أن تفسر على أنها نبوءات بالغزو الفرنسي، وسأل هل كان من الممكن أن يحرز كل هذا النصر ضد حشود المماليك دون عون النبي؟ فإذا كان الفرنسيون في مصر ببركة النبي وطبقا لما تنبأ به، أفلا يصدر الزعماء الدينيون فتوى، أو تفسيرا للقرآن، يرشد أهلهم بأن يقسموا قسم الولاء للفرنسيين، حتى يكونوا بطريقة سليمة مواطنين للبلد الأم في الخارج؟"، فتشاور الأئمة والعلماء لفترة قصيرة، وأجابوا بأن الإمارات، حقا، في صالح ما يقول، وأن يد النبي يمكن التعرف عليها في الانتصارات التي حققها بونابرت، وبقي على بونابرت أن يظهر عرفانه وذلك بأن يعتنق الإسلام علنا؛ عندها سينالون شرف توجيه المؤمنين بحلف يمين الولاء. وسوف يكون من

المناسب، بالطبع، لو أن الجيش الفرنسي بأسره يستجيب بهذه الطريقة التى تدل على التقوى وليس القائد العام وحده.

ولم يكن لدى بونايرت الكثير من المبادئ المتعلقة بالدين، كما كان ولوعا باقتباس قول هنرى الرابع: "باريس تستحق قداسا". وبالمثل، كان على استعداد لأن يلزم نفسه بأى عقيدة تجعله سيد مصر، إذ كتب: "هل من المفهوم أن الإمبراطورية الشرقية، وربما إخضاع آسيا بأسرها، لم تكن تستحق سروالا وعباءة؟" غير أن اعتناق الإسلام ينطوى على ما هو أكثر من مجرد تغيير الزى، إذ إن هناك شعيرة تمهيدية شعر بونايرت أنه لا يستطيع أن يدعو قواته لاتباعها؛ فهم على استعداد لأن يتخلوا عن حياتهم من أجله، ولكن ليس غرلاتهم. وحاول بونايرت أن يشرح هذا للعلماء، فمع استعداده التام للخضوع للعقيدة الحقّة، قد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى تصبح قواته ممثلة بنعم الإسلام الكبيرة التى تجعل من شعيرة الختان خضوعا مفرحا إلى هذا الحد. فذهب العلماء للتفكير فى هذا الأمر، وعاد أربعة منهم، وهم كبارهم، بفتوى بدا أنها تفسح الطريق من أجل تسوية: يُسمح للفرنسيين فى مصر بدخول الإسلام دون ختان، كاعتراف خاص بحدود ميراثهم الثقافى. وتليت الفتوى فى جميع المساجد.

لكن كانت هناك عقبة أخرى: قد يسمح للجيش بالدخول فى حظيرة الإسلام كما هم، ولكنهم ينبغي أن ينبذوا شرب الخمر إلى الأبد. وأحس الجنرال بأنه لديه فرصة مشابهة فى تخليص قواته من مشكلة الإفراط فى شرب الخمر مثلما حدث فى موضوع الغرلة، فوضع المشكلة أمام العلماء. فتلا ذلك المزيد من المناقشات. عندئذ تم تعويم القضية بأن الفرنسيين يمكن أن يقبلوا كمسلمين حقيقيين ولكن الشر متأصل فيهم، فهم محرومون بسبب ثقافتهم من القدرة على اتباع الخلق القويم؛ لكن هذا رأى لم ينل التأييد. ومع مرور الوقت، تم العثور على حل: يمكن أن تترك القوات الفرنسية لذنوبها ما داموا يوافقون على أن يدفعوا كزكاة خمس دخلهم بدلا من العشر المعتاد. وتوقفت المناقشة بينما كان بونايرت ينظر فى ذلك، ولكن ليس بشكل جدى؛ إذ كان كلا الجانبين يتصنع اتخاذ موقف أو اتجاه. فكان بونايرت يعلم أن تأييد الزعماء الدينيين سوف يكسب له خضوع الأهالى، وكان على أتم الاستعداد لمحاكاة الإسكندر الأكبر، الذى قيل إنه عبد ابن جوبتر فى مقبرة آمون

رع. ولم تكن لديه أية وخزات ضمير فيما يتعلق بولاء قواته الروحي؛ فهم لم يكونوا يذهبون إلى الكنيسة حين كانوا في إيطاليا، كما كان يقول، ولم يظهروا أى اهتمام بأن يفعلوا ذلك في مصر .

وكان معتزاً بأن يكتب عن الجيش تحت قيادته: "لقد اختفت كل علامة خارجية للمسيحية، بل كل عادة دينية من بين صفوفه". وحتى بعد قبول التنازلات التى طلبها، مع ذلك، سوف ينطوى التحول العام للإسلام، على الخضوع لسلطة خارج الجيش، لذا يجب رفض ذلك. وأما عن علماء الأزهر، فلم يكن لديهم الكثير من الأوهام فى دوافع بونابرت: فقد نال احترامهم بعبقريته العسكرية؛ أما كحاكم مدنى، فهو فى حاجة إلى التوجيه؛ ولم يكن هناك أبداً من يشك فى غدره المتأصل. فانفصل الجانبان.

واضطر بونابرت إلى أن يغير سياسته من الترضية إلى الترهيب. وكانت هناك حركات تمرد فى القاهرة ينبغى قمعها، كما أن عمليات الإعدام التى أمر بها كانت كثيرة ومتكررة، حتى إن الحاكم دوجوا كتب له يقول: "إن إطلاق الرصاص صار عملية متواصلة فى القلعة، حتى إنى أقترح إبدالى بجلاد. فسوف يوفر ذلك ما لدينا من طلقات، ويتسبب فى ضوضاء أقل". ووافق بونابرت على ذلك. وحين هددت الأمراض الجلدية التى انتشرت عن طريق العاهرات فى المدينة بالقضاء على القوات الفرنسية، وافق بونابرت على معالجة المشكلة طبقاً لما يتمشى مع العرف المحلى، فوضع الفتيات فى أجولة وأحكم أغلاقها عليهن وألقى بهن فى النيل .

ورغم أن الفرنسيين لم يفعلوا بالسكان ما يدانى فظائع المماليك، إلا أن المصريين، مع ذلك، رفضوا قبول الفرنسيين كأسياد أفضل من المماليك. ذلك أن أمر المماليك كان مفهوماً: كانوا يلحقون الظلم بالأهالى كى يقبوا من أمنهم ورفاهيتهم. وكان هذا أمراً طبيعياً، ومتسقاً مع الذات ويمكن توقعه. من ناحية أخرى بدا الفرنسيون مزدوجى الاتجاه: فلقد عبروا عن الاهتمام بسعادة المصريين وهى شئ غير مطروح فى جيش منتصر؛ وتحذثوا عن المساواة والإخاء؛ وأصرروا على دفع ثمن السلع والخدمات التى كان من الممكن أن يغتصبوها عنوة.

فمن الواضح أنه لم يمكن الثقة فيهم. وحتى إذا كان المعهد قد فشل في أن يكون جسرا بين الثقافتين، إلا أنه استمر في أداء عمله بقوة، مزيحا حدود المعرفة إلى الوراء ومحتفظا بمعايير متحضرة .

حين قاد بونايرت حملة الى سورية ضد المماليك، سحب القوات عدد من كبار الباحثين. وسمح لمونج وبيرترولى بالسفر في عربية الجنرال رغم كبر سنهما فوضعوا ملحوظات عن التاريخ الطبيعى للصحراء، وجمعوا الحشرات والسحالي والثعابين وغير ذلك من الكائنات الأصغر من ذوات الأربع من أجل المعهد؛ وأوحى هذا للمستشرق جويبر بأن يكتب ورقة بحث عن "تسمية القبائل العربية المخيمة بين مصر وفلسطين". وفي نفس الاجتماع استمعوا إلى ورقة قدمها بيرترولى عن "الفعل الانديومتري للكبريتيدات القلوية والفسفور"، و"محاكاة بالنظم لقصيدة رعوية كتبها جيسنر"، كما قدم جوفرى دى سان الير دراسة مفصلة عن أسماك النيل قام بوضع الرسومات لها زميلة ريدوت؛ أما فوريى فقد قدم أول شرح عالمي لنظرية جديدة في الجبر، كذلك علق عالم الفلك نوى على الطرق المختلفة لقياس الزمن.

ثم انعقد اجتماع المعهد الذى كان له أكبر الأثر في نمو علم المصريات فى ١٩ يوليو ١٧٩٩، حين قرئ خطاب كتبه المواطن لانكرى، عضو المعهد، "يبلغ فيه عن اكتشاف بعض الكتابات، فى رشيد، وهذه الكتابات قد تثير الكثير من الاهتمام". وفى ١٧٩٩، كان كابتن بوشار ضابط المهندسين، يقوم بالحفر فى أساس موقع دفاعى يسمى حصن سان جوليان، فى الضفة الغربية للنيل، حين لاحظ وجود قطعة كبيرة من البازلت الأسود على وجهها مغمورة فى الطين.

وحين تم تنظيف الصخرة، أمكن رؤية أن الكتابات فى ثلاثة أطواق منفصلة، كانت أكثرها انخفاضاً باللغة الإغريقية، والثانية بأحرف مجهولة، والثالثة بالهيراوغليفية. فإذا ما اتضح أن هذه الكتابات هى عبارة عن ترجمة إلى لغات مختلفة لنفس النص، فقد يقدم هذا الحجر مفتاحاً يودى إلى فك رموز الكتابة الهيراوغليفية. وحدد فقهاء اللغة الطوق الأوسط من الكتابة على أنها "حروف متصلة للغة المصرية القديمة"، وتعرفوا على الألفاظ المصرية فى الطوق

الإغريقى. وتمت الخطوة الكبرى نحو أعظم تقدم فى معرفة تاريخ المصريين. وبعد قراءة الخطاب بشهر، ركب بونابرت قارباً صغيراً فى النيل بعد منتصف الليل بقليل وأبحر إلى الإسكندرية، كى ينقل ما معه من هناك؛ إلى سفينة أخرى إلى فرنسا.

كان قد تلقى نبأ بأن الجيش الفرنسى فى إيطاليا يتراجع، وأن مالطة تحت الحصار، وأن الموقف السياسى فى باريس — تحت السيطرة المتهتزة لحكومة الإدارة — أخذ فى التردى. وبذلك يكون حلم تكوين إمبراطورية فى مصر قد تبدد تقريباً. ظل الحلم يتلأأ فى حين كان جنرال كليبر يحاول أن يتبع التعليمات التفصيلية التى تركت له: استكمال استعمار مصر أثناء غياب قائده لفترة قصيرة، كما وعد. وكتب بونابرت: "سوف أصل إلى باريس، وسوف ألاحق هذه العصبة من المحامين الذين يسخرون منا فى حين أنهم غير قادرين على حكم الجمهورية، ولسوف أقوى هذه المستعمرة الرائعة". ووعد بأن يبعث بتعزيزات بمجرد وصوله إلى فرنسا، غير أن طموحات أخرى عطلته. ولم تصل التعزيزات أبداً. ونسيت مصر.

وسرعان ما وجد كليبر نفسه واقفاً تحت هجوم من الأتراك والبريطانيين، واستطاع أن يتفاوض على سلام مشرف يسمح للفرنسيين بأن يغادروا مصر حاملين أسلحتهم، غير أنه لم يكن من اليسير استرضاء الحكومة البريطانية فتكررت للاتفاقية. وكان لابد من أن تمر ثمانية عشر شهراً أخرى من القتال العقيم إلى أن أجبرت قوات مشتركة من البريطانيين والأتراك الفرنسيين على الموافقة على شروط أكثر قسوة فى ربيع عام ١٨٠١. وكان أهم بند فى معاهدة الاستسلام المذعن بالنسبة لتاريخ علم المصريين مكتوباً فى المادة السابعة، التى نصت على أن كل مجموعات المعهد صارت رهناً لدى البريطانيين. وحاول أعضاء المعهد الهرب بمجموعاتهم إلى فرنسا، غير أن السفن البريطانية أعادتهم. وقالوا إن مجموعة المعهد لا يفهمها العالم دون المعرفة التى تتوافر لأولئك الذين قاموا بجمعها. ومن الجرم فصل العلماء عن مادتهم الخام، وهو جرم لن يغفره العالم. وأعلنوا: "أننا سوف نحرق ثرواتنا بأنفسنا قبل أن نسمح بهذا السلب والتخريب

الظالم. فأنتم لا تسعون إلا للشهرة. حسن جدا، يمكنكم أن تعولوا على ذاكرة التاريخ: إذ سوف تكونون قد أحرقتم مكتبة أخرى في الإسكندرية".

ولم يستطع الجنرال مينو Menou (وكان كليبر قد اغتيل) أن يفهم السبب في كل هذه الجلبة. إذ كتب للجنرال هاتشينسون: "لقد أبلغت توا أن العديد من مكوّنات المجموعات يودون أن يتابعوا ما لديهم من حبوب ومعادن وطيور وفراشات وزواحف في المكان الذي تحدّدونه لشحن أمتعتهم. ولست أدري ما إذا كانوا يودون أن يعقلوا لهذا الغرض، غير أنني لا أستطيع منعهم". وبعد مرور بعض الوقت، تمّ التوصل إلى حل وسط، سمح للفرنسيين بموجبه بالاحتفاظ بمعظم المجموعة وشحنها إلى فرنسا. واحتفظ الجنرال هاتشينسون بحجر رشيد، الذي تمّ تقدير أهميته رغم أن كتابته ظلت دون أن تفك رموزها. وأرسل كهدية إلى جورج الثالث، الذي أعطاه عن غير فهم للمتحف البريطاني. ومع ذلك، لم تنقطع صلة فرنسا به، إذ كانت لدى الباحثين نسخة خاصة بهم في باريس.

أخفق الفرنسيون في إنشاء إمبراطورية لهم في مصر؛ ولم يطل عمر تهديدهم للبريطانيين في الهند. وانتهت المغامرة دون أن تثمر عن أى ميزة عسكرية مضمونة رغم انسحاق المماليك. ومع ذلك، تمّ إنجاز شيء هائل: فللمرة الأولى أصبحت أبواب مصر مشرعة لأبحاث المؤرخين وعلماء الآثار. إذ زودهم المعهد بكتاب مرشد له مكانته؛ فإذا كان الفرنسيون لم يستطيعوا فتح مصر، فقد نجحوا نجاحا تاما في وصفها في كتاب "وصف مصر" العظيم، الذي نشر في باريس فيما بين عامي ١٨٠٩ و ٢٨ في ثلاثة عشر مجلدا من اللوحات الفخمة الرائعة، وعشرة مجلدات أخرى من النص المكتوب.

وبينما وضع بوناپرت أسس علم المصريّات، كان أيضا منغمسا في تصرفات عطلت تطور ذلك العلم. فعند مغادرته مصر، حمل معه سبع قطع أثرية صغيرة، هدية منه لجوزيفين، وضعتها في مالاميزون. إحدى هذه القطع كانت تمثالا ينتمي للمملكة الوسيطة يمثل مصرياً جالسا. وعرض هذا التمثال للبيع بعد ذلك بقرن فاشتراه لورد أمهيرست لورد هاكني؛ وفي ١٩٢١، اشتراه ويليام راندولف، بارون الصحافة الأمريكي من مبيعات أمهيرست، وانتهى به المطاف في متحف بروكلين. وهكذا بدأ نهب الكنوز المصرية بداية جادة.



## الفصل الثانى

### ساحة للنهب

قبل متابعة استكشاف وادى النيل، كان لابد من تهدئة البلاد. فحين رحل الفرنسيون، كانت سلطة المماليك قد أزيلت، ولكن لم يتم تدميرها، فتقدمت الحكومة التركية كي تكمل هذه المهمة، وأرسلت رسائل لطمأنة بريطانيا، وتعليمات أكثر تقليدية للأدميرال الأعلى، حسين باشا.

فدعا حسين باشا زعماء بكوات المماليك كي يقضوا وقتا لطيفا على ظهر سفينة القيادة (سفينة الأدميرالية)، وأخذ يلقي بهم إلى البحر أثناء عبورهم لخليج أبو قير فى قوارب مفتوحة. فتدخل الجنرال هاتشينسون، الضابط الذى يقود القوات البريطانية، لمنع الذبح المنظم لمن تبقى منهم، بل إنه طالب بإطلاق سراح السجناء. ومن الواضح أنه لم يكن من الممكن تسوية الأمور بشكل مرض مع وجود البريطانيين؛ فرحلوا فى مارس عام ١٨٠٣، وكان الممثل البريطانى الرسمى الوحيد هو القنصل الكولونيل ميست، إذ ترك فى الإسكندرية ومعه تعليمات بأن يقدم النصح والإرشاد الأبوى... لينقل للحكومة البريطانية معلومات حقيقية عن الأحداث التى سوف تقع فى مصر العليا والسفلى (الدلتا والوادي) أثناء ما يجرى من مناقشات على السيطرة. وكان من المتوقع أن هذه المناقشات لابد أن تقع بين

المماليك والأتراك عندما لا يحس أى من الطرفين بالرهبة الشديدة من وجود الجيش (يقصد الجيش البريطانى)، وحين يشعرون بالحاجة إلى النصيحة السليمة فسوف يقدمها القائد البريطانى، باعتبارها وجهة النظر الأكثر استقامة ونزاهة (وقد كانت بالفعل كذلك) يعززها سلوك كريم تصالحي هادئ تقريبا.

ومع رحيل المرشد المتعقل (المقصود الكولونيل ميسٲ) فى طريق عودته بسلام إلى لندن، لم يتبقى إلا أن يجمع الحاكم التركى محمد خسرو قواته ويسير جنوبا على طول الوادى، من أجل مواجهة فاصلة مع قوات المماليك، غير أن قواته رفضت أن تسير إلى أى مكان. وكانت هذه القوات تتألف، بشكل رئيسى، من المرتزقة الألبان الذين لم تدفع متأخرات أجورهم. وحين كان رد الحاكم على مطالبهم هو إطلاق النار عليهم من القلعة، اجتاحوا المكان وقاموا بإزاحته. وكان البديل أشد سوءاً. فبعد أن تولى طاهر باشا قيادة قوة من الأتراك الموالين، لم يدم حكمه أكثر من ثلاثة وعشرين يوما حين نفذ صبر هذه القوات بسبب الإبطاء فى تسوية متأخراتهم، وكان من المحتم وضع مهمة القضاء على المماليك على الرف إلى أن يسوى من أرسلوا للقيام بهذه المهمة خلافاتهم. فأعقب ذلك فترة من الحرب الأهلية كان الألبان أثناءها يقاتلون الأتراك ١٨٠٦ — ١٨٠٩، وكان المماليك يغيرون من آن لآخر على الطرفين. لقد كانت فترة تسودها البلبلة، وضع حدا لها رجل قوى وصل للسلطة بالتعامل مع الجماعات المتحاربة وتلاعب بها كما كان يحدث كثيراً.

جاء محمد على، وهو ابن لفلح مزارع ألبانى، إلى مصر قائدا لقوة من المرتزقة. وكان يساند كلا من الأتراك والمماليك فى الحرب الأهلية، وبمرور الوقت تمكن من أن يصبح سلطة مستقلة فى القاهرة، بقوة قوامها ١٠٠٠٠ من الألبان. وكان يحتج بأن همه الوحيد هو حفظ القانون والنظام فى العاصمة. وفى ١٨٠٥ شعر الجميع بأنهم يتمتعون بما يكفى من الأمن بحيث يتخذون الخطوة التالية، فسجن الحاكم التركى (الوالى العثمانى) بمساندة المشايخ المصريين، وبعث برسالة ودية إلى القسطنطينية يقول فيها إنه استولى على الحكم، كإجراء مؤقت ليس إلا، كي يحفظ النظام.

وفى السنة التالية، عين الباب العالى (الحكومة التركية) محمد على باشا على مصر. ذلك أن الباب العالى الذى كانت له خبرة استمرت قرونا فى جوانب القصور فى الحكم عن بعد، قد كون قدرة على قبول تلك الأشياء التى لا يملك تغييرها. وبعد طرد المماليك إلى الصعيد لم يكونوا قادرين على تقديم يد العون حين نزلت قوة الحملة البريطانية فى ١٨٠٧ كى تعيدهم للسلطة. ولم ينبع هذا التدخل من ثقة فى قدرات المماليك الإدارية بقدر ما كان نتيجة الرغبة فى تسديد ضربة للأتراك الذين وقفوا إلى جانب نابليون فى أوروبا. وأرسل محمد على، الذين كان يقوم بحملة ضد البكوات فى ذلك الوقت، رسائل يعد فيها بالاستجابة لجميع مطالبهم إذا انضموا إليه فى طرد الغزاة. فقضت القوات المشتركة على البريطانيين فى الإسكندرية؛ ثم أجبروا من تبقى منهم على المسير إلى القاهرة حاملين رؤوس الموتى من رفاقهم، وتم تعليقها على أسنة الرماح حول ميدان الأزبكية.

وكان المماليك ينقسمون بين حلفاء محمد على، وهم الذين كانوا مناوئين للبريطانيين، وأولئك الذين كانوا يتطلعون للبريطانيين كى يعيدوهم لسلطتهم السابقة. وكانت ماتزال هناك مناقشات من وقت لآخر، حول القاهرة، فقرر محمد على أن يغير تكتيكاته. فدعا البكوات المماليك فى القاهرة لحضور حفل تكريما لابنه، الذى كان سيناط به أمر قيادة الجيش. وبعد أن تناول المماليك القهوة فى القلعة، اقتيدوا فى موكب أسفل المنحدر، والطريق الضيق المؤدى إلى البوابة الكبيرة، حيث حرس الشرف فى المقدمة، وآخر فى المؤخرة. وما إن عبر الألبان، الذين سبقوا البكوات البوابة حتى تم إغلاقها على المماليك، واستولى الألبان على الأسوار وأخذوا يطلقون عليهم النار. أما الذين حاولوا التراجع، فقد أطلق الحرس النار عليهم من الخلف؛ فقتل جميع المماليك الذين كان عددهم ٤٧٠ ما عدا أحد البكوات، كما تروى الحكايات، إذ ركب حصانه واتجه إلى الحواجز وقفز، فمات الحصان بسبب السقطة، وبقي الخيال.

ودانت البلاد لحكم محمد على، إذ هزم البريطانيين، وفاز بتأييد المصريين، وأخذ السلطة من الأتراك، وقضى على المماليك، وأصبح يتمتع بسلطة مطلقة، إذ كتب إدوارد لين أحد الزوار الإنجليز عنه: "يمكنه إعدام أى شخص من رعيته دون

الالتزام بشكلية عقد محاكمة، أو تقديم أى سبب؛ فحركة أفقية واحدة من يده تكفى للإيعاز بقطع الرأس".

وما إن استقرت السلطة فى يد محمد على، حتى بدأ فى تحويل مصر إلى دولة حديثة. وكان فى استطاعته أن يلعب دور المستبد الطيب. فكما كان يحكى لأحد الزائرين الأوربيين عن صراعاته الأولى: "لست أحب هذه الفترة من حياتى، وماذا يستفيد العالم بالتغنى بهذه الصراعات التى لا تنتهى، وهذا البؤس والدهاء وسفك الدماء، الذى قادتى إليه الظروف قسرا.... لن يبدأ تاريخى إلى أن أنهض بهذه الأرض بعد أن تحررت من كل القيود... من تلك الغفلة التى دامت لعصور".

وحين كان محمد على يحاول أن يجعل مصر تليق بالعالم المعاصر، تطلع الغرب من أجل العون. وكان شغوبا بمقارنة نفسه بنابليون، وكثيرا ما لفت الانتباه إلى أنه هو ونابليون ولدا فى نفس العام. لقد حاول نابليون تحديث مصر، وألزم محمد على نفسه بالاستمرار فى إنجاز هذا العمل. فتم استدعاء الخبراء الغربيين للمساعدة فى تنظيم اقتصاد البلاد؛ ولقى التجار الغربيون الترحيب. وأخيرا، شجع محمد على إنشاء القنصليات كى يحمى مصالح الأجانب فى مصر. ومن خلال مثل هذه الخطوات انتقل الصراع الأنجلو فرنسى من ميادين القتال فى أوربا إلى وادى النيل، ومورس الصراع بنفس الكراهية، ولكن بقدر أكبر من الدهاء وقدر أقل من سفك الدماء.

أثناء الفترة الطويلة التى قضاها محمد على للوصول للحكم كان هناك القليل من النشاط القنصلى فى مصر. ويرجع ذلك، بصفة رئيسية، إلى عدم وجود سلطات مستقرة يمكن ممارسة الدبلوماسية معها. ومع ذلك فقد احتفظت القوتان العظيمتان بممثلين شغلوا أنفسهما بأمور أخرى، مثلما فعل الكولونيل ميسست الذى ترك فى ١٨٠٣ كمراقب نزيه للبريطانيين، والقنصل الفرنسى بيرناردينو دروفيتى. فأكثرهما انشغالا وضع الأساس لبدعة الأنشطة فوق القنصلية، وذلك بأن أصبح أكثر من فى عصره تنظيما وطاقة فى جمع الآثار. اسمه عند الميلاد بيدمونتي. ثم صار اسمه دروفيتى Drovetti بعد ذلك. كان صلبا ذكيا واسع الحيلة، ودرس القانون قبل التحاقه بالجيش الفرنسى، وخدم بوصفه كولونيل مع بوناپرت فى

مصر. وعند عودته إلى أوروبا عام ١٨٠١، فى الخامسة والعشرين من عمره، عين قاضيا عسكريا فى توران. وفى العام التالى، عاد إلى مصر نائبا للقنصل فى الإسكندرية.

وحين اعترف الأتراك بنابليون إمبراطوراً لفرنسا، ثأر البريطانيون بتمكين المماليك فى الإسكندرية، فانتقل دروفيتى إلى القاهرة للعمل على مساندة المعارضة، التى سرعان ما تمثلت فى محمد على، فوقف وراء المنتصر، وحين استولى محمد على مقاليد الأمور فى البلاد اتخذ دروفيتى مكانة الحليف والصديق. وكان الأثر العملى لهذا أن دروفيتى تولى لبعض الوقت، أعمال التنقيب فى وادى النيل. كانت أعمال التنقيب فى السابق تتم بصورة عشوائية. لكن محمد على أمر بالأى يترك أى أحد يتخذ طريقه بسلام أو يقوم بأعمال الحفر ما لم يكن قد حصل على إذن صريح منه على هيئة فرمان أو خطاب تفويض. وكان دروفيتى هو المسئول عن تقديم الطلبات للبasha من أجل الحصول على الفرمانات، وبذلك استطاع أن يعوق أية طلبات لها أهمية حيوية. وأثناء عمله فى مصر، كدس مجموعة شخصية كبيرة من الآثار كان يبتهج بعرضها على زواره، معلنا أنها، فى يوم ما سوف تثرى متاحف باريس.

أما الكولونيل ميست فكانت صحته معتلة، طوال خدمته فى مصر، بل أصيب بالشلل فى أواخر هذه الفترة، فلم يكن يشكل منافسا خطرا بالنسبة لدروفيتى. وعند تقديم ميست لاستقالته عام ١٨١٥، وصل رجل إلى مصر كى يحل محله، وكان هذا الرجل مكلفا بالكشف عن الآثار للمتحف البريطانى، وبدأ التسابق من أجل الحصول على كنوز النيل.

كان هنرى سولت نتاج عصر الرعاية الأبوية المهيمنة. ولم يفتن إليه المؤرخون المحدثون الذين كتبوا عن مصر لأن وصوله إلى السلطة كان عن طريق التعامل الذكى مع أفراد الطبقة الأرستقراطية وكبار المسئولين بشكل لم يعد يعترف به أحد باعتباره شكلا سليما من أشكال التعامل. كان سولت هو أصغر ثمانية أولاد لطبيب من ليتشفيد، قال عنه كاتب سيرته إن مرانه مكنه من أن تكون له "قدره هائلة على المنافسة"، وأنفق جزءا من هذا على تدعيم هنرى الصغير

باعتباره رساما غير ناجح للشخصيات في لندن. وبدأ حظه يتغير حين وقعت عيناه، ذات يوم، على لورد فالينسيا ابن أيرل ماونتوريس ووريثه وهو يتسكع في قاعة فوزيلي في بول مول في صحبة مؤدبه (معلمه) توماس بات الموقر. وتصادف أن كان بات هذا هو خال هنرى، لذا رأى الشاب أن هناك فرصة للتعرف إلى الطبقة الأرستقراطية، فقدم نفسه على الفور، فتم قبوله فى دائرة الأسرة بشكل لا يجعله لصيقا بها التصاقا تاما.

وفى عام ١٨٠٢ أعلن لورد فالينسيا أنه يخطط للقيام برحلة إلى الهند، فكتب هنرى سولت إليه مباشرة يطلب منه أن يصحبه كسكرتير أو رسام للمشروعات. وأجاب سيادة اللورد بأنه، فى الحقيقة، ليس فى حاجة إلى أى من هاتين الخدمتين، ولكن نظرا إلى وضع الشاب المحزن ورغبته فى ترك النهج الذى كان ينتهجه، فيمكنه مع ذلك أن يحضر. وسافرا لمدة أربع سنوات. وأثناء الرحلة قضيا بعض الوقت فى الحبشة؛ وحين عادا أوصى لورد فالينسيا أن تفتح بريطانيا مفاوضات تجارية مع الحبشة. وأرسل هنرى إلى هناك حاملا هدايا من ملك بريطانيا العظمى إلى الإمبراطور. فأعدت أوراق اعتماده كممثل بريطانى إلى الشرق الأوسط.

وبعد أن عاد سولت إلى لندن، قضى بعض السنوات يكتب رحلاته ويُدعى إلى ولاثم العشاء كى يحكى تجاربه، لكن إنجلترا لم تلائمه وكان دائم المرض. فحين علم أن الكولونيل ميست القنصل العام فى مصر استقال بسبب اعتلال صحته، لمح فرصته فسعى لنيل هذه الوظيفة. كانت خطته تتألف من التنقل فى لندن طالبا من ذوى النفوذ من أصدقائه أن يكتبوا نيابة عنه إلى وزير الخارجية لورد كاسلرى. وكان هناك اثنان من مسانديه هما لورد فالينسيا وسير جوزيف بانكس، الذى كان حينئذ رئيس الجمعية الملكية. وتكللت مساعى سولت بالنجاح فى الضغط على لورد كاسلرى. وحين تم تعيينه، أظهر عرفانه للسيدتين بأن وعد بأن يجمع آثارا لهما. إذ كان لورد فالينسيا يرغب فى أن يزين مقر العائلة فى آرلى هول بالتحف، أما سير بانكس، فقد كان واثقا من أن أى شىء يستطيع سولت جمعه فى وادى النيل سوف يلقى الترحيب من جانب المتحف البريطانى، الذى كان أحد رعاته. وكان ويليام هاميلتون وكيلًا بوزارة الخارجية، وقد تمتع سولت برعايته،

لذا طلب منه أن يتصيد حجر رشيد آخر، وأضاف مشجعا: "مهما كلف ذلك، فلن سوف تدعمه أمة مستتيرة بكل غبطة، إذ هي مشوقة إلى أن تستبق منافسيها فى عمل ما هو فى صالح العلم والأدب".

وبعد أن ضمن سولت منصبه، بقى عليه أن يجد زوجة تشاركه أعباءه ومكانته الدبلوماسية. فركز انتباهه على وريثة من بيرمنجهام تنتظر ثروة كبيرة، وأخذ يتودد إليها شخصيا وعن طريق الأشعار، على الرغم من تحفظات أبيها. غير أن سولت أجبر على الإبحار إلى مصر وحده؛ إذ لم يشعر الأب أو الابنة أن شابة راقية مثلها تتمتع بكل ما يمكن أن تقدمه بيرمنجهام من صنوف الرقة والتهذيب يجب أن تتعرض لمختلف ألوان الحرمان فى القاهرة. غير أن مقر الرجل الأعزب الذى أنشأه سولت فى القاهرة فى عام ١٨١٦ كان من الممكن أن يكون مكانا محتملا بالنسبة لوريثة من بيرمنجهام. إذ إنه استخدم طاقم العاملين اللازم للحفاظ على مكانته الاجتماعية، وكان لديه سكرتير كتب هو عنه "أزوده بكل شىء". ولما كان الإيجار الذى يدفعه هو خمسين جنيها فى السنة، فقد كتب شاكيها إلى لندن أن أقل الضروريات اللازمة كى يحافظ القنصل على الاحترام تكلفه كل راتبه. فهو فى حاجة إلى دخل إضافى، وفتح جهده — للحصول على هذا الدخل — فصلا جديدا فى قصة علم المصريين.

إن سرقة المقابر فى مصر لها تاريخ قديم مشين. فلما كانت العادة هى دفن الملوك والنبلاء ومعهم أعلى ممتلكاتهم، لذا فإن أول أحياء يستفيدون من الموتى هم الذين يقومون بدفنهم. وتسجل الكثير من أوراق البردى إجراءات قانونية اتخذت ضد منتهكى حرمة المقابر. ويقول تحقيق رسمى فى ١٣٠ ق.م: "هذه هى المقابر والأضرحة التى ترقد فيها أرواح القدامى المباركة من نساء وأناس فى أرض المدينة الغربية، ولقد وجد أن اللصوص قد سطوا عليها جميعا، وأنهم أخرجوا من التوابيت والأضرحة الحجرية شاغلين وألقوا بهم فى الصحراء، وسرقوا ما بها من الأثاث الذى أعطى للموتى، وكذلك الذهب والفضة والزينة التى كانت فى التوابيت".

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان من عادة المنعمين الذين لا عمل لهم، أن يتجولوا فى البلاد الأجنبية ويجمعوا الأشياء الغريبة كى يملئوا بها حجراتهم الخاصة بما يثير الفضول فى بلادهم، فيستثيرون عجب أصدقائهم. ولم ينقص هذا بشكل خطير المخزون من كنوز وادى النيل، غير أن الشهية قوية أثناء القرن الثامن عشر. وفى الوقت الذى استقر فيه سولت فى القاهرة، كانت هناك تجارة مزدهرة فى الآثار والأشكال المزيفة. كان النحات الفرنسى جان جاك ريفو قد وصل إلى مصر عام ١٨٠٥، وقضى بها ما يزيد على الأربعين عاما، وكتب أن العرب تحيروا طويلا من القيمة الرفيعة التى يوليها الأجانب لقطع قديمة عديمة النفع من الحجارة والتماثيل، فخرجوا بالتفسير الخاص بهم فقال البعض إن المنقبين وثنيون يعبدون الآلهة القديمة لأنهم شاهدوهم يحتضنون التماثيل؛ ولأنهم شاهدوهم من آن لآخر يربطون الحجر بالسنتهم كى يحددوا تركيبها، فقالوا إنهم يمنحون القبلات خلسة لآلهتهم المعبودة. وهناك آخرون حيرهم ما يبذله الأوربيون من جهد ومال للكشف عن قطع متناثرة، وفسروا ذلك بأن قطع الرخام القديمة تحتوى على الذهب، وأن المنقبين قد عثروا على سر استخراجها. فاكشف سولت عند وصوله أن الآثار أصبح من الصعب شراؤها لأن الطلب فاق العرض مؤقتا.

أثناء ذلك، كان دروفيتى فى جولة فى الصعيد، يشتري كل ما يمكنه العثور عليه كى يضمه إلى المجموعة الخاصة به، التى فحصها سولت وأعلن أنها تساوى ٤٠٠٠ جنيه. فى ذلك الوقت لم تكن هناك قيمة سوقية متفق عليها للآثار المصرية، وكان من المقدر أن يتسبب هذا الوضع فى تعقيدات مخيفة بعد ذلك فى حياة سولت العملية. غير أنه علم منذ أسابيعه الأولى فى مصر أن التنقيب سوف يجلب له المال، وكان هو فى حاجة إلى المال، فكتب إلى راعيه الأرسقراطى الذى نال لقب أيرل ماونتتوريس: "لقد اتبعت كل وسيلة لجمع الآثار، ويسرنى أنى قد حققت نجاحا عظيما؛ حتى إنى سوف أرسل فى الربيع أشياء لم ترها من قبل، على أنى أبلغك بأنى أترقب ما يمكن عمله فى الصعيد، بحيث إنى أجد نفسى غير قادر على الإحجام عن تكوين مجموعة لنفسى؛ على أى حال، يمكنك الثقة فى الحصول على نصيب طيب، ومع أن مجموعتى قد لا تجعل مجموعتك فريدة، إلا أنه يمكنك أن تعمل على رفضى التخلّى عنها، وعلى أنى سوف أتركها لك فى حال وفاتى، لقد



اضطرت الى دفع نفقات هائلة كي أكتسب اسما محترما ..."، وكان اكتساب اسم محترم ينطوى على إزاحة دروفيتى من احتكاره لتجارة الآثار.

كان دروفيتى قد كون وكلاء فى جميع المواقع على طول وادى النيل، لديهم تعليمات لإحباط أى حفر دون إذن من القنصل الفرنسى، وادّعى لنفسه الحق المنفرد فى جميع المواقع التى زارها. ومن حسن حظ سولت، أن صدرت الأوامر لدروفيتى بالانتقال إلى الإسكندرية قبل وصوله بوقت قصير، فأصبح سولت طليق اليد فى أن يستغل معرفته بمحمد على، تلك المعرفة التى يرجع تاريخها إلى زيارة سابقة كان قد قام بها لمصر فى صحبة لورد فالينسيا. وسرعان ما كتب تقريراً بأنهما على خير ما يرام، وأن النفوذ الفرنسى فى حالة من التراجع "ولأن الباشا لا يستمع إلا نادراً لأى شكايات سوى ما أقدمه له، ... فإن التجار فى الحالات الطارئة، يستجدون بمساعى الحميدة كي أعمل لصالحهم". وكان الأجانب الذين لا يوجد لهم قنصل فى مصر يقدمون الطلبات له باستمرار "كى يكونوا منضوين تحت لوائنا". وكانت النتيجة هى أن اتفق القنصلان على تقسيم الغنائم فيما بينهما، فتكون الضفة الشرقية من نصيب دروفيتى بينما تكون الضفة الغربية من نصيب سولت. فكتب المستكشف ريتشارد بيرتون: "كانت بلاد النيل فى ذلك الوقت ميداناً للذهب، كما هى الآن، وتكونت الثروات من أعمال الحفر، ليس بحثاً عن الذهب، وإنما عن التحف؛ وصار ميدان الآثار ساحة معركة لحيشين من التراجمة والفلاحين، أحدهما تحت قيادة سولت المهيب، والآخر تحت قيادة دروفيتى".

ومع أن سولت قد تخلف عن دروفيتى بعقد فى دخول سوق الآثار، إلا أنه سرعان ما لحق به، ويرجع هذا إلى حد كبير، لجهود زميل ومستخدم هو فى نفس الوقت أحد معارفه، فصفته الدقيقة غير واضحة لكنه غاية فى الأهمية، وحين مرت بسولت أوقات عصيبة أوكل إليه القيام بإحدى المهام. ولقد صار هذا الشخص من الشخصيات الشهيرة فى تاريخ علم المصريات، إنه: "عملاق التمثيل الصامت"، و"رجل السيرك القوى"، و"شمشون بادوا": جيوفانى باتيستا بيلزوني.

ولد بيلزوني فى بادوا عام ١٧٧٨، ابناً لحلاق، وقضى شبابه فى إنجلترا يعمل ممثلاً فى الأسواق، والمسارح، وكذلك ساحراً، ورجلاً يقوم بالأعمال القوية

الخارقة. وظهر فى سادلرز ويلز عام ١٨٠٣ مع جريمالدى، البهلوان الشهير، فى دور العملاق الذى يقتله جاك، كما قدم استعراضات لأعمال القوة. وقدم بيلزونى أيضا أعمال "أكوا دراما" أى التمثيل داخل الماء فى المسارح بالقرب من نهر التيمز، حيث تقوم نماذج للسفن بالمعركة مع بعضها البعض فى صهاريج مملوءة بالمياه، بينما تتألاً حولها النافورات الملونة. وهذه الأعمال إن كانت غير مجهدة، إلا أنها كان لها دور أعظم فى مستقبله العملى.

فى ربيع ١٨١٥، كان بيلزونى يقيم فى مالطة مع زوجته سارة وصبى إيرلندى، هو جيمز كيرتين. فى ذلك الوقت التقى بأحد وكلاء محمد على يسمى خطأ كابتن إسماعيل جبل طارق. كان يفتش عن فنيين غربيين للمساعدة فى الخطة العظيمة لتحديث مصر. وكانت مشكلة مصر، لآلاف السنين، هى الرى، فخطر فجأة لبيلزونى أنه هو الرجل الذى يملك الحل. وشعر بيلزونى بالثقة فى قدرته على تصميم عجلة مائية يمكن أن تُنتج على نطاق واسع، على اتساع المساحة الصالحة للزراعة فى وادى النيل، مستخدما فى ذلك خلفيته فى الألعاب المسرحية المائية. وبلغ من تأثيره على وكيل الباشا حدا جعله يستقر فى أحد منازل القاهرة فى شهر أغسطس التالى ويتلقى عطية من محمد على قدرها ١٠٠ دولار إسبانى شهريا (حوالى ٢٥ جنيه إسترليني)، وترك كى يعكف على إنجاز اختراعه.

لم يحضر محمد على عرضا لعجلة بيلزونى حتى ربيع ١٨١٦، وحين تمت تجربتها دارت بطريقة جيدة، و كان يجرها ثور، وحكم الباشا بأنها تفوق جودة سابقتها بأربعة أضعاف. ثم طلب أن يرى ما عساه أن يحدث لو أن العجلة جرها رجال، فقفز اثنا عشر رجلا من العرب يتقدمهم جيمز كيرتين داخل الطبلية. وبمجرد أن بدأت العجلة تدور، قفزوا جميعا خارجها، إذ جعل وزن المياه الطبلية ترجع إلى الخلف ملقية بكيرتين إلى الخارج، فكسرت إحدى ساقيه. كان هذا فألا سيئا؛ وحُكم بفشل التجربة. وحل اليأس ببيلزونى، ذلك أن راتبه كان متأخرا لمدة خمسة أشهر، وكان من غير المحتمل أن يُدفع؛ وهو لديه زوجة وابن عليه العناية بهما، خاصة وأن ابنه مكسور الساق. ولم تكن أمامه وسيلة يمكنه بواسطتها الحصول على المال. وكتب أحد أصدقائه: "هكذا يشجع الباشا الفنانين الأوروبيين، فمبعوثوه فى البحر المتوسط يغرونهم بالدخول فى خدمته، ولكنهم سرعان ما

يتركون كى يندبوا ما تجلبه عليهم سذاجتهم". كان هذا الصديق هو جون لويس بوركهارت، الذى تتقل فى أرجاء كثيرة من مصر بعد أن درس اللغة العربية، وكان يرتدى الملابس العربية مسميا نفسه الشيخ إبراهيم.

وكان بوركهارت يقوم برحلة إلى الصعيد قبل لقائه ببيلزوني بثلاث سنوات. وحين كان يقضى بضعة أيام فى طيبة، رأى تمثالا هائلا فى الرمال وسط حطام أحد المعابد، وصفه راعى سولت، ويليام هاميلتون، بأنه "بالتأكيد أجمل وأكمل قطعة من النحت المصرى يمكن رؤيتها فى كل أنحاء البلاد". وقال الفلاحون من أهل المنطقة لبوركهارت إن الفرنسيين قد حاولوا أخذه غير أنهم لم يستطيعوا تحريكه؛ فالرأس الذى يزن سبعة أطنان يرقد فى الرمال الناعمة. فعزم بوركهارت على نقل الرأس، واقترح على سولت أنهما، معا، يدفعان نفقات النقل ويقدمان هذه القطعة للمتحف البريطانى.

وكان بيلزوني هو الوكيل الظاهر فى القيام بهذه المهمة. ولم يكن بيلزوني تنقصه الثقة بالنفس. فحين سمع عن مشروع نقل الرأس، قرر أنه هو الرجل المناسب للقيام بهذا العمل، وكان يتمتع بقوة بدنية هائلة، ويرى نفسه مهندسا، وأنه على ألفة تامة مع الحيل الميكانيكية، ولا يحتاج إلا للمال والعمال والمعدات كى يتم عملية النقل. ومن الواضح أن القنصل الجديد هنرى سولت كان هو الرجل الذى يجب التعامل معه. فيما أنه يملك النفوذ فهو قادر على تدبير الاعتمادات، كما أنه يحاول أن يثبت قدميه فى ميدان تجارة الآثار. ووافق سولت فورا على المشروع، وأصدر التعليمات لبيلزوني بالبدء فى التنفيذ.

كان على بيلزوني أن يعد المعدات الضرورية فى بولاق، ثم يتوجه إلى أسيوط حيث يقدم خطاب تفويض لابن محمد على، إبراهيم باشا، الذى سوف يزوده بما يلزم من عمال وقوارب. بعد ذلك يتوجه بيلزوني إلى طيبة، حيث "لايخل بأى نفقات أو جهد" فى نقل الرأس إلى ضفاف النيل، وإذا اقتضى الأمر ينتظر ارتفاع مياه النهر قبل أن يحاول إدخال الرأس فى أحد القوارب. وتم تزويده بتعليمات تفصيلية عن كيفية التعرف على الرأس، وكذلك تحذيره من خلطه برأس آخر، أقل شأنا منه، يقع بالقرب من الموقع. ثم قيل له أخيرا "سوف يكون مستر بيلزوني من

العطف بحيث يحتفظ بحساب منفصل بالنفقات التى تتكلفتها هذه العملية، التى سوف تُسدّد بكل سرور، بالإضافة إلى نفقاته الأخرى؛ أما عن المعرفة التى يتمتّع بها شخص مستر بيلزونى، فيعتقد عن يقين، أنها سوف تكون معقولة بحسب ما تسمح به الظروف".

فى ذلك الوقت، بدا أن بيلزونى سعيد وممتن. وقد أعطاه سولت ١٠٠٠ قرش (حوالى خمسة وعشرين جنيهًا) لشراء أية آثار أخرى قد يعثر عليها. فافتراض أنه بما أن القنصل البريطانى هو الذى كلفه، فإن الحصول على هذه الآثار يصبح أمراً رسمياً ويتم شحنها إلى المتحف البريطانى. بشكل ما اتخذ نهب المواقع القديمة صبغة الاحترام حين كان يتم لمصلحة إحدى الدول، وليس بغرض ربح يجنيه أحد الأفراد.

ذهب بيلزونى إلى بولاق وحمل المعدات اللازمة: أربع عشرة عارضة خشبية مربعة، وأربع أسطوانات تسوية مصنوعة من جذوع النخيل، وبعض الحبال المصنوعة من ليف النخيل بأطوال مختلفة. ثم أبحر مع زوجته وجيمز عبر النيل فى أرخص مركب أمكنه العثور عليه، وكان معه مترجم قبطى (يقصد مصرى) شغوف بالزجاجة<sup>(٩)</sup>، وحارس مسلح، وطاقم يتكون من خمسة أفراد وحارس مسلح. كان على وشك أن يواجه، لأول مرة، أخطار التجارة فى الآثار — الطبيعى منها وما هو من صنع البشر — فى وادى النيل.

وبعد خمسة أيام، وصلوا إلى منفلوط حيث التقوا بإبراهيم باشا وهو فى طريق العودة عن طريق النيل إلى القاهرة. وكان معه دروفيتى، الذى كان يزور وكلاءه فى الصعيد ويتفاوض على شراء بعض الآثار كى يتخم مجموعته. كان كلا الرجلين مهذبا، رغم أنه لا يمكن أن يكون دروفيتى سعيدا برؤية وكيل منافسه فى طريقه كى يستخرج جائزة كهذه، وأخبر بيلزونى أنه لن تكون أمامه فرصة كى يستأجر عمالا فى طيبة. إذ إن التنافس الصريح كان نادرا بين ممثلى الدولتين العظميين، كما كانت هناك وسائل أخرى لضمان فشل منافسة الطرف الآخر.

(٩) يقصد باحتساء الخمر. (المترجم).

وكلفتة تدل على حسن النوايا، قدم دروفيتى لبيلزونى غطاء من الجرانيت لتابوت حجرى كان مدفونا فى أحد المقابر، كان هو نفسه قد حاول الخروج به غير أنه فشل. وقال إبراهيم لبيلزونى أن يقدم خطاب تفويضه للدفتار (الدفتردار) الذى يتولى المسئولية فى أسيوط، ولوح بيديه مودعا.

وفى اليوم التالى، وصل بيلزونى إلى أسيوط ليجد أن الدفتردار بيه (بيك) غائب، فذهب ليزور الدكتور سكوتو، الطبيب الجنوى الذى كان يشرف على علاج إبراهيم، والذى أوصاه سولت بزيارته باعتباره شخصية يمكن أن تقدم العون. كان الدكتور سكوتو من عوامل التعويق، إذ قال له إنه من المستحيل العثور على عمال، لأن غيره حاولوا وفشلوا؛ وإنه لا يوجد ما يكفى من المراكب؛ كما أن التمثال ما هو إلا قطعة من الجرانيت لا نفع فيها. وحين لم تبد على بيلزونى أية علامة على التراجع، ألمح الطبيب بوجود أخطار، وكتب بيلزونى يقول: "وأخيراً، أوصانى بوضوح بألا أزج بنفسى فى هذا العمل، لأنى سوف ألقى الكثير مما لا يسر، وسيكون على مواجهة الكثير من العقبات". بالطبع، كان الطبيب الطيب يعمل هو نفسه، فى تجارة التحف لمصلحته. وحين عاد الدفتردار بيه (بيك)، أصدر أوامره للمدير المسئول عن إمداد بيلزونى بالعمال.

وواصل المركب الصغير طريقه ووصل إلى الأقصر بعد مغادرة القاهرة بثلاثة أسابيع ويوم واحد بالضبط. واندثشت الفرقة من المساحة الشاسعة من الحطام التى جعلت من طيبة أوسع متحف مكشوف فى العالم؛ ومجمعات المعابد الكبيرة مثل الكرنك الذى أذهل القوات الفرنسية، والتى كانت عرضة حتى فى ذلك الوقت للتنقيب من قبل وكلاء دروفيتى. ويسجل بيلزونى أنه لم يكن لديه من الوقت ما يكفى إلا لنظرة عابرة فحسب قبل أن يسرع إلى الضفة الغربية بحثاً عن الرأس "كان الرأس هناك راقداً فى الرامسيوم، المعبد المقبرة لحفظ الجثة الخاصة برمسيس الثانى ووجهها متجه الى أعلى، كان يبدو أنه يبتسم لى، حين فكرت بأنه سوف يحمل إلى إنجلترا".

كان الرأس، فى الواقع، رأس تمثال جالس لرمسيس الثانى، غير أن الرومان ظنوا خطأ أنه للبطل الأسطورى ممنون، وسمي فى ذلك الوقت ممنون الشاب، كما

يسمى الآن. أخذ بيلزوني بجمال الرأس لكن حجمه لم يرهبه، وأمر على الفور بإنزال المعدات المستجلبة من القاهرة بعد أن أنزل سارة في كوخ من الحجر فى الرامسيوم كمسكن مؤقت إلى أن يكتمل العمل. وصنع النجار منصة من الأخشاب تسمى عربة، حيث يُحمل الرأس إلى النهر. وتفحص بيلزوني الطريق؛ إذ كان من الواضح أن الأرض الواقعة بين الرامسيوم والنهر شديدة الانخفاض حتى إنها يمكن أن يغمرها الماء حين يحل الفيضان. لم تكن المياه من العمق بحيث يطفو فوقها المركب، وإنما هى من العمق بحيث تمنع عربته من المرور. كان من المتوقع أن يحل الفيضان فى غضون شهر، لذا لم يكن أمامه سوى أربعة أسابيع كي يوصل التمثال إلى ضفة النهر، أو فلينتظر حتى الصيف التالى. وكانت تلك فترة طويلة من الوقت.

ذهب بيلزوني كي يرى الحاكم ومعه الأمر بتجهيز العمال، ولقى الترحيب. إن روايتنا لما حدث قائمة على يومياته: "استقبلنى بذلك التهذيب الجم الذى يتصف به الأتراك، حتى لو لم يكونوا بأى حال ينوون الاستجابة لما تطلب... وعبارات المودة الناعمة، فالوقوف إلى جانب شخص لم يسبق لهم رؤيته أمر شائع بينهم بحيث يصبح فى النهاية، أمرا مسلما به، لا يعول عليه إلا من جانب من يجهلون عادات تلك البلاد، الذين يجب أن يعد من بينهم بيلزوني فى يوليو ١٨١٦، ولا بد أن مقاومته قد فترت حين أخبروه بأن العمال منشغلون جميعا فى الحقول؛ وأنهم يعملون من أجل إبراهيم باشا، ولا يمكن إيقاف هذا العمل؛ أو أن صيام رمضان اقترب حين لا يعمل أحد؛ أو أخيرا، أن نقل الرأس سوف يكون أمرا مستحيلا دون مساعدة محمد على نفسه.

على أى حال، أعلن الحاكم أنه مستعد للدخول فى متاعب لا حدود لها من أجل صديقه الجديد كي يتمكن من التغلب على هذه الصعاب الجسام، ووعد بأنه سوف يرسل له الرجال فى الصباح التالى. وحين وجد بيلزوني أنهم لم يصلوا، ذهب لمقابلة الحاكم، ولكنه فى هذه المرة كان مزودا بهدايا من البارود والبن. وغادر ومعه أمر للقائم مقام المحلى بتزويده بالرجال الذين يحتاج إليهم. ومع ذلك لم تنته متاعب بيلزوني لأن القائم مقام كان وكيلا لأحد التجار فى القاهرة، ومن الطبيعى أنه رأى أنه من حسن التجارة إحباط كل جامعى الآثار المنافسين. ولم

يصل أى عامل حتى ذهب بيلزونى بنفسه ورشا الرجال بأجر مرتفع مقداره "ثلاثون بارة فى اليوم، وهو ما يعادل أربع بنسات ونصف بنى بالنقود الإنجليزية". فوصلت مجموعة صغيرة. ورُفِعَ الرأس على العربية، حيث كانت الأسطوانات الخاصة بالتحريك موضوعة فى أسفل بحيث تطلق الأسطوانة بينما يُدفع الرأس إلى الأمام من الخلف، ويدار ويوضع تحت المقدمة — وهذه طريقة فنية بسيطة كانت شائعة فى الأزمنة القديمة وما زالت تستخدم اليوم. وتحرك الرأس ببطء عبر الرمال، وأرسل بيلزونى برسالة انتصار وحبور إلى القاهرة يقول فيها إن الرأس فى الطريق.

كانوا آنذاك يعملون فى واحد من أشد فصول الصيف حرارة فى مصر، فانهار بيلزونى بعد يومين وتوقف العمل، ولم يستطع تناول الطعام، لكنه أجبر نفسه على العودة للعمل، موجهًا مجموعة العمال الذين كانوا يمهدون الطريق أمام العربية ويزيلون العوائق التى كانت توجد فى طريقها، كما كان يغير نويات مجموعات الرجال الذين كانوا يدفعون العربية، وكذلك أولئك الذين كانوا يسرون بجانبها ومعهم روافع كي تمنع الرأس من التدرج.

وبعد مضى أسبوع، كانوا قد قطعوا نصف الطريق إلى النهر، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى مكان منخفض بشكل خطير، وكتب بيلزونى: "فى اليوم الخامس من الشهر دخلنا أرضا كنت متلهفا لعبورها خوفا من أن يصلها الماء فيعرقل مسارنا؛ وكنت أشعر بالسعادة حين أفكر فى أن الغد سوف يخرجنا من دائرة الخطر. لذلك وصلت إلى المكان فى وقت مبكر من الصباح، وأدهشنى أنى لم أجد أحدا سوى الحراس والنجار الذى أبلغنى بأن القائم مقام قد أصدر أوامر للفلاحين ألا يعملوا لدى الكلاب المسيحيين بعد ذلك. إنها مؤامرة. ففى خلال بضعة أيام، سوف يغمر الماء المنخفض الذى يوجد به الرأس بسبب ارتفاع النيل، وسيكون علينا التخلي عنه، ويصبح جاهزا لبيعه لأول تاجر أوربى يروق له".

ذهب القائم مقام إلى الأقصر فى انتظار التطورات. ويسجل بيلزونى أنه بحث عن الرجل "فى محاولة لاسترضائه بالكلام المعسول والوعود" لكنه أخفق. وبدأ يتراعى له أنه "فى بلاد لا يحترم فيها سوى الأقوياء، أما الضعفاء فسوف يحرمون

دائما من أى تميز". ويستمر فى حكايته فيقول إن الرجل استل سيفه، وعندها عاجله بيلزوني وهزه هزا عنيفا ولم يتركه إلا بعد أن أخذ سيفه وما معه من بستولات (عملة قديمة). وكان الحل الوحيد الممكن هو أن يجعل الحاكم يميل إلى جانبه. فذهب على الفور للقائه، وبعد أن سلم البستولات عربونا للصدقة، تسلم الأوامر اللازمة للحصول على العمال. وبعد ذلك بأسبوع، وصل الرأس إلى ضفة النهر.

كان هناك موضوع واحد يلزم تسويته: نقل غطاء التابوت الحجرى الذى أعطاه له دروفيتى، فأرسل بيلزوني نداء من أجل الحصول على مرشدين كى يعثروا على المقبرة التى كان يوجد فيها. فاقتيد إلى تجويف صغير فى الصخور على جانب الجبل، وبعد أن خلع معظم ملابسه، مر خلال ممر ضيق ومعه اثنان من العرب بالإضافة إلى مترجمه. وبعد أن زحفوا مسافة طويلة، وصلوا إلى خلاء مفتوح، تنفرع منه أنفاق بالغة الصغر لا يتمكن بيلزوني من المرور خلالها، فانتظر مع أحد العربيين فى حين ذهب مترجمه مع الآخر. وأصر ذلك العربى على أن التابوت الحجرى قريب، بالرغم من أنه كان من الواضح، فى ذلك الوقت، أنه لا يمكن إحضاره من الطريق الذى سلكوه. وبعد ذلك سمع بيلزوني صوت تكسر، تبعه صوت مترجمه وهو يصرخ: "أو يا إلهى! يا إلهى! لقد هلكت"، وتلا هذا صمت مطبق. فانتظرا، ثم سأل بيلزوني العربى عما إذا كان يعرف الكهف الموجود خلف الظلمة، فقال له الرجل إنه لم يحضر إلى هذا المكان من قبل، فبدأ أن أفضل شىء هو العودة من حيث جاء لكى يطلبنا النجدة، لكن حين زحفا من خلال ما اعتقد بيلزوني أنه الطريق إلى الداخل، وصلا إلى طريق مسدود.

وأخذ ضوء الشموع يقل، وأصبحا محاطين بالمومياوات والعظام البشرية، وبدأت جميع الأنفاق متشابهة. فأخذا يجربان نفقا بعد الآخر، لكنهما ظلا يعودان إلى نفس الخلاء المفتوح. وأخيرا وجد بيلزوني والعربى نفقا بدا أنه متصل بلا عائق لمسافة طويلة. وحينما سمعا صوتا يشبه صوت البحر الهائج على مسافة بعيدة، حثا الخطى إذ عرفا أن هذه أصوات بشر. ولما اندفعا إلى ضوء الشمس، كان أول من رآياه هو المترجم، الذى قال إنه بينما كانا يقتربان من الكهف الذى يوجد به التابوت الحجرى، سقط هو والعربى فى إحدى الحفر، فصاح العربى، ثم رأيا ضوءا قريبا،



فشقا طريقهما إلى الهواء الطلق. وكان العرب الآخرون حين خشوا على سلامة الرجل الذى سقط، مشطوا الطريق الذى مر به، وعندئذ أدرك بيلزوني أنهم سدوه أولاً، وأخذوه إلى مدخل خلفى طويل يودى إلى الكهف، حتى لا يتمكن من إزاحة غطاء التابوت الحجرى إلى أن يكافئوا على "اكتشاف" المدخل الأوسع. فجعل بيلزوني الرجال يعملون على توسيع المدخل، وعاد إلى كوخه الحجرى فى الراميسوم حتى يسترد عافيته.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، عاد بيلزوني ليجد أن الحاكم قد زار الموقع، وأمر بأن يقيد عماله ويزج بهم فى الزنزانة. إذ كان من المنتظر أن يزوره وكلاء دروفيتى حاملين الهدايا من الإسكندرية، وبعد أن استقبلهم الحاكم تذكر أن غطاء التابوت الحجرى غير متاح لهم لأنه قد باعه للقنصل الفرنسى.

يبدو أن بيلزوني لم يكن مهتما بعماله، إذ قال إنه سوف يكتب للقاهرة عن التابوت الحجرى، وطلب مركبا من سولت لنقل الرأس، وأمر ببناء جدار من الطين حول ممنون الشاب، ثم أبحر فى النيل بحثا عن كنوز أخرى مما يسهل حمله. فى نهاية الأمر، كان على سولت أن يدفع إيجار المركب، فبدأ من المعقول الاستفادة منه. وفى (إسنا) البلدة القديمة التى أسماها الإغريق لاتوبوليس — التقى بيلزوني بخليل بيه، أختى زوجة محمد على، الذى كان قد عين نوا حاكما على المديرية العليا الواقعة بين (إسنا) وأسوان. وبعد أن استرخى بيلزوني على بساط جميل ودخن الغليون وشرب القهوة، أعطى خطاب توصية لأمير نوبى، حسين كاشف، وترك يمضى فى طريقه.

كان لدى بيلزوني ما يكفى من الوقت كى يتأمل المعبد الموجود فى (إسنا)، الذى يرتفع عن النهر ارتفاعا يبلغ ٥٦٠ قدما ويقع فى وسط البلدة. فوجد أن القمامة تغطيه، وقال: "مما يثير الشفقة أن مثل هذه الصروح الجميلة يسكنها عرب أقذار مع قطعانهم". ثم واصل الإبحار إلى إدفو. وهنا على موقع بالقرب من النهر، يرتفع عن الوادى المحيط، يوجد معبد الحقبة البطلمية، وهو أكمل ما بقى فى مصر. ووجد بيلزوني أن الأكواخ تحيط به، وكذلك أسطبلات الخيل، وحين لاحظ وجود أكوام كبيرة من الحطام فى الرمال حول المعبد، خمن أن هذه الأكاداس ربما

تحتوى على آثار قيمة. واستمر فى طريقه، لا يفعل سوى إزالة الرمال من أشكال أبى الهول "يجسد أسد ورأس أنثى بالحجم الطبيعى".

وفى أسوان حيث يقطع الشلال الأول على النهر جريانه، كان من الضرورى استئجار مركب للقيام بالرحلة إلى جزيرة فيلة وحتى الشلال الثانى. وكان هذا ينطوى على مساومة جادة مع أغا أسوان، ساعدت فيها سارة وذلك بأن أهدت زوجته الأغا خرزا ومراة، كما دخت غليوننا من التبغ معهما، فساهم هذا فى تخفيض إيجار المركب من ١٢٠ دولارا إلى عشرين فقط للرحلة ذهابا وعودة.

وكان هدف بيلزوني من المضى قدما إلى الشلال الثانى هو الوصول إلى أبو سمبل، حيث يدفن فى الرمال معبد ضخم كما سمع من بوركهارت، إذ بدا أنه من الممكن أن يبقى معبد مدفون دون نهب، وقد يحتوى معبد كبير على عدد من الأشياء الثمينة التى يمكن أخذها. وكان معبد رمسيس الثانى فى أبو سمبل مرئيا بشكل جزئى فوق جبل من الرمال، فهناك أربعة تماثيل ضخمة منحوتة من جدار من الصخر. فإذا ضارح المعبد التماثيل من حيث الحجم، فسوف يكون أعظم معبد فى مصر، ولم يسبق للإنسان الحديث أن رأى مثيلا له.

وحين نزل بيلزوني فى قرية أبو سمبل، وجد أن عليه أن يتعامل مع داود كاشف بن حسين كاشف، الذى يحمل له خطاب توصية. وحين سئل بيلزوني عن السبب الذى جعله يأتى إلى هذا المكان القصى، أجاب بأنه "يبحث عن الأحجار القديمة"، فضحك داود؛ إذ كان قد سمع هذه القصة من قبل. ذلك أن رجلا قد وصل من القاهرة بحثا عن الكنز، كما قال، وعاد بكومة من الذهب فى مركبه؛ "من المؤكد أن هذا هو السبب الحقيقى للزيارة، أليس كذلك؟"، وكانت إجابة بيلزوني إجابة فيها شيء من الصدق: "أجبت أن الأحجار التى أريد أن أخذها هى قطع مكسورة تخص الفراعنة القدماء؛ وإنما نأمل أن نعلم من هذه القطع هل جاء أجدادنا من هذه البلاد، وهذا هو السبب الذى حدا بى إلى القدوم بحثا عن الأحجار القديمة". وبدا أن داود قبل هذا على أنه مراوغة ساذجة تستحق الاحترام، يقصد بها تجنب قول الحقيقة.

وأخذ يسأل بيلزوني عن الطريقة التي سوف يقنع بها الناس بالعمل معه، ما دام الشيطان يحرس المعابد. ولم تفلح إجابة بيلزوني بأنه سوف يدفع لهم نقداً، سوى فى أن تجعل داود يستفز فيسأله: "وماذا يفعل أى شخص بالنقود فى أبو سمبل؟"، فأشار بيلزوني إلى أن كل ما يحتاجون إلى فعله هو أن يرسلوا بالنقود إلى أسوان ويشتروا الحبوب التي تلزمهم فى الشتاء، وقد قال هذا كتعريف للناس فى أبو سمبل بفوائد الاقتصاد النقدي. فرد داود بأنه لم يبلغ به الحق حد إرسال النقود إلى تجار أسوان، ذلك أنهم، بالطبع سوف يحتفظون بها وينسون إرسال الحبوب.

أثناء النقاش، كان بيلزوني يعبث بقرش صاغ فأعطاه لواحد من أولئك المتحلقين الفضوليين قائلاً إنه يستطيع أن يستبدل به حبوباً تكفى رجلاً لثلاثة أيام. وحين رفع الرجل هذه القطعة المعدنية الرقيقة ضج الناس المتجمعون بالضحك من التفكير فى أن أى شخص يمكن أن يبادل أى شئ له قيمة لقاء هذه القطعة المعدنية. فاقترح بيلزوني أن يجرب الرجل ذلك مع أى أحد من الطاقم الموجود على مركب الأجانب. وحين عاد الرجل ومعه مئونة ثلاثة أيام من الحبوب اندهش الناس. أما بيلزوني فإنه، بالطبع كافأ الطاقم. لقد وضع هذا الاستعراض بيلزوني فى الصدارة قبل دروفيتي، الذى كان قد ترك ٣٠٠ قرش قبل ذلك ببضعة أشهر فى أبو سمبل من أجل كشف وجه المعبد. فلم يكن من الناس إلا أن أعادوا إليه القروش عند رحلة العودة، وقيل له إن العمال لم يجدوا فائدة لها.

بدأ العمل ببطء، إذ كان أربعون رجلاً يكدون فى نبش الرمال وبناء أسياج من سعف النخيل لمنع تدفق المزيد منها من أعلى؛ فكان الأمر، كما كتب بيلزوني، أشبه بمحاولة إحداث ثقب فى الماء. وبعد ما يقرب من أسبوع، كانوا قد أزاحوا الرمال عن وجه رع حوراختى الذى يشبه رأسه رأس الصقر على عمق عشرين قدماً، فى منتصف الواجهة. فصب بيلزوني بعض الماء بالقرب من الجدار الموجود فوق المكان الذى ظن أنه مكان الباب، مما دمج الرمال بالقدر الذى يسمح له أن يحفر حفرة بعمق يتيح العثور على الفتحة.

ثم رأى أن إكمال العمل سوف يستغرق وقتاً أكثر من المتاح له، كما واجهته مشكلة أخرى هى الحاجة إلى تلك الأداة التي كانت محتقرة ومجهولة منذ بضعة

أيام؛ "والآن صرت غير قادر مطلقا على التقدم بدونها. إنها النقود، التى كشفت عن سلطانها المعتاد هنا بين بشر شرهين للمال بشكل مثير. ذلك أن هؤلاء الناس البسطاء أصبحوا شغوفين بها". فقرر بيلزوني تأجيل العمل، بعد أن استخلص وعدا من داود بالألا يسمح لأى شخص آخر بالاقتراب من المكان، فى مقابل بعض الهدايا. ثم وضع علامة على مستوى وجه المعبد الذى كشفه، وأبحر فى النهر.

فى فيلة، ذهب بيلزوني للبحث عن أى شىء يمكن شحنه كى يأخذه معه إلى القاهرة. وكانت هناك مسلة يبلغ طولها اثنتين وعشرين قدما، وعرضها قدمين عند القاعدة التى كانت قريبة من الماء بحيث يمكن نقلها، لكنها تطلبت مركبا أكبر، لذا امتلكها بيلزوني "باسم صاحب العظمة القنصل العام لبريطانيا فى القاهرة"، وأعطى الأغا أربعة دولارات كى يعين حراسة عليها ريثما يعود، فسأل الأغا عما سوف يدفع له مقابل إعطائه الإذن له بنقل المسلة. ولم يكن هذا السؤال غير معقول، فتردد بيلزوني "مع أنى كنت أملك تفويضا بموجب فرمان الباشا بأن آخذ ما أشاء من أحجار وتمائيل، غير أن هؤلاء الناس يعتقدون أن لهم الحق فى طلب أى شىء، وإذا كانوا لا يستطيعون أن يرفضوا رفضا صريحا تنفيذ ما يؤمرون به، إلا أنهم يملكون وضع ما يلزم من عراقيل فى الطريق، بحيث يجعلون مسعاك يكلل بالفشل". لذا وعد بأن يتلقى الأغا ٣٠٠ قرش بمجرد شحن المسلة بنجاح.

كما كان على الجزيرة أيضا سلسلة جميلة من الكتل المنحوتة تمثل الإله أوزيريس وهو يتلقى الهبات من الكهنة والأشكال النسائية. وكان طول الكتل ثلاث أقدام، ونصفا، وعرضها ثلاث أقدام غير أنها كانت أثقل من أن تنقل ببسر، إذ إنها كانت شديدة السمك، فترك بيلزوني النقود والأوامر مع الأغا ليعمل على قطعها، بحيث يكون سمكها معقولا ثم تشحن إلى الأقصر فى المركب التالى. ثم كانت هناك مشكلات تقف دون الخروج من أسوان، إذ أمر الأغا بأن تخفى جميع المراكب كى يخرج بأكبر قدر من المال مقابل استئجار مراكبه. وبعد ذلك، وصل بيلزوني وفرقته إلى الأقصر ليجدوا نقودا بعث بها سولت، ولكن لم تأت أية أخبار بشأن مركب من أجل رأس ممنون الشاب. ولحسن الحظ، كانت سفينة كبيرة قد وصلت توا من القاهرة، حاملة اثنين من وكلاء دروفيتى فى الطريق إلى أسوان، هما: جان

جاك ريفو، وهو نحات من مرسيليا وأحد جامعى الآثار المتحمسين، وفريدريك كايو، وهو عالم معادن وصانع حلى من نانت. وكانوا فى وضع جيد يمكنهم من تحطيم ثقة بيلزوني فى حكمه على الأعمال الفنية، ولم يضيعوا وقتا دون القيام بذلك.

فتفحص الاثنان ممنون الشاب دون حماس، وهزئوا من بيلزوني على تبديد ماله وطاقته على قطعة من الجرانيت لا نفع فيها، وقالوا إن السبب الوحيد الذى جعل الفرنسيين يتركونها أنها لا تستحق أن تنقل. وجمعوا السكان العرب، بشكل أقل دهاء، وأعلنوا أن أى شخص يبيع التحف للإنجليز أو لوكلائهم سوف يجلد بأمر من كاشف البلدة. ولكى يؤكدوا هذا، انتحى مترجمهم ببيلزوني وأسر إليه بأنه إذا لم يوقف أعمال التنقيب التى يقوم بها، فمن المؤكد أن رقبتة سوف تقطع. واستطاع بيلزوني أن يحول هذه الزيارة المثبطة للهمة لصالحه، وذلك بأن تفاوض مع أصحاب المركب بأن يعودوا من الأقصر إلى أسوان كى يحضروا الرأس، وأن يعيدوا قطع البلاط الحجرية التى تركها لدى الأغا.

واستطاع الملاك تحقيق صفقة رابحة بالإصرار على دفع ٣٠٠٠ قرش لاستئجار المركب (ما يقرب من خمسة وسبعين جنيها)، يدفع نصفها مقدما، وذلك لأن وزن الرأس كان ثقيلًا جدا، كما أن ذلك، حدث بلا شك يسبب غياب المنافسة. ودفع بيلزوني النقود، ثم عاد إلى الكرنك، حيث كان قد ترك عشرين رجلا يعملون بنشاط على رفع الطين المضغوط الذى لم يتم حفره حديثا. لقد أزالوا التربة عن ثمانية عشر تمثالا، لكل منها رأس يمثل الإلهة سخمت، كانت ستة من هذه التماثيل فى حالة جيدة دون أى شرخ، وكان من بينهما تمثال أبيض يمثل جوبتر آمون. وقام بيلزوني بنقل أفضل هذه التماثيل إلى الأقصر، إذ كان يخطط لشحنها على المركب مع قطع البلاط الحجرى التى أخذها من أسوان. لم تكن هناك أية قطع من البلاط الحجرى على المركب حين رسا فى الأقصر؛ كل ما كان على المركب هو البلح ولا شىء غير البلح. ذلك أن وكلاء دروفيتى كانوا قد أقنعوا أصحاب المركب بخطر المجازفة التى ينطوى عليها العمل مع البريطانيين، فعرضوا أن يعيدوا لبيلزوني نقوده.

كانت مياه النيل تتخفّض، فلم تكن هناك مراكب أخرى متاحة، وإذا أضاع بيلزوني الفرصة، فليسوف يبقى رأس ممنون الشاب على ضفة النهر حتى العام التالي، لذا قرر التوجه لخليل بيه (بيك) ليطلب إجبار أصحاب المركب على أن يوفوا باتفاقهم. ولم يكن لديه أمل كبير في النجاح بما أن خليل بيه قد أبلغه فعلا بأنه لا يوجد أى مركب قادر على تحمل ما للرأس من وزن ثقيل. وتم إنقاذ الجهد الذى بذل فى ذلك اليوم عن طريق زجاجتين من الأنشوجة وزجاجتين من الزيتون، بدونها لم يكن للتمثال الجميل أن يقبع اليوم فى المتحف البريطانى.

كانت هذه الأشياء قد وصلت إلى الأقصر كهدايا لخليل بيه فى الوقت الذى كان بيلزوني يستعد لزيارته كى يطلب منه تنفيذ العدالة. وأسر المرسال الذى أحضرها لبيلزوني أن هذه الأشياء قد أغضبته غضبا شديدا، إذ تلقاها كهدايا من دروفيتى. فشرع البيه (البيك) بالإهانة لتلقيه هدية عديمة القيمة كهذه — لا تستحق إلا أن تهدى لأجنبى آخر — وأن غضبه العام جعله لا يتقبل ماهو فرنسى. وكتب بيلزوني أنه كان عازما على أن "يطرق الحديد وهو ساخن"، وانطلق ومعه صاحب المركب كى يطلب تنفيذ العقد، ووجد البيه (البيك) لايزال فى حاجة مواتية من الخوف من الفرنسيين، فمنح الحكم الذى كان يسعى للحصول عليه.

استخدم مائة وثلاثين عاملا فى عملية شحن الرأس. وكانت أرضية المركب تحت مستوى الضفة بثمانى عشرة قدما، فأنشأ بيلزوني جسرا منحدرًا من الضفة إلى وسط المركب مستخدما أربعة من جنود النخيل الكبيرة، كى يجعل أطنان الجرانيت السبعة تنزلق بيسر. وتم ربط الرأس بعربته المصنوعة من الكتل الخشبية الضخمة، المحكومة بحبال ملتفة حول قوائم تصل إلى الضفة. كما تم تجميع مسند قوى من الحصر والقش فى نهاية الجسر كى يكون معدا لاستقبال وزن الرأس الكبير. كما ألقوا (بشوال) من الرمل عبر الجسر لمنع سقوط الرأس فى حال حدوث ضعف فى الحبال أو العمال.

وحين اتخذت الكتلة الكبيرة طريقها هابطة من المنحدر، صدرت عن أصحاب المركب أنة هادئة، واستكانوا، إذ أحسوا بأنهم قد فقدوا المركب، وأخذ الناظرون يتناقشون فيما إذا كان الرأس سوف يتهشم بين أخشاب المركب ويغوص، أم أنه

سوف يستقر بسلام على ظهر المركب قبل أن يغوص بالمركب فى قاع النهر. وكان بيلزوني على وعى تام بأنه إذا مافقد الرأس هنا فسيكون من المستحيل استرجاعه. غير أن الرأس تهادى ببطء وسلاسة إلى أسفل، واستقر فى المركب، واهتز المركب وظل طافيا، واندفع أصحاب المركب نحو بيلزوني وصافحوه.

حين أبحروا إلى القاهرة بعد ذلك بثلاثة أيام، كانوا يحملون أجمل بضاعة من الكنوز الأثرية أبحرت فى النيل فى العصور الحديثة. تلقى بيلزوني ١٠٠ جنيه مكافأة على جهوده، أعطاه كل من سولت وبوركهارت خمسا وعشرين جنيها ثمنا لممنون الشاب؛ وأضاف سولت خمسين جنيها من ماله الخاص، ويبدو أنه أحس بأن هذا غير كاف، لذا سمح لبيلزوني بالاحتفاظ بتمثالين برأس الأسد. وتم وضع البقية فى القنصلية، وتلقى بيلزوني تعليمات بأخذ الرأس إلى الإسكندرية فى انتظار شحنه إلى إنجلترا. وكتب أنه اندهش من التمييز بين الآثار بما أنه اعتقد أنه كلف بجمع الآثار من أجل المتحف البريطانى.

على أى حال، لقد بدا أن سولت يرى أنها ممتلكاته التى يمكنه التصرف فيها كما يشاء. ومما يثير الاهتمام، أن بوركهارت كان ينظر إليها بنفس النظرة. فبعد أن فحص المجموعة، كتب لسولت، فى ذلك الوقت أن "مستر بيلزوني قد نجح بشكل يفوق أكثر الآمال جموحا، ومن المؤكد أنه بذل أقصى جهده كى يقوم بالمهمة على أكمل وجه. ولقد أحضر سبعة تماثيل بالإضافة إلى الرأس، وهذا يمكن أن يكون تحفة قيمة تزين قاعة العرض الخاصة بك فى المستقبل".

وأما عن الوجهة النهائية أو ملكية هذه الكنوز، فلقد بدا أن بيلزوني معنى فقط بالعودة إلى أبو سمبل، واستكمال التنقيب عن المعبد العظيم قبل أن يزاحمه أى شخص آخر. لكنه، على أى حال، اشترط شرطا واحدا فى علاقته بسولت، وبين هذا الشرط أنه أكثر فهما مما ظن سولت، وهذا الشرط هو أنه إذا ما نجح فى أبو سمبل يُعطى خطاب تقدمة رسمى لجمعية الآثار فى لندن. إذ كان بيلزوني يسعى إلى الاعتراف به كسيد وباحث على غرار صديقه بوركهارت، وذلك فى مقابل اكتشافاته — إذ كان يفضل ذلك عن التطلع للمال الذى قدر له أن يجذب الكثير من السادة والباحثين إلى وادى النيل سيرا على هديه.

وفى رحلة العودة من أبو سمبل، كان فى صحبة بيلزونى سكرتير سولت الخاص، وهو شاب اسمه هنرى بيتشى، ومترجم يونانى يعمل فى القنصلية، هو ينى أثناسى. فلا شك فى أن سولت أحس أن شخصا يثق به يجب أن يضع عينيه على بيلزونى الذى يملكه نزوع لا يهدأ إلى عرض مبادآته فى مشروعات هائلة مكلفة. ويبدو أن بيتشى قد أرسل به كى يكون له أثر مهدئ على بيلزونى، وكى يكون مصدرا يعول عليه للحصول على المعلومات التى تصل إلى سولت. كما أنه كان يتحكم فى كيس النقود. وأما بيلزونى فكان قانعا بأن تحتفظ القنصلية به.

وكانت هذه الجماعة الصغيرة تحرز تقدما بطيئا فى مواجهة ربح جنوبية عاتية، حين سمعوا بأن اثنين من وكلاء دروفيتى يقومان بمسيرة تشق طريقها بالقوة نحو الكرنك، كى يسبقاهم فى الوصول إلى هناك. وكان بيلزونى يعلم أن المنطقة التى قام بالتقيب فيها تضم كنوزا أخرى، وأنه سوف يفقدها ما لم يكن هناك للدفاع عنها. فاتجه ومعه ينى على حمار وحصان وجمل عبر الصحراء، وسافرا مسافة ٢٨٠ ميلا فى خمسة أيام ونصف، فتأخرا أكثر مما ينبغى، إذ كان الدفتردار بيه (بيك) قد أمر بحفر المنطقة متذرا بأنه يفكر هو نفسه فى تكوين مجموعة. وحين وصل وكىلا دروفيتى توليا القيام بهذا العمل، بل إنهما استخدما كل القوة العاملة المتاحة فى الكرنك بحيث لا يستطيع بيلزونى أن يفعل أى شىء سوى الذهاب بحثا عن المركب الذى تركه يواجه الصعاب فى مجرى النهر وبه بيتشى ومعه المال.

فقرر بيلزونى أن يترك الفرنسيين فى الكرنك، ويركز جهده فى الحفر بين المقابر فى الجانب الغربى من النهر. وتُعرف ضفة النهر الشرقية بما فيها من مجمع للمعابد بالأقصر والكرنك باسم "طيبة الأحياء"، وتعرف الضفة الغربية باسم "طيبة الموتى"، حيث توجد بقايا المعابد التى تمتد على خمسة أميال، وهى فى معظمها معابد ملكية لحفظ الموتى بالملكة الجديدة (أسرات الدولة الفرعونية الحديثة) تحتفظ بعبادات الملوك المدفونين فى مقابر منحوتة فى الشعاب الموجودة فى اتجاه الغرب.



عشر ويليام هاميلتون على عشر مقابر يسهل الوصول إليها في هذا المكان، في بداية القرن العشرين، وكان يرى أن هناك الكثير غيرها تغمرها الرمال والأحجار. بدأ بيلزوني البحث في جزء غربى قصى من وادى الملوك، فيما وراء مقبرة أمينوفيس الثالث، التى كان الفرنسيون قد اكتشفوها. ذلك أن رجلا في سمت بيلزوني حين كان يعمل فى أنفاق ضيقة تحت الأرض مكتظة بالجماجم المكسدة كان يحس بالذعر، وهو ما ينقله بإطناب فى مذكراته: "كمية هائلة من الرمال ترتفع وهى من النعومة بحيث تتغلغل فى الحلق، وفتحات الأنف فتخنقها، والفم إلى درجة تطلب معها رئتين قويتين كى تقاوما هذه الرمال والأبخرة المنبعثة من المومياوات ... كان سواد الجدار، والضوء الباهت المنبعث من الشموع أو المصابيح بسبب نقص الهواء، وكذلك الأشياء المختلفة التى كانت تحيط بى، والتى بدا أنها تتحاور، والعربان وفى أيديهم الشموع أو المصابيح، وهم عرايا تغطيهم الرمال، بل إنهم هم أنفسهم مومياوات حية، كل هذه الأشياء كان يبدو أنها تشكل مشهدا يستعصى على الوصف".

فى إحدى المرات فى القرنه (القرنا) وصل منهكا إلى نهاية ممر طويل ضيق كى يجد مساحة يمكنه التوقف فيها: "كنت أبحث عن مكان أستريح فيه، ووجدت ذلك المكان، وتحاولت كى أجلس؛ ولكن حين ثقل وزن جسدى على جسد إحدى مومياوات المصريين، حطمه كما تتحطم علبة من الورق المقوى التى تستخدم لحفظ القبعات. لجأت إلى يديّ، بالطبع، كى تتحملا ثقلى، غير أنهما لم تكونا عوناً جيداً، حتى إنى غصت بالكامل بين المومياوات المحطمة، محدثاً تهشماً فى العظام وتناثراً فى الخرق البالية والصناديق الخشبية، مما أثار كما هائلاً من الرمال أفقدتني الحركة لنصف ساعة وأنا أنتظر حتى تخف وتهدأ مرة أخرى. ولم أستطع أن أتحرك من المكان، دون أن أزيد هذه الرمال هبوباً. وكنت أهشم مومياء فى كل خطوة أخطوها فى جزء منها أو آخر. ثم خطوت من هذا المكان الى آخر يشبهه، خلال دهليز يبلغ طوله قرابة العشرين قدماً، ولا يتسع عرضه سوى لزج جسد خلاله. وكان يغص بالمومياوات فلم أتمكن من المرور دون أن يكون وجهى لصيقاً بجثة متحللة؛ ولكن حين انحدر الدهليز إلى أسفل، لم أستطع أن أتحاشى العظام التى غطتني إذ كانت ساقاي وذراعاي ورأسى تتدحرج من أعلى".

مع نهاية أبريل، كان لدى بيلزوني كم من الكنوز فى الأقصر، يكفى حمولة مركب ثان. وكان قد أضاف إلى هدية غطاء التابوت الحجرى الذى أهده له دروفيتى رأسا كبيرا من الجرانيت، وذراعا من تمثال ضخم لتحتمس الثالث فى الكرنك، وأربعة تماثيل لها رأس أسد لسخمت، وقاعدة حجرية صلبة من معبد مونتو فى الكرنك، منقوشة بأشكال متصلة لحتحور ومونتو وتحتمس الثالث.

ثم وصل زائر غير مرغوب فيه. إذ كان الدفتردار بيك قد سمع من وكلاء دروفيتى عما أحرزه بيلزوني من تقدم، وأحس أنه مضطر لإظهار أن إتواتهم لم تبدد وذلك بجعل الشيخ الذى أمد بيلزوني بالعمال يضرب إلى أن فقد الوعي. وحين هدد بيلزوني بأن يكتب للقاهرة كى يبلغ الباشا كيف يستجيب زوج ابنته للفرمان الصادر عنه، بدا أن الدفتردار أخذ فى اللين، وأصدر ما زعم أنه تفويض لبيلزوني بأن يستخدم العمال فى القرنة. وتجمع الناس كى يسمعوا الأوامر الصادرة من قبل الدفتردار وهى تقرأ علنا، فذهل بيلزوني إذ سمع إعلانا يمنعهم من العمل لدى الإنجليز أو تقديم التحف لهم، ويأمرهم بالألا يتعاونوا إلا مع دروفيتى أو وكلائه. فبدا أن الوقت قد حان لطلب العون من القاهرة .

وكتب بيتشى فوراً إلى سولت وأبلغه بما حدث، وطلب التعويض بسبب الإهانة التى لحقت بالرعايا البريطانيين المسافرين تحت حماية فرمان صدر بناء على طلب القنصل البريطانى. ويعد رد سولت عظيم الدلالة، لقد أبلغهم بأنه قد رأى الباشا، الذى سوف يكتب للدفتردار بيه (بيك) ويتأكد من أنه لن يتصرف أبدا على هذا النحو مرة أخرى؛ لكنه استطرد يقول: "أتمنى على أى حال أن تفهموا بوضوح أنى لا أتفق معكم فى اعتبار هذا إهانة وطنية. أو أن له أى علاقة بصفتى القنصلية، إذ يجب أن تعلم أنه لا أنت ولا مستر بيلزوني مرتبطان فى الوقت الحاضر بالعمل رسميا معى؛ فأنتما ببساطة شأنكما شأن مسافرين يقومان بتكوين مجموعة آثار؛ لذا فلكما الحق فى التعويضات التى يمكن لأى رجل إنجليزى أن يتوقعها، ومن الضرورى تماما أن يكون هذا مفهوما بجلاء، لأنه كما تعلمان، أنى ليست لدى السلطة من الحكومة باستخدام أى شخص فى مثل هذه المساعى، وأنى أتحمل كل المصروفات وأقوم بعملية الجمع لنفسى، ويمكن اعتباركما فقط عمالان بصفة خاصة".

من الممكن أن يكون بيتشى قد تكتم على هذا الجزء من الخطاب، لأن بيلزوني أحس بالحافز الشديد حتى اعتقد أنه الممثل الرسمي لأعظم أمم العالم، وهو مكلف بواجب جمع الآثار لمستودعها الوطنى - المتحف البريطانى. إذ من غير المحتمل قط أن يكون السكرتير القنصلى قد سمح لنفسه بأن يكون على علاقة حميمة مع لاعب سيرك سابق غير متعلم. فهو قد أسر، حقاً، لكاتب سيرة سولت: "إن بيلزوني به ميل لعدم الرضى كما أنه يثير الشك بحيث إنه من بعض النواحي يصعب أن تكون للمرء أية علاقات معه".

لقد كان كل من بيتشى وبيلزوني يعلمان أنهما يتمتعان بحماية اسم القنصل البريطانى، وأن الإذن بالسفر والتفتيش قد منحا بسبب مكانة بيتشى الرسمية. وربما لم يحمل أيهما الزعم بأنه يستكشف معابد وقبور وادى النيل فقط وببساطة لإرضاء نزوة لدى مستر هنرى سولت. لم يكن هناك داع لبقاء بيلزوني فى الأقصر فى مواجهة دفتردار نشيط فى معارضته، لذا قرر أن يتجه الى أعلى النهر، بينما ينتظر ردا من القاهرة، كى يجمع قطع البلاط الحجرى المنقوشة التى تركها فى جزيرة فيلة أمانة عند الأغا، فوجدها حيث كدسها - غير أنها جميعاً قد شوهت وكسرت. ونقش شخص ما بالفحم هذه الكلمات: "عملية فاشلة".

فبعد أن منع وكلاء دروفيتى نقل القطع كما رتب بيلزوني، عملوا على أن يستيقنوا من أنها لن تكون ذات قيمة بحيث لا تستحق النقل فى المستقبل. ولكن كانت هناك على الجزيرة أشياء تعوضه عن هذه القطع. إذ كان هناك خطاب قد وصل من سولت يحتوى على النقود والموافقة على أن يستخدمها بيلزوني فى محاولة - بل وفتح - المعبد العظيم فى أبو سمبل .

وفى نفس الوقت، وصل مركب يحمل صاحبى السعادة تشارلز ليونارد أيربى وجيمز مانجلز، وكلاهما قبطان فى البحرية الملكية. لقد سرهما أن ينضموا إلى بيلزوني، الذى وافق على ذلك فوراً غير أنه أصر فقط على التوقف فى فيلة للاحتفال بالرابع من يونيه، عيد ميلاد الملك جورج الثالث. فلو أن صاحب الجلالة علم، لوافق على هذا. وتم العثور على علم قديم وتم رفعه فوق أعلى نقطة على الجزيرة، وبالتحديد عند الظهيرة تجمع الرجال الأربعة وأطلقوا إحدى وعشرين

طلقة تعبيرا عن التحية. وتكررت هذه المراسم فى تلك الليلة، مما أربه وأذهل العربان، الذين لم يستطيعوا فهم السبب فى استخدام كل هذا البارود دون قتل أحد.

فى أبو سميل، كانت هناك المشكلات المعتادة المتعلقة باستئجار العمال. وكان هناك الأخوان "كاشف" اللذان بيدهما مقاليد الأمور، هما داود و خليل. فأشعل بيلزوني شرارة أدت إلى التنافس بين الأخوين، وذلك بأن قدم هداياه لداود، فغضب خليل واعتكف فى كوخه، ولم يوافق على الحضور لتناول طعام العشاء إلا حين قدم له هدية عبارة عن بندقية وبارود وكرة.

بعد ذلك، تم تنظيم العمال، غير أنهم كانوا يعملون ببطء شديد، مما جعل بيلزوني يقرر محاولة استخدامهم فى العمل بالمقطوعية، فقال إنه سوف يدفع ٣٠٠ قرش لفتح الباب، وأطلق للعمل ١٠٠ رجل، يسوقهم داود و خليل. ولما كان من المقرر للعمل أن يستغرق ثلاثة أيام، فقد دفع بيلزوني جزءا من الأجر فى البداية، وأكمل المبلغ حين اكتمل العمل.

فى اليوم الثالث، تذكر العمال أن شهر رمضان على الأبواب، وليس من المسموح القيام بأى عمل، فلم تتم المهمة؛ ولم يكن من الممكن استرداد النقود، فالكفار المسيحيون لا يلتزمون بـرمضان. واستيقظ قبطانا البحرية فى اليوم التالى قبل الفجر، وصعدا التل إلى وجه المعبد، ومعهما بيلزوني وبيتشى وبنى المترجم اليونانى والانكشارى، وأخذوا يحفرون لمدة ساعتين ونصف قبل اشتداد حرارة الشمس. واستأنفوا العمل عند المساء .

وظل الفريق يعمل بلا انقطاع لمدة أسبوعين فى الرمال. وفى بعض الأحيان، كان أفراد طاقم المركب يساعدونهم، أو تنضم إليهم جماعات من القرويين المحليين. وحين ظهر الركن العلوى لأحد الأبواب، أمر بيلزوني بدق جذوع النخيل فى الرمال حول هذا الركن، وصب الماء والطين كى يمنع الرمال الناعمة من التغلغل إلى الداخل. ثم استمروا فى الحفر داخل هذا السور. وعند شفق اليوم التالى، كشفوا عن الفتحة.

كان الظلام شديدا بحيث يمنعهم من رؤية ما فى الداخل، كما كان الهواء المتسرب من خلال الثقب هواء فاسدا، لذا قرر بيلزونى الانتظار حتى يطلع الصبح التالى قبل دخول المعبد. وقبل الفجر تسلفت المجموعة فوق المنحدر، وبدعوا فى العمل من أجل توسيع الثقب. وظل أفراد طاقم المركب فى الفراش.

ومع زحف ضوء النهار فى الأفق الشرقى، حدث شغب على المركب، واندفع القبطان على المنحدر وهو يصيح بأنهم ينبغى أن يبحروا فوراً وإن لم يصعد الأجانب ظهر المركب فلسوف يتركونهم. وكان بيلزونى ومن معه منهمكين فى عملهم حتى إنهم لم ينتبهوا، فركع أفراد الطاقم على ركبهم وأخذوا يصيحون ويهبلون الرمل فوق رؤوسهم. ذلك أن داود و خليل كانا قد أمراهم بتعطيل الأجانب فى حالة نجاحهم فى الكشف عن الباب، فتجاهلتهم الجماعة التى تقوم بالحفر، وانسلوا واحدا بعد الآخر من خلال الفتحة الضيقة، فوجدوا أنفسهم فى بهو كبير يبلغ طوله وعرضه ما يزيد على خمسين قدما، ويبلغ ارتفاعه ثلاثين قدما. وعلى كل جانب كانت هناك أربعة أعمدة مربعة محفورة على شكل أوزيريس. وكانت على الجدران نقوش رائعة بالهيراوغليفية ومشاهد للمعارك. وفى نهاية البهو، تفتتح حجرة صغيرة تؤدى إلى حجرة داخلية بها قدس الأقداس، الذى تتعاهد فيه أشعة الشمس المشرقة على وجوه الآلهة الجالسين. فذهل الزائرون مما كشفوا عنه من رهبة وعظمة وجلال.

لم يكن بيلزونى، على أى حال، مكلفا بالقيام بالاكشافات، وإنما بنقل الآثار القيمة؛ ومن هذه الناحية كان أبو سمبل مخيبا للآمال، إذ يسجل بيلزونى أنه لم يجد سوى "أسدين برأسى صقر بالحجم الطبيعى؛ ووجه صغير جالس، وبعض الأشغال النحاسية تخص الأبواب". فقام بيلزونى ومانجلز بعمل رسوم سريعة، غير أن الحرارة فى داخل المعبد كانت شديدة للغاية، ولذلك تركوا العملية لمن يأتى بعدهم من رحالة "قد يقومون بها فى ظروف أكثر ملاءمة مما وجدنا، حيث سيكون المكان أقل حرارة". كان ما لديهم من مؤن قليل، فلم يأكلوا أى شئ لمدة ثلاثة أيام سوى الحب المغلى فى الماء دون ملح، وقرروا شحن التماثيل والرأس إلى الأقصر.

رأى بيلزوني أن أكثر الأماكن التي يحتمل أن يعثر فيها على كمية من الآثار يقع في إقليم طيبة، وحين وصل إلى هناك أصيب بإحباط، إذ اكتشف أن الفرنسيين قد باسروا العمل في المنطقة بأكملها على الضفة الشرقية، وكانوا منهمكين في الحفر عند المعابد في كل من الأقصر والكرنك، فلم يجد بيلزوني ما يلزمه من العمال، لذا اتجه إلى الضفة الغربية، وبدأ مرة أخرى في البحث عن مقابر غير مكتشفة في وادي الملوك.

ويزعم بيلزوني أنه، في ذلك الوقت، كانت لديه ملكة توحى له بوجود مقبرة مغمورة. ومن المؤكد أنه إما المهارة أو الحظ كان يعمل عمله منذ البداية، لأنه اكتشف على مدى ثلاثة أيام عددا كبيرا من المقابر. وبالرغم من أنها كانت رائعة الزخرفة، إلا أنها لم تكن تمثل الكثير من حيث قيمتها كغنيمة ثمينة، هذا باستثناء إبريق مصنوع من الفخار، وكذلك تمثال من الخشب بالحجم الطبيعي في مقبرة رمسيس الأول لهذا الفرعون، بأنف قد لحق به الضرر.

ولاحظ بيلزوني، حين كان يميظ اللثام عن إحدى المومياءات في بحثه عن أشياء صغيرة لم تكتشف، لاحظ أن أربطة جديدة قد وضعت فوق الأربطة القديمة، مما يبرهن على أن المصريين كانوا يعتنون بموتاهم لسنين كثيرة؛ ولكن لم تكن هناك حلى، وكان هناك القليل من أوراق البردى. وعلى بعد خمسين قدما من مقبرة رمسيس الأول تقريبا، كان هناك منخفض صغير عند تل منحدر، وكانت شلالات من المياه تتدفق بقوة فيه حين يأتي المطر إلى طيبة. فقرر بيلزوني الحفر في هذه البقعة، رغم أن الرجال قد أشاروا بأنه لا يمكن لأحد أن يبنى مقبرة عند سفح تتحدر منه المياه.

وفي خلال يومين، اكتشفوا مدخلا صغيرا على عمق ثمانى عشرة قدما، فحشر بيلزوني نفسه كي يدخل من هذا المدخل، فوجد أنه داخل دهليز يبلغ طوله ستا وثلاثين قدما، وارتفاعه ثمانى أقدام، به رسوم بديعة وكتابة هيروغليفية محفورة على الجدران والسقف. وفي نهاية الدهليز، كانت هناك بضع درجات تؤدي إلى دهليز آخر بديع الزخرفة أيضا، فعرف بيلزوني أنه داخل مقبرة ملك عظيم. ولكن الدهليز الثانى كانت تقطعه حفرة كبيرة؛ يبلغ عمقها ثلاثين قدما، وعرضها أربع

عشرة قدما، تمتد بين الجدارين. وعلى الجانب الآخر من الحفرة استطاع أن يرى ما بدا وكأنه جدار من الصخر الصلب. لقد كان، فى الواقع، مشيدا من الجص والحجر، وكان مزخرفا تماما مثل الصخر المحيط كى يخدع القدماء من لصوص المقابر، لكنه فشل فى ذلك، شأنه شأن معظم الجدران الزائفة. استطاع بيلزونى أن يرى عبر الحفرة ثقبا فى الجدار، ولاحظ أن حبال النخيل التى استخدمها اللصوص كى ينزلوا داخل الحفرة ويخرجوا منها قد تركت فى مكانها، وحين مسها استحالت إلى تراب.

وفى اليوم التالى صنعوا جسرا يمكنهم من عبور الحفرة، وذلك باستخدام عارضتين خشبيتين، وتمكن بيلزونى من توسيع الثغرة الموجودة فى الجدار، وتسلق من خلالها، فاكشف سلسلة من الحجرات زخرفتها أكثر روعة من أى مقبرة تم كشفها حتى ذلك الوقت فى وادى الملوك. كان هذا ضريح ستحوس الأول أبى حارنس الثانى، الذى بنى بهوا على هيئة سقف محمول على أعمدة كما فى الكرنك والمعابد الموجودة فى أبيدوس والقرنة. وليس هناك ما يفوق جمال هذا المكان والقدرة على الحفاظ عليه فى حالة جيدة. كما وجد بداخله شيئا أخاذا فاتنا كتب عنه: "إنه جدير بأعلى قدر من الاهتمام، فلا يوجد مثيل له فى العالم، ولما كان على هذه الصورة، لم تكن لدينا أدنى فكرة عن وجوده. إنه ضريح من أرقى أنواع المرمر، يبلغ طوله تسع أقدام وخمس بوصات، وعرضه ثلاث أقدام وسبع بوصات، ولا يزيد سمكه عن بوصتين، كما أنه يصير شفافا حين يسلط الضوء عليه من الداخل. وهو منحوت بدقة من الداخل والخارج، ومزين بعدة مئات من الأشكال لا يزيد طول الواحد منها عن بوصتين ... ليس بوسعى أن أعطي فكرة عن جمال هذه القطعة الأثرية وما لها من قيمة، إننى أستطيع فقط أن أقول إنه لم يجلب إلى أوروبا من مصر شيء يمكن أن يضارعها".

قبل أن ينجح بيلزونى فى إحضار هذا الضريح الحجرى إلى مستقره الأخير فى وسط لندن، كان محطاً لكل ما هو منعدم الذوق فى أيام علم المصريين الأولى. وقبل أن يتوفر لفريق بيلزونى الوقت كى يسجل كل ما وجده، جاءهم إلى الموقع أول الزوار البارزين. إذ اندفع العربان إلى المعسكر قادمين من الجبال وهم يقولون إنهم رأوا جماعة كبيرة من الفرسان الأتراك يعدون نحو الوادى. فشرع بيلزونى

بالقلق لأن الأتراك كانوا يميلون إلى تجنب هذا المكان. وبعد ذلك بنصف ساعة سمع إطلاق نار يتردد صداه بين التلال، فاعتقد أن المكان يُداهم، فى الوقت الذى أصبحت فيه فرقة من الفرسان المسلحين على مرمى البصر.

كانت هذه القوات — كما اتضح — تقوم بمصاحبة حامد أغا وحراسته، فهو قائد الجانب الشرقى من طيبة، وكان قد سمع عن هذا الاكتشاف فحضر كى يلقى نظرة على هذه الكنوز. وحيا بيلزوني تحية حارة، وقبل بحماس عرضا بالقيام بجولة فى المقبرة. فجمعت المصابيح، وقاد بيلزوني ضيفة فى الممرات ذات الزخارف البديعة، وخلال حجرات ثرية بالأشكال المحفورة والألوان البراقة. فبدا أن ذهن الأغا منصرف، ولا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر الانبهار. ثم تبعه رجاله وهم يفتشون فى كل ثقب وركن. وبعد ذلك وصلوا إلى الضريح الحجرى الذى كان لا يزال يحتفظ بلونه الأبيض الجميل.

جلس الأغا أمام الضريح، وصرف رجاله بعيدا، وسأل بيلزوني بثقة شديدة عما إذا كان يستطيع أن يرى "الكنز". وحين أجابه بيلزوني بأنه قد رآه كله، رد الأغا بأنه قد قيل له إنهم اكتشفوا ديكا ذهبيا كبيرا مليئا بالماس واللؤلؤ، وهو يطلب رؤيته. كان الديك الذهبى جزءا من الأدب الشعبى عند العرب، وقيل إنه من المحتمل أن يظهر فى مقبرة غير مكتشفة فى هيئة إبريق ملئ بالذهب فى سفح قوس قزح. وحين اقتنع الأغا، أخيرا، بأن بيلزوني لم يعثر على الديك، انسل خارجا وهو يشعر بالإحباط، فتبعه بيلزوني كى يصلح من حالته المزاجية، وسأله عن رأيه فى جميع الرسوم الجميلة، فأجاب الأغا بأن هذا مكان يصلح كحرم ملك، إذ إن الحريم سوف يجدن ما ينظرن إليه طوال النهار. وغادر المكان.

أما الزائرون الذين أتوا بعد ذلك فكانوا مهيبين جيذا من حيث تذوق الجمال. ذلك أن هنرى سولت قد وصل فى ثلاثة مراكب كبيرة بها: إيرل وكونتيسة بيلمونت، وابنة عمه جوليانا، والابنان اللورد كورى، وصاحب السعادة هنرى كورى، وشقيق الإيرل، وكابتن آرمال لورى كورى، من البحرية الملكية. أما حياتهم الروحية فكانت فى رعاية القس الخاص بالإيرل، صاحب النيافة مستر



لورى، وأما أجسادهم فكانت فى رعاية طبيبه د. روبيرت ريتشاردسون. وقاموا جميعا بجولة استطلاعية حول المقبرة، وعبروا عن اندهاشهم وإعجابهم .

ويبدو أن بيلزونى كان مسرورا جدا بهذه الزيارة، وسجل أن سولت كان مفتونا بالتأبوت حتى إنه قضى الأشهر الأربعة التالية فى الحفر فى المنطقة دون أية نتيجة، أو إذا ما استخدمنا سخرية بيلزونى الخفيفة: "إنه سوف يصف بنفسه ما وجدته، بالطبع، بدقة تفوق ما أستطيع أن أعبر عنه".

لا يوجد أية إشارة فيما سجله بيلزونى عن أى احتكاك وقع بينهما. غير أن سولت قال، إنه بعد رحيل أصحاب الإبرل بوقت قصير، بدأ بيلزونى يخاطبه "بأسلوب غامض إلى حد ما، فى شأن الأجر" إذ يبدو من المحتمل أن سولت كان حريصا على تحديد علاقته ببيلزونى باعتبارها علاقة السيد بخادمه، رغبة منه فى أن يؤثر فيهم تأثيرا باهرا، إذ من المؤكد أنه لم يكن ليرغب فى أن تفهم هذه العلاقة على أنها علاقة زمالة. ولا ريب فى أن بيلزونى أصبح على وعى بذلك، وأنه شعر بالإهانة، فطلب من سولت أن يوضح علاقتهما، وعلى الأخص بأن يصلا إلى اتفاق بشأن ما يدفع له. فأجاب سولت بأنه فكر فى أن يدفع لبيلزونى مكافأة تتراوح بين ٣٠٠ و ٣٥٠ قرشا شهريا، عدا نفقاته، غير أن النجاحات التى حققها بيلزونى حتى الآن فاقت التوقعات مما يستدعى إعادة النظر. وشعر سولت بأنه غير قادر على التنبؤ بما سوف ينتج عن إعادة النظر هذه، بما أنه قد وضع مبالغ كبيرة من المال ولم يتلق شيئا فى المقابل، غير أنه رأى أن يولى هذا الأمر مزيدا من الأهمية فيما بعد.

ولا عجب فى أن بيلزونى لم يجد فى هذا ما يرضيه، فعاد إلى هذا الموضوع فى اليوم التالى، حين وعد سولت بأن يعطيه ١٠٠٠ قرش (حوالى خمسة وعشرين جنيها شهريا) بأثر رجعى منذ الوقت الذى غادر فيه بيلزونى الإسكندرية، "وأن أنزل له عن أية أشياء أقدر على التخلي عنها، والتى قد يثبت أنها ذات نفع له ... ويمكنه أن يطمئن إلى أنى أعطى له براهين أخرى مرضية تدل على اعتبارى". وكان هذا ترتيبا يمكن أن يلائم أى موظف متطلع يعمل فى إحدى القنصليات. وقد

يرجع زعم سولت بأن بيلزوني بدا عليه الرضى إلى بلاد الحس أكثر من كونه راجعا إلى الأمانة، إذ إن قناعة بيلزوني كانت قصيرة الأجل.

فبعد ذلك ببضعة أيام، وصل بيتشى مع جماعة أخرى من الرحالة الإنجليز، وكان سولت يشير عرضا أثناء تجوله معهم فى المقبرة إلى عدد السنوات التى قضاهما بيلزوني فى خدمته، فتفجر الحنق من نفس بيلزوني، قائلا للجماعة التى علت الدهشة وجوها إنها لم يكن قط مستخدما لدى سولت؛ وإنه عمل من أجل الأمة البريطانية؛ وهو رجل مستقل على استعداد لأن يقدم خدماته للأمة دون ثمن. إن ما أثار حفيظة بيلزوني هو ادعاء سولت المستمر بمجد هذه الاكتشافات فقط لأنه قام بتمويلها، ولكن بيلزوني هو الذى قام بهذه الاكتشافات، فيجب أن يكرم اسمه معها. ذلك أنه رفض وضعه كمستخدم مأجور لا يذكر اسمه.

من ناحية أخرى، شجعت الجماعة الإنجليزية سولت على أن يعتقد أنه يتصرف بكمال وعقل بل وبكرم، إذ إن بيلزوني، فى نهاية الأمر، كان فقط يجازف برقبته، أما سولت فقد كان يخاطر برأس ماله. ولما لم يكن هناك عقد بالمشاركة الوجدانية بين سولت وبيلزوني — إذ كان كل منهما يرى أن سلوكه غاية فى التعقل، بينما يراه الآخر غير محتمل — بدا أن إعطاء شكل رسمى لهذه العلاقة فكرة صائبة.

وعلى ذلك، فقد وقع الرجلان على اتفاقية فى ٢٠ أبريل ١٨١٨ بدا أنها توضح الأمور، بينما يبدو أن الموقع جيوڤنى بابتيستا بيلزوني لديه أفكار خاطئة فيما يتعلق بالأشياء التى جمعت فى الصعيد تحت رعاية المحترم هنرى سولت وبنفقته، إذ ظن أنها للمتحف البريطانى؛ ولما كان قد شرح على نحو مرض للموقع بيلزوني أن مثل هذه الأفكار قد بنيت كلية على غلطة، أوضحت ديباجة الاتفاقية أن كل طرف يتصرف على حدة؛ استمرت المواد كى تحدد أن سولت سوف يدفع مبلغا قدره ٥٠٠ جنيه لبيلزوني على مدى الاثنى عشر شهرا التالية؛ وأن سولت سوف يعطى لبيلزوني تمثالا رأسه رأس أسد فى فناء القنصلية، وأن سولت تنزل لبيلزوني عن غطاء التابوت الحجرى الذى أعطاه له دروفيتى، وغير ذلك من الأشياء التى قد يمكنه الاستغناء عنها؛ وأن التابوت المصنوع من المرمر سوف

يعطى للمتحف البريطانى فى خلال ثلاث سنوات من تاريخ الاتفاقية، و"سوف يعتبر الموقع بيلزونى مستحقا لنصف الفائض لأى ثمن يمكن أن يدفع ثمنا للتأبوت المذكور يزيد على مبلغ ألفى جنيه إسترليني".

وفى المقابل، تعهد بيلزونى بالذهاب إلى طيبة وإحضار التابوتين الحجرين المتبقين هناك فى رعاية هنرى سولت وعلى نفقته، ولكن ليس فى خدمته، إذ إن سولت ما زال يقدم المال، وفى ذلك الوقت كان يحث الخطى إلى إرث قدره ٥٠٠٠ جنيه آل إليه بوفاة أبيه فى السنة السابقة. ومع أن سولت قد أصر على أن يكون له الحق فى التصرف فى الآثار إذ إنه دفع نفقات اكتشافها ونقلها، إلا أنه لم يكن يخامره أدنى شك فى وجهتها النهائية. وباستثناء القطع التى أرسلها لكسب عطف راعيه، كان مصير مجموعة هنرى سولت هو المتحف البريطانى، إذ لم يكن لديه شك فى أن هذه المؤسسة الوطنية العظيمة سوف تعترف به وتكافئه مكافأة سخية.

### الفصل الثالث

## لصالح الأجيال المتعاقبة

حين قام أمير ويلز وأميرتها بزيارة قصر الإقطاعية، الضيعة في تشيلسي، في شهر يونيه من عام ١٧٤٨، قام مالك الضيعة باصطحابهما في جولة. كان هذا المالك سيدا طاعنا في السن، غريب الأطوار، معتل الصحة، يلزم كرسيًا للمرضى المقعدين، وأعرب أمير ويلز وأميرتها — من قبيل الأدب — عن إعجابهما بحجرة مليئة بعينات من النباتات المجففة، وأخذًا يتجولان دون فهم، بجانب صفوف من الخزانات المكتظة بالأحجار الكريمة، والأسماك الغريبة، والطيور المحشوة بغرض الاحتفاظ بشكلها الأصلي، والميداليات الذهبية والفضية، وغير ذلك من الأشياء المثيرة للفضول التي يصعب التعرف عليها. وكان وصف هذه المجموعة يقع في أربعين مجلدا من الصحائف؛ كما كانت هناك مكتبة مليئة بالكتب النادرة تضم ما يربو على ٤٢٠٠٠ مجلد، فعبّر أمير ويلز عن السرور الذي يحس به إذ يرى مجموعة على هذا القدر من الروعة في إنجلترا، وأضاف أنها "يجب أن تكرر لفائدة العلم ... وأن تكون للنفع العام من أجل الأجيال حتى آخر الزمان". ووافق مالك المجموعة، سير هانز سلوين على ذلك .

وكان سير هانز قد وضع وصيته من قبل، وعبر فيها عن رغبته في أن تظل مجموعاته في مكان واحد، وأن تكون موجهة في العديد من النواحي لإظهار مجد

الرب ودحض الإلحاد، وبيان عواقبه، والانتفاع بالعلوم الطبيعية وغير ذلك من العلوم والفنون والنهوض بها، وكذلك من أجل فائدة البشرية... وأن تكون المجموعة في مكان رئيسي في مدينة لندن وما حولها، وأن يتوافد عليها من يستفيدون بها أقصى فائدة.. وأن يراها كل من يرغب في ذلك دون تمييز.. لقد عاش سير هانز حياته بأكملها طبيباً لأفراد الأسرة المالكة وكذلك للطبقات الموسرة في لندن، وكان أول رجل يمنح لقباً يمكن توريثه اعترافاً بخدماته في مجال الطب، ولما كان قد عاش حتى بلغ الثالثة والتسعين من عمره، فقد كان لديه الوقت والمال اللذان مكناه من إشباع شغفه الطاعى ألا وهو جمع التحف.

نصت وصية سير هانز على أن تظل مجموعته كما هي تدون أن تمس بعد وفاته، وقدم للملك مبلغاً قدره ٢٠٠٠٠ جنيه كتعبير رمزي، وفي حالة رفض صاحب الجلالة، يؤول المال للبرلمان. كان جورج الثاني هو آخر ملك يقود قواته إلى ميدان المعركة، غير أنه، مثل أبيه، لم يكن شغوفاً "بالشعر والرسم"، فقرر أنه يمكنه أن يجد سبلاً أفضل ينفق فيها ماله؛ ولكن البرلمان قبل القيام بواجبه في تكوين مجموعة تحف وطنية، على الرغم من معارضة رئيس الوزراء، ومن هنا وُلد المتحف البريطاني.

منذ البداية، كان القصد من المتحف البريطاني أن يكون مؤسسة تتمتع بأعلى مكانة، فكان الأوصياء — كما نص قانون البرلمان الصادر في ٧ يونيو ١٧٥٣ — يضمون أناساً مثل كبير أساقفة كانتربيري، وقاضى القضاة، ورئيس مجلس العموم باعتبارهم كبار الأوصياء (الأمناء)؛ يساعدهم وزير الخزانة، ورئيس الوزراء، وحامل أختام الملك، وكبير لوردات الأدميرالية، وأمين القصر الملكي، وأسقف لندن، ووزير المالية، وكبير قضاة إنجلترا، ومسئول الوثائق، والنائب العام ورئيس الجمعية الملكية. بعبارة أخرى، أوكل متحف الأمة لنفس الإدارة التي أنيط بها أمر الأمة نفسها. وبعد ذلك ألحق بهم رؤساء الأكاديمية الملكية للفنون، وجمعية جامعي ودارسي الآثار.

حين سمعت مسيز ديليني — ابنة أخى لورد لانسداون، التي كانت تحب أن تكون على اتصال بالأحداث — عن وصية سير هانز، قالت في البداية، كم هو

مخيب للآمال أن تفوتها متعة المشاركة في المزادات، لكنها أضافت أنها "تأمل في أن يبني الملك متحفا يليق بملك". وعلى الفور قام أربعة من المعماريين بإعداد أربعة تصميمات، أحدها من طراز الروكوكو، والثلاثة الأخرى من طراز البلاديان.

ولكن كان الأوصياء البارزون حريصين في استعمالهم للمال العام، فرأوا أنه قد يكون من الأوفر تحويل مبنى موجود بالفعل لكي يفي بالغرض. وبما أنه من الناحية القانونية يجب أن يكون المتحف "مستودعا واحدا عاما"، كي يبقى "من أجل النفع العام للأجيال القادمة"، لذا كانوا يبحثون عن شيء فسيح ودائم. فرفضوا عرضا ببكينهام هاوس، الذي بنى على غرار قصر بكينهام بمبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه، باعتباره باهظ الثمن، واشتروا بدلا من ذلك بيت مونتاجيو في بلومزبرى، من إيرل هاليفاكس، بمبلغ متواضع قدره ١٠٢٥٠ جنيه.

والى بيت مونتاجيو، الذى هو الآن المتحف البريطانى، أحضرت أول آثار مصرية يتم شراؤها ووضعها للعرض نيابة عن الأمة. لقد كانت أشياء صغيرة : وجوه آلهة من البرونز والحجر، وفخار من طين محروق، وأشياء مطلية بالزجاج، وتمائم، وبضعة جعارين مثل التى يمكن أن توجد فى أسواق بازارات القاهرة والإسكندرية، ثم ينتهى بها المطاف فى خزانات سير هانز سلوين.

وفى عام ١٧٥٦، استحوذ المتحف البريطانى على أول مومياء وكفن آلا إلهيه، بناء على وصية الكولونيل ويليام ليثولير. وقبل الأوصياء بسرور هبة أخرى من المعروضات اشتملت على مومياء ثمانية وتابوت، ومعهما "بجعة من القفار". وضعت جميع الأشياء للعرض فى حجرات المتحف العليا الأنيقة. وحين وصلت الآثار التى أخذت من علماء بونابرت عام ١٨٠٢، وكانت تحتوى على أشياء حجرية تزن عدة أطنان، كان من الواضح أن الأرضية لن تحتملها، فوضعت فى سقفيات مؤقتة فى الحديقة. وحين قرر الأوصياء شراء رخامات تاونلى — وهى آثار إغريقية ورومانية كانت تعرض فى قاعة عرض خاصة فى ميفير — جاءهم الإلهام ببناء جناح جديد فى الركن الجنوبى الغربى من دار مونتاجيو. وأصبحت

قاعة تاوولى، التى افتتحت فى ٣ يونيه عام ١٨٠٨، مقرا لمجموعات من الشخصوس العارية على الطريقة الكلاسيكية، وكذلك بعض القطع الأكبر حجما من المجموعة المصرية.

ومن أجل تدعيم المجموعة المصرية، كان سير جوزيف بانكس قد كتب يلح على هنرى سولت بأن يمدده بالآثار، إذ كان سير جوزيف بانكس رئيسا للجمعية الملكية وأميننا سابقا للمتحف البريطانى. وشعر سولت بهذه المساندة من هذه الشخصية صاحبة النفوذ، حتى إنه استخدم أمواله كى يمول عمليات بيلزونى، ولم يخالجه أدنى شك فى أنه سوف ينال التعويض الوافى. ومع ذلك انتظر سولت بنفاد صبر كى يتلقى تعبيرا عن العرفان بشأن رأس ممنون، الذى كان قد أرسله هو وبوركهارت هدية للمتحف البريطانى، إذ كان يتوقع على الأقل، خطاب شكر من لورد كاسلرى وزير الخارجية. وكان هناك صمت طويل، بل إنه لم يتلق خبرا ينبئه بأن الرأس قد وصل بسلام .

ورغم خيبة الرجاء إلا أنه لم يتخلَّ عن هدفه، فهو بلا شك عزا ما حدث إلى البيروقراطية المتباطئة. وكان يرى أنه فى خضم نضال وطنى من أجل الدفاع عن مصالح بلاده فى مصر فى مواجهة المصالح الفرنسية. ذلك أن دروفيتى كان قد نهب وادى النيل بحثا عن أثمن الكنوز من أجل متاحف فرنسا؛ وكان الزوار الرسميون يشجعونه ويخلعون عليه آيات الشرف فى كتابات الرحالة الفرنسيين على ما يؤديه لبلاده من خدمات .

لقد نقل سولت الحرب إلى معسكر العدو، إذ تمكن من الحد من نشاط الفرنسيين؛ واستولى على الضفة الشرقية للنيل. ومن خلال توكيله لبيلزونى، اكتشف ممنون الشاب، وفتح المعبد العظيم فى أبو سمبل، واكتشف أجمل المقابر فى وادى الملوك. لقد أرسل بالهدايا للمتحف البريطانى، وحافظ على الكلمة التى أعطاهها لواحد من أكثر أوصيائه نفوذا؛ واستهلك رأس ماله، وأنفق مبالغ كبيرة من الألف والخمسمائة جنيه التى تركها له أبوه فى أعمال الحفر فى الصعيد .

وفى عام ١٨١٨، حين سمع الخبر المزعج بأن الأوصياء (الأمناء) غير مبالين لتلقى مزيد من الآثار من مصر، كانت هناك مجموعة كبيرة موجودة على

أرض القنصلية فى القاهرة، كما كانت هناك العديد من القطع قابضة فى مواقعها فى الصعيد فى حاجة إلى المال كى يتم نقلها. وكان الأوان قد فات للتوقف بالنسبة له. إذ إنه فى الواقع كان قد رفع مكافأة بيلزوني فى ذلك الوقت كى يبقى عليه فى عمله حيث هو، فى ذلك المكان البعيد، ولاشك فى أنه اعتقد أن التقرير الذى تلقاه والذى يشير إلى تغير فى المزاج، قد يكون تقريراً خاطئاً أو مبالغاً فيه، فكتب لراعيه وصديقه ويليام هاميلتون، الذى كان حينذاك وكيلاً لوزارة الخارجية، طالباً النصيح.

وأشار سولت إلى أنه قد أنفق الكثير من ماله الخاص حتى إنه قد لا يكون قادراً على العودة إلى إنجلترا أبداً ما لم يتخلص من مجموعة الآثار بثمن مرض: "سوف يحكم على بالبقاء هنا للأبد، وأظن أنك توافقنى على أن هذا لن يكون مصيراً مرغوباً فيه، بما أن الادخار من راتبى أمر غير ممكن لأنى أدفع الكثير من المال للحفاظ على هبة القنصلية". وأخبر هاميلتون أن لديه "تمثالين خشبيين لملكين بالحجم الطبيعى، شهد هيرودوت بأنهما فى مقبرتهما؛ وكذلك بعض رؤوس الأبقار؛ وغيرها من الحيوانات، وشخوص صغيرة"... يلزمه التخلص منها.

ومضى سولت فى ارتكاب ما قد تكون غلطته الأولى، زاعماً أن تماثيله تلقى الضوء على النحت عند المصريين، "وتبرهن على حقهم فى ادعاء التفوق العظيم فى ذلك الفن، وتظهر على نحو مقنع أن الإغريق قد استعاروا الأسس إن لم يكن أكثر من ذلك، من هذا الشعب غير العادى". فمع أن هاميلتون كان متعاطفاً مع الآثار المصرية، بل إنه كتب أحد الأعمال الجادة الأولى التى تناولت هذا الموضوع، إلا أنه كان أيضاً منشغلاً بالنحت الكلاسيكى، إذ ساعد فى المفاوضات لشراء قطع رخام الجين، حيث كان سكرتيراً له، وتسبب هذا فى فضيحة صغيرة. ولم يكن ذلك ناتجاً عن اعتقاد بأن قطع الرخام قد سرقت من اليونان، وإنما لأنها كانت غالية الثمن، فكان لا بد من تبرير الإنفاق من المال العام على النحت الإغريقى، لذا كان هاميلتون حساساً لأى إحياء بأن أعمال النحت هذه قد لا تكون فريدة من نوعها.

ولما كان الأوصياء (الأمناء) قد ضغطوا من أجل إنفاق مبالغ كبيرة من المال فى العامين السابقين على قطع رخام تاونلى (٢٨٢٠٠ جنيه)، وقطع رخام الجين



(٣٥٠٠٠ جنيه)، وقطع الرخام الفيجالية التي بلغ ثمنها ١٩٠٠٠ جنيه، بعد كل هذا الإنفاق كانوا هم أيضا حساسين لأى ادعاء بأن أعمال النحت هذه لا تمثل الإنجاز الفنى الإنسانى فى أكمل صورته.

ثم ارتكب سولت غلطته الثانية. إذ كتب لهاميلتون يقول إنه من الصعب تقدير قيمة مجموعته، غير أنه ذكر بشكل عارض أنه يقع تحت ضغط كى يبيعها لكونت دى فوربان من أجل ملك فرنسا، لكنه رفض ما يعلم أنه ثمن مجز لأنه سوف يكون "أسفا إذ يرى مثل هذه الأشياء خارج إنجلترا". واستطرد سولت طالبا مساعدة حكومية لشحن هذه القطع لإنجلترا، وقال إنه يسعده قبول تقييم يقوم به هاميلتون نفسه، أو غيره من الأشخاص الذين قد تعينهم الحكومة.

وألحق سولت قائمة من الأسعار التى يرى أنها منصفة كى يساعد فى عملية التقييم، مضيفا أنه يجب النظر إليها على أنها "قيمتها المفترضة؛ غير أنى فى هذه الأسعار قد أكون مخطئا إلى حد كبير، إذ إنى لست أعلم مطلقا كيف يمكن أن تباع هذه الآثار، فمثل هذه لم تر قط فى أوروبا".

ولا يبدو أن تقييماته غير الواثقة لم تكن معقولة، فإذا ما نظرنا إلى الوراء نجد رأسا ضخما لتحتمس الثالث من الكرنك بيع بخمسمائة جنيه، وذراعا توافقها بخمسين جنيه، وتمثالين لهما رأسا أسد بأربعمائة جنيه، وتمثالا جالسا لسيتحس الثانى، من طيبة، بثمانمائة جنيه. لقد كان أثنى ما فى هذه القائمة هو التابوت الحجرى من مقبرة سيتحس الأول، وقد مثل أكبر مشكلة أمام سولت، فكتب: "كان من المستحيل على أن أقدر قيمته، ولكنى أظن أنها ما بين ثلاثة وأربعة آلاف جنيه، فهو من المرمر، ولا يوجد ما يضارع المهارة التى صنع بها".

ومع أن خطاب سولت قد كتب لهاميلتون بصفة خاصة، إلا أن هاميلتون قد عرضه دون حصافة على العديد من الأوصياء (الأمناء)، بمن فيهم سير جوزف بانكس، فكتب سير جوزف خطابا عنيفا لسولت، وكان فى ذلك متأثرا بالكدمات التى خرج بها حديثا من الجدل الذى ثار حول الأموال التى أنفقت على أعمال النحت الإغريقية.

كما أن سير جوزف ربما كان يشعر بقليل من الذنب، سببه أن تشجيعه لسولت قد زود المتحف بادعاء إضافي يتعلق بما أنفق على الأعمال الإغريقية من أموال، فكتب يقول: سيدى العزيز، مع أننا، هنا، راضون تماما فى الحقيقة، بتمثال ممنون، ونعده رائعة من روائع النحت المصرى؛ إلا أننا لم نضع هذا التمثال بين أعمال الفنون الجميلة، فهو موجود فى الحجرات المصرية. أما إذا كان أى تمثال وجد فى مصر يمكن أن ينافس الأعمال العظيمة الموجودة فى قاعة تاونلى، فهذه مسألة تظل فى حاجة إلى إثبات، ما لم تكن حقا كذلك. ومن غير المحتمل تماما الحصول فى أوربا على الأسعار التى وضعتها على ما تمتلكه.

لم تنشأ فكرة عدم اعتبار "إحدى روائع النحت المصرى" "عملا من أعمال الفنون الجميلة" لدى سير جوزف بانكس، الذى كان ثريا وصاحب نفوذ، ويتمتع بشهرة محدودة فى مجال التاريخ الطبيعى (الأحياء)، وإن لم يكد يعد حكما على الذوق. فالفكرة فى الواقع كانت تعكس الأحكام المسبقة لدى قادة المجتمع، الذين ربوا تربية كلاسيكية، خاصة أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى، الذين كان يهمهم الحفاظ على مقاييس مؤسستهم، والارتفاع بذوق الجمهور.

كانت المشكلة التى تواجه الأوصياء مشكلة مألوفة، فقد نص قانون إنشاء المتحف على "أن يتمكن الأشخاص المجدون المحبون للاطلاع من الوصول بحرية"، و كما قال أحد الأوصياء (الأمناء) "لا يجب وضع أية حدود للحرية العامة لجميع الناس العاديين من جميع المستويات والمذاهب، وهناك الكثير من التعديلات التى سوف تتركبها قلة من المنفلتين ولا يستطيع أحد منعها، إذ سرعان ما سوف يسبهم مثل هؤلاء الناس، إذا أقدموا على السيطرة عليهم أو معارضتهم". فأدخل إجراء إدارى للحفاظ على نص القانون، وفى نفس الوقت معارضة روحه: فكل الزائرين عليهم أن يقدموا أنفسهم عند سكن البواب (غرفة الاستقبال أو الحارس)، ويمثلوا ورقة يكتبون عليها أسماءهم وأوضاعهم، لتبين المنفلتين قبل أن يمنحوا تذكرة.

وبما أن هذه العملية يمكن أن تستغرق عدة أسابيع، فقد جعلت الكثيرين يشعرون بالخذلان، لا لشيء إلا لاستنفاد صبرهم. وتزايد عدد مقدمى الطلبات، مع

ذلك، واتبعت عادة أخذ مجموعات فى جولات متعجلة، مع عدم تشجيع الحوار، فأدى هذا إلى احتجاج فورى من زائر من بيرمنجهام عام ١٧٨٥ "فى غضون ثلاثين دقيقة أنهينا رحلتنا فى المقر الأميرى، وهى رحلة كانت قميئة بأن تستغرق ثلاثين يوماً، فخرجت كما دخلت من حيث المعرفة، كل ما هنالك أنى خوفاً من إضاعة فرصتى، انتزعت نفسى فجأة من بين ثلاثة من الرجال الذين كنت منشغلاً معهم فى حوار شيق، وضاع على إفطارى، وتعرضت للبلل حتى جلدى، وأنفقت نصف كراون على العربية التى استأجرتها، ودفعت شلنين ثمناً للذاكرة، ودفعت بعنف فى الحجرات ... وكنت وضعت أهمية كبيرة على المتحف البريطانى أكثر من أى شىء يمكن أن أراه فى لندن، فإذا به هو المنظر الوحيد الذى أصابنى بالاشمئزاز....".

ومع مقدم عام ١٨١٠، سمح "للأشخاص ذوى المظهر اللائق" بأن يتأخروا فى الأقسام أو قاعة الآثار دون أى تحديد للوقت"، وكان هناك تغيير دقيق حاذق فى الجانب الذى يتم التركيز عليه، حين قال الأوصياء (الأمناء) إن هدفهم: "هو دفع العلوم والفنون إلى الأمام، وليس إشباع فضول الجماهير... بحثاً عن التسلية". وفى إطار هذا الهدف، كانت الآثار المصرية تمثل مشكلة، ذلك أن معظم الناس كانوا يبحثون عن التسلية من وراء الحلقة فى مومياى أو سيدة برأس أسد، بدلاً من النظر إلى صفوف باردة لا حياة فيها من التماثيل الكلاسيكية الحجرية. فقد تكون شعبية الآثار المصرية وما تثيره من فضول هو الذى جعل الأوصياء (الأمناء) يتعصبون ضد هذه الآثار، وربما الحاجة إلى تأكيد على الميزة الفنية الراقية فى المجموعات الإغريقية والرومانية، فوجد سولت نفسه يعمل فى مناخ من الآراء غير المواتية.

وفى مايو من عام ١٨١٩، تلقى سولت خطاباً من صديقه ويليام هاميلتون مصاحباً لخطاب سير جوزف بانكس يقول فيه: "لا يسعنى إلا الاتفاق مع سير جوزف فى توصيتك ألا توغل فى الحفر بحثاً عن كنوز النحت المصرى المدفونة، وفى هذه الأوقات التى يسودها الاقتصاد فى الإنفاق، ربما يميل جون بول بسهولة إلى إحكام كيس النقود، حتى لو كان ذلك على حساب فقد الآثار الفريدة التى اكتشفناها".

حين تلقى سولت هذين الخطابين، كان مقيدا بالبقاء فى القاهرة أثناء نوبة من الطاعون تفشت فى البلاد، وغابت آماله فى تحقيق الأمن المالى وربما التكريم. كما كان تغيير المزاج فى لندن مثيرا للمزيد من التنغيص، لأنه بدا نتيجة لمرشد (دليل) الأسعار البرىء الذى أرسله سولت لهاميلتون، مؤكدا على أنه قد لا يكون موافقا للسوق. لقد تناقلته فى الواقع، أيدى الأوصياء (الأمناء) الذين أحسوا بالذهول، ودمغ سولت المسكين بأنه "تاجر" وأنه "لورد الجين آخر" بسبب هذا المرشد السعري (دليل الأسعار). لقد فقد ما كان يعتبره أعلى من رأسماله، ونعنى به ثقة أولئك الرجال الموجودين فى الوطن.

ومع ذلك، كان هناك طريق واحد متاح يسترد به كرامته، وعلى الفور اتبع سولت هذا الطريق. ففي ٢٨ مايو ١٨١٩، كتب أربعة خطابات. كان الأول موجها إلى سير جوزف بانكس يعرض فيه مجموعته الكاملة للمتحف البريطانى بدون أية شروط من أى نوع، معبرا فقط عن الأمل فى أن الأوصياء (الأمناء) قد يرون أنه من المناسب تعويضه ما أنفق من مصروفات، وألا تغض الحكومة النظر عن خدماته.

والخطاب الثانى كان موجها إلى صاحب النيافة تشارلز يورك، وهو راعى سولت فى وزارة الداخلية، أخبره فيه بالعرض، واعتذر عن "قائمة حمقاء" بالتقييمات، وشرح محنته المالية. وكتب أنه قبل منصب القنصل العام، أصلا، وهو يفترض أنه سوف يتلقى معاشا فى نهاية خدمته، شأنه شأن سلفه الكولونيل ميست. وعلم منذ ذلك الحين أن معاش الكولونيل ميست مرتبط بواجباته كمقيم وليس كقنصل عام، وأبلغ بأنه لا يجب أن يبنى أى شىء على هذه التوقعات، "وما دامت لا توجد أى فرصة فى توفير أى شىء من راتبى القنصلى، يتمشى مع ما أعتبره واجبا للاحتفاظ بمؤسسة كهذه بما يضمن احترام مكانتى، ويمكننى من دفع ضروريات الرحلة، فقد قضى على بالحرمان فى مصر مدى الحياة".

وبالرغم من هذا المستقبل المرعب، وما يمكن أن يتحقق له من راحة من بيع مجموعاته للفرنسيين، فليس لسولت من رغبة سوى منحها للمتحف البريطانى: "ولم يهدنى إلى هذه الخطوة مبلى لخدمة الجمهور فحسب، وهو ميل قد تغلب على أية

اعتبارات شخصية فى عقلى، وإنما عن رغبة فى الإذعان لمشيتكم".... ولا يوجد من سبب يدعونا إلى الافتراض بأن وطنية سولت لم تكن صادقة؛ ومع ذلك، فقد كان على وعى بأن المسؤولين الذين ينتظر أن يحصلوا على مكافآت حكومية هم الذين يظهرون إخلاصا للمصلحة الوطنية، دون أن يأملوا فى الحصول على مكافأة.

أما الخطابان الآخران، فكانا لصديقى سولت، للورد ماونتوريس، وويليام هاميلتون، يخبرهما فيهما بالإجراء الذى اتخذه. وكان بالنسبة لهاميلتون، أكثر تحديدا إلى حد ما فيما يتعلق بآماله. فبينما كان يقسم بأنه "فى مقابل ألا أخسر ثقتك، وثقة سير جوزف ومستر يورك، فأنا أؤكد على أنى أتخلى عن جميع ما فى الكون من آثار"، واستطرد فى: "الخلود إلى فكرة أن الحكومة يوما ما سوف تتذكر خدماتى، وتمكننى بترتيب معين فى المستقبل، حتى أقضى أيامى الأخيرة فى أوروبا".

لقد كانت خطوة جريئة تلك التى خطاها سولت حين تخلى عن أى ادعاء بأحقية فى مجموعته، لمجرد الأمل فى أن يتلقى معاملة طيبة فى المستقبل. ولم يكن أمام سولت ما يفعله وهو حبس منزله، والطاعون يحصد الأرواح من حوله، سوى القعود وانتظار النتائج. أثناء ذلك، تمكن من تسوية أموره مع بيلزوني مجملا دينه البالغ ١٦٩ جنيه إلى مائة جنيه، ومضيفا بضعة أشياء من مجموعته أحس بأنه يمكنه الاستغناء عنها.

ويسجل سولت أن بيلزوني "بدا فى غاية الرضى وعبر عن أمله، عند الفراق، بأن نظل أصدقاء". لا بد أن القنصل قد أحس بالحسد حيال بيلزوني، للمرة الأولى طوال علاقتهما، لأنه كان فى طريقه كى ينال معاملة الأشخاص ذوى الحيثية فى لندن.

وكان اسم بيلزوني قد أصبح له رنين أسماء الأبطال فى العاصمة عن طريق دورية فصلية، وهى صحيفة واسعة الانتشار نشرت انتصاراته على الفرنسيين فى وادى النيل. وأدخلت هذه القصص البهجة على قلوب القراء الذين كانوا يسرهم أن يتلقى الفرنسيون معاملة مزعجة مؤرقة فى ادعاءاتهم بالعلم بمصر، لم تعف منها

حتى المجلدات الرائعة من كتاب وصف مصر "يعرف الجميع أن الفرنسيين قد أرسلوا جيشا صغيرا من العلماء مع جيشهم إلى مصر، كي يحتفلوا وليقر قرارهم في بلاد البطالمة الخصبية العريقة، ويحتفوا بالفتح الذى لم يدعوا مجال للشك فيه. وحين أخرج هؤلاء من أرض كنعان بقوة السلاح البريطانى، لم يدخروا جهدا فى خلق غنيمة حرب فى هيئه كتاب ضخم كى يخلدوا شهرتهم، ذلك أن عدد الأقدام المربعة فى إحدى صفحاته لا مثيل له فى تاريخ صناعة الكتب.<sup>(\*)</sup> كما أعلنت هذه الدورية الفصلية عن الهدية المتمثلة فى رأس ممنون الشاب للمتحف البريطانى، قائلة إنه من خلال جهود سولت، وبيلزونى من الوارد أن تصبح هذه المؤسسة (أى: المتحف البريطانى) أغنى مستودعات الآثار فى العالم. وكانت الدورية سعيدة إذ تنشر تعليقات سولت عن تفوق بيلزونى على أفضل الفرنسيين "فى الواقع، لقد مكنته مواهبه العظيمة، وعبقريته غير العادية فى الميكانيكا من أن يحرز نجاحا فريدا ... فى نقل قطع هائلة الحجم يبدو مما رأيناه أنها قد تحدث المهندسين الأكفاء الذين صحبوا الجيش الفرنسى".

وردا على الادعاء المذهل الذى عبر عنه مسيو جومار، محرر دورية العلماء الفرنسيين، الذى قال إنه لما كان الفرنسيون قد ضحوا كثيرا كى يميظوا اللثام عن آثار مصر، فيجب أن يكافئوا باعتبارهم المالكين الحقيقيين لهذه الآثار. فعرض محرر الدورية الفصلية أعمال بيلزونى العظيمة فى المقابل، إذ قال: "لا نعتقد أن مستر بيلزونى قد نال قدرا كبيرا من التعليم، أو أنه يتمتع بعلم عميق، غير أنه من المؤكد أنه يملك موهبة عميقة للبحث ويتمتع بصبر لا ينفد... وبفضل ما بذل هذا الرجل من جهد، من المحتمل أن يصير المتحف البريطانى أول مستودع فى العالم للفن المصرى والآثار المصرية، ونثق فى أن كل تشجيع ممكن سوف يعطى لهذه الجهود، وذلك بمكافأته بسخاء لما قام به، وكذلك بإعطاء الوعود بالمزيد من المكافآت فى المستقبل التى تتناسب مع ما يقوم باكتشافه".

(\*) نظن أن "جيش مصر" يقصد به الجيش الذى سير لفتح مصر. كما أنهم لا يفرقون بين أرض مصر وأرض كنعان التى وردت فى التوراة، مما يثبت جهلا شديدا بهذه المنطقة، ليس أدل عليه من تسمية أرض مصر بأرض البطالمة. (المترجم).

كان الناشر جون مارى هو مؤسس هذه الدورية، لذا كان طبيعياً أنه بالنسبة لوضع هذا الرجل شديد الحماس لكل ما هو غريب، أن أخذ بيلزونى مخطوط كتابه: سرد لعمليات الاكتشافات الحديثة داخل الأهرام، والمعابد والمقابر، وأعمال التنقيب فى مصر وبلاد النوبة؛ وعن رحلة لساحل البحر الأحمر، بحثاً عن برينيس القديمة، ورحلة أخرى إلى واحة جوبيتر آمون .

أدرك مارى أن هذا هو الوقت المثالى لنشر الكتاب، إذ كان رأس ممنون شامخاً فى المتحف البريطانى كإعلان يصرخ باسم مؤلفه. وكانت هناك آثار أخرى قادمة، وكان بيلزونى قد خطط لعرض يخطف الأنظار فى وسط لندن، ذلك أنه كانت لديه قدرة على اشتغال ما تكافئه به الدعاية نظراً لحياته العملية على خشبة المسرح .

وكانت مصر ماثلة فى الوعى العام، فالحملة الفرنسية التى توجهت الى وادى النيل، ونشر كتاب وصف مصر، قد أثارا اهتمام الناس، الأمر الذى أطلق شرارة ما سمي "النهضة أو الإحياء المصرى"، رغم أن بعض مؤرخى المعمار يزعمون أن الاهتمام بالثقافة المصرية أو ما يشبه ذلك ظل حياً فى أوروبا منذ أوائل عصر النهضة. ومع ذلك، لم تشتعل جذوة مصر كهوس وطنى قبل ذلك، فلم يكن لها مكانة الآثار الإغريقية أو الرومانية، ولم يكن لها الظلال الوطنية التى كانت للأسلوب القوطى .

ومع ذلك، وحتى فى التسعينيات من القرن الثامن عشر، قبل أن ينطلق بونابرت، صممت، قاعة بلياردو من أجل بيت كيرنيس فى أباردينشير، وبها ما يمثل الكتابة الهيروغليفية حول المدخنة والأفاريز والأبواب، وبها مدفأة مبنية على هيئة مدخل مقبرة .

وأثناء سنوات الاحتلال الفرنسى لمصر، وقبل أن تصل أسماع العالم أصداء كشوفهم، كان توماس هوب قد جمع أثاث "حجرته المصرية"، (أى حجرته المصممة على طراز الحجرات الفرعونية)، وديكورها، فى الدار الكبرى فى شارع داتشيس فى لندن. كان الزائرون فى ذلك المكان، يشاهدون حجرة صغيرة أو مخدعا يوجد به معلاق للعباءات على شكل رواق من الأعمدة فى المدخل تحت

خيمة من القطن؛ وكان هناك "كرسى مصرى" يمثل كهنة يميلون إلى الأمام، وإيزيس مجنحة؛ وإفريز من الشخوص المصرية، ومومياء فى صندوق زجاجى.

كما كان ويدودج ينتج تنويعا واسعة من أشكال أبى الهول، والجرار التى تتخذ شكل قبة، وزهريات تمثل موضوعات مصرية متكررة، مثلما يحدث فى الأعمال الفنية التى كانت شائعة فى القرن السابع عشر.

وكان مصممو المناظر الداخلية يميلون إلى التنويع بمزج الأعمدة ذكرية الشكل والأعمدة ذات النقوش الفرعونية، والمسلات وتمثيل أبى الهول والجعارين.

لقد أعطى تدخل بريطانيا فى مصر، وكذلك الدعاية الكبيرة للانتصارات على الفرنسيين، دفعة لظهور أشكال من الموضة (الطراز) تعيد للذاكرة عطر الشرق الغامض. إذ شكا روبيرت سودى فى ١٧٠٨ إذ يقول: فى الوقت الحاضر يعود الجنود من مصر وقد كسرت أطرافهم، وأصيبت عيونهم بالرمد، ومع ذلك فهم يحملون ذراعا على حمالة، أو يجوبون الشوارع وقد لونوا جفونهم بظلال خضر.

كل شىء الآن يجب أن يكون مصرياً، فالسيدات يرتدين زينات من التماسيح، والمرء يجلس على أبى الهول فى حجرة تعلق عليها صور المومياءات من كل جانب، وكذلك الرجال السود ذوو الأذرع النحلية والأنوف الطويلة ذات الأشكال الهيروغليفية، التى يكفى النظر إليها لجعل الأطفال يخشون الذهب لفُرْشهم. بل أصبح من اللازم أن تتحول واجهات المحال إلى هذه الموضة، فتنقش بالأحرف المصرية، التى يمكنك أن تدرك، بلا شك، ما بها من غرابة، إذ إن المصريين لم تكن لديهم أحرف .

حين انطلق بيلزونى كى يقدم نفسه فى لندن، كان المجتمع يدغدغ مشاعره كل ما هو مصرى، وكان مهياً للمزيد من صنوف الإثارة المحسوسة، فوجد بيلزونى الموقع المثالى لمعارضاته فى القاعة المصرية، بيكاديلى، التى توجد بها واجهة يقال إنها مبنية على الرسوم التى رسمها دينون للمعابد فى دندرة. كانت النوافذ السفلى فى الواقع، على شكل الهرم المدرج، وكان على جانبى الباب صفان من



اللوتس الغليظ، الذى يختلف عن اللوتس المصرى. ويعلو النوافذ تماثلان ضخمان، لا يستطيع سوى النحات أن يحدد أنهما يمثلان إيزيس وأوزيريس.

وكانت قاعة العرض محمولة من الداخل على أعمدة عليها نقوش اللوتس والأشكال الهيروغليفية ورؤوس تمثل هاتور. أما السقف فكانت تزينه إشارات الأبراج الفلكية. فأنشأ بيلزوني داخل القاعة نماذج بالحجم الطبيعى لحجرتين فى مقبرة سيتحوس الثانى، ونموذجاً لميزان يزيد طوله على خمسين قدماً من المبنى بأكمله. كما كان هناك نموذج يبلغ ارتفاعه أربع أقدام للهرم الثانى مصنوع من الشمع، ونموذج آخر يبين الممرات والحجرات الموجودة داخل الهرم. وكان هناك نموذج آخر لمعبد أبو سمبل على مدرج من ثلاثين درجة؛ وحول الجدران كانت هناك تماثيل من الجص من باريس — تمثل أوزيريس وحورس وأنوبيس برأسه الذى يشبه ابن آوى — حيث يعبدها الفراعنة ويقدمون لها الهبات. وكانت كلها بألوان براقّة، بحيث تعيد إلى الأذهان الرسوم السريعة التى قام بها بيلزوني فى مصر. وكذلك كانت هناك الآثار الحقيقية، منها تماثيل لسخميّت برأس الأسد، وموميאות وصناديق زجاجية، مليئة بأشياء أصغر حجماً مثل الزهريات التى تحتوى على أوعية للموميאות، وقطع من حبل النخيل، وأحذية وأوراق بردى، ونقف من القبور والتماثيل والتوابيت الحجرية.

وانطلق المعرض انطلاقة طيبة، كانت لندن تحتشد ترقباً للتتويج الصيفى، وكانت القاعة المصرية تحتل موقعا جيدا فى الناحية الجنوبية من بيكاديلى، فى مواجهة الوصلة مع شارع بوند القديم، حيث كانت العربات تتوقف، كى تلتقط الركاب.

وفى يوم افتتاح المعرض، فى ٢١ مايو ١٨٢١، دفع ١٩٠٠ شخص نصف الكراون رسم الدخول، وتزاحموا داخل القاعة. وكتبت صحيفة التايمز رأياً متوازناً محبذاً للمعرض: "نعتقد أن كل عين يجب أن تسر بهذا المزيج الفريد، والترتيب الذكى للأشياء الشديدة الجودة والمثيرة فى ذاتها .... فالعبقريّة الميكانيكية والاجتهاد الذى لا يعرف الكلل — اللذان استطاع بهما مستر بيلزوني أن ينتقل لحلبة الجدل الأوروبى على هذا النحو، ولولاه ما كانت لتنتقل نتائج أعمال التنقيب فى مصر —

يمنحان شهادة بأنه فنان، بقدر ما تعكس حصافته ونجاحه في الكشف عن موضوع هذا المعرض غير العادى، مما ميزه على جميع الرحالة الأوربيين فى الأزمنة الحديثة.

ظل المعرض مفتوحا لما يزيد على عام، وصار ملتقى مفضلا، "يأتى إليه الممتازون من الناس"، كما كتبت ليدى بليسينجتون، "لمجرد قضاء ساعة من الزمان، أو ترقبا للقاء معارفهم".

كما عملت آثار النيل عمل السحر فى النفوس الأكثر رهافة، حتى إن الشاعر هوريشيو سميث تأثر فألف "خطابا للمومياء فى معرض بيلزوني": "... وهل تجولت — وبإلها من قصة عجيبة — فى شوارع طيبة منذ ثلاثة آلاف من السنين؟ حين كان ممنون فى ذروة المجد، ولم يكن الزمن قد بدأ يقلب هذه المعابد والقصور والأكداش المهولة، حيث الحطام ذاته عظيم". الشاعر فى شوق للتجاوز: "تكلمى فلطالما كنت صامتا، إن لك لسانا بليغا.. هيا فلنسمع نغماته. ها أنت تشمخين بأقدامك فوق أديم الأرض، أيتها المومياء، تزورين ضياء القمر من جديد، ليس كأشباح هزيلة، أو مخلوقات شائثة، وإنما بعظامك ولحمك وأطرافك وقسماتك. غير أن المومياء تأبى أن تجيب إذ كان من غير الممكن البوح بأسرار القبر، فإن طبيعة حياتك الخاصة تتكشف، فقد نبض القلب تحت الصدر الجلدى، والدمع ينهمر فوق الخد الترابى، هل شب الأطفال ولثموا ذلك الوجه؟.. ما عساه كان اسمك ومكانتك وعمرك وجنسك؟".

أثناء صيف عام ١٨٢١، بينما كان بيلزوني يختلط بالمجتمع الراقى فى لندن، ويندمج مع أفراد العائلة المالكة فى المحفل الماسونى الذى كان عضوا فيه، ويتناول العشاء مع سير وولتر سكوت فى حجرات جمعية ألك فى سينت جيمز، أثناء هذا كله، كان سنده سير هنرى سولت يرقد فى القاهرة وقد أحالته حمى التيفود إلى هيكل عظمى. وظل الخطاب الذى أرسله إلى سير جوزف بانكس بلا رد، ولم يقدر له أحد عرضه غير المشروط بأن يقدم مجموعته الكاملة للمتحف البريطانى. وعندما تلقى أصدقاء سولت وراعوه تفسيراته لسوء الفهم الذى نجم عن قائمة الأسعار التقديرية التى أرسل بها، كانوا قد تحلقوا فى لندن. وكتب كل من ويليام

هاميلتون ولورد مونتغومري وشارلز يورك لبانكس يلحون عليه للضغط من أجل قبول عرض سولت، وأن يكون ذلك مقابل تعويض معقول.

وكان بانكس متفائلا، فبالرغم من أنه احتج على أن اعتذار سولت على إرسال قائمة الأسعار لم يشرح دوافعه لإرسالها أصلا، إلا أنه قال إنه سوف يعرض الأمر في الاجتماع التالي لمجلس الأوصياء (الأمناء)، مضيفا بأنه لا يكاد يخامره شك في أن العرض "سوف يتم قبوله على الفور". على أي حال فقد مرض بانكس بحلول ذلك الوقت مرضا خطيرا، ومات في العالم التالي دون أن يتلقى أى قرار.

وكان هنرى سولت قد وجد في مصر عزاء من نوع ما. كان قد أحس منذ وقت طويل بفراغ خطير في حياته، عبر عنه للورد مونتغومري فى أغسطس ١٨١٨، ومع ذلك فإن الحاجة الماسة التى أحس بها، هى رفقة الزوجة: "ذلك أن عواطفى قوية، وأريد أن يكون حولى من أستطيع أن أحب، فلو كان لدى أبناء، لمألت السعادة قلبى؛ لكن هذا الجمود بالإضافة إلى البعد عن العلوم والأدب والفنون والمعرفة والرفقة والذوق، فإن ذلك عقوبة تكفى لإصابة المرء بالجنون. ولكن مهما فكرنا فإن العجلة لابد أن تدور".

فى أكتوبر عام ١٨١٩، تزوج سولت أخيرا. وكانت زوجته هى ابنة مستر بينسا البالغة من العمر ستة عشر ربيعا. ومستر بينسا هو تاجر ذائع الصيت من ليجورن فى إيطاليا، وكانت أسرته معه حين كان فى شأن من شئون تجارته فى الإسكندرية. والتقى سولت بالفتاة هناك وتزوجها، وسرعان ما سقط صريع المرض فى يوم عرسه، وكان لابد من نقله إلى رشيد فى عربة مدير المديرية، حيث استقبله جراح من القاهرة، وتم نقله إلى هناك كى يرحل عن الدنيا، إذ لم يكن لدى الأطباء أى أمل فى شفائه، ولم يبعث فى روحه بعض القوة سوى عزمه على أن يستمتع بالزواج الذى طالما تاق إليه .

وطوال عام ١٨٢٠ كانت صحة سولت معتلة، فطلب الإذن بالذهاب إلى إنجلترا فى عطلة كى يقضى فترة النقاهة. ومنحت له العطلة فى ديسمبر من نفس العام، غير أن التوترات السياسية جعلت من الصعب عليه أن يترك منصبه، ذلك أن السفن الهندية كانت تحاصر الموانئ فى البحر الأحمر، وكانت هناك مخاوف

من زعزعة السلام مع روسيا، فقرر سولت البقاء في مصر حتى تستقر الشئون الدولية. وقضى تلك الفترة بعيدا عن فراش المرض في رعاية الباشا والاهتمام بواجباته الزوجية بقدر ما سمحت صحته حتى ذلك الوقت.

وفي نوفمبر عام ١٨٢٠، كتب للورد مونتنوريس: "سوف يسرك أن تعلم أن سيدتي في حالة مبشرة، لقد ألم بها عرض سيئ على مدى شهرين، ولكن يسعدني أن أقول، إنها تجاوزت الآن الشهر الثالث". كما تمكن سولت من تدبير سفينة شحن كي تنقل آثاره لترسل إلى لندن. وبالرغم من أنه كان لم يزل غير واثق بالنسبة لمآلها الأخير إلا أنه استخدم وكلا هو بينجهام ريتشاردس، ليقوم بتخزينها في المتحف البريطاني ريثما يتمكن من العودة إلى لندن وتسوية الأمر. واستمر سولت، أثناء ذلك، في تدعيم مجموعة الآثار التي جمعها.

ولما أرقده مرة أخرى التيفود في صيف ١٨٢١، قرر التوجه إلى أسوان للجو الأخف حرارة<sup>(\*)</sup>، ومعه مترجمه يني، وهناك قضى وقتا مثمرا وهو يرتب لنقل إحدى المسلات لصديقه بانكس، كما أخذ يستكشف المقابر الموجودة حول طيبة، وهناك تمكن يني من إزاحة التراب من فوق بعض المقابر الخاصة التي لم يلاحظها أحد من قبل، ومنها واحدة لأحد "الكتاب الملكيين" عادت بإضافات إلى مجموعة سولت: "حصلت على تمثال له ولزوجته، وحامل الألوان الخاص به، ولوحة الألوان، وجعران على هيئة خاتم عليه اسمه".

كذلك اكتشف يني مقعدا مصريا في حالة جيدة، يشبه تلك المقاعد المرسومة على جدران مقابر الملوك. وهذا المقعد مرصع بالعاج والأبنوس، وله شكل أنيق، إذ إن أجزائه متصلة بالكامل بواسطة خوابير أو دعائم خشبية، بدلا من المسامير أو غيرها من وسائل التثبيت. كما أنه عثر على قطع من آله هارب يسهل منها، أي هذه القطع، ترميم هذه الآله ... ولقد تم شحن هذه الكنوز إلى القنصلية في القاهرة، وبقي سولت مع هذه الأشياء الثمينة إلى أن سمحت له تسوية الحرب بين اليونان وتركيا بمغادرة القنصلية، فعاد إلى الوطن وباعها للمتحف البريطاني.

(\*) لم أفهم هذا. (المترجم).

فى لندن، لم يبد الأوصياء (الأمناء) أية إشارة تدل على أنهم توصلوا إلى أية نتائج فيما يتعلق بعرض سولت بإعطاء مجموعته للمتحف البريطانى، حين وصلت الفرقاطة التركية ديانا إلى ميناء لندن حاملة أبداع ما اكتشف حتى ذلك الوقت فى وادى النيل، وهو التابوت المرمرى الأبيض الشفاف من مقبرة سيتحس الأول.

كانت لدى بينجهام ريتشاردس تعليمات من سولت بتسليم التابوت للمتحف البريطانى، ومع ذلك، وقبل أن يتمكن من إنزاله من على الفرقاطة ديانا، كان بيلزونى قد وصل كى يقيم ادعاء. فبناء على اتفاق بيلزونى مع سولت كان من حقه نصف ما يكون ثمنًا للتابوت فيما يزيد عن ٢٠٠٠ جنيه. وانقضت السنوات الثلاث التى يجب أن يمنح أثناءها التابوت للمتحف البريطانى؛ وكان لدى بيلزونى عرضا مؤكدا من فرنسا بمبلغ قدره ٣٠٠٠ جنيه، لذا لم يكن المتحف البريطانى مخولا باستلام التابوت ما لم يكن قادرا على تقديم عرض يكافئ ما عرض على بيلزونى. فأصبح ريتشاردس فى حيرة من أمره، فأقنع وكلاء الفرقاطة ديانا بتأخير عملية الإنزال، وكتب لكل الجهات طالبا المساعدة.

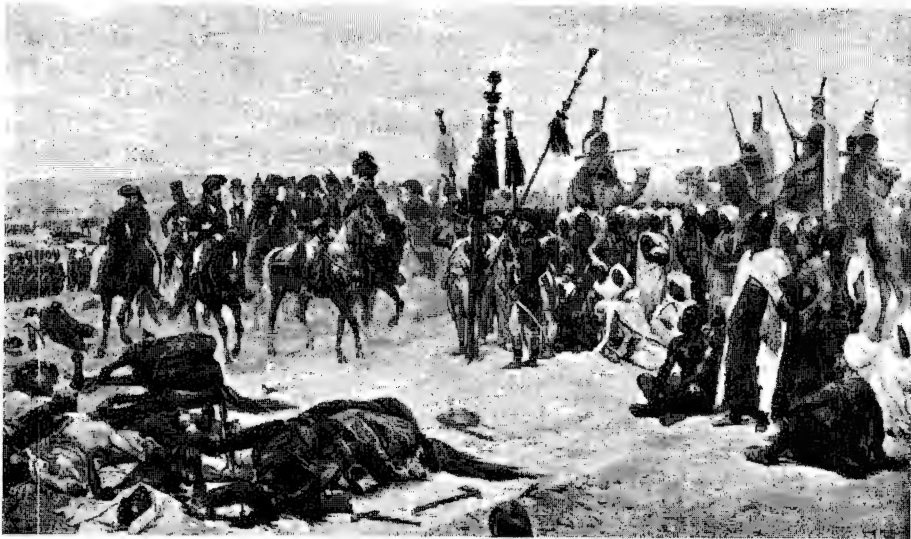
وأشار لورد مونتوريس بأن التابوت قد صرح بدخوله بإعفاء من الجمارك، لأن المقصود كان ضمه للمجموعة الوطنية، وأنه إذا ما بيع لفرنسا فيمكن دفع الرسوم ربما بمبلغ باهظ يربو على الفروق بين تقييمات المتحف البريطانى ومبلغ ال ٣٠٠٠ جنيه التى عرضها بيلزونى.

كما أثار تشارلز يورك نقطة جوهرية لم يشر إليها أحد، وبدا أن سولت يميل إلى تخطيها وعدم تناولها، فلم يكن سولت ليتمكن من الحصول على التابوت لولا وضع الشخصية العامة التى أسبغتها عليه الحكومة البريطانية، والنفوذ المستمد من ذلك على عقل ونوايا الوزير محمد. فلم يكن من الملائم السماح بجعل التابوت ينقل لأنه قد تم الحصول عليه، ولو جزئنا، بفضل ممارسة النفوذ البريطانى الرسمى.

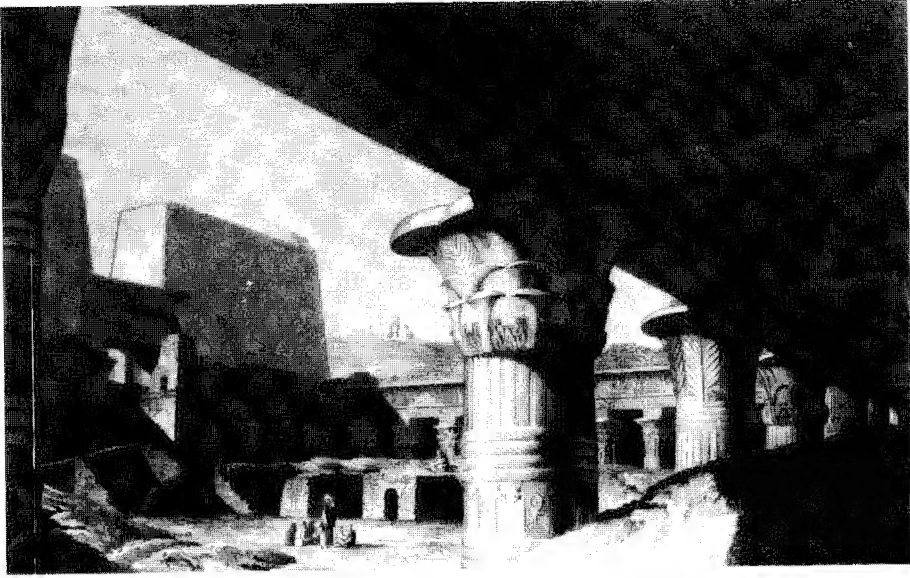
أما الخطاب الحاسم فجاء من والد ريتشاردس وهو فى حالة من الإعياء، مشيرا إلى أنه إذا ما تمكن بيلزونى بالفعل من ضمان عرض بمبلغ ٣٠٠٠ جنيه، فلسوف تتم مقاضاته إذا ما نقل التابوت للمتحف البريطانى بعرض أقل من ذلك. فتبنى ريتشاردس الأب وجهة النظر القائلة بأن الاتفاق بين بيلزونى وسولت غير



نابليون يتفقد موميااء، وحوله العلماء.



معركة الأهرام فى سنة ١٨٩٨ التى قتل فيها عدد كبير من البدو و الممائيك.

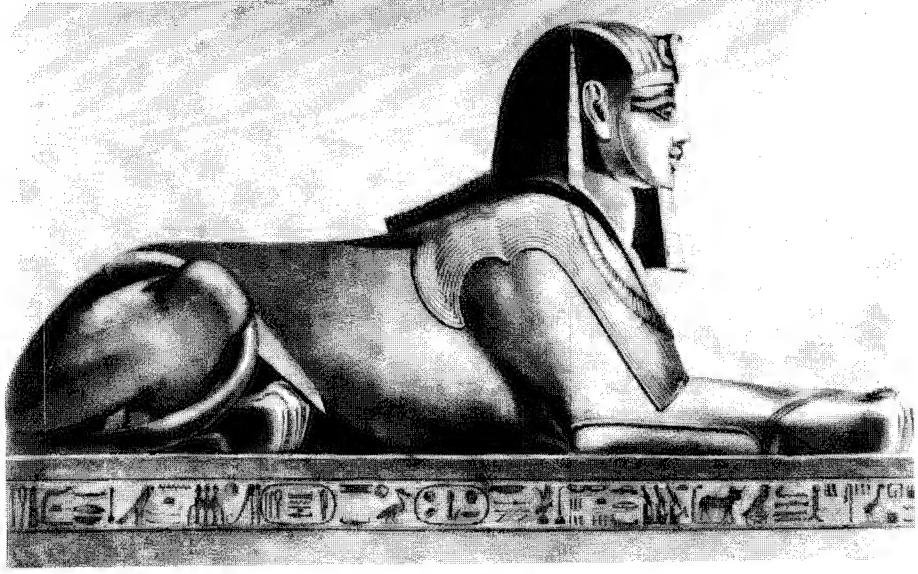


معبد إدفو، كاد يدفن تماما في الرمال.



بيرناردينو دروشتي، أكثر جامعي الآثار نشاطا في تلك الأيام، يريح يده على جبين أحد تماثيل أبي الهول، وحوله مساعدون من أهل البلاد يعينونه على الحفر، بتكليف من محمد علي.





تمثال أبى الهول، من الجرانيت الأحمر، من طيبة. إحدى جواهر مجموعة هنرى سالت. موجود الآن  
فى متحف هرمناج فى لينينجراد.



تمثال نصفى لرمسيس الثانى (من مجموعة  
هنرى سالت).

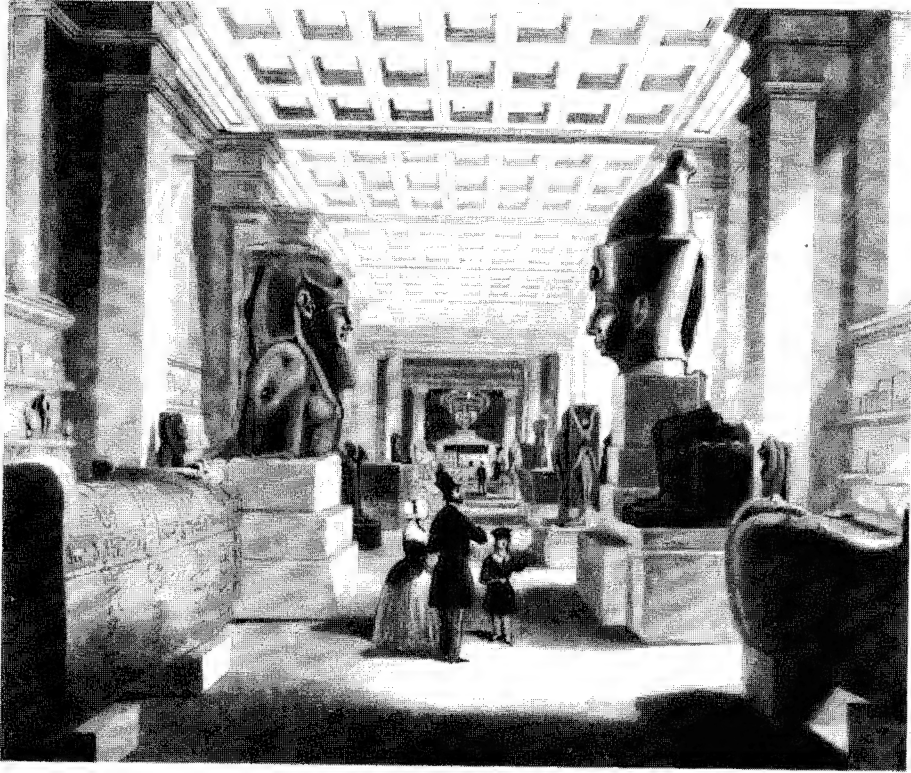


جيوڤانى بلزونى فى لباس أهل البلاد.





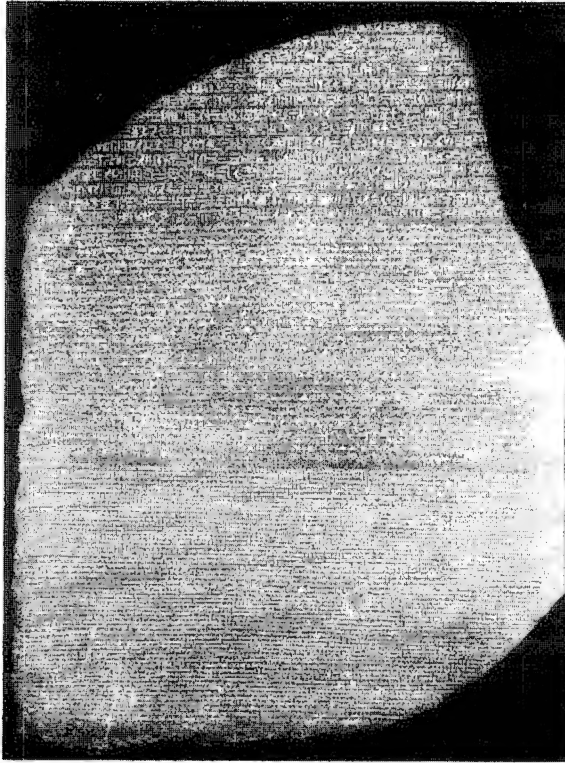
السير هانز سلون الذي كونت مجموعته أساس  
مجموعة المتحف الوطني البريطاني.



القاعة المصرية في المتحف البريطاني بوضعها الذي بقيت عليه حتى الآن.



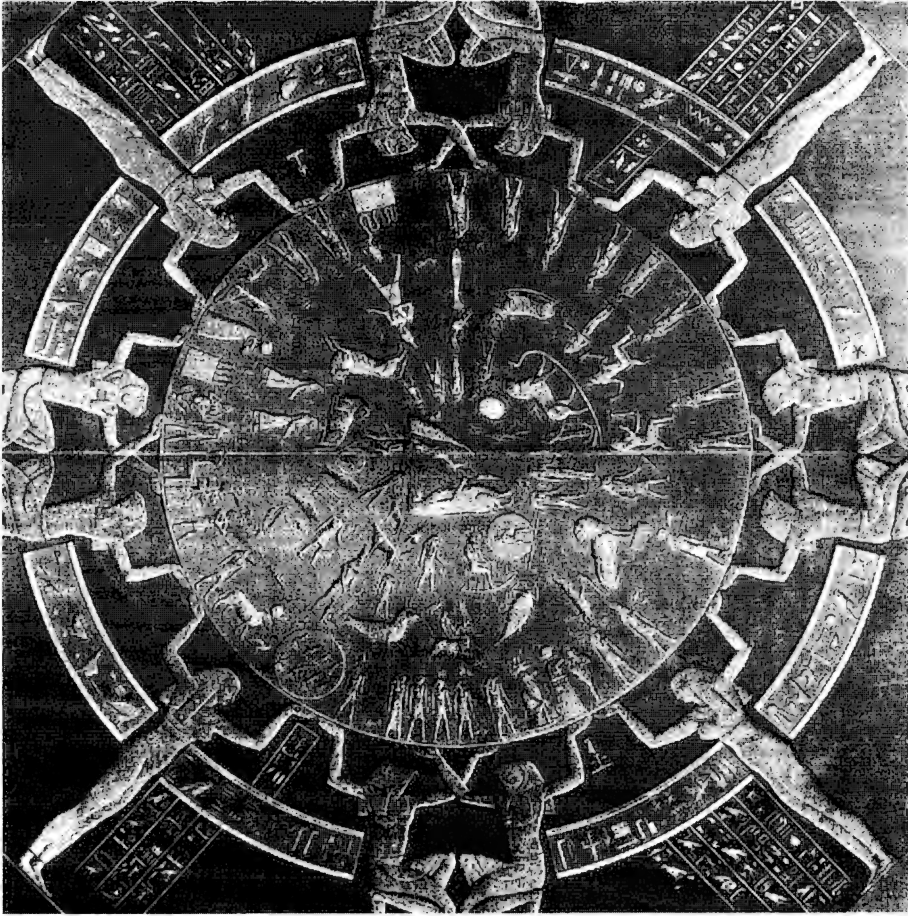
صالة الآثار المصرية في بيكاديللي ، وواجهتها تحاكي معبد دندرة.



حجر رشيد (الهيروغليفية إلى  
الأعلى، والديموطيقية في  
الوسط، واليونانية إلى الأسفل).



توماس يونج، الذي وصل للاستنتاجات الأساسية في فك أسرار حجر رشيد.



حفر لدائرة البروج في سقف معبد دندرة. نقله إلى فرنسا ليلوريان، وهو الآن في متحف اللوفر.



جان فرنسوا شامبليون.



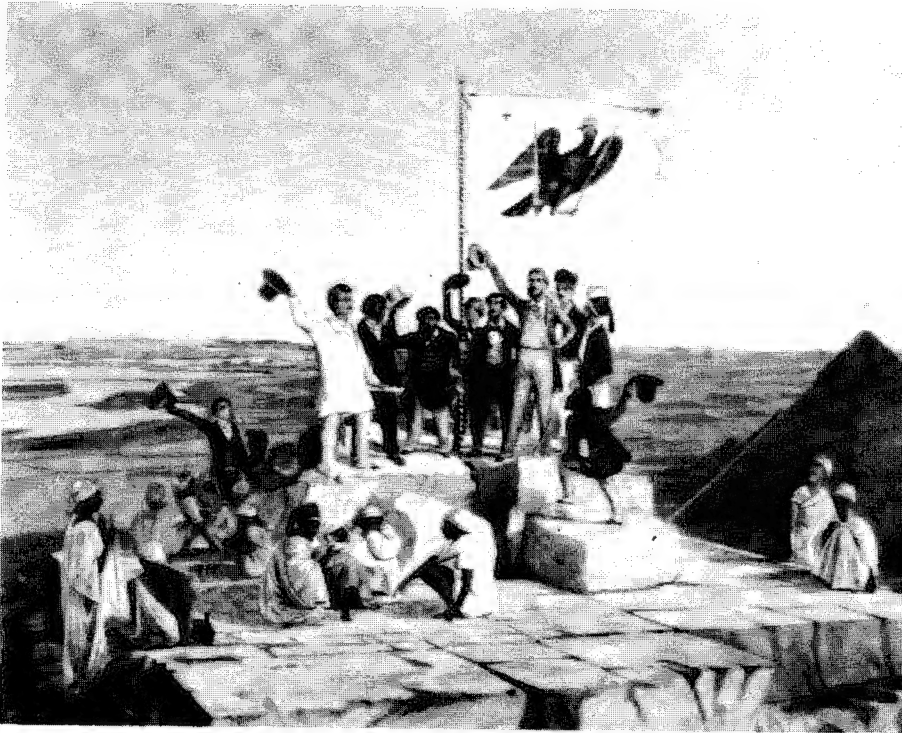
بارون فون بنسن الذى شجع ليبسيوس على  
إجراء حفرياته فى مصر.



معبد دندرة كما رسمه — بروعة — ديفد روبرتس فى ديسمبر سنة ١٨٣٨.



رينتشارد ليبسيوس رئيس البعثة الأثرية  
البروسية ١٨٤٢ — ١٨٤٨.



النسر البروسي يخلق أمام أهرامات الجيزة.

ذى صفة، وأنه حتى لو جاء بيلزوني إلى مكان الشحن والتفريغ وهو يحمل ٣٠٠٠ جنيه نقداً، فسيكون من الخطأ تسليم التابوت، لأن هذا قد يفسح الطريق لابنه كى يطلب إقامة مزاد للتعويض عن الأضرار التى تسبب فيها أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى.

من الواضح أن وضع الوكيل الذى يتولى شحن الآثار يعد مجازفة، تماثل ما يجازف به ذلك الوكيل الذى نقب وحفر للحصول عليها أصلاً. فأنحنى ريتشاردس المسكين للنصيحة القوية، وأرسل التابوت للمتحف البريطانى. أما بيلزوني فكان، بالطبع، يريد أن يضع يديه على التابوت كى يضيفه إلى معرضه الذى نجح نجاحاً ساحقاً فى القاعة المصرية (أى القاعة المخصصة للآثار المصرية)، لقد كان شديد العزم حتى إنه كتب للأوصياء (الأمناء) عارضا استعداده للتنازل عن اهتمامه بالتابوت إذا ما سمحوا له بعرضه لاثنى عشر شهراً، بل ستة أشهر.

واستغرق الأمر شهرين حتى ينظر الأوصياء (أمناء المتحف) فى طلب بيلزوني، وحين فعلوا ذلك، أخيراً، تحاشوا الوصول إلى قرار، وكتبوا لسولت وسألوه عما يريد فعله. كان سولت، فى ذلك الوقت، يزداد توتراً. فلقد مضت سنتان منذ أن عرض مجموعته على المتحف البريطانى ولم يتلق أى رد.

وفى ١٠ مايو ١٨٢٢، كتب لأوصياء المتحف البريطانى مكرراً عرضه غير المشروط بمنح المجموعة بالكامل، بعد أن ازدادت ونمت بمرور الوقت. واهتم سولت بالإشارة إلى أن تجميعها قد كلفه ما يربو على ٣٠٠٠ جنيه، وأنه أنفق ما آل إليه من إرث أبيه على تكديسها، وليس لديه ما يعينه هو وأسرته مع اعتلال صحته، "وعلى إذن، أن أركن إلى كرمكم، ولسوف أكون راضياً كل الرضا بما سوف تقررونه فى صالحى". وكان هذا، بالطبع، غش قراح.

إذ إن سولت قد كتب قبل ذلك بأسبوعين فقط لريتشاردس يبلغه بأنه استتجد بأصدقائه من أصحاب النفوذ؛ لورد مونتوريس وتشارلز يورك وأحد الأوصياء، (الأمناء) ويليام بانكس، طالبا منهم الضغط من أجل الحصول على تعويض عادل له، مضيفاً على سبيل الشرح: "ربما يكون من الصواب أن أسر إليك بآنى أمل الحصول على أربعة آلاف جنيه من الحكومة، وإلا فسوف أشعر بالإساءة. أما إذا



كان المبلغ خمسة آلاف فسوف أشعر بتمام الرضا. واعتقد أنك تعلم أن مستر دروفيتي قد عرض علىّ في مصر عشرة آلاف دولار (حوالي ألفي جنيهه) لقاء التابوت، كما كرر نفس العرض على أحد الرحالة من بروسيا، هو بارون مينوتولي الذي رجاني إذا ما رفضت الحكومة أخذه بأن أجعله يعلم هذا الرفض. وفي فرنسا، يمكنني الحصول على ضعف ما ذكرته آنفا على الأقل لقاء مجموعتي، بالرغم من، — كما يلاحظ مستر يورك — أن هذه ليست حجة جيدة".

منح ريتشاردس سلطة الادعاء كي يتصرف نيابة عن سولت، فقال للأوصياء (الأمناء) إن مبلغ ٥٠٠٠ يمكن أن يكون مقبولا مقابل المجموعة والتابوت معا. وبما أن بيلزوني كان قد أبلغهم بأنه في وسعه الحصول على ٣٠٠٠ مقابل التابوت وحده، فإن عملية حسابيه بسيطة حسمت الأمر بأن يدفع الأوصياء ٢٠٠٠ مقابل المجموعة بدون أن تشمل التابوت — رغم أن الأمر استغرق عاما بأكمله كي يتوصلوا إلى هذا القرار.

وفي اجتماع رأسه كبير أساقفه كانتربري، في ١٤ فبراير ١٨٢٣، تم تقديم عرض رسمي بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه ورفض التابوت. ولم يكن بيلزوني، على أي حال، موجودا كي يتفاوض على بيع التابوت، وأنفق عاما بغير طائل يهدد برفع قضايا ضد المتحف البريطاني محاولا امتلاك التابوت، منقفا الوقت في التتقل في أرجاء أوروبا يتقبل إطراء الجمهور.

وعند عودته إلى إنجلترا في صيف ١٨٢٢، رتب لبيع محتويات معرضه في القاعة المصرية<sup>(٩)</sup> بالمزاد، ووفق على نحو معقول إذ بيع النموذج الضخم لمقبرة سيتحس بمبلغ ٤٩٠ جنيهها، كما بيع تمثالين برأس أسد يمثلان سخميت بهما تلف ضئيل بمبلغ ٣٨٠ جنيهها، وتمثال آخر بحالة جيدة مقابل ٣٠٠، حتى النموذجان الشمعيان وجدا من يطلبهما، ذلك أن معبد إيزيس في فيلة دفع فيه ٢٨ جنيهها، والنموذج الشمعي لمعبد أبي سمبل بيع بمبلغ ٢٤ جنيهه.

ساعدت هذه الأموال بيلزوني على شق طريقه حول أوروبا في جولة جديدة، وفي أواخر ١٨٢٣، منح سلطة الدفاع لصاحب النيافة جورج آدم براون، وهو

(٩) المقصود القاعة التي تضم الآثار المصرية في المتحف البريطاني. (المراجع).

زميل فى كلية ترينيتى بجامعة كيمبريدج. ثم قدم بيلزونى غطاء التابوت المصنوع من الجرانيت الأحمر الذى أعطاه له دروفيتى لمتحف فيتزوويليام، وانطلق بحثا عن مصب نهر النيجر، وتوفى إثر إصابته بالدوسنتاريا وهو فى طريقه إلى تمبكتو، فى ٣ ديسمبر ١٨٢٣.

بدا لبعض الوقت أن التابوت لن يجد من يشتريه، فكتب سولت وهو فى حالة من اليأس بأن يبيعه ريتشاردس بألف وخمسمائة جنيه، على أن يبيعه فوراً، فلم يقر للمتحف البريطانى قرار، وفى فبراير ١٨٢٤، تسلم ريتشاردس عرضاً مؤكداً بألفى جنيه من مستر جون سلوين، وقبل أن يفض ريتشاردس يده تماماً من التابوت كتب لأوصياء المتحف البريطانى فى ٢ أبريل عام ١٨٢٤، يعرضه عليهم مقابل نفس الثمن. ولم يستغرق الأمر منهم أكثر من ثمانية أيام كى يتوصلوا للقرار الخاطئ، ورفضوا العرض فى ١٠ أبريل. وبعد ذلك بشهر فى ١٢ مايو ١٨٢٤، وضع التابوت فى منزل سلوين، حيث يمكن التملى من النظر إليه اليوم.

كان عام ١٨٢٤ عاما سيئاً بالنسبة لسولت، إذ إنه وقع فريسة للمرض معظم الأسابيع الأولى من ذلك العام، ومع قدوم عيد القيامة (الفصح) وضعت زوجته طفلاً. وأصيب بالحمى، ولم يتمكن الطبيب من رعايتها سوى لفترة وجيزة قبل أن يُستدعى للعناية بزوجه هو، التى أصيبت بالطاعون. وبعد ذلك بعشرين يوماً توفى الطبيب نفسه متأثراً بالطاعون، وراحت زوجة سولت فى غيبوبة لم تفق منها أبداً، ثم مات الطفل، فحزن سولت حزناً شديداً على فقد زوجته، كما أضعفته علته، حتى إنه لم يعد قادراً على العناية بابنتها جورجينا التى كانت حينئذ تبلغ عامين، فأرسلها إلى ليجورن، حتى تقوم عائلة زوجته بالعناية بها.

فقد هنرى سولت أقرب الناس إلى قلبه، وصار وحيداً مرة أخرى فى أرض غريبة. ويبدو أن سولت التجأ إلى عمله، إذ إن القنصل فى الإسكندرية كان قد مات فى أكتوبر، فكان عليه أن يقوم بأعباء الوظيفتين دون أى زيادة فى الراتب. كما كتب قصيدة اسمها "مصر" نشرها نشرًا خاصاً فى الإسكندرية، وهى قصيدة طويلة مشحونة بالأفكار الفلسفية، يحسن تركها فى غياهب النسيان الذى سرعان ما غرقت فيه.



لقد ألم سولت أن أعمال الاكتشاف والنهب الشهيرة التي مولها على طريق وادى النيل ادعاها ببلزوني لنفسه، وطلب أن يُعترف به كأحد العلماء، فأرسل بمقالة عن نطق الهيروغليفية عند "يانج وشامبليون" ومعها لوحات بألوان الشمع الثابتة لريتشاردس، مصدرا تعليمات له بأن يعمل على نشرها فى أسرع وقت ممكن "أرجو أن تطبع فوراً حتى لو كلفنى هذا مائة وخمسين جنيهاً". ومما يدعو للحزن أن أسبابا للتأخير حدثت، وظهر كتاب شامبليون: "موجز لنسق الهيروغليفية" قبل المقال الذى لم ينشر حتى عام ١٨٢٥.

واستمر سولت فى جمع الآثار بمساعدة من بنى الوفى. وفى أوائل ١٨٢٥، تمكن من جمع شحنة أخرى من الآثار، وفى هذه المرة شحنها إلى أقاربـه فى ليجورن، إذ كان شديد الحذر من إرسالها إلى المتحف البريطانى. وفى ١٥ يونيه كتب لوكيله ريتشاردس فى لندن: "لقد جمعت مجموعة هى الآن فى ليجورن (جنوة)، وهى آثار تصل قيمتها إلى أربعة آلاف جنيه، عبارة عن أجمل مجموعة موجودة من البردى، وأحسن تشكيلة من البرونز المصرى، وعدة لوحات من ألوان الشمع الثابتة وكذلك أشياء من الذهب والخزف، مما سوف يجعل المجموعة الموجودة فى المتحف أفضل ما فى العالم، بوصفها مجموعة من الآثار المصرية؛ وإنى على أتم الاستعداد لتقديمها فى الحال للمتحف، فى حالة تمكنى من الحصول على معاش قيمته ٦٠٠ فى العام، يمكننى من التقاعد".

كان سولت لا يزال يبحث عن الأمن الذى يوفره له دخل يمكنه من الاستقرار فى لندن، ولو أن أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى فكروا ولو لحظة فى حالته الصحية، لجازفوا بمنحه معاشاً لم يكن ليكلفهم إلا قليلاً. غير أن سولت لم يكن هذه المرة، يميل إلى المساومة، وكتب مرة أخرى لريتشاردس "سوف يسرنى سرورا عظيما أن تذهب المجموعة إلى إنجلترا؛ ولكن كفى تعاملًا مع المتحف البريطانى، فال سلوين هم من أتوجه إليهم".

ويبدو من المحتمل أن أوصياء (أمناء) المتحف البريطانى لم يعطوا فرصة التدبر فى هذا العرض، فبعد أقل من شهر من تقديمه، كتب سولت مرة أخرى لريتشاردس ليقول إن وكيلا يفحص مجموعته فى ليجورن (جنوة)، نيابة عن مشتر

من عائلة ملكية، يبدو أنه أكثر كرما بكثير وأقل انحرافا من أوصياء (أمراء) المتحف البريطاني. ومما يثير السخرية، أن المشتري الملكي لم يكن سوى ملك فرنسا، الذى قضى سولت حياته فى مصر فى الكيد له، والذى عمل كل من سولت وبيلزوني بلا توقف كي ينتزعا الأحجار من قبضتيه. كان سولت قد أرسل مجموعته لأخى زوجته، بيتر سانتونى، مع النصيحة بأنه يتوقع أن يجنى منها ما لا يقل عن ١٥٠,٠٠٠ مائة وخمسون ألف فرنك، فاستطاع سانتونى التأثير على وكيل الملك بالقدر الذى مكنه من ترتيب البيع بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ فرنك (عشرة آلاف جنيه).

تمت عملية البيع فى أبريل من عام ١٨٢٦، ودفعت النقود لسولت على مدى أربع سنوات، ولم يقيض لسولت الاستمتاع بتلقى هذه النقود، إذ مات متأثرا بعدوى فى الأمعاء فى ٢٩ أكتوبر عام ١٨٢٧، ودفن جثمانه فى الإسكندرية، وكتب ابن عمه شاهدا على قبره: "صاحب السعادة توماس بت، ابن العم الذى يحمل نفس الاسم، وهو الذى كان تقديمه لسولت للورد فالينسيا فى قاعة فوزيلى هو الفرصة التى أطلقت سولت فى حياته العملية فى مصر، لقد استكشفت عبقريته المتقظة ما بهذه البلاد من كتابة هيروغليفية، وغير ذلك من آثار، وأوضحتها. كما أن قلمه المتدفق الصادق، وما تتميز به أشعاره من أصالة حية بسيطة، نقلت للعالم أفكارا نابضة بالحياة عن المشاهد التى أدخلت البهجة على نفسه. وفى خضم قيامه بواجباته الهامة ومساعيه المفيدة ... كان فى الثامنة والأربعين من عمره، وبعد فترة قصيرة من المرض، استدعى، كما نثق، إلى داره الأبدية التى هى أفضل من هذه الدار، فى اليوم التاسع والعشرين من أكتوبر، فى سنة ربنا ١٨٢٧".

كان، ينى، وكيل سولت فى مصر، لا يزال يكسب مجموعة هناك، ثم إرسالها إلى ليجورن (جنوة) قبل وفاته بثلاثة أسابيع، ثم شحنت هذه المجموعة بعد ذلك، إلى إنجلترا؛ وعرضت فى المزاد فى سودبى بشارع ويلينجتون عام ١٨٣٥. ونجد فى تنوع كتالوج الأشياء التى كانت معروضة للبيع رجوع صدىً للتشكيلة العجيبة التى زعم سولت ملكيتها لنفسه، شأنه فى ذلك شأن غيره من قدامى متعهذى التنقيب عن مصر القديمة، على نحو غريب. وكانوا فى ذلك ينطلقون من تفوق ثقافى مفترض، أو ربما كان ذلك ينبع من مبدأ قديم بسيط: "الاحتفاظ بما يتم العثور

عليه"، ويضم الكتالوج:

قطعة رقم ٢: أربعون من تصاوير الآلهة من الخزف مختلفة، بعضها شديد الدقة.....٩ شلنات

قطعة رقم ١٠: صقر برأس بشرى..... ٨ شلنات

قطعة رقم ٥٧: سلة صغيرة، تحتوى على اليد اليمنى لمومياء أنثوية، بها على الإصبع الثانية (أظن يقصد السبابة) مجموعة جعرانية من الفضة..... ١٩ شلناً

قطعة رقم ١٧٠: تشكيلة من عيون المومياوات، مرصعة بالمرمر..... ٥ شلنات

قطعة رقم ٢١٥: ناقوس صغير من الذهب، وجد على رقبة مومياء لصبي (طيبة)..... ٦ جنيهات و ٦ شلنات

قطعة رقم ٣٢١: ستة أزواج من الأقراط حمراء اللون ذات أحجام مختلفة..... جنيه واحد و ١١ شلناً

قطعة رقم ٣٤٣: زوج من العيون، من البرونز النقى أخذت من مومياء وجدت في ممفيس، ..... ٦ جنيهات و ٨ شلنات

قطعة رقم ٣٥٤: إوزة صغيرة باللون الأزرق، على خاتم ذهبي،..... ١٧ شلناً.

قطعة رقم ٣٦٣: قطعة عملة من الذهب Cufic money..... ١٥ شلناً.

٤٠٧- مجموعة من أدوات النجارين، تتألف من بلطتين صغيرتين مختلفتين لهما مقابض خشبية؛ وثلاثة إزميلات، وسكينين..... ١٦ جنيه و ١٥ شلناً

قطعة رقم ٥٢٢: ثلاث عينات من الخبز..... جنيه واحد و ٦ شلنات.

قطعة رقم ٩٢٩: كرة يلعب بها الصبية، داخلها من قشر الحبوب، أما الخارج فمن الجلد، وهى غريبة الشكل ..... ١٤ شلناً.

قطعة رقم ١٢٠٠: زوج صنادل مما يلبس، جيد النقش (ممفيس)..... ١٧ شلناً.

كانت ذروة الإثارة فى كل يوم تتمثل فى بيع المومياوات، وكان ذلك دائما ما يترك حتى نهاية النهار ليتكأ المشترون:

قطعة رقم ١٤٩: مومياء طفل صغير طوله قدمان وعشر بوصات، داخل صندوقها، تمثل داخله صورة شخصية وهى مرسومة على نحو عجيب، وبها حلقات على الكاحلين والرسغين والذراعين..... ٣٦ جنيها

قطعة رقم ١٥٠: مومياء أنثى من طبقة راقية، ارتفاعها ٥ أقدام وأربع بوصات، معها صندوقها المنقوش نقشا رفيع الذوق ..... ١٠٥ جنيها.

قطعة رقم ٨٥٢: مومياء شخصية ملكية، فى صندوقين..... ٣٢٠ جنيها و ٥ شلنات

قطعة رقم ١٢٦٩: مومياء لراقصة، فى حالة جيدة من حيث الحفظ، ارتفاعها ٥ أقدام..... ٢٨ جنيها و ٥ شلنات

كان مجموع ما فى المزاد ١٢٧٠ من المعروضات، بما فى ذلك العملات والميداليات، والتماثيل الخشبية، والحجرية والبرونزية وكذلك صحائف مخطوطات من البردى، والجعارين وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب، وكذلك الآلهة المعبودة من الخزف.

واستغرقت عملية البيع تسعة أيام، وتم جمع ٧١٦٨ جنيها و ٨٦ شلنا. فإذا أضفنا هذا إلى مبلغ الـ ٢٠٠٠ جنيه الذى دفعه المتحف البريطانى، و ٢٠٠٠ دفعها جون سلوين، ثمنا للتأبوت، ومبلغ ١٠٠٠٠ جنيه من ملك فرنسا، كان معنى هذا أن ممتلكات سولت وصلت إلى ما يربو على ٢١٠٠٠ جنيه، من أعمال التنقيب التى مولها أول بريطانى مهتم بالآثار، وأول جامع لها، وأول دبلوماسى فى مصر.

أما دروفيتى الذى بقى فى اللعبة فترة أطول إلى حد ما، فقد حقق نتائج أفضل. فى البداية كانت تواجهه مشكلات فى تصريف مجموعته التى جمعت تحت علم فرنسا وبوحى منها، وكان ذلك لأن رجال الدين الفرنسيين كانوا يقفون ضد شراء الآثار التى قد تنقص من سلطان الكتاب المقدس. ومع أن دروفيتى كان قد تلقى عروضاً من إنجلترا - بل إن سولت حاول إقناعه بأن يبيع آثارا للمتحف

البريطاني — كذلك تلقى عروضاً من ألمانيا، إلا أن دروفيتي، شأنه شأن سولت، أصر على ألا يبيع إلا للأمة التي يمثلها في مصر. وفي النهاية، شأنه أيضاً شأن سولت، نفذ صبره وباع أول مجموعة كبيرة لديه لملك ساردينيا بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ ليرة، أي ما يزيد عن ١٣٠٠٠ جنيه، وذهبت هذه المجموعة لتأسس المتحف المصري في تورينو.

ثم بعد أن اعتلى العرش الملك شارل العاشر، في سبتمبر عام ١٨٢٤ اشترى مجموعة دروفيتي الثانية بمبلغ ٢٥٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠ جنيه)، وكان هدفه من ذلك هو بعث الحياة في مجد المملكة القديم. كما بيعت مجموعة ثالثة لمتحف برلين عام ١٨٣٦ بمبلغ ٣٠٠٠٠ فرنك.

قضى دروفيتي أواخر أيامه في تورين، المدينة التي عمل فيها قاضياً عسكرياً، والتي زودها بمجموعته من الآثار المصرية التي نالت شهرة دولية، ومات عام ١٨٢٥ حين كان نزول إحدى مستشفيات الأمراض العقلية، وفي الوقت الذي كانت مجموعات سولت ودروفيتي تأخذ مكانها في المتاحف الأوروبية، كانت قد اكتسبت أهمية ومغزى يفوقان ما تثيره من الاندهاش والإعجاب، إذ كانت شاهدة على ماضٍ قد بدأ الناس في فهمه لأول مرة في العصر الحديث، ذلك أن نظام الكتابة الذي سجل به هذا الماضي على نحو واسع كان قد تم اكتشافه.

## الفصل الرابع

### الثعلب والقنفذ والكولونيل

إن النزاع الذى دار حول مجموعات دروفيتى Drovetti وسولت Salt الأثرية، يبدو أقل إثارة للحيرة حين نتذكر أن الجامعين والمتاحف لم يكونوا يعرفون علام يتصارعون. إذ كان الجميع يرون التماثيل، وبعضها كانت لها أسماء معروفة، غير أن الجميع كانوا يجهلون من هم هؤلاء الملوك والملكات، ومتى كانوا يحكمون، وماذا حققوا. ذلك أنه فى بداية القرن التاسع عشر، لم تكن اللغة التى تحمل إجابات لهذه الأسئلة لغة مفهومة، بل إنه فى ذلك الوقت لم يكن أحد يعترف بهذه اللغة باعتبارها كتابة، فكلمة "هيروغليفية" التى استخدمت لوصف مجموعات من الصور والرموز، هى فى الواقع، مستمدة من الكلمة اليونانية التى تعنى "النحت المقدس" وليس "الكتابة المقدسة"، وهى كلمة لم تكن مستخدمة حتى ١٨٣٥ حين تم فك الرموز.

وكان الإغريق يعتقدون أن الهيروغليفية تضم حكمة مصر القديمة السرية، تلك الحكمة التى لم تكن متاحة بسوى للكهنة، وقد نسى هؤلاء الكهنة سر فك الرموز قبل فتح الإسكندر الأكبر لمصر. فكان يظن أن الهيروغليفية إن هى إلا شاهد أخرس صامت على كشف أو وحى مفقود، فكانت تحمل هالة من السحر، وكان يظن أنه لو أمكن أداء الطقوس الصحيحة أو لو أمكن الترنم بالكلمات

الصحيحة الهيروغليفية، لأمكن اكتشاف القوة الأولية التى كانت تتمتع بها فى وقت من الأوقات.

وفى القرن السابع عشر، أخذ أحد الأساتذة اليسوعيين على عاتقه مهمة فك الرموز. كان أثناسيوس كيرتشر Athanasi us Kircher متخصصا فى العلوم الطبيعية، كما كان واسع الاطلاع. وقد أنزل بواسطة حبل فى فوهة فيسوفوس Vesuvius بعد الانفجار الكبير الذى وقع عام ١٦٣٠، كى يكتشف أسبابه. وكان قد اخترع آلة للجمع، وأنبوبة للتكلم، وهارب أيولى، وفانوسا سحرى؛ وكتب مقالات فى الطب والزلازل، وقام بعمل دراسة خاصة عن اللغات الكلاسيكية القديمة. وبدا أن قدر كيرتشر هو كشف أسرار الطبيعة للبشرية، وعندما كان طالبا، كان عازما على تناول أسرار الهيروغليفية، وحين كان فى روما أستاذا للرياضيات فى الكلية الرومانية، أخذ على عاتقه فك رموز النصوص الموجودة على المسلات الرومانية المختلفة.

وقد ترجم الأب كيرتشر نصا يشير كما نعرف اليوم، إلى القيصر دوميتيان هكذا: "القيصر دوميتيانوس حى للأبد". وهى ترجمة بعيدة تماما عن الصواب، إلى حد أنها كثيرا ما تقتبس على سبيل التخفف والتفكه، والصحيح هو: "من يتربع على الجبل، والمتمتع بالملكوت السماوى، والسلطة الرباعية، ويأمر الجو بواسطة موفثا (الرطوبة) MoPhtha الجوية النافعة إلى أمنون، الأقوى فوق الأرجاء السفلى...."

لقد كانت هناك انبثاقات لما يشبه البحث العلمى التى كانت من حين لآخر تلتفت انتباه محبى الآثار، وفى ١٧٦٢ قال موظف الكنيسة فى فرنسا تاندو Tandeau إن الهيروغليفية علامات تعسفية تستخدم كزينة ترسم على المباني والتماثيل التى توجد عليها، ولا يقصد منها نقل الأفكار أو الألفاظ. وكان تاندو فى هذا، على النقيض من عالم الروحانيات دى بالى Chevalier de Palin، الذى صرح عام ١٨٠٢ بأنه أخيرا قد عرف السر، فلو أن مزامير داود ترجمت إلى اللغة الصينية ثم كتبت بالأحرف القديمة لهذه اللغة، لأمكن إعادة إخراج الكتابات والبرديات (المقصود إعادة كتابتها reproduced ) فى مصر.

وفى ١٨٠٦، بدا مرة أخرى أن الموضوع قد تمت تسويته، حين نشر جوزيف فون هامر — بورجستال ترجمته للأبجدية القديمة لأحمد بن أبى بكر بن وحشية؛ غير أنه قد اتضح أن المؤلف ما هو إلا مشعوذ، وما الكتاب سوى سلسلة من التهاويم عن الإشارات القبالية (الباطنية السحرية).

ثم نشر عالم المصريات الفرنسى وعالم المسكوكات الأثرية مارى — أليكساندر لينوار كتابه: "الشرح الجديد للأحرف الهيروغليفية" فى أربعة مجلدات، بين ١٨٠٩ و ١٨٢١. وأشار لينوار فى هذه المجلدات إلى أن الهيروغليفية ما هى إلا شكل من أشكال اللغة العبرية، غير أن هذا الكشف سرعان ما اصطدم بالصخر وتهشم، تماما كما حدث لكشف كونت كيلوس، الذى أعلن عام ١٨١٢ أنه قد تمكن، أخيرا، من فك الرموز الهيروغليفية التى تغطى بهو الأعمد بمدخل المعبد القائم فى دندرة، وأنها ليست سوى المزمور المائة من مزامير داود، الذى يدعو فيه شعب مصر إلى دخول بيت الرب.

وكانت الخطوة الأولى المؤكدة نحو ترجمة للهيروغليفية، قد ظهرت فى ورقة بحث نشرها رجل الكنيسة محب الآثار جان جاك بارتيلمى Barthèlemy عام ١٧٦١. لقد افترض الرجل أن العلامات الهيروغليفية التى وجدت محفوظة فى خواتم أو حلقات بيضية، ربما تكون أسماء ملكية. كما طرأت هذه الفكرة على ذهن شارل دى جنى Guines، وهو مستشرق فرنسى كان يسعى لإيجاد أدلة تؤيد نظريته، بأن الصين كانت فى وقت من الأوقات من بين مستعمرات مصر، وأنها استمدت كتابتها من الكتابة المصرية.

وثمة عالم آخر يشار إليه أحيانا باعتباره مؤسس هذه الفكرة الرئيسية، وهذا الرجل هو عالم اللغويات الدنماركى جورج زوجا Zoega، الذى نشر دراسة للمسلات عام ١٧٩٧، ظهرت فيها لأول مرة، نسخ دقيقة أصلية للنصوص مصورة بالفاكسىملى. ولم يظهر الكشف النهائى إلا حين صارت كتلة البازلت الأسود متاحة للفحص. كان طول هذه الكتلة يبلغ ثلاث أقدام وسمكها اثنتى عشرة بوصة، ولقد استخرجها من طين دلتا النيل فى حصن جوليان، كبتين بوشار، وطالب بها من أجل بريطانيا جنرال هاتشينسون.



كان مقدرا لحجر رشيد أن يقدم الإجابات النهائية، لكن هذا لم يتم قبل قيام نزاع علمي طويل استمر أثناءه الفرنسيون والإنجليز يقاتلون معركتهم فى وادى النيل. وكان الهجوم الأول فى هذا الصراع على هذا النص الإغريقى الموجود على الحجر، وقد انتهى هذا الهجوم بتسليمه مع القليل من الصعوبات للأستاذ بورسون فى لندن، وللدكتور هين فى ألمانيا. بل كان هناك تعاون بين هذين العالمين والمعهد الفرنسى، وملئت الفراغات الموجودة فى النص التى حدثت بسبب ما حاق بالحجر من تلف، وتمت ترجمة النص بأكمله.

وتبقى النص الديموطيقى والنص الهيروغلىفى. وكان الجميع متفقين على أنهما ترجمة من النص الإغريقى. دفع الفرنسيون فى الميدان بسيلفستر دى ساسى، وقد كان هذا الرجل دارسا للغة العربية كما كان أبرز المستشرقين فى ذلك الزمان. وقد تمكن من أن يعلن فى عام ١٨٠٢ أنه تعرف فى النص الديموطيقى على مجموعة الأحرف التى تتوافق مع أسماء بطليموس وأرسينى والإسكندر والإسكندرية.

وكان العالم السويدى يوهان ديفيد أكيربلاد قد درس مع دى ساسى فى باريس، ثم راح يعمل على دراسة الكتابة الرومانية والفينيقية، فى روما تحت رعاية دوقه ديفونشير. وكان أكيربلاد يحتفظ معه بنسخة من نصوص حجر رشيد، وتمكن من التعرف على جميع أسماء الأعلام بالكتابة الديموطيقية التى ظهرت فى النص الإغريقى، وكذلك الكلمات المكتوبة أبجديا لكلمة "إغريقى" وكلمة "معابد"، بل إنه حاول رسم أبجدية للكتابة الديموطيقية، غير أنه أخفق فى أن يدرك أن الأحرف المتحركة التى تظهر بين الأحرف الساكنة كانت مدغمة (محذوفة)، وهو أمر مألوف فى اللغات الشرقية، فلم يتمكن من قطع شوط أبعد من ذلك.

وقام أحد الدارسين الإنجليز بعمل تحسينات هامة على أبجدية أكيربلاد. لقد كانت إنجازاته مصدر ضيق، بالنسبة للمتخصصين فى هذا المجال، لأنه لم يصبح لغويا سوى فى مرحلة متأخرة من حياته، كما أن ذلك قد وقع بالصدفة.

كان توماس يانج ابنا لتاجر أقمشة ومصرفى ثرى يتبع مذهب الكويكر. وبعد أن قرر يانج وهو بعد تلميذ أن النجاح إن هو إلا مسألة جهد وتركيز، تابع اهتماماته فى حقول متميزة من حقول المعرفة، وتمكن من تحقيق التميز فيها

جميعاً، فدرس الطب في لندن وأدنبره، ومنح زمالة في الجمعية الملكية وهو في الحادية والعشرين من عمره، ومضى يعمل على الحصول على الدكتوراه في الفيزياء في جوتينجين. ويسجل كاتب سيرة حياته أن طاقاته اتجهت نحو الفروسية والتدريبات البدنية، وأعمال تدل على الخفة والنشاط، وقد تفوق في ذلك تفوقاً غير عادي، إذ كان قد تخلص مما يسقط فيه الشباب من تافه الأفعال. كما كان موسيقياً بارعاً، وأسهم بكتابة المقالات في مجلة الجنتلمان عن النقد اليوناني، والنظريات الكيميائية، وعلم النبات وعلم الحشرات. إلا أن يانج لم يكن مجرد هاو سطحي المعرفة. إذ إنه قام بأبحاث مهمة أصلية في مجال البصريّات، فهو أول من تعرف على الاستجماتيزم في العين البشرية، واكتشف نظرية الموجة في الضوء، متنبئاً بما جاء به فريزنيل.

وفي الثامنة والعشرين من عمره، عين أستاذاً للفلسفة الطبيعية في المؤسسة الملكية عام ١٨٠١، كذلك كان يقوم بكتابة عروض الكتب بانتظام لمجلة فصلية، وفي ١٨١٣ أرسلت له نسخة من ميثريديتيس، وهي دراسة للغات الآسيوية قام بها فقيه اللغة الألماني أديلونج. وكانت هذه الدراسة هي أول ما أثار اهتمام يانج بالهيروغليفية. وحين أحضر صديقه سير ويليام روز بوتون، في العام التالي، بعض قطع البردي من مصر، انكب على ترجمتها، وأخذ أوراق البردي ونسخة من كتابات حجر رشيد معه إلى ويردينج، حيث قضى فصل الصيف.

تنتهي الكتابة الإغريقية الموجودة على حجر رشيد بهذا الأمر: "وأن هذا المرسوم سوف يحفر على حجر صلب بأحرف مقدسة، وبأحرف شائعة، وباللغونية؛ ويوضع في المعابد الأولى والمعابد الثانية، وفي المعابد الثالثة، حيثما توجد صورة الملك المقدسة، الذي تبقى حياته للأبد".

فأكدت هذه النقوش الثلاثة أنها ترجمات لنفس النص، فراح يانج يكتشف التقابلات بينها بما يتمتع به من قدرة الباحث العلمي من دقة منهجية. فلاحظ أن مجموعتي العلامات في السطرين الثاني والعاشر من الكتابة الديموطيقية، تبدو أنهما تتقابلان مع كلمتي "الإسكندر" و "الإسكندرية" في الكتابة اللغونية، مما أتاح له سبعة أحرف أمكنه تحديدها.

ثم لاحظ أن مجموعة صغيرة من الأحرف يتكرر ظهورها فى كل سطر تقريبا، فبدا من المعقول معادلتها مع حرف العطف "و"، وظهرت مجموعة الأحرف الأشد تكرارا بنفس القدر من التردد فى الكتابة اليونانية، فتم التحقق من ترجمة كلمة "ملك". وحين استخدم يانج نفس المنهج، اكتشف أن مجموعة من الأحرف ظهرت أربع عشرة مرة فى الكتابة الديموطيقية، وإحدى عشرة مرة فى الكتابة اليونانية؛ فتمكن من ترجمة "بطليموس"، وبعد ذلك ترجمة "مصر". وبعد أن توصل إلى نقاط اتفاق بين النصين، طابق النص الديموطيقى على اليونانى، مضاهيا الكلمات التى يعرفها، دون أن ينسى أن الكتابة الديموطيقية كانت مكتوبة من اليمين إلى اليسار. وباستخدام هذا المنهج، تمكن من الخروج بأبجدية للكتابة الديموطيقية، وبدأت هذه الأبجدية متسقة.

لقد ساعدت يانج فى أبحاثه مراسلات كان يجريها مع دى ساسى وأكيربلاد، فأمكن القول بأنه إنما يساعد على تقدم الاكتشافات التى قاما بها. على أى حال، لم يعمل كل من دى ساسى وأكيربلاد سوى على النص الديموطيقى. ولم يكن أحد قد اقتحم الهيروغليفية؛ وكان يانج young عازما على ذلك، فافترض أولا أن الديموطيقية ربما تكون قد انحدرت عن مصدر مشترك بين المصرية والقبطية، وعلى هذا درس القبطية كى يتتبع الأبجدية الأصلية، غير أنه تخلى عن البحث حين لاحظ أن عددا من الأحرف الديموطيقية يبدو أنها محاكاة بأسلوب متعجل سطحي، للصور الشديدة الوضوح فى الهيروغليفية، إذ كانت هناك أشكال فى الديموطيقية لا يمكن أن تكون أبجدية، وبدأ أنها مشتقة بوضوح من رسوم فى الكتابة الهيروغليفية، فأدى هذا بيانج إلى الافتراض بأن هناك صلة وثيقة بين شكلى الكتابة، وأنها قد تكون ببساطة هى الأشكال الصورية الخطية المتصلة (المشبك) لنفس العلامات.

كما أنه ثار على رأى الشائع القائل بأن الهيروغليفية تتألف بصفة رئيسية من عناصر صوتية نطقية؛ فهى شكل من أشكال الكتابة، شأنها شأن الديموطيقية، تمثل أصواتا ولا تمثل أشياء، وعليه يمكن فهمها عن طريق اكتشاف أبجديتها. كذلك حقق مزيدا من التقدم عن طريق إدراكه أن الأحرف المختلفة يمكن استخدامها

لتمثيل نفس الأصوات<sup>(\*)</sup>. واقترح يانج فى مقالة كتبها لدائرة المعارف البريطانية لعام ١٨١٩ مفردات تزيد عن ١٠٠ حرف، ورغم أنه وقع فى أخطاء تتعلق بالتفاصيل، إلا أن المنهج الذى اتبعه والاستنتاجات التى توصل إليها أدت فيما بعد إلى النجاح فى فك رموز الكتابة الهيروغليفية. ولم يحدث تفجر فى الروح الوطنية عند نشر ما توصل إليه يانج، فهذه الاكتشافات فى نهاية الأمر كانت امتدادا لأعمال ساسى وأكيربلاد، فى منطقة بعيدة عن اهتمام الجمهور.

وتابع يانج عمله فى مجال الطب، والفيزياء والفلك والأدب اليونانى، والرياضيات. وكان مسافرا إلى روما فى خريف عام ١٨٢٢، حين وقع على مجموعة من الآثار كان دروفيتى قد أرسل بها إلى ليجورن، فطلب أن يسمح له بفحصها فحفا سريعا، ولاحظ بينها حجرا يحمل آثار كتابة باليونانية والديموطيقية، وحين أدرك أهمية ما بدا أنه حجر رشيد آخر طلب من وكلاء دروفيتى الإذن بنسخ الحجر، غير أنهم لم يكونوا قادرين على الموافقة دون تصريح من دروفيتى.

ثم كتب يانج للوكلاء يعرض أن يدفع أتعاب أحد الفنانين من فلورنسا كي يقوم بعمل نسختين من الحجر، وسوف تكون النسخ ملكا لدروفيتى وتظل مع الوكيل إلى أن يقرر دروفيتى إن كان يرغب فى بيعها أم لا، وله أن يحدد لمن يرغب فى بيعها وثمان البيع. بل إن يانج عرض أن تبقى النسخ بين مجموعة دروفيتى بشرط واحد وحيد، هو أنه إذا ما أرسل الحجر بحرا من ليجورن تبقى النسختان فى ليجورن إلى أن يصل الحجر بسلام إلى وجهته. وكان ذلك عرضا سخيا، ولكن حين سمع دروفيتى بأهمية الحجر، أبى أن يخفض من قيمته التجارية إذا ما سمح بنسخه.

وفى العام التالى ١٨٢٢، دعى يانج لحضور اجتماع فى باريس تعقده أكاديمية العلوم. فى هذا الاجتماع، قرأ عالم الطبيعة (الفيزياء) أوجيست جان فريزنيل ورقة عن قوانين تداخل الضوء، وفى هذه الورقة أثنى ثناء عظيم على عمل يانج فى هذا الموضوع، غير أن السرور الذى أحس به يانج لما رآه من

(\*) أى مبدأ التجانس الصوتى، أى أن كلمات تشترك فى النطق مع اختلافها فى المعنى. (المترجم).

عدالة العلماء الفرنسيين قد ظللته غمامة خفيفة، بعد ذلك فى نفس الأسبوع حين حضر محاضرة فى أكاديمية الفنون الجميلة، إذ دعى كى يناقش بحثًا لكاتب يتناول الكتابة المصرية، وبدا فى هذا البحث تردد لأصدا ما أنجزه دون الاعتراف به، واستقبل البحث باعتباره كشفًا، واعتبر شامبليون معد هذا البحث، باحثًا عبقرى.

كتب الكاتب الساخر الإغريقى أرخيولخوس: "يعرف الثعلب الكثير من الأشياء — أما القنفذ فيعرف شيئًا واحدًا عظيمًا". وكان يانج ثعلبًا، فحين جاء الوقت الذى نشر فيه اكتشافاته عن الهيروغليفية، ظهرت أيضًا فى صحف العالم مقالات مختلفة، تتنوع بين تصنيع الحديد وعادات العنكبوت، إلى حساب معدل اتساع الجو القمرى المفترض. بالإضافة إلى كتابات يانج فى الطب، وفيزياء الضوء، كما كتب ثلاثًا وستين مقالة لدائرة المعارف البريطانية تتراوح بين المعاشات السنوية annuities والأوزان والمقاييس، ولم ينكب على دراسة مصر حتى بلغ الحادية والأربعين من عمره، وهو العام الذى توفى فيه منافسه فى هذا المجال. ومن ناحية أخرى، كان جان فرانسوا شامبليون قنفذاً.

ولد شامبليون عام ١٧٩٠، فى بلدة ريفية صغيرة اسمها فيجياك، لبائع كتب فرنسى، وكانت بدايته فى الحياة بداية متواضعة؛ لكن كان هناك من تذكروا أن قرنية عينيه صفراء منذ مولده، مثل عيني طفل مصرى، وبشرته تميل إلى الضعف والصفرة، وكذلك وجهه كان شرقياً بشكل ملحوظ. وتروى الحكايات أن جان فرانسوا منذ كان تلميذاً أخذ إلى منزل فورى، عالم الرياضيات الذى كان قد صحب بوناپرت إلى مصر، وجعلوه يشاهد أوراق البردى والكتابات الهيروغليفية على ألواح الحجر هناك. فسأل هل يستطيع أحد قراءتها، وحين هز فورى رأسه، أعلن الصبى: "سوف أفعل ذلك، سوف أكون قادراً على ذلك بعد سنوات قليلة حين أكبر".

كذلك سجل كاتبو سيرة شامبليون قصة زيارة عالم القسمات أو الفراسة الشهير د. فرانز جوزيف جال، لبيت جان فرانسوا. تحسس د. جال النتوء الموجود فى رأسه، وأعلن أنه عبقرى فى اللغويات، إذ كانت هناك فى ذلك الوقت بعض الأدلة على موهبة شامبليون، حتى إن الطبيب الطيب ربما يكون قد أخبر بأن الطالب

البالغ السادسة عشرة من العمر، قد تعلم اللغة العربية بالفعل، وكذلك السريانية والكلدانية والقبطية، بالإضافة إلى اللاتينية واليونانية. كما أنه أظهر تميزه وذلك بأن كتب تاريخاً للعالم تحت عنوان: "التاريخ من آدم إلى شامبليون الأصغر".

وحين بلغ شامبليون السابعة عشرة من عمره، كان قد كتب كتاباً عنوانه: "مصر تحت حكم الفراعنة"، وبدأ دراسات في باريس مع ساسي. وهنا تعلم اللغة السانسكريتية والعربية والفارسية قبل أن يملك ناصية اللغة القبطية؛ لقد تعلم القبطية بإتقان حتى إنه كان يكتب بها مذكراته.

وحين بلغ شامبليون التاسعة عشرة، عين أستاذاً للتاريخ بجامعة جرينوبل، حيث كتب المسرحيات والأعمال الساخرة التي تتسم بالميل القوي للجمهوريّة، مما جعل نابليون يهتم به أثناء المائة يوم، ونتج عن هذا طرد شامبليون من الجامعة حين انتصر الملكيون، بتهمة ممارسة أنشطة تتسم بالخيانة. وعاد إلى جرينوبل عام ١٨١٨، غير أنه هدد مرة أخرى بتوجيه اتهامات بالخيانة له في يوليو عام ١٨٢١، حين فر من الجامعة. في نفس العام، نشر مذكرات عن بعض النصوص من كتابات الموتى، بدا فيها أنه مقتنع بأن نظام الكتابة الهيروغليفية يعمل بطريقة رمزية، ولا يمثل أصواتاً نطقية.

وبعد ذلك بعام، ألقى شامبليون محاضراته للأكاديمية التي نشرت باسم: "خطاب إلى مسيو داسي فيما يتعلق بالأبجدية الهيروغليفية النطقية"، ورحب بها العلماء الفرنسيون باعتبارها انفراجاً في درب الكفاح من أجل فك رموز الكتابة الهيروغليفية، ونالت شهرة دولية منذ ذلك الحين. ومن الصعب التحقق مما إذا كان شامبليون قد قرأ أو تأثر بمقالات يانج في دائرة المعارف البريطانية؛ وكان دائماً ما ينكر ذلك.

لقد دفع هذا الخطاب بدورية كارترلي ريفيو Quarterly Review بالإسراع بنشر القوائم نيابة عن يانج لإثبات أسبقيته: "يمكننا القول، دون أن نقلل، على الإطلاق، من ميزة جهود مسيو شامبليون التي لا تعرف الكلل، إننا سواء كنا نقدر قيمتها في ميزان المنفعة أو الجودة، فإننا لا نجد فيها سوى القليل أو لا نكاد نجد شيئاً يمكن أن يعوضه عن الحصار المثابر الذي قام به ضد كلاب قدر (على شكل

حرف S ) مصر للعديد من السنين (المقصود ارتباطه بفك رموز مصر لعدة سنين) كما فعل الإغريق بالجلوس أمام طروادة.

وتستطرد الكارترلى ريفيو فتذكر قراءها بأن أكبر بلاد وآخرين بدعوا بناء أبجدية وأن يانج واصل هذا العمل، وتوسع فيه فشمّل الهيروغليفية، وكل ما يفعله شامبليون هو التوسع فى المبدأ الذى وضعه هؤلاء: "سوف يتضح من الصفحة التالية التى كتبها د. يانج عن مصر، والتى كتبت منذ سنوات، أن مسيو شامبليون ليس له الحق فى ادعاء الأصالة فيما يبدو أنه يظن أنه اكتشف قام به، ومن المؤكد أن أبناء وطنه سوف يهللون له باعتباره كذلك، ويوجد أسفل الصفحة جزء من مقالة يانج فى دائرة المعارف البريطانية، التى يتعرف فيها على العلامات الهيروغليفية للأحرف التى تشكل اسم "بطليموس" على حجر رشيد".

وكان على شامبليون أن يعارض بأن يانج لم يتوصل إليها جميعا بشكل صحيح، غير أن النقطة التى أثارتها الريفيو من أن شامبليون كان يتوسع فى ما بدأه يانج أكثر من كونه يعلن كشفاً جديداً؛ تبدو نقطة سليمة. وفى العام التالى، ١٨٢٣، نشر يانج وداعه لهذا الموضوع بعنوان مستفز، حيث ذكر بعض الاكتشافات الحديثة فى الأدب الهيروغليفي، والآثار المصرية، بما فى ذلك أبجدية الكتابة كما توسع فيها مسيو شامبليون، وزعم يانج أنه دائماً ما كان ينشر نتائج أبحاثه ليس عن نفاد صبر فى أن يكون المالك الأوحى لكنز سرى؛ "وإنما لأنى كنت راغباً فى أن أضمن لبلادى، على الأقل، .... فضل توسيع حدود المعرفة الإنسانية والإسهام فى توسيع مدارك الإنسان عبر الزمان، والمكان، والإهمال، وزوايا النسيان".

لقد كان ليسر إذ يبقى مغموراً نسبياً، غير أن شهرة شامبليون قد جرت به حيث صار محط الأنظار، وأحس بأن لديه كل ما يبرر محاولة الحصول على "القدر من الاحترام الذى أظن أنه جدير بالاكتشافات التى شكلت تسليّة القليل من ساعات فراغى، ما دامت أمامى بضع سنوات أحيائها وأتعلم فيها".

وفى خطاب بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٨٢٣، أكد يانج أنه لن ينشر المزيد من "النصوص المصرية، جزئياً بسبب النفقات، وجزئياً لأن المادة قد قتلت بحثاً،

وجزئيا لأن شامبليون يفعل الكثير حتى إنه لن يسمح بأى شىء ذى بال يضيع منه".

وفى عام ١٨٢٤، أى العام التالى، نسب شامبليون الفضل لنفسه وحده فى فك رموز الكتابة الهيروغليفية، وذلك فى مجلد ضخم: "موجز النظام الهيروغليفى عند قدماء المصريين".... ويشتمل الكتاب على ٤٦٥ صفحة من النصوص، وملحق صاف من اللوحات والرسوم التوضيحية.

وفى المقدمة يناقش شامبليون مزاعم منافسه قائلا إن اكتشافاته موثقة توثيقا جيدا، حتى إنه إذ يعلنها لا يخشى أن تلقى المعارضة بقدر خشيته من أن يحاول الآخرون مشاطرته شرف القيام بها. ولقد حدث هذا حقا؛ ليس فى فرنسا، بالطبع؛ وإنما فى الخارج. ورغم ميله إلى الصفع عن مثل هذه الادعاءات القائمة على الروح الوطنية، إلا أن المؤلف كان عليه معارضة هذه المزاعم لصالح الصدق والعلم. ثم أخذ شامبليون يهاجم يانج بقوة، محاولا إثبات أنه لم يفهم قط الأساس النطقى للهيروغليفية، وأن الترجمات القليلة التى قام بها يانج إن هى إلا تخمينات صادفها حسن الحظ، وليست نتيجة البحث اللغوى.

وما من شك فى أن شامبليون قد تعلم من يانج قدرا أكبر مما كان مستعدا للاعتراف به، وأن الاكتشافات التى تم الإعلان عنها بكل هذا الزهو، والتى احتفى بها منذ ذلك الحين بين علماء المصريات، أقرب إلى التوسع الدعوى الماهر لما كان موجودا من أبحاث، منها إلى الفتح والكشف المفاجئ. ومع ذلك، فمن العبث أن يحاول أحد الإقلال من منجزات شامبليون الكبيرة، وكذلك من العبث تخليد صورة العبقرى الذى يعمل بمعزل عن غيره، هذه الصورة التى سعى هو ومناصروه إلى الترويج لها بقوة الزلازل.

لقد قلب الفرنسى اللامع الأسس البسيطة التى شادها سابقوه؛ وابتداء من تلك الساعة لم تعد تواريخ مصر، وسجلاتها التى كرمها الزمان، وأوراق البردى التى غمرها غبار العصور، سرا من الأسرار. سقط الحجاب عن إيزيس، وأزاح شامبليون الشاب الستر عن ذلك الستار الذى لم تستطع يد بشر رفعه والذى خذل محاولات الإغريق والرومان، وكذلك جهود علماء المصريات الأشد قوة، لما يزيد



عن ألفى عام. بهذه الكلمات ألهب قنصل أمريكا فى القاهرة المتقاعد، حماس سامعيه فى بوستون عام ١٨٤٤، بعد أن برز شامبليون بقوة على مسرح الأحداث بعشرين عاما، وبعد خمسين عاما فقط من حفل الشاى فى بوستون، ذلك الحفل الذى أشعل شرارة نوبة من المنافسة الدولية.

كان جورج ر. جليدون Gliddon — الذى كان يصف نفسه بأنه "أحد تلاميذ شامبليون" — موجودا فى مصر حين قام شامبليون بالإعلان عن اكتشافاته، ولاحظ الصمت الذى سببه الدهول الذى تلا ذلك الإعلان: "إنه كالكسكون الكونى الذى يلى الصاعقة، إذ شلت العبقريّة من هول الحقيقة". لم يكن الصمت راجعا إلى دهول العلماء بما كشف عنه شامبليون، بقدر ما كان راجعا إلى أن مواقعهم المتحصنة جعلتهم لا يولون الاحترام اللازم لما أتى به من أفكار. فأعضاء معهد مصر الذين صاحبوا بونايرت كانوا لا يزالون يحتلون مواقع رفيعة، فلم يكونوا راغبين فى أن تعلمهم نبتة جمهورية شابة، لم تطأ قدماء أبدا أرض مصر. كما كان المسيحيون قلقين من التقدم الذى أحرز فى البحث عن مصر دون أن يقدم هذا البحث أى دليل على إقامة "بنى إسرائيل" هناك، أو على سفر الخروج.

كذلك ازدرى الكلاسيكيون استخدام الفكر والمال فى سبيل همجى بربرى كهذا. أما شامبليون فقد كوفئ على ما حققه من نجاح فى فرنسا، وذلك بأن أرسل عام ١٨٢٤ فى بعثة كى يدرس المجموعات الأثرية المصرية فى متاحف تورينو وليجورن وروما و نابولى وفلورنسا. ولقد نسى له لويس الثامن عشر ومن بعده شارل العاشر، ميوله الجمهورية تماما، حتى إنه عين أمينا محافظا على مجموعات الآثار المصرية فى متحف اللوفر، كما استعانت به الحكومة الفرنسية للقيام بتقييم وشراء الآثار التى أرسل بها دروفيتى وسولت إلى ليجورن.

على أى حال، بدأت أنباء الأنشطة البريطانية فى مصر تتسلل إلى باريس، وأحس شامبليون بالقلق من أن تراح فرنسا عن مواقعها "كأم للفنون وراعية لعلم المصريات"، فجهزت حملة بقيادة شامبليون، يصحبه أربعة فنانيين لإعادة مصر كموقع للعلماء الفرنسيين. ونشأت صعوبة بسيطة حين علم أن دوق توسكانى الكبير كان يخطط لحملة مشابهة، غير أنه قد تم ترتيب الموقف بلباقة حين تم التخطيط

للمملة الإيطالية باعتبارها قوة معادلة تماما، يرأسها المستشرق الأستاذ إيبوليتو روزيليني، وهو أحد أتباع شامبليون، وسوف يصحبه أربعة من الفنانين. وبما أن أهداف الحملتين هي نفس الأهداف، فقد تقرر أن تتحداه، بغرض الاقتصاد، فرحلتا إلى الإسكندرية في نفس السفينة.

ولاحظ جورج جليدون وصول الحملة المشتركة، إذ كان في القاهرة عام ١٨٢٨ "لقد صبت المزيد من الزيت على لهيب الغيرة المحمومة من أجل الآثار، وهي الغيرة التي كانت سمة الشغوفين بالآثار في إنجلترا وفرنسا على مدى ثلاثين عاما".

كان شامبليون ينظر إلى جميع الدارسين الآخرين باعتبارهم دخلاء في الميدان الذي بذل فيه جهده هو وحده، وأوضح أن أى شخص يُرى وهو يسجل أو يشرح الهيروغليفية في مصر، يعد متعديا. فكان الباحثون البريطانيون الذين ظلوا يحفرون في الصخر قبل وصول شامبليون بسنوات يخشون لقاءه؛ حتى لا يزعم أن كل ما سوف ينشرونه لاحقا هو نتيجة لهذا اللقاء، فنشأ عن هذا الخوف الكثير من الأحداث الفكاهية، كان فيها الباحثون البريطانيون يهرعون فارين حين كانوا يسمعون باقترابه؛ لتجنب الاتهام بالاتصال به اتصالا شخصيا. وعاد النصب والاحتفال الذي ميز جيلا من المنافسة الوطنية في وادي النيل يعمل عمله أثناء زيارة شامبليون أيضا.

لاحظ البريطانيون وجود قطعة من البازلت تشكل أسقوفة مسجد متهاو في القاهرة، وبدا أن هذه القطعة مكتوب عليها ما بدا أنه كتابة من ثلاث لغات، تشبه تلك التي وجدت على حجر رشيد، فقدموا طلبا لمحمد علي للإذن بإزاحة هذه القطعة لصالح علم المصريات. وجعلوا الطلب يتخذ السبيل المتبع من خلال القنصل البريطاني، وعرضوا ترميم المسجد كرد على هذه المكرمة. وعلى أى حال، فقد سمع دروفيتي بهذا الطلب، فأقنع الباشا برفضه على أساس أن إزاحة الأسقوفة سوف تكون تديسا للمقدسات.

وبعد أن رفض محمد طلب البريطانيين بذريعة تتسم بالورع، أدرك أنه لذلك لا يمكن أن يسمح للفرنسيين بأن يأخذوا قطعة البازلت هذه.

وكان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، لولا أن شخصا ما أخذ شامبليون ليرى هذا الحجر. فكان الصخب الناتج عن هذا من الشدة حتى إنهم طلبوا من دروفيتي أن يستخدم مواهبه الخاصة في هذا المجال. فكان أن تقدم بطلب لابن محمد على، إبراهيم باشا، للإذن بتحريك الحجر، دون أن يذكر، بالطبع، أن أباه قد رفض ذلك من قبل. ووافق إبراهيم على الطلب، مع النص بأن يبلغ الأهالي بأن الباشا يريد الحجر لنفسه، مما يتسبب في قدر من الفضيحة أقل مما لو أخذه الأجانب.

لم تكن هناك أسرار في القاهرة، فسرعان ما سمع البريطانيون بالخطّة، فتوجهوا ليلا إلى المسجد القديم، ونزعوا الأسقوفة، وسحبوها ظافرين إلى القنصلية، فحدث شغب كبير، وأقنع إبراهيم أباه بأن يجبر البريطانيين على تسليم الحجر للحكومة المصرية. فتسبب هذا في قدر أقل من الضيق مما يمكن تصوره.

أظهر فحص الحجر أنه قد شوه إلى درجة لا تجعله ذا قيمة حقيقية. وصُنعت منه نسخا طبق الأصل، وتم إرسالها إلى لندن، وأعاد البريطانيون الأصل دون وخز من ضمير نحو المسجد، وانتهى المطاف بالحجر في باريس. كان الشيء الرئيسي الذي تعلمه شامبليون منه هو طريقة التغلب على المنافس في المناوشات الدولية التي تنتشب حول آثار مصر، وتعلم الدرس بسرعة.

حين عسكرت الحملة المشتركة في وادي الملوك، مستولية على مقبرة رمسيس السادس واعتبرتها مقرا لها، قرر شامبليون أن النقوش البارزة الموجودة على مقبرة سيتحس الأول SethosI سوف تزين مجموعته في اللوفر، وأخذ يقطعها، فسمع عن ذلك جوزيف بونومي النحات الإنجليزي ومصمم المباني، فكتب محتجا إلى شامبليون: "إن صح أن هذا هو مقصدك، فإنني أشعر أنه من واجبي كرجل إنجليزي ومحب للآثار، أن أستخدم كل ما لدى من حجة كي أثبتك عن مثل هذا الغرض الفظيع، على الأقل إلى أن تحصل على تصريح من القنصل العام الحالي، أو من محمد على".

فرد شامبليون بتعال: "أنا أيضا أؤدى واجبي كفرنسي، إذ أخبرك بأنني إذ لا أعترف بسلطة في مصر سوى سلطة الباشا، فليس على أن أطلب تصريحا من أى

شخص آخر، وعلى الأخص من القنصل البريطانى، الذى من المؤكد أنه لا يقدم مزاعم سخيفة تقدمها أنت نيابة عنه. وإذا نجحت فى الحصول على عمال أفضل، من أولئك الذين أرسلوا لى بهم من القاهرة، أثق فى أن أسند لهم هذه العملية الدقيقة، فلتطمئن، ياسيدى، من أنك سوف تبتهج يوما ما بأن ترى بعض هذه الأشياء الجميلة من مقبرة أوزيرى فى المتحف الفرنسى، فهذه هى الطريقة الوحيدة لإنقاذها من الدمار الوشيك. وإنى إذ أنفذ هذا المشروع، أتصرف كمحب حقيقى للآثار، ما دمت سوف أحملها للحفظ وليس للبيع".

ودخلت أخلاقيات جديدة فى وادى النيل، فالصواب كل الصواب هو سرقة الآثار المصرية، طالما لم يكن دافع اللصوص هو الرغبة فى الكسب الشخصى. وعلى الفور، صار هذا النهب الغربى، أى غير الأنانى، شائعا، حتى إنه أثر فى بونومى Bonomi الذى انضم إلى هذا النوع من التصرف، وأمر بقطع قسم من أجل المتحف البريطانى. فعل ذلك بعد تسلم رد شامبليون، وبعد أن سمع بأن روزيلينى يفعل ما يفعل من أجل المتحف القائم فى فلورنسا. والتمس الرجال الثلاثة العذر لما يقومون به من نهب متجزئ، على أساس أنهم إنما يحفظون الآثار كى يعجب بها العالم فى المستقبل، وأنها إذا ما تركت فى المعابد فإن ما بها من نقوش سوف يزول بفعل الأمطار. ومع ذلك، فإن شامبليون كان يرغب فى ألا يطلق الآخرون أياديهم فى آثار وادى النيل، فكتب خطاب احتجاج إلى محمد على معبرا عن أسفه على تجارة الآثار، مقترحا إدخال ضوابط حكومية على التنقيب عن الآثار وتصديرها.

وكان لهذا الخطاب أن يؤتى أكله، ولكن ليس قبل أن يقتنع محمد على بأن يرسل إحدى المسلتين الموجودتين فى واجهة المعبد القائم فى الأقصر إلى باريس؛ لإحياء ذكرى قوات بوناپرت. ونقلت المسلة إلى باريس عام ١٨٣٠ على سفينة خاصة تسمى الدرومادير (الجمال)، وفى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ تم نصبها فى ميدان الكونكورد فى احتفال عظيم، حضره الملك لوى فليب و ٢٠٠٠٠٠ من المشاهدين.

وفى ١٥ أغسطس ١٨٣٥، صدر مرسوم حكومى فى مصر كان من المفروض أن يضع حدا لمثل هذه الأعمال. إذ قالت الديباجة إن المتاحف

والجامعين والقوى الأجنبية جائعون لاختطاف الآثار المصرية، حتى إن هناك خطرا في أن جميع آثارها القديمة سوف تذوى لإثراء غيرها من البلاد. ومع ذلك فمن المفهوم أن الأوروبيين لا يمنعون نقل الأشياء المشابهة من بلادهم فحسب، وإنما هم يسارعون بإرسال الدارسين للاستحواذ على الآثار أينما وجدت، وهؤلاء الرجال غالبا ما يحصلون عليها في مقابل مبالغ زهيدة تشبع جشع مالكي هذه الآثار الجهلة. ولما كانت هذه الكنوز تسهم في مجد البلاد التي تملكها، ولما كانت مصر تمتلك ثروات وفيرة، ترى الحكومة أنه من الضروري اتباع ما يلي :

١ - حظر تصدير الآثار من جميع الأنواع في المستقبل حظرا تاما.

٢- جميع ما تمتلكه الحكومة من آثار أو تلك التي سوف تمتلكها عن طريق أعمال الحفر أو البحث، في المستقبل، توضع في القاهرة في مكان خاص.

٣- لا يكفي بالمنع التام في المستقبل لتدمير الآثار القديمة الموجودة في الصعيد، وإنما يجب على الحكومة اتخاذ الإجراءات لضمان الحفاظ عليها أينما وجدت.

لقد نص المرسوم على وقف جميع أعمال الحفر، وعلى حكام الأقاليم تنفيذ وقف العمل عن طريق مفتشين مسلحين. ويجب مراقبة جميع الموانئ لمنع تصدير الآثار في المستقبل؛ ويجب تعيين مفتش للإشراف على تنفيذ المرسوم في جميع أنحاء مصر؛ ويجب إرسال إخطار رسمي لجميع ممثلي القوى الأوروبية في مصر لضمان تعاون بلادهم ... وتعيين مفتش لإعمال مواده عن طريق السفر إلى جميع المواقع المهمة. كان المرسوم عملا تشريعيا حسن النية، وكان من الممكن أن يضع حدا للصراع الدولي على نهب آثار وادي النيل.

ولكن في ذلك الوقت، كانت سيادة مصر تتركز في يد فرد سرعان ما تلاشى اهتمامه بآثار مصر، فاختار التعدي على القوانين التي كانت تمنعه من إرضاء نزوات أولئك الذين كان يرغب في التأثير عليهم، فنسى الحفاظ على آثار مصر بهدوء لجيل بأكمله.

بعد فك رموز الكتابة الهيروغليفية بنجاح، ظل هناك سر واحد عظيم من أسرار مصر القديمة يورق عقول الناس، ويداعب خيالهم عبر القرون، هو أصل الأهرام والغرض منها. ولم يكن هناك نقص في النظريات التي حاولت شرح هذه المسألة. إذ إن هيرودوت الذي كان يكتب عام ٤٤٥ ق. م. حدد باني الهرم الأكبر بأنه الملك خوفو، وقال إن الكهنة كانوا قد وصفوا له طريقة إنشائه، حين أجبر العمال على العمل في مجموعات من ١٠٠٠٠٠ لا يستريحون إلا كل ثلاثة أشهر، على مدى فترة امتدت لعشرين عاما.

وكان المبلغ الذى أنفق على الفجل والبصل والثوم من أجل القوة العاملة قد كتب بأحرف مصرية على الهرم، وترجم لهيرودوت بـ ١٦٠٠ طالن فضة. كما يخبرنا هيرودوت بالقصة التى تروى أنه حين بدأت نقود الملك تنفذ، أمر بأن تقوم ابنته بعمل العاهرة للإسهام فى تكاليف البناء، وأنها نجحت فى مهنتها نجاحا كبيرا، حتى إنها لم تمول إكمال الهرم الأكبر فحسب، وإنما أسهمت فى تكديس ما يكفى من مواد لبناء الهرم الخاص بها، وذلك بأن طلبت من كل واحد من زائريها الإسهام بحجر بالإضافة إلى النقود كذلك.

يحدد هيرودوت بانيي الهرم الثانى والثالث تحديدا صحيحا بأنهما خفرع ومنقرع، غير أنه يكتب أن المصريين كانوا يكرهون الملكين كراهية شديدة، جعلتهم يسمون الهرمين بهرمى الراعى فيليشن Philition الذى يرعى غنمه فى المنطقة .

لقد عقدت الدهشة المؤرخ الإغريقى ديودوروس سيكولوس الذى زار مصر فى عام ٦٠ ق. م، لأنه لم يجد أى علامة على وجود أعمال حول الهرم الأكبر "بحيث يبدو أن البناء بأكمله قد وضع على الرمال المحيطة ليس بشكل تدريجى، وليس من صنع البشر، وإنما بواسطة مباشرة من قوة إلهية".

وروى أن المصريين كانت لهم العديد من القصص العجيبة عن هذا، لكن سيكولوس سجل المعلومات الأكثر تعقلا، وهى أن العملية قد تم تنفيذها على مدى عشرين سنة، بواسطة ٣٦٠٠٠٠ رجل.

أما بلينى الذى كتب بعد ذلك بقرن، فقد كان يظن أن الأهرام ما هى إلا "استعراض أحمق عديم الجدوى للثراء الملكى"، وقال شارحا إنها بنيت لاستنفاد كنوز ملوك مصر؛ وذلك بغرض إحباط من سوف يخلفونهم أو من ينافسونهم. ويستطرد بلينى قائلا إنه لا يجب لأحد أن يعجب بالأهرام باعتبارها تذكارات شامخة تشهد على عمل الملوك؛ لأن أصغرها وأجملها قد بنته عاهرة (رودوب Rhodope) التى كانت جارية زميلة لايسوب Aesop، لذا فإن بلينى يعتقد أن قدرة عاهرة على جمع ما يكفى من المال لبناء أحد الأهرام، لهو أكثر إثارة للعجب من الأهرام نفسها.

لقد قبل الكتاب الكلاسيكيون، بصفة عامة، فكرة أن الأهرام قد بنيت كأنصاب تذكارية أو كمقابر. وكانت هناك نظرية بديلة تعزى للقديس جريجورى النازيانزى، وكانت هذه النظرية رائجة فى العصور الوسطى، وزعمت هذه النظرية أن الأهرام قد بناها اليهود المنفيون كمخازن ضخمة لتخزين الحبوب.

كان الرحالة يزورون الهرم الأكبر بانتظام عبر القرون، وكان من الشائع أن به ممرا داخليا وبئرا. وكان مشهورا بأنه آخر العجائب السبع للعالم القديم، من حيث هو غامض وغير قابل للدمار. وكانت الخطط الوحيدة التى سجلها التاريخ لتحطيمه هى الخطط الطفولية التى حاول إبراهيم باشا القيام بها. كان إبراهيم نائب وإلى مصر، وفى ١٨٥٤ أقتعة ساحر أفريقى بأن الهرم يحتوى على كنوز كبيرة، فقرر الباشا أن يملأ البئر بالبارود ويفجر الهرم، غير أن قنصل البندقية نهاه عن ذلك، وأخبره بأن الانفجار سوف يعرض القاهرة للخطر.

فى الوقت الذى دخل فيه فريدريك نوردين الهرم الأكبر عام ١٧٣٧، كان عدد الزوار كبيرا جدا "حتى إن الممرات على الجانب الشمالى والجنوبى قد اسودت بسبب دخان المصابيح التى كان الرحالة يدخلونها من آن لآخر". غير أن بئر الهرم بقيت دون أن يكتشفها أحد. وأخيرا، أزال كابتن كافيجليا وهو تاجر من جنوة، قد عينه هنرى سولت، أزاح أخيرا القمامة وربط بين البئر والحجرة الكائنة تحت الأرض عام ١٨١٨. وفى ذلك العام، كان بيلزوني هو أول أوربى حديث يدخل هرم خفرع. ومع ذلك، بقى الكثير الذى ينبغى عمله، قبل أن يتم فض أسرار أكبر

مباني الأرض، وكانت هذه المهمة تتطلب رجلا يتمتع برؤية واضحة وعقل يتسم بالحزم.

كان ريتشارد ويليام هوارد - فيز رجلا عسكريا، وهو ابن الجنرال ريتشارد فيز، وكان قد تزوج ابنة المشير أى الفيلد مارشال جورج هاوارد، فاتخذ لقب وسلاح عائلة زوجته. وكان عضو البرلمان عن ستوك بوجيز عام ١٨٠٧، ثم من ١٨١٢ إلى ١٨١٨، ومنح درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون المدنى بجامعة أكسفورد عام ١٨٢٠. وفى عام ١٨٣٥، زار مصر لأول مرة، وهو فى الحادية والخمسين من عمره، وقد أوجدت هذه الخلفية - بالإضافة إلى إيمان مسيحي ثابت، وقدرة أكيدة على المنافسة - رجلا يتمتع بثقة لا تتزعزع فى آرائه.

وكانت آراء فيز متأثرة فى موضوع الأهرام، بكتابات جيكون بريانت، وهو أحد محبى الآثار الإنجليز، كان قد طواه النسيان منذ وفاته عام ١٨٠٤. كان بريانت يعتقد أن الأهرام من عمل الملوك الرعاة من سلالة حام، الذين طردوا من بابل بسبب ردتهم، وتشتتوا فى أنحاء العالم، وذهبوا إلى اليونان وقرطاج، بل وصلوا إلى أمريكا حيث ما زالت هناك آثار لما شيده من مبان. لقد كانوا شعبا غير عادى، من نفس جنس العمالق ( وهم عمالقة ذوو عين واحدة فى الأساطير اليونانية)، كما أنهم محبون للتجوال حول الأرض، وتشيد مبان معمارية هائلة تصيب المرء بالشعور بالعجز. وقد ربط فيز بين هؤلاء الناس والفلسطينيين، وكان يعتقد أن تاريخهم دليل على عمل يد الله فى هذه الدنيا، ويبدو أن هذه القبائل كانت فيما مضى مثالا حيا على قصاص الرب، مثلهم مثل اليهود المشتتين فى الوقت الحاضر.

ويبدو فى النهاية أنهم قد دمروا تدميرا تاما. وتبقى الأهرام كشهود باقيات، وإن تكن صامئة على العظمة التى لا تضارع لهذا الشعب الذى لا مثل له، كما أنها دليل على يقين العدل الإلهي، وصدق ما أنزله. وتبين هذه المعايير التى كان الكولونيل فيز يطبقها على الأبحاث التاريخية، أنه يرى أن نظريات بريانت مقنعة، قبل كل شئ بسبب اقتناع المؤلف العميق بصدق الوحي وعدالة العلى القدير، المنزهة عن الخطأ.



حين تقدم فيز بطلب للقنصلية البريطانية للحصول على تصريح كى يبدأ البحث فى الأهرام، قدم لكابتن كافيجليا، الذى قدم نفسه له باعتباره من رعايا بريطانيا وموطنه مالطة. كان كافيجليا يمتلك خبرة فى الحفر حول الأهرام، كما كان من عادته قراءة الكتاب المقدس والاقتباس منه. وقد جعله هذا محل ترحيب فيز، مما كان سببا فى أن يجعل فيز يوافق على أن يشرف على العمل. وكان على فيز والكولونيل كامبيل القنصل العام البريطانى، وتشارلز لوين نائب القنصل، تمويل المشروع. ومنح كافيجليا تفويضا تاما فى الفندق فيما يتعلق بنفقاته الشخصية، وبالنسبة لأى مخزونات قد يحتاج إليها لتنفيذ أعمال الحفر. وبعد أن حصل فيز على وعد من كافيجليا بإخباره إذا حدث ما يثير الاهتمام، رحل فيز فى جولة فى الصعيد بعدم مبالاة غريب بالأبحاث الهائلة التى كان على وشك البدء فيها.

وأقنعتة الرحلة الطويلة البطيئة على طول وادى النيل، بأن هذه الأرض قد باركها الرب حقا، كما تنبأ بذلك النبى أشعيا. وعند جزيرة فيلة، حيث يزداد عرض النهر فى بحيرة واسعة، وجد أنه من المستحيل عليه التأمل بلا تأثر فى ".... ذلك المجرى المهيب الرهيب، ومنابع فيضانه للوادى بانتظام. تلك المنابع التى يغلفها الغموض الذى ينطوى عليه تاريخ تلك الأمم التى غطت بجهدا ضافه بالخصب؛ والتى جعل إيمانها بالخرافة يشعل حماسها للعمل، فشيدت تلك الصروح التى لا يوجد ما يضارعها جمالا؛ حتى إن الحطام جعل العالم ينحنى إعجابا بها على تعاقب العصور".

وفى طيبة، حزن فيز حزنا شديدا، عندما لاحظ مخزنا للبارود يتم بناؤه على مدى ميل من المباني القديمة، واعتقد أن الطريق المؤدى إلى الأقصر، الذى لا بد أنه كان رائعا يوما ما، قد شوهته أكداس الرمال والقمامة، وبسبب "فقد المسلة التى أخذت إلى باريس، مما دمر أثر المسلة الباقية".

لقد غضب فيز لما لحق الآثار من دمار، وكثيرا ما كان يشكو من أن الناس يهدمونها للوصول إلى الحجارة، حتى فى المناطق التى يسهل فيها العثور على الكثير من مواد البناء. وكان ينعى بشدة تلك الأشياء الكثيرة الهامة التى وصفها من

سبقة من الرحالة، والتي دمرت. على أنه بنفس ازدواجية المشاعر الغريبة، التي يبدو أنها أملت بغيره من ذوى المشاعر الوطنية الحارة في مصر، أمكنه أن ينهى كلامه في نفس الفقرة التي سجل فيها حزنه على فقد الآثار القديمة، فيقول: "من المؤسف أن مسلة طيبة لم تشيد في هذه البلاد كنصب لنيلسون، إذن لكانت سجلا أكثر ملاءمة وتمجيذا لما حققه من شهرة عن أى عمل من أعمال النحت يمكن للأرمنة الحديثة أن تنتجه".

ومهما يكن من أمر، فقد أقنعت طيبة فيز بأن المصريين القدماء قد حفظوا شيئا من مجد الإنسان فيما قبل الفيضان، يقصد فيضان نوح، فتذكر أنه من الممكن الاستدلال من هوميروس والأساطير القديمة على أن البشر وهبوا ملكات عقلية وجسدية عظيمة إلى جانب طول العمر.... وأن الفنون بلغت قدرا كبيرا من الكمال قبل الفيضان؛ ويمكننا أن نستدل على نحو مقبول، بأن الكثير قد بقى بعد ذلك الحدث العظيم. لذا، فإن القوة والمهارة الباديتين في الكثير من الأضرحة المختلفة المبهرة، وفي الأهرام، وغيرها من الآثار الضخمة القديمة، تبدو أقل إثارة للعجب.

وفي دندرة، حيث زار فيز أشهر المعابد في الوادى، عام ١٨٣٦، شعر بالصدمة مرة أخرى بما شاهده من دمار، فكتب: "بالنسبة لامتداد حضارة هذه البلاد، فإن هذه الصروح تصبح مهدمة أكثر فأكثر، وأن ما تتسم به من كمال فنى، وما تتميز به من قدم، لا يوفران لها أى قدر من الحماية حين تكون هى مصدر المواد المطلوبة، سواء للمباني العامة أو القصور الخاصة".

ورغم أن فيز قد أظهر تعاليا ثقافيا كان شائعا بين السادة الإنجليز الذين كانوا يعيشون في الخارج، فى ذلك الوقت، إلا أنه كان حساسا لشيء مؤلم آخر شائع بين الإنجليز، كانوا يرفضون الاعتراف به، وهو العجز عن التحدث باللغة المحلية. فكثيرا ما يشير فيز إلى ما يصيبه من إحباط بسبب عدم قدرته على نقل دقائق الأمور الدبلوماسية حين يستضيفه أحد الوجهاء المحليين أو يقدم طلبا له؛ وكان يشكو من أن مترجميه يميلون إلى الإيماءات غير الجوهرية.

وتجشم فيز عناء تسجيل حادثه وقعت حين كان يزور حكمدار أسيوط، تبين عظم الأخطاء الحمقاء التى يمكن أن تحدث فى هذه البلاد بين شخصين لا يفهمان

بعضهما بعضا. كان يمر راكبا فى إحدى الأسواق فى صحبة انكشارى الحاكم وغيره من المرافقين، حين التقى بضابط عربى عند إحدى البوابات، "وصاح بكثير من الجدية وراح يشير لى بإشارات عنيفة كى أتوقف وأبتعد عن الطريق. وكان حصانه متعبا إلى حد ما، ولما كان الحصان الذى كنت أركبه فى نفس الحال، استنتجت أنه يخشى من أن يصطدما. وكنت أعلم تمام العلم، على أى حال، أنى قادر على منع أى حادث، وعلى ذلك مررت من خلال البوابة، رافعا اليد اليسرى، ومشيرا إليه بأن يلزم الجانب الآخر، وفى نفس الوقت، حبيته بالتحية المعتادة، غير أنى اندهشت إذ وجدت أنه زادت ثورته وتحدث بصوت أكثر ارتفاعا عن ذى قبل، وأبلغت بعد ذلك أن ما قصدت أن يكون سلوكا مهذبا فهمه هو على أنه إساءة، وكان مصرا على أن أنتظر، حتى يمر هو أولا من البوابة، باعتباره محمديا مسلما".

وبالرغم من أن الانكشارى ألح على فيز بأن يبلغ الحاكم، بما حدث من الرجل، إلا أنه يسجل ببساطة وتواضع أنه رفض ذلك. وكان من الممكن أن يثور فيز، على أى حال، بسبب الإهانة التى لحقت بكبريائه الوطنى.

وحين أخبر فيز، فيما بعد، عند الإبحار فى النهر، أن قاربيا يبحر عند الساحل الشرقى ويرفع العلم الإنجليزى، وأن هذا القارب يملكه أحد العرب، ولا يوجد على ظهره أى أوربى، أصر على صعود القارب، وأن ينزل العلم، فأوقفه عن ذلك رؤيته لرجل مالطى، زعم لنفسه الحق فى أن يبحر تحت العلم. فسجل فيز الحادث كى يبلغ القنصل العام، معلقا أنه غير مستعد لأن يتسامح مع عمل "يعرض العلم للعار الذى يلحقه به العرب الذين يبحرون فى ظله".

لقد خدم الكولونيل فيز تحت قيادة ويلينجتون، وكان حساسا لتزايد نفوذ الفرنسيين فى مصر. وكتب أنهم أمة "كانت مصالحها دائما وستظل بالضرورة معادية لمصالح بريطانيا العظمى"، كما كتب أن أى مراقب عابر لمصر على وعى بمدى النفوذ الفرنسى فى البلاد. ومن المحتمل أن كابتن كافيجليا كان على وعى بآراء مخدومه، وأنه أحس بالأمان وهو يبلغ فيز بأن التقدم البطيء الذى يحققه فى الأهرام، كان يرجع، جزئيا، إلى حسد الفرنسيين وتدخلهم.

عموما، حين عاد فيز اكتشف أن العمل الذي كان يموله للبحث فيما يتعلق بالأهرام، كان يستخدم بصفة رئيسية لحفر أماكن المومياء بين أبي الهول والهرم الثاني؛ إذ إن كافيجليا قد غير اتجاه العمل، وكما قال، إنه أحس أن الحفر من المحتمل أن يعطى أشياء ذات قيمة كبيرة لدنيا العلم. ومن المؤكد أنه كان من الوارد أن يعود بأشياء أكثر قيمة وأكثر قابلية للبيع من الأهرام، وبجهد يسير. غير أن فيز لم يكن معنيا بالربح، ووافق على أن جميع الأشياء التي تكتشف تحت الفرمان الذي يملكه، هي ملك للباشا.

وتلت ذلك فترة من الشجار تذكرنا بما حدث لسولت وبيلزوني، زعم أثناءها كافيجليا أنه شريك في المشروع، وليس مجرد مستخدم، وأنه بالرغم من أن فيز قد يكون لديه المال، فهو الذي يمتلك المهارات اللازمة. فافترقا والضغينة تملأ قلوبها، وانطلق فيز في الإشراف على العمل بنفسه.

لا بد أنه قد بدا لفيز، في بداية الأمر أنه ربما توجد القليل من المشكلات في تحمل هذا الجهد، فأكسبه العدل والاتزان والحزم والنزاهة احترام العالم؛ ذلك أن تربيته كجندي محترف والنجاح في حياته العملية أكسبها ثقة في النفس في قدراته كقائد للرجال. فوضع جدولا بأجور عادلة، وفي المقابل كان الرجال والنساء والأطفال يعملون من الشروق إلى الغروب، عدا ساعة لتناول الغداء. كان من يعملون داخل الأهرام يتقاضون أجورا أعلى، وكانت هناك مكافأة من الأجر المضاعف حين كان يتم الوصول إلى كشف له خطره.

لم تكن نتيجة هذا النظام أن كسب القرويون نقودا أكثر مما امتلكوه من قبل في حياتهم فحسب وإنما كما كتب فيز، في الوقت الذي كانوا يعملون معه كانوا يعفون من الأشغال العامة الإجبارية غير المدفوعة الأجر في التربة المجاورة. فكان له أن يتوقع أن يستقبل كمستبد محسن خير. ومع ذلك، كانت تنتظره خيبة الأمل، إذ كان العمل يتلأأ كل صباح، والكثيرون كانوا يصلون لموقع الحفر في السابعة أو الثامنة صباحا، واستشرت السرقة، وكانت من عادة الرئيس (رئيس العمال) أن يكتب في كشف الأجور أشخاصا لم يكونوا يأتون إلا لتقاضى أجورهم فقط. أما

مستخدمو فيز، فبدلاً من أن يتعاملوا معه باحترام، بدا أنهم يستنفدون طاقاتهم فى الاحتياال عليه.

وتسجل يومياته حادثة وقعت ذات مساء: "فى ذلك المساء، أحضر صبى محمولا على كتفى أحد الرجال، وعلى ما يبدو كان مشرفا على الموت. إذ كانت طاقيته البضاء وجبهته تلطخهما الدماء والرمل، وقيل إنه سقط فى هاوية عميقة فى الهرم الثالث". وجده فيز راقداً على الطين مع رجل عجوز زعم أنه عمه، وكان يجلس بجانبه كى يبعد عنه الذباب. وعلى الفور، أرسل فيز إلى القاهرة طلباً لطبيب. ولكن حين استدار فجأة، رأى أن الصبى قد فتح عينيه، ثم أغمضهما بمجرد أن وجد أنه قد لاحظته. ومرة أخرى، لمح فيز الصبى يتحدث إلى الرجل الذى كان معه، ولكن ما إن رآه الصبى، حتى رقد مرة أخرى على الأرض فاقدًا للوعى.

عندئذ، أخبر فيز الرجل أنه يمكنه الاستمرار فى العناية بالصبى إذا شاء، غير أنه لن يدفع له أى نقود مقابل ذلك. فأجاب الرجل بأنه فى هذه الحالة يحسن به أن يأخذ مريضه إلى القرية، وانطلقا ذاهبين، حيث استقبلهما جمهور من القرويين المنتحبين، فحملوا الصبى إلى بيته. واتضح أن الصبى كان قد خدش رأسه فى حافة الحفرة، ولم تكن به أى إصابة عدا ذلك.

ويقول فيز معلقاً: "هكذا كان مسلك هؤلاء التعساء"؛ وأخذت تظهر أمثلة من هذا النوع من التصرفات دائماً. حين جاء فيز إلى موقع العمل، كانت لديه توقعات كبيرة. إذ كان يرى أن الناس إذا ما عوملوا معاملة منصفة، حسب شروطه، فسوف يردون على ذلك بمشاعر الولاء والعرفان. غير أن هذه التوقعات كانت تتلاشى باطراد على مدى فترة الحفر. وبعد حكمه على القوة العاملة شهادة على انتصار الخبرة على الأمل: "مع كل ميزات الأجر المنتظم، والإعفاء من الأعمال الشاقة أثناء عملهم فى الأهرام، وعلى الرغم من العناية براحتهم والاهتمام بأى حادث صغير قد يقع لهم، ومع كل الرعاية الطبية والطعام الذى كان يقدم للمرضى وما إلى ذلك، وكذلك الحظر التام للإجراءات القاسية والعقاب الجسدى، بالرغم من كل هذا فإن هؤلاء التعساء لم يكونوا مدركين مطلقاً للعطف الذى كانوا يعاملون به.

بل على العكس من ذلك، لم يكونوا يدعون أى وسيلة من وسائل الخداع والمكر يمكن أن تمكنهم من الحصول على المال، أو الطعام، أو الدواء وما إلى ذلك، إلا اتبعوها.

وفى النهاية، بلغت بهم الوقاحة والكسل حدا أصبح معه البديل الوحيد هو التخلي عن العمل.... إنى واثق من أن الأحوال كما هى، لا يمكن معها القيام بأى عمل دون الترهيب بالعقاب الجسدى". لقد كان فيز موفقا إذ استعان بخدمات جون شى بيرينج. كان ذلك الرجل مهندسا يشغل منصب مساعد الأشغال العامة لدى الباشا.

وقام فيز وبيرينج بعمل مسح لجميع الأهرام الموجودة فى الجيزة، ثم اتجها إلى سقارة ودهشور وميدوم. حين بدأ العمل، كان داخل الهرم الأكبر قد اكتشف، وتم فتح الهرم الثانى، ونجح فيز فى فتح الهرم الثالث — هرم منقرع — وذلك باستخدام التفجير المحكوم والمنضبط للبارود، وقد لقى بسبب ذلك النقد الكثير. ومما يدعو للسخرية أن التفجيرات لم يكن لها مبرر بالنسبة للهرم الثالث، إذ بعد أن شق فيز طريقه إلى المنتصف تقريبا، توصل بالصدفة إلى المدخل الحقيقى عن طريق إزالة بضع كتل حجرية كانت مخلخلة على الجانب الأيسر.

ثم اكتشف السبب الذى جعل الأنفاق التى بنيت من أعلى غير ناجحة، ذلك أن حجرة الدفن والممرات المؤدية إليها كانت جميعها تحت الهرم، ولم تكن بالداخل. وكان لصوص المقابر قد فتحو الحجرة بالفعل، ولم يشتمل الوعاء الأزرق الطويل الذى عثروا عليه بالداخل إلا على بقايا متحللة لرجل.

وكان هناك تابوت حجرى بلا غطاء، فقرر فيز إرساله للمتحف البريطانى؛ لأنه كان مآله الدمار إذا ما ترك فى الحجرة. وتمكن الرجال من دحرجة التابوت على عربة إلى قاع ممر المدخل ثم رفعه، "وكان هذا عملا شاقا إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن وزنه كان يقرب من ثلاثة أطنان". وأخيرا وضع فى صندوق من الأخشاب المتينة، وشحن فى سفينة تجارية، وفقدت هذه السفينة قبالة قرطاج فى أكتوبر عام ١٨٣٧، وما زال التابوت إلى اليوم باقيا فى قاع البحر ومعه البضائع القديمة.

لا يوجد فى التاريخ التفصيلى الذى نشره فيز عن عمله هناك (يعنى فى مصر) أى تسجيل يدل على الحصول على تصريح بتصدير التابوت. ومع ذلك، فهو يوضح أن جميع الآثار التى عثر عليها فى الأهرام، هى ملك للباشا، وأن كل شىء تم إرساله إلى الكولونيل كامبيل فى القنصلية البريطانية ومعه التعليمات بأن جميع الطلبات تقدم لبرجس بك سكرتير (كاتب) محمد على، فيما يتعلق بالأشياء التى يرغب فيز فى أخذها إلى إنجلترا، ولا تشمل القائمة التابوت الحجرى، وإنما تحتوى على أشياء مثل: "إبريقين مكسورين من الفخار؛ وخمس زجاجات صغيرة مصنوعة من الزجاج؛ وثلاثة طيور من الخشب؛ وتسع قطع مكسورة...".

أعاد فيز مجموعته إلى إنجلترا، وقدمها للمتحف البريطانى عام ١٨٨٨، وترك بيرينج كى يستمر فى عمل مسح للأهرام على نفقة فيز، وأشرف على نشر سجلات أعماله فى لندن. وكانت هذه أدق وأشمل أعمال مسح للأهرام تنشر فى القرن التاسع عشر، وظلت مرجعا فى هذا الموضوع حتى الأزمنة الحديثة.

ومع أن اسم فيز فى تاريخ المصريات مرتبط باستخدام البارود ووسائل الحفر العنيفة، إلا أن الضرر الذى ألحقه كان قليلا، أما النتائج التى حققها فتعد إسهاما كبيرا فى مجال المعرفة. لذا، فإن فيز جدير بأن يتذكره الناس ذكرا أفضل.

ولا يرجع ذلك فقط إلى أن طموحاته فى مصر لم تكن عادية، فهو لم يكن يسعى إلى اكتساب شهرة لشخصه أو تكديس ثروة كبيرة، كما لم يكن يرغب فى تحقيق ذلك لبلاده، وإنما كان يهدف إلى توسيع مجال المعرفة الإنسانية.

## الفصل الخامس

### الاتصال الحضارى

جلب الأمن الداخلى الذى ساد عقب تسلم محمد على سدة الحكم، وكذلك تشجيعه للمشاريع الأجنبية، تدفقا كبيرا للرحالة من أوروبا إلى مصر. فبعد عام ١٨٠٨، كان البريطانيون الأثرياء قادرين على التجول مرة أخرى فى ربوع وادى النيل، ولقد أقر سير أرشيبولد ادموندستون بحدوث تغيير فى الوضع السياسى، وسير ادموندستون هو بارونيت (لقب أدنى من البارون وأرفع من الفارس). فمنذ أن حل الاستبداد القوى النشاط الذى مثله الباشوات الأتراك محل طغيان المماليك المتشردم، تمتعت الحكومة بدرجة من القوة والأمن لم تكن تقريبا معهودة من قبل. ولم تقتصر نتيجة ذلك الوضع على هبوط وضع الفلاحين حتى بلغوا حالة من الخضوع التام فحسب، بل إن أهل النوبة الذين يتصلون بمصر من الجنوب، والعربان الرحل الذين طالما أغاروا على حدودها من الغرب، قد أصبحوا مجرد تابعين خاضعين لا يشكلون أى خطر .

قام سير أرشيبولد باستكشاف واحتين ما بين عامى ١٨١٩ و ١٨٢٠، وكان يرتدى زيا مملوكيا عبارة عن بنطلون (سروال كبير) من القماش، وخف أحمر، وعباءة من الموسلين. وهو لم يكن معنيا بالتطاحن التجارى من أجل الآثار، ذلك التطاحن الذى كان يدور من حوله، إذ كان ينفق الساعات على نهر النيل وهو يقوم بنسخ النقوش الموجودة باللغة اليونانية، ويكتب الملاحظات فى صحيفة يومية حيث يسجل فيها العادات والتقاليد، من أجل التيسرية عن جمهور القراء فى وطنه.



ولكن اهتمامات جان بابتيست ليورين كانت ذات طبيعة عملية، إذ كان مكافأ من قبل جامع الآثار والأثرى الفرنسى لويس - سيباستيان سولنى بنقل علامات الأبراج الرائعة من سقف المعبد القائم فى دندرة وشحنه إلى باريس. ويبدو أن تبرير فرنسا لهذه المهمة هو أن ما بهذا النحت من جمال كان من القوة حتى إنه أثار الحاسة الفنية لدى الجنرال ديسى، وقد أعاد تقديمه فى كتاب وصف مصر، ذلك الكتاب البديع، بحيث إنه "بشكل ما قد صار نصبا قوميا".

وكان ليورين عند تقديمه لطلب لإصدار فرمان، يتمتع بقدر كاف من الدبلوماسية جعله يخفى الهدف من وراء زيارته عن محمد على، وأن يقدم نفسه باعتباره مجرد مسافر أجنبى كغيره من المسافرين لديه نهم للمعرفة.

وعندما وصل ليورين إلى دندرة، وجد مجموعة من الزائرين الإنجليز يقومون برسم دائرة البروج، لذا ذهب إلى طيبة، حيث اشترى بضع قطع أثرية كى يعطى انطباعا بأنه مجرد سائح عابر لديه اهتمام بالأشياء الغربية الأقل أهمية. ثم بعد أن أشاع أنه معتل الصحة يخطط لقضاء بضعة أسابيع للنفاهة على البحر الأحمر، عاد إلى دندرة، وأخذ يعمل فى قطع دائرة البروج. وكان تمثال الأبراج منحوتا على كتل من الحجارة سمكها ثلاث أقدام، فاستخدم ليورين البارود لعمل ثقوب، ثم قام رئيس للعمال وأربعون عاملا بقطعه مستخدمين أزاميل ومناشير.

وبعد ثلاثة أسابيع من العمل ليل نهار، أزيلت الكتل الحجرية، وحملت وسحبت على دحروجات أو بكرات نحو أحد القوارب. وأعلن المراكبى أن المياه أكثر انخفاضا من أن يحاولوا الإبحار بمثل هذا الحمل الثقيل إلى الشمال فى ذلك الموسم. ومع كل، فقد كان ليورين قد قضى فى مصر وقتا يكفى لكى يدرك أن الإنجليز قد قاموا برشوة هذا الرجل، فسأل المراكبى، ببساطة، عن المبلغ الذى عُرض عليه، ووفى بالثمن وهو ١٠٠٠ قرش، وتمكنوا من الإبحار.

وفى منتصف الطريق إلى القاهرة، أوقفهم عميل إنجليزى يحمل أمرا من رئيس نظار الباشا يمنعهم من حمل الحجارة. فرفع ليورين العلم الفرنسى، وتحدى معارضيه ومنعهم من الصعود إلى مركبه، وواصل الإبحار.

وفى الإسكندرية، حاول كل من القنصل الفرنسى والإنجليزى منع ليورين من شحن دائرة البروج، إدراكا منهما لمدى عظم الإضافة التى سوف تشكلها

لمجموعتيهما. ومع ذلك فان ليورين تمكن من الصمود، وتم شحن الكتل الحجرية بسلام إلى فرنسا، وبيعت للويس الثامن عشر بمبلغ ١٥٠.٠٠٠ فرنك، وتم تجميعها في متحف اللوفر.

أما رواية سولننى للعملية التى نشرت عام ١٨٢٢، فشرحت للعالم أن دوافعه من وراء إسناد نقل دائرة البروج لفرنسا كانت من وحى شعوره بالغيرية الجمالية، إذ كتب أن الوهابيين، فى بلاد العرب، كانوا يهددون مصر، وإذا تم لهم غزوها بنجاح، فلسوف يدمرون آثارها القديمة: "وتوقيا لهذا الخطر، وهو ليس خيالا محضا، فإنه من حسن الحظ أن انتشلت دائرة البروج فى دندرة من قوى الدمار التى سبق وصفها؛ كى توضع تحت حماية الحضارة الأوربية".

فى عام ١٨٢٢، أى فى السنة التى وضعت فيها دائرة البروج فى اللوفر، عاد عالم المعادن الفرنسى فريدريك كليمو من مصر ومعه مجموعة تضم أكثر من ٥٠٠ قطعة. ونشر فى لندن روايته عن رحلاته على طول وادى النيل، ونعى الدمار الذى ألحقته البلاد الأخرى بكنوز مصر القديمة: "فى الحقيقة، لو لم يكن ما يخشى منه على الآثار سوى المياه وتقلب الفصول، لبقيت عبر العصور، لكن عليها أن تتلقى عنف الأتراك... وما هو أكثر من ذلك عبث أيادى بعض الأوربيين. لن أورد أية أسماء، غير أنى سوف أكتفى بالقول بأنهم ليسوا فرنسيين"... وأقل ما يقال إن هذا الاتجاه كان متواصلا، فمنذ السنوات الأولى من التنافس الأنجلوفرنسى على نهب الآثار المصرية، كانت كل أمة منهما تتحو باللائمة على الأخرى على ما تسببت فيه من الضرر.

فى السنوات التى أعقبت نشر كتاب كليمو، كان شامبليون يقوم بجولة فى المواقع الرئيسية محتجا على ما يلحق بها من انتهاك وتدنيس، فى حين كان يرتب من أجل شحن مسلة الأقصر إلى فرنسا. والتقى شامبليون خلال رحلاته بلورد أولجيرنون بيرسى، دوق نورثامبرلاند الرابع، الذى كان على ما يبدو هو ورفيقه ميجور أولاندو فيليكس منهمكين فى نسخ من النقوش على المقابر؛ فأخذوا عطلة من مشاغلهم الأكاديمية، لجمع مجموعة من الآثار وصلت بمرور الوقت إلى ما يربو على ٢٠٠٠ قطعة.

وكان هناك رحالة في مصر يسعون وراء التجربة الجمالية. فالرومانسية التي أثرت في الفنون في بداية القرن التاسع عشر استمدت إلهامها من الازدراء لإنسان المدينة، وتمجيدها بل تأليهها للهمجي النبيل، والافتتان بالتصوف الدينى، والانجذاب القلبي للحضارات البائدة أو البدائية، بما فى ذلك الحضارة المصرية. فجميع كبار الشعراء الرومانسيين فى ذلك الزمان أحبوا الغوص فى الإجسيانا (التراث الفرعونى) .

إن الكلمات الختامية فى قصيدة أوزيماندياس لشيلى ١٨١٨، تستحضر بقوة صمت المشهد الصحراوى وما يوحى به من عزلة: "لكن لا شىء يبقى، فحول الخواء الهائل تمتد الرمال العارية، التى لا يحدها شىء بعيدا بعيدا". كما كان كيتس مدلهما بمصر، وتشير سبع من قصائده التى ظهرت فى نفس العام إليها أو إلى كليوباترا، بما فى ذلك سوناتا أو أنشودة للنيل .

أما بالنسبة لبيرون، فإن خطته لزيارة مصر تعود إلى رحلة قام بها إلى أثينا عام ١٨١١، حين حصل على فرمان بدخول البلاد، غير أن اليونان صرفت انتباهه. وفى عام ١٨١٩، أقنع الناشر جون مارى بإضافة بضعة مقاطع إلى عمله الشعري دون جوان: "ما هى آمال الإنسان؟ لقد شيد ملك مصر القديمة خوفا الهرم الأول وأكبر أهراماتها، معتقدا أنه هو الشىء الذى سوف يخلد ذكره ومومياءه مخبئة؛ لكن شخصا آخر يعبث؛ ويفتح متلصصا غطاء تابوته، فلا تدع أثرا يعطيك أو يعطينى أية آمال، طالما لم تتبَّق من خوفا ذرة من تراب".

كذلك رسم بنجامين هيدون، وهو صديق حميم من أصدقاء كيتس، لوحات كبيرة على القماش مفصلة عن موضوعات ملحمية، خمس منها تناولت موضوعات مصرية. ولقد بحث عن هذه الموضوعات بزيارته للقاعات المصرية فى المتحف البريطانى، وتابوت سيتحس الأول الحجرى فى قاعة سلوين، ودرس "كل ما هو مصرى فى المتحف"، وكان ينفق معظم وقته بين عامى ١٨٢٣ و ١٨٢٦ فى عمل "فرعون يطرد موسى فى الليل البهيم، حين ألقى وليده الأول ميتا فى عيد الفصح"، وهو موضوع كان ملهما له لأنه، كما سجل فى مذكراته "أبو الهول أو نموذجان من أبى الهول، أو هرم أو أكثر، مظلم ورهيب، مع إضاءة مع المجموعات الأولى

تضيئها المصابيح يمكنها أن تجعل هذا الموضوع رائعا ومؤثرا. ذلك أنه يدمج العاطفة والسمو".

إن ما جذب هيدون وغيره من رهبة وغموض وشجو وسمو إلى الموضوعات المصرية، كلها أمور استخدمها معماريو ذلك الزمان بأسلوب سمي بالمنظرانى التجارى، أى المنظر الذى يرغب فى التصوير البديع. وتعد القاعة المصرية فى بيكاديلى، التى وضع فيها معرض بيلزوني من أوائل الأمثلة على ذلك. كما كان هنال بيت مصرى فى بينزانس penzance قريب الشبه بهذا، بمشربيات وحليات معمارية محدبة فى قاعدة الأعمدة، وأطباق مجنحة بنيت كمتحف ومستودع جيولوجى. وكان الأسلوب المصرى Egyption style مفضلا كثيرا لمثل هذه الأماكن، لما به من عقب العراقة. كما كان الناس يعتقدون أنه يوحى بالقوة والصلابة والتحمل، مما يجعله ملائما للطواحين ومحطات السكك الحديدية والكبارى.

لذا فإن بریتون تشين بير فى ١٨٢٣، وجسر كليفتون المعلق فى بريستول الذى صمم عام ١٨٣١، كلاهما يتسمان بالسماط المصرية، فالمشروع الذى وضعه برونى من أجل كليفتون يشتمل على بوابات ضخمة، تشبه تلك الموجودة فى المعابد الفرعونية، وأشكال أبى الهول تعلوها كرات مجنحة كالأجرام السماوية، وكذلك زخارف من الكتابة الهيروغليفية، إذ إن هذا كان مزيجا يلقي الكثير من الإعجاب .

بل إن أصحاب المصانع فى الشمال الصناعى، كانوا يسعون إلى وضع مسحة روحية على طواحينهم الشيطانية، وذلك برسم أصداء مصرية. إذ بنيت طواحين المعابد بشارع مارشال فى ليدز بواجهة مأخوذة عن المعبد القائم فى إدفو، كما استمدت مباني أحد المصانع شكلها من دندرة، فكانت الأعمدة الداخلية بها نخيل ورعوس من البردى، وكانت الأسقف بها طبقة من الطين زرع بها العشب كى يمكن للأغنام أن ترعى فى أعلى، وكان عليهم أن يوقفوا هذا حين سقطت إحدى الأغنام بين الماكينات.

كذلك كانت الموضوعات المصرية شائعة فى معمار المدافن منذ عصر النهضة، غير أنها اكتسبت زخما جديدا فى أوائل القرن التاسع عشر. فلقد أقيمت

مقبرة بير لاشيز، فى باريس، وتعد الكثير من النصب الكبرى البارزة بها ذات أسلوب مصرى. فكان المنزل المقبرة النموذجى يضم كهفا تحت الأرض تعلوه كنيسة صغيرة، غالبا ما كانت تزدهر بموضوعات مصرية . فكانت مقبرة جاسبار مونج التى شيدها تلاميذ مدرسة الصنائع (اكوول بوليتيكنيك) ثرية بالطابع المصرى، مما يلىق بتخليد ذكرى أحد كبار علماء يونانبرت. وسرعان ما صار بير لاشيز نموذجا للمقابر العامة، وقلد على نطاق واسع .

وجاء فى مقال عن "المقابر" نشر فى المجلة المعمارية عام ١٨٣٧: "أحيانا ما تم تبني الأسلوب المصرى بما يتميز به من عرض كبير وضخامة فى النسب فى إقامة الأضرحة، وأظن أنه من آن لآخر، استخدم فى إقامة المباني المتصلة بالمقابر المغلفة، وربما كان ذلك ناجما عن الاعتقاد فى تحمل هذا النوع من البناء والقوة التى ترتبط بالآثار المصرية". ومع ذلك فإن كاتب هذا المقال يستطرد فيذكر تحفظا عبر عنه من قبل بشأن هذه الطريقة.. "من الصواب أيضا تربية الحب والتفضيل للأسلوب القوطى، ذلك أن هناك حقيقة لا سبيل إلى تغييرها، وهى أنه معمار مسيحي، أما المعمار الكلاسيكى والمصرى فينتميان إلى الوثنية".

على أى حال، لم يتأثر دوق هاميلتون العاشر بتوجسات زملائه من المسيحيين، ففي عام ١٨٣٧ دفع مبلغ ٦٠٠ جنيه ثمنا لتابوت حجري كان قد تم شحنه إلى فرنسا بواسطة شامبليون، ليس بغرض العرض وإنما كي يتسلم ما له من آثار. وأمر الدوق ببناء ضريح على أرض قصر هاميلتون وصفته صحيفة التايمز "بأنه يعتقد أنه أروع وأعلى معبد لاستقبال الموتى فى العالم، طبعاً باستثناء الأهرام"، ودفن هو نفسه بداخله، بعد أن حنط جثمانه جوزيف بيتيجرو. وبيتيجرو هو مؤلف كتاب الموميאות المصرية.

ولم يكن الأمر مقصوراً فقط على نزوات الأفراد، بل إن السلطات البلدية التى تتمتع بصفاء الذهن، وكذلك بيوتات التجارة، قد مالت هى أيضا إلى الشعبية المتزايدة للموضة المصرية. ففي ١٨٣٩، بنت شركة المقابر بلندن "دائرة السراييب اللبنانية" فى مقابر سينت جيمز فى هيجيت. فى هذه الدائرة تحيط سلسلة من القبور المقامة بالأسلوب المصرى بشجرة أرز لبنانية كبيرة. كان المدخل عبارة

عن مشربية تحيطها أعمدة مصرية تحرسها المسلات، وهى تؤدى إلى "طريق مصرى تحيطه الأشجار".

وتشتمل مقابر جلاسجو التى أنشئت فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، على العديد من القبور التى تتميز بالسماط المصرية، وكذلك على مسلة عليها نقوش وكهوف مصرية لتخزين الجثث التى تنتظر إنشاء مقابر دائمة. فى ذلك الوقت، أدمجت العديد من الأماكن الأخرى العناصر المعمارية المصرية فى مقابرها، منها كينسال جرين، ونوروود، وبرومبتون، وبرادفورد.

ومما لا شك فيه أن أكثر المشروعات غرابة هو مشروع توماس ويلسون الذى اقترح، عام ١٨٢٤، تشييد هرم كبير فى وسط لندن؛ لحفظ خمسة ملايين جثة. كان من المقرر أن يشيد من الطوب بواجهة من الجرانيت، ويقام على مساحة فى حجم ميدان رسل، وأن يعلو إلى ارتفاع يزيد على كاتدرائية سينت بول. وقدرت التكلفة بـ ٢٥٨٣٥٥٢ من الجنيهات. وبما أن جميع الكهوف فى هذا البناء كان من المقرر أن تباع ملكا مدى الحياة بل تورث بأسعار تتراوح بين ١٠٠ و ٥٠٠ جنيه، لكل منها، فإن الربح الذى تم تقديره ١٠٧٦٤٨٠٠ جنيه.

عموما، بالرغم من ادعاء ويلسون بأن "هذا الضريح العظيم سوف يقطع شوطا لإكمال مجد لندن". وبالرغم من ربحيته الواضحة، وأنه يزين المدينة، بالإضافة إلى عدم قابليته للحرق العمد، واستيفائه للشروط الصحية العامة، بالرغم من هذا كله، إلا أن الدعم المالى لم يكن متوقعا، فظل التصميم الفخم حبرا على ورق .

إن غالبية الشعراء والمعماريين والفنانين الذين استلهموا مصر، لم يقتربوا قط من زيارتها بالفعل، واكتفى بعض أكثر هؤلاء شهرة بأمور رمزية على سبيل الواجب، مثل الأهرامات التى كان ج. و. تيرنر يضعها من حين لآخر على أفاق لوحاته المستوحاة من الكتاب المقدس. ومع ذلك، فقد كان هناك بعض الفنانين ممن توفرات لديهم الإمكانات والوقت للزيارة نشدانا للشئ الحقيقى، وربما لا يكون من المدهش أن حياتهم صارت متشابكة. ذلك أن فريدريك كاثيروود، الذى يعرف أكثر ما يعرف بلوحاته لأثار المايا، قام بزيارة مصر بين ١٨٢٣ — ١٨٢٤، والتقى بروبيرت هي Hay، وهو رحالة وأثرى سكوتلاندى، فى مالطة فى طريق عودته إلى الوطن.

وبلغ من تأثر "هى" Hay بحكايات كاثيروود ولوحاته، أنه توجه إلى الإسكندرية ، وأنفق الاثنى عشر سنة التالية فى زيارة وادى النيل فى صحبة الفنانين والباحثين. وكان من بين هؤلاء جوزيف بونومى، وهو مثال ورسام هندسى. فبعد أن تعرف على مصر من خلال "هى" أنفق ثمانى سنوات هناك يساعد الدارسين فى أبحاثهم. وكان من بين هؤلاء الباحثين أول من أثار اهتمام الناس بالمصريات فى بريطانيا العظمى.

أما جون ويلكينسون، فقد اهتم بالغاز الهيروغليفية حين كان تلميذا فى مدرسة هارو، إذ إن ناظر المدرسة فى ذلك الوقت د. جورج باتلر، كان صديقا وتلميذا سابقا لتوماس يانج Young. وبعد أن ترك ويلكينسون كلية اكستر بجامعة أوكسفورد، دون الحصول على درجته العلمية، كان يقوم بزيارة لإيطاليا لأسباب صحية حسب موضة ذلك الزمان. وهناك التقى بسير ويليام جيل، الأثرى الذى كان يتراسل معه حول موضوع الكتابة الهيروغليفية، فاقتنع بأن يهب نفسه لعلم الآثار المصرية.

كان ويلكينسون يملك دخلا صغيرا، وتمكن وهو فى الرابعة والعشرين من عمره من زيارة مصر فى عام ١٨٢١، وبقي هناك اثنتى عشرة سنة. زار أثناء ذلك الوقت، كل موقع أثرى له أهمية، ورسم لوحات متقنة بارعة. ودرس اللغة العربية واللغة القبطية كى يساعده ذلك على ترجمة الهيروغليفية. وتوصل دون الاستعانة بأعمال شامبلين إلى الكثير من الاستنتاجات التى توصل إليها شامبلين.

ومع أنه اعتمد على الهيروغليفية فى الجزء الأكبر من عمله، وبدون مساعدة حكومية، إلا أنه تمكن من التعرف على الكثير من الأسماء الملكية، وأخرج أول ترتيب زمنى للملوك والأسر الملكية يمكن التعويل عليه. كما رسم أول خطة شاملة لطيبة القديمة ، وأخرج ثروة لا مثيل لها من الرسوم واللوحات من المقابر، فكتب كتابه الضخم الناجح الذى غطى جوانب عديدة بعنوان: "سلوك وعادات قدماء المصريين". واشتمل هذا الكتاب على حياتهم الخاصة، ونظام الحكم عندهم، وكذلك الفنون والصناعات، والديانة والزراعة والتاريخ السابق، وذلك عن طريق مقارنة اللوحات السابقة وأعمال النحت والآثار التى لا تزال باقية مع روايات مؤلفين

قديماً. وظهر هذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات عام ١٨٣٧، أعد بونومى الرسوم التوضيحية الخاصة به.

فى السنة السابقة على ذلك، ظهر فى لندن كتاب إدوارد ويليام لين: "سلوك وعادات المصريين المحدثين". وقد هدف هذا العمل إلى أن يفعل بالنسبة للمصريين المحدثين ما فعله ويلكينسون بالنسبة لأجدادهم. من بين جميع الإنجليز الذين كانوا يرتدون ملابس داخلية من الكتان<sup>(١)</sup> والققطان، ويأكلون عيون الأغنام، ويتخذون لأنفسهم أسماء عربية ويطمسون معالم شخصيتهم الإنجليزية، يعتبر لين أكثرهم علماً، ويعد كتابه أوسع كتب هؤلاء الإنجليز رواجاً. ولما كان ابناً لأحد القساوسة، فكان من المقرر أن يكون مصيره إلى الكنيسة عن طريق الدراسة فى جامعة كيمبريدج، غير أنه تخلى عن هذه الخطة بعد أن قام بزيارة قصيرة لتلك المدينة.

وبعد أن قضى بضع سنوات فى لندن، حيث تعلم الرسم وفن الحفر أو النقش واللغة العربية، اتجه إلى الإسكندرية فى يوليو من عام ١٨٢٥ وقد صار عمره أربعة وعشرين سنة. كانت رحلته فى سفينة شراعية ذات صاريين، كادت تغرق حين هب إعصار، فكادت المياه تغمرها قبالة تونس. ويسجل كاتب سيرة حياته أنه بعد أن أرسل بقائد السفينة غير الكفاء إلى قمرته، اندفع إلى عجلة القيادة وأبحر بالسفينة بسلام إلى مالطة.

وما إن وصل لين إلى مصر، حتى أظهر نفس القدر من الشجاعة والاستقلال وذلك بأن حاول أن يعيش كإنسان عربى: "لقد اندمجت تماماً تقريباً مع المسلمين من مختلف فئات المجتمع، عشت كما يعيشون، متوافقاً مع عاداتهم العامة؛ ولكى أجعلهم يألوننى ولا يشعرون بالتحفظ نحوى فى كل أمر، كنت دائماً ما أشاركهم الرأى حين كان ضميرى يسمح بذلك، وفى معظم الحالات التى لا يتوافر لى فيها ذلك، كنت أحجم عن التعبير عن اختلافى معهم، كما كنت أحجم عن كل فعل يجعلهم ينفرون منى. فكنت أمتنع عن تناول أى طعام يحرمة دينهم، مثل شرب الخمر وما إلى ذلك؛ بل كنت أمتنع عن العادات التى قد لا يحبونها؛ مثل استخدام

(١) ربما يقصد السروال الطويل. (المترجم).



السكاكين والشوك فى تناول الوجبات.... وحين كنت أسير بين الناس، كانوا يظنون أنى تركى، بسبب الملابس الذى وجدته ملائما لى".

صار ويلكينسون شهيرا بسبب كشفه لأسرار حضارة كانت ميتة لزم من طويل. أما لين، فهو شأنه شأن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر، اكتسب مكانته بسبب معرفته الوثيقة بثقافة غريبة غير مألوقة، إذ لاحظ وسجل كل جانب من جوانب طريقة الحياة التى كان يحياها المصريون، وذلك بعمل سلسلة من الرسوم مستخدما كاميرا لوسيدا a camera Lucida، وهى نوع خاص من آلات التصوير تلقى صورة عن طريق منشور زجاجى فتعكس على لوحة سوداء حيث يمكن رسم الصورة.

ولقد رفض الناشرون الذين عرض عليهم لين ملاحظاته عن مصر الكتاب، على أساس عدم وجود ما يكفى من الاهتمام بهذا الموضوع فى ذلك الوقت. ومن حسن الحظ أن لورد بروجام استطاع أن يرى ما بالكتاب من إمكانيات، فأوصى به جمعية بث المعارف النافعة. فحقق الكتاب نجاحا تجاريا وطبعت منه أربع طبعات فى خلال العشر سنوات الأولى. وقد لا يكون هذا راجعا كليا إلى اهتمام واسع النطاق بالعلوم الإنسانية؛ إذ يوجد تعليق فى المقدمة ربما يكون هو الذى لفت انتباه القارئ: "إن حرارة شهور الصيف من الشدة بحيث تحدث قدرا كبيرا من الخمول، فى حين أنها، فى نفس الوقت، تثير المصرى فيفرط فى المتع الحسية؛ كما أن شدة خصوبة التربة تؤدى إلى قدر من الكسل"... ولم يكن المجتمع الفكتورى فى بدايته يمتنع عن التسرية عن نفسه من حين لآخر بالتعرف واستكشاف "الإفراط فى المتع الحسية" التى تتمتع بها الشعوب الأجنبية.

لقد كان هناك اهتمام حاد حقا، بما غنمه أولئك الذين حطموا، تابوات (محرقات) المجتمع المذهب ثم أفلتوا من أى تبعة، ومن الواضح أن لين كان فى وضع مناسب يمكنه من الكشف عن هذه المغام. فهو لا يصف المظهر الخارجى للثقافة المصرية فحسب — كالمسكن والملبس والعادات الاجتماعية والألعاب والأعياد العامة— وإنما يصف أيضا عالم الحريم الخفى والمخادع. وهناك معلومات عن إعداد الحشيش وتدخينه والأفيون، وطقوس الدراويش السرية، والختان، والأحجية التى تقى من عين الحسود. ويكتب بحماس عما تتمتع به النساء

المصريات من قدرة على الإغراء: "عيونهن، بقليل من الاستثناء، سوداء واسعة، لوزية الشكل، ذات رموش طويلة جميلة، بها تعبير رائع ساحر، يصعب العثور على عيون أكثر جمالاً"... ويوجد وصف مفصل لأسرار زينتهن أى زينة الوجه، وكذلك ما يتلقين من تعليمات كى يصبحن مبعث سرور لأزواجهن. لا بد أن الزفرات كانت تصعد فى صدور الإنجليز فى العصر الفكتورى حين كتب لين: "إن ما تتسم به غالبية المصريات من طاقة جنسية والسلوك الشهوانى يمكن أن يُعزى إلى الكثير من الأسباب؛ فهو يرجع جزئياً إلى المناخ، كما يرجع جزئياً إلى افتقارهن إلى التعليم السليم والمتع البريئة وطرق قضاء الوقت".

وإلى جانب الافتتان باللذة الحسية، كان هناك الافتتان بعالم الأرواح. إذ استطاع لين أن يشهد بناء على تجربة شخصية أن القوة الروحية لقدماء المصريين انتقلت إلى أحفادهم. فقد زار، فى إحدى المرات، ساحراً فى القاهرة، وأخذ معه، كما قيل له مزيجاً من بذور اللبان البخور والكزبرة. وأحرق هذا المزيج فى طبق يغلى، وجيء بصبى "لم يصل بعد إلى سن البلوغ" ليقف بجانبه. ورسم الساحر "مربّعاً سحرياً" فى كف الصبى. مشتملاً على أعداد إذا ما جمعت صفوفاً أفقية أو رأسية أو مائلة تصل إلى رقم خمسة عشر. وصب الساحر فى وسط المربع قليلاً من الحبر، وطلب من الصبى أن يخلق فى هذه البقعة. ثم سئل لين إذا كان يريد استحضار أى شخص، سواء كان حياً أو ميتاً. فاختار استحضار لورد نيلسون. وعلى الفور، رأى الصبى رجلاً يرتدى ملابس أوربية سوداء، ويبدو أنه قد فقد ذراعه اليسرى. فكان هذا مثيراً وإن لم يكن دقيقاً. ولكى يساعد لين الصبى سأل عما إذا كانت الصورة الموجودة فى البقعة ربما مثل صورة فى مرآة، بحيث تكون الذراع اليسرى هى الذراع اليمنى. فأكد الساحر أن هذا صحيح.

لم يكن هناك أى شك فى اتزان ذهن سير جون جاردنر ويلكينسون، ولقد حصل على رتبة فارس بعد نشر كتاب: "سلوك المصريين المحدثين". وفى كتاب: "مصر الحديثة"، الذى نشر عام ١٨٤٣، فإن نظرتَه بالقطع هى نظرة الرجل الإنجليزى فى الخارج، وهى تتناقض تناقضاً واضحاً مع نظرة لين. إذ كان لكتاب ويلكينسون، بالطبع، هدف مختلف، باعتباره مرشداً شاملاً للرحالة. فهو لذلك، يسعى إلى تزويد السائح الأجنبى فى مصر بالمعلومات الضرورية للقيام بزيارة

ناجحة، أكثر من سعيه إلى تنوير محبى الاستطلاع. ويعد الكتاب رائعا من حيث تغطيته الواسعة لمختلف الجوانب. إذ يقيم ويلكينسون الطرق والفنادق المختلفة في الطريق إلى مصر، أو داخلها، كما يقدم إشارات عن كيفية تحاشي جشع المراكبية والحدوية. وهناك قدر كبير من المعلومات التي درست وبحثت بعناية كبيرة، تتناول تاريخ كل موقع أثري رئيسى وإطاره الخارجى على طول وادى النيل، إضافة إلى عملية بسيطة من أجل الرحالة. فهو يقترح أن أول شيء تفعله بعد استئجار مركب هو أن تغطسه كي تغرق الفئران.

إن كتاب ويلكينسون (مصر الحديثة) يتناقض أشد ما يكون التناقض مع كتاب لين (المصريون المحدثون) فى الاتجاه الذى يتناول به المصريين، فويلكينسون يعطى المسافرين نصائح دقيقة سليمة عن الأجور المناسبة لمختلف طبقات الخدم، ويحذر باستمرار من إساءة تصرف من يعملون فى خدمة هذا المسافر: "بعد مرور أيام قليلة من الإبحار فى المركب الذى استأجرته وغطسته، مثلاً، فمن حسن التدبير أن تطلب من خدمك من أهل البلاد ليلاً أو بحجة الاستحمام، أن يتفحص عارضة قاع المركب بحثاً عن الخشب، إذ إنها، أحياناً ما تربط عبر اللوح كى تبطئ من سرعة المركب، مما يطيل من الرحلة، ومن ثم أجر المركب". فطبقاً لويلكينسون، قد يكون المصريون غادرين جشعين، غير أن الرحالة الإنجليزى يجب أن يعتاد على فكرة، أن المصريين، حتى الشحاذ منهم، يرى فى نفسه شخصاً متفوقاً.

لقد لاقت رسوم ويلكينسون الإعجاب لما بها من الأمانة الشديدة التى صور بها الآثار والنقوش والرسوم الموجودة على الجدران التى قام بدراستها؛ لقد كان بونومى الذى ساعد على إعدادها للنشر رساماً هندسياً، أما لين فكان فناناً فى الحفر. ولقد كانت وظيفة الفنان حتى ذلك الوقت، فى البعثات أو الحملات هى العمل كآلة تصوير، وأن يسجل ما يراه دون أى تشويه.

وكان أول فنان زار مصر هو ديفد روبرتس، إذ كان يرى نفسه رساماً محترفاً بمعنى أنه يكسب قوته من عمله كرسام. كان روبرتس هو الابن الموهوب البكر لصانع أحذية اسكتلندى شق طريقه إلى عالم الفن، من خلال العمل كرسام مشاهد فى السيرك والمسرح. وكانت لوحاته تحتفظ بالجودة المسرحية طوال حياته العملية، بل ويمكن أن تحتل مكانها فى مجموعة الأوبرا الرومانسية. كان روبرتس

يبحث عن موضوعات فى المشاهد المسرحية تسمح له بملء لوحات كبيرة بالألوان المتألثة. وكان من أوائل ما كلف به رسم رحيل بنى إسرائيل من مصر، وهو موضوع اختاره هو بنفسه كما كتب، "باعتباره وسيلة لتقديم ذلك الأسلوب أو المعمار الفخم على بساطته، أى الأسلوب المصرى"، أكثر من اختياره له لأى سبب آخر.

تظهر اللوحة عشرات الآلاف من الناس يرحلون من دار العبودية، والمصريون ينظرون إليهم من حقائق تحيط بقصورهم الفاخرة. هناك أوان ثرية وقائمة، غير أن المعمار ليس مصرياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. إذ كان رومانياً إغريقياً على غرار الأسلوب الذى كان يفضلُه دينون ومعظم الرحالة فى أوائل القرن التاسع عشر، إذ يحتل مبنى فسيحاً يقوم على صفوف من الأعمدة على الجانب الأيسر من الصور، ويمتد إلى الغمامات البعيدة، التى تخترقها أهرام ذات زوايا منحدرية. وبالصورة خاصة تثير شعوراً بجنون العظمة، التى كان يتسم بها الرسامون ذوو الرؤى فى ذلك العصور. ولقد لاقت استقبالا بلغ حداً من الحماس مكن روبيرتس من التخلّى عن رسم المشاهد المسرحية للتمثيل الصامت، فى كوفينغ جاردن فى عيد الميلاد فى السنة الأولى من عرضها، وأخذ يكرس نفسه للأشياء الأكثر سمواً.

وفى عام ١٨٣٨، حج روبيرتس إلى منبع إلهامه. وبعد أن قدم نفسه للكولونيل كامبيل، انطلق فى رحلة فى أعالي النيل فى صحبة كابتن نيلى، من الكتبية التاسعة والتسعين، ومزارع متقاعد لقصب السكر فى جزر الهند الغربية البريطانية ومستتر فاندروست المصاب بالنقرس وقصر النظر، وكذلك رجل غامض يدعى مستر أ. كانوا قد التقطوه فى القاهرة. واستأجروا مركباً ليأخذهم إلى الشلال الثانى بخمسة عشر من الجنيهات فى الشهر، بطاقم يتكون من ثمانية أفراد، لمدة ثلاثة أشهر. وقاموا بالترتيبات اللازمة لإغطاس المركب من أجل إغراق الفئران، واشتروا علماً بريطانياً كى يرفعوه على الصارى. لم تكن هذه الرحلة رحلة استكشافية. لذا كانت هناك القليل من المخاطر. كما أن العديد من السائحين الأجانب قد مروا بهذا الطريق. لذا فإن هذه الرحلة كانت مدخلاً لهذا الرسام لتحقيق مصر، وهو الرسام الذى كان خياله يتغذى بالرؤى "بالنسبة لعين الفنان، ليس ثمة ما يفوق فى جماله

هذه السفن التى تتصفح النهر بأشرعتها البيضاء، وهى تنتشر وترفرف فى الريح، تذكرنى قمرتها الصغيرة على ظهر المركب بمؤخرات السفن المرتفعة والكنائس فى الشحن الهولندى، الذى كان موضع إعجابى منذ كنت صبيا حتى الآن فى الأعمال الفنية، التى عبرت عن البحر فيما أبدعه فانديرفيلد باكهانسين. من المؤكد أن ما رأيته يعد على نطاق صغير، غير أنهم بما لهم من سلال فائقة تثير الذهن... والأكثر من ذلك، أزيأهم الرائعة التى يرتديها الرجال، فهم أسمى وأرقى حتى من الرسم الهولندى".

لم ينس روبيرتس أبدا بداياته المتواضعة فوق حانوت الإسكافى، لذا كان يستمد بعض الفخر والسرور من لعب دور السيد الإنجليزى الذى يقوم بزيارة فى الخارج "... شعرت بالرضى والسرور إذ كنت، لأول مرة، قائد سفينة بها طاقم يتكون من ثمانية أو تسعة رجال، يأترون بأمرى. وانظر الآن، من حين لآخر إلى الراية البريطانية بقدر غير قليل من الزهو حين تمر سفينة ما من السفن رافعة علما باليا وما عليه من كتابة عربية، أو سفينة الباشا وعليها الهلال والنجمة. أمر يستحق النظر إذا ما عرفنا أنه كما أن الهلال رمز إسلامى فإن النجمة رمز يهودى، فأين الصليب؟".

ذات يوم، عند إدفو، بدا أن الاحساس بالزهو الوطنى يتبخر، إذ ظهرت راية الباشا على سفينته، فقرر روبيرتس ورفاقه أن تكون سفينة الباشا هى التى تصعد النهر أولا، فهنفوا لها ثلاثة هتافات قوية، هيا، بالطريقة الإنجليزية حتى الصخور القديمة... وكانت لديهم خطابات توصية كى تعرفهم للباشا، فانطلقوا فى نشاط محموم توقعاً منهم لإمكان تقديمهم لأنفسهم للباشا. وتوقفت سفينة الباشا فى منتصف مجرى النهر قبالة المكان الذى كانت ترسو عنده مركب روبيرتس. فانطلقوا آملين فى المثل أمام الباشا، إذ فسروا ما حدث على أنه إيماء ودية. فقابلهم مهندس اسكتلندى وأخبرهم بأنهم أمروا بالتوقف كى يعرف السبب من وراء صياحهم، ولما سمع المهندس الشرح الذى قدمه روبيرتس، هبط كى يبتعد عن البخار، وبقي محمد على باشا أسفل ظهر السفينة، وأجبر روبيرتس وجماعته على الخروج سريعا فى مهانة، فى حين تابعت السفينة البخارية طريقها.

لقد كتب روبيرتس فى يومياته أن الباشا رفض الظهور؛ لأنه ظن أنهم "مجموعة من الإنجليز المتعجرفين". على ما يبدو، فإن الشباب المصريين الذى بعثوا بهم إلى إنجلترا للدراسة عادوا ومعهم ما أسماه الباشا "تعجرف الاستقلال swagger of indepenence" وهو ما لم يكن يوافق ذوقه.

واصل روبيرتس والطاقم الإبحار إلى الكرنك، حيث شعر روبيرتس أن الحماس التلقائى الذى كان يحس به الجيش الفرنسى الذى سجله دينون لا بد أنه كان متكلفا، إذ لم يكن هناك ما يثير من هذه المسافة التى كان ينظر منها "ولا يغمرك الإحساس بالرهبة والإعجاب إلا حين تكون أكثر قربا؛ إذ يلزمك أن تكون تحت هذه الآثار وتجول حولها". لقد أعد دراسة عن البهو الكبير، وهو منظور طويل من الأعمدة، حيث يقف الإله مين ثلاثى الجوانب بفخر ناحية اليد اليسرى بالقرب من أحد الأعمدة، لكنه محروم من عضوه المنتصب احتراماً لحساسيات السن. وحزن روبيرتس على غياب المسلة، التى نقلت من مكانها الصحيح فى الشمس بعد ما يقرب من ثلاثة وثلاثين قرناً، كى تزين "بقعة فى باريس لطختها ألف جريمة".

واستمرت المجموعة فى رحلتها إلى جزيرة فيلة، التى وجد روبيرتس، شأنه فى ذلك شأن من سبقه من الرحالة، أنها تأخذ بالألباب: "فردوس فى خراب قاحل". فقام بدراسة مثيرة للجزيرة عند الغروب، حيث ينساب الضوء وسط الدمار، وكتب أنها جعلته يشعر بالحنين للوطن: "إن ما بها من دمار، حتى عن بعد، لهو أشد إثارة للخيال من أى شىء رأيته فى حياتى؛ ربما يكون سبب هذا تلك الصخور العالية المجذبة التى تحيط بها. لقد أعادت إلى ذكريات "أرض آبائى"، إذ ذكرتى بأول من هبط على "قلعة روزلين".

وكانت أبعد نقطة بلغها روبيرتس نحو الجنوب هى أبو سمبل، حيث مكث ثلاثة أيام رسم فيها المعبد الكبير. ووجد التماثيل الأربعة، وإن كانت محطمة حتى إنها لا تثير أى شعور بالإلهام، وخشى أنها: "قد لا تكون قد حطمتها أيادى صائدى الآثار، وإنما غطتها أسماء مثل تومكينز، وسميث، وهوبكينز" وأناس لهم من القحة ما يجعلهم "يلطخون بأسمائهم جبهة الإله ذاتها".

وما إن عاد روبيرتس إلى القاهرة، حتى استطاع، بتدخل من الكولونيل كامبيل، الحصول على فرمان من الوالى أعطاه فيه تصريحاً برسم مساجد المدينة من الداخل، وكان الشرط الوحيد لذلك أن يكون مرتدياً للملابس المناسبة. فخلق لحيته التى كان لها شكل معين وربى شارباً كثاً، وارتدى عمامة طويلة، وسروالاً تركياً، وعباءة عبارة عن رداء دون أكمام، ونطاقاً أو وشاحاً غطى النصف السفلى من صدره. وقرر أن يبدو "تركياً حقيقياً". بالطبع، كان أهم شيء جعل روبيرتس يشعر بالإثارة أنه الفنان الأوروبى الأول الذى يفوز بامتياز الرسم داخل المساجد. ولم يكن ذلك صحيحاً بالمعنى الدقيق، لأن المساجد الكبرى كانت قد فتحت أمام الزائرين منذ بداية ذلك القرن، لكن روبيرتس أمكنه أن يقول إنه أول فنان محترف يمنح تصريحاً رسمياً كي يلتقط ما شاء من مناظر فى مساجد القاهرة، وكان دائماً على وعى بأنه يتمتع بوضع خاص، فعمل بكل جد كي يبرر ذلك الوضع، فكتب يقول: "إننى الفنان الوحيد، على الأقل من إنجلترا، الذى كان هنا... وإنى أرى الآن أن أعمال الفرنسيين لا تنقل أية أفكار عن هذه الآثار الرائعة".

ولقد عبر عن البهجة التى نعم بها فى مصر فى مجموعة الرسوم الضخمة التى جمعها فى القاهرة. وكتب عنها، بكل حماس لأحد أصدقائه قائلاً: "لا أجد ما يمنعنى من أن أقول لك إننى أعتقد أنها (يقصد الرسوم) أهم ما خرج من هذه البلاد، أعنى من حيث الرسوم الفنية، وسوف تقول إن هذا القول أمر طبيعى وبما أنى أعرف كل عمل عن مصر القديمة قبل قدومى، معرفة وثيقة، فيجب أن أقول إن هذه مازالت باقية كي تُرسم؛ حتى يبدو ما بها من تشكيل جليل وجميل... ولدى ما يكفى من العجب مما يجعلنى أفترض أنها لم تلق ما تستحق، إذ لا توجد أى لوحة يمكنها أن توفىها حقها، غير أنى اقتربت من ذلك أكثر من أى شيء تم فعله حتى الآن، ذلك أن أى شيء يقارب الحقيقة سوف يستغرق سنوات وسنوات...".

إن ديفد روبيرتس يشمخ فوق جميع الفنانين الذين عملوا فى مصر أو عن مصر كموضوع للفن، فى ذلك الوقت، سواء كان ذلك من حيث جودة فنه بشكل بحث، أو ما به من براعة وقدرة على تقديم الموضوعات. وكان كتابه، مصر والنوبة، الذى يشتمل على مجموعة من أعمال الطباعة الحجرية الجميلة مستمداً من أعماله فى الرسم فى عام ١٨٤٦-١٨٤٩، وحقق هذا الكتاب نجاحاً كبيراً، وأحرز

قدرا من التميز لأن الملكة فيكتوريا وأسقفى كانتربرى ويورك كانوا من بين المساهمين فيه، وكانت تلك الرسوم التى اشتمل عليها هذا الكتاب تتسم بالجمال والدقة. غير أن مبعث الخيبة فى تلك الرسوم جاء من أن تذوق روبيرتس لرسم المشاهد المسرحية كانت له الغلبة . وكان الرسم الأصيل لهذه الطباعات الحجرية (المقصود الأعمال المطبوعة على الحجر) عملا أسماء ذكرى الصحراء عند اقتراب ربح السموم، وهو تأليف درامى يبين أبا الهول ومن ورائه هرم يستحم فى تالكو لامع من اللون القرمزى عند الغروب. فيبدى أبو الهول الجانب الأيسر من وجهه، والشمس تغرب فى وسط المسرح. وتعد هذه زاوية مستحيلة بما أن أبا الهول — تجسيد رع هيراختى، أى الشمس المشرقة — يواجه الشرق أو يشخص نحو الشرق، كما أن المجاورة مع الهرم أيضا ليست دقيقة.

لقد راع هولمان هانت ما منحه روبيرتس لنفسه من رخصة فنية، غير أن تشارلز ديكنز الذى أهدها روبيرتس اللوحة الأصلية سرّ بها وقال عنها إنها "إدراك شاعرى". لقد كان روبيرتس، شأنه شأن لين وويلكينسون، شخصية شديدة الفردية، بحيث إنه كان يعمل بمفرده، وكان هذا هو السبب فى أن فهم هؤلاء الرجال كان فهما محدودا. لقد كان مدى فهم أولئك الرجال لمصر تحدّه الأفكار المسبقة، والقيود التى فرضها عليهم عامل الوقت والمال، ومع ذلك، فإن كلا منهم قد أنجز كما هائلا من العمل على الرغم من هذه القيود والحدود.

وفى مطلع الأربعينيات من القرن التاسع عشر، كانت هناك خطط لإعداد بعثة أو حملة لا تواجهها العقبات، لأنها جاءت كى تدعم سمعة قوة أوربية طموح. اعتلى فريدريك فيلهيلم الرابع عشر بروسيا، وكانت جزءا من ألمانيا قبل التوحيد عام ١٨٤٠. وكان من المعروف عنه تمتعه بميول ليبرالية(\*) وبأنه يملك تذوقا لكل ما هو عريق مثير للخيال. وكان صديقا للبارون كريستيان فون هانسين مدى حياته. وهذا البارون كان عالما ودبلوماسيا، قضى سنوات الأربعينيات من القرن التاسع عشر فى بلاط سينت جيمز، فى لندن، وكتب كتابه المؤلف من خمسة مجلدات تحت عنوان: "مكان مصر فى التاريخ العالمى".

(\*) تحررية بالمعنى الفكرى. (المترجم).



وكان الملك فريدريك يقيم مراسلات منتظمة مع برانسين، لذا فقد كان على وعى بالسمعة التي كانت إنجلترا وفرنسا تكتسبانهما في ميدان الاكتشافات المصرية التي كانت شائعة في ذلك الوقت، وكذلك كان يعلم بالمجموعات التي كانت تلقى إعجابا دوليا والتي كانت موجودة في اللوفر والمتحف البريطاني. فقرر الملك فريدريك أنه قد آن الأوان لبروسيا بأن تقوم بدورها في تقدم المعرفة الإنسانية، وكذلك إعلاء مكانتها بين الأمم الأوروبية. وعلى ذلك أمر بتجهيز حملة علمية إلى مصر. وكان المقرر أن تكون أكبر البعثات وأفضلها تنظيما في تاريخ استكشاف هذه البلاد.

وبناء على نصيحة برانسين وكذلك العالم الأكبر سنا، هامبولت، عين الملك فريدريك، كارل تشارل ليبسيوس، وهو محاضر في فقه اللغة وعلم اللغات المقارنة في جامعة برلين، قائدا لهذه البعثة العلمية. وكان ليبسيوس قد قضى أربع سنوات تجول أثناءها بين المجموعات الأثرية الموجودة في إنجلترا وفرنسا وهولندا وإيطاليا، وأخذ يتعلم كيفية عمل مستخلصات عن آثار أى علامات دالة للنقوش، كما تعلم الحفر على النحاس والرسم من الحجر — وهى كلها فنون تعينه تمام العون في رحلته إلى مصر.

انطلقت الحملة من إنجلترا، حيث ضم ليبسيوس إليه جوزيف بونومى، وكذلك المعماري الإنجليزي جيمز ويلد. ووصلوا إلى الإسكندرية في سبتمبر عام ١٨٤٢، وكان القنصل العام السويدي في مصر يقوم برعاية مصالح بروسيا، فتمكنوا بفضل مساعى القنصل الحميدة من أن يمنحوا إذنا بالمثل أمام محمد على. وأعلن الباشا عن سروره بالزهریات التي أحضرها ليبسيوس كهدايا من الملك فريدريك، بل وعبر عن أنه معتر بتسلم خطاب شخصى منه. وبدا أن الباشا يتدفق بالشباب والنشاط في حديثه، إذ لم تبد على محياه أية علامات على الوهن، بل إن وميض العينين كان مازال يشع من الرجل الذى كان في الثالثة والسبعين من عمره. وسأل ليبسيوس عن حال متحف القاهرة، الذى نشأ بناء على القانون الذى صدر عام ١٨٣٥، فأجاب الباشا بأنه ليس مزدهرا بسبب كثرة الطلبات المجفة التى تطلب منه فى أوروبا؛ ثم وافق على فرمان يعطى ليبسيوس حقا غير محدود فى القيام بأعمال التنقيب وتكوين أية مجموعات يريدها.

وفى ١٥ أكتوبر، احتفلت الحملة بكاملها (المقصود البعثة الأثرية) بعيد ميلاد الملك فريدريك، وذلك بالقيام بأول زيارة لها إلى الهرم: فركبوا فى موكب طويل، وتناولوا إفطارا بسيطا فى إحدى المقابر المجاورة، فى حين أقام العمال خيمة كبيرة تم إحضارها من القاهرة، أقاموها على الجانب الأيسر من الهرم. وكان فنانو الحملة قد أعدوا فى الأيام القليلة الماضية العلم والشعار البروسى العظيم، وهو عبارة عن النسر الأسود بالصولجان الذهبى والتاج وسيف أزرق على أرضية بيضاء: "ورفعناه أمام باب الخيمة، تجمع نحو من ثلاثين من البدو عند سفح الهرم، وعند إطلاق إشارة البدء فى التسلق، أمسك البدو بكل عضو من أعضاء الحملة، ورفعوه إلى الدرجات المؤدية إلى القمة، وبعد ذلك ببضع دقائق رفر ف نسرنا من قمة أعرق وأعلى ما شيده الإنسان فى كل ما عرفناه، فحيينا النسر البروسى بثلاثة هتافات لمليكننا. وبعد أن حلق النسر نحو الجنوب، أدار رأسه المتوجة تجاه الشمال إلى الوطن..".

بقيت الحملة ثلاث سنوات فى مصر، وهى تسجل ما وجدته بعناية ونظام منهجى. إذ قضوا ثلاثة أشهر فى منفيس، وسبعة أشهر فى طيبة، حيث عبر ليبسيوس عن عرفانه لويلكينسون و"هى" Hay لأنها قاما بترميم بعض البيوت القديمة التى اتخذتها الحملة مقرا سكنا لها "عند طرفى الفناء، لا يزال هناك برج للمراقبة، حيث يرفرف العلم البروسى، وبالقرب منه، هناك بيت صغير يتألف من طابقين، سكنت أنا فى الطابق السفلى، وهناك أيضا مساحة من أجل المطبخ والخدم والحمير".

أثناء فصل الشتاء الذى سماه ليبسيوس موسم الحياة الاجتماعية، كانوا يستقبلون زوارا من أوروبا كل أسبوع. وكانت إنجلترا كما كتب هى الأكثر تمثيلا، أما الفرنسيون فكانوا أقل ترددا عليهم. ومع مقدم أوائل الأربعينيات، من القرن التاسع عشر، لم يعد وادى النيل هو ذلك الإقليم البعيد الخطر كما كان قبل ذلك بنصف قرن، بل أصبح الطريق الذى يكثر قدوم السائحين إليه كما نعرفه اليوم. وكانت الحملة (البعثة العلمية) فى موقع جيد يصلح لثانى احتفالاتهم السنوية: "أحيينا عيد ميلاد مليكننا المحبوب بالتحيات والأعلام وبالغناء الكورالى، وأنخاب قوية من نبيذ الراين الألمانى النقى، وتم ذلك فى جوهره المبانى المصرية فى مصر:

رمسيس سيزوستريس، الذى بناه هؤلاء الفراعين العظام بأسلوب بلائمه ويليق بالإله... على تراس صمم بحيث يطل على السهل الواسع على هذا الجانب، وعلى الجانب الآخر من النهر الجليل".

ولا يوجد أى سجل لرأى العمال المصريين فى كل هذا الانتشاء حول المعابد القديمة؛ ولا شك فى أنهم كانوا قد اعتادوا على الطرق الغريبة التى يتبعها الزائرون الأوروبيون. ولا يبدو أن ليبسيوس واجه مع مستخدميه تلك الصعوبات؛ التى كان يواجهها الآخرون. وربما أنه لم يهتم بتسجيلها، أو ربما كانت لمكانته الرمزية الأثر الذى عزاه إليها: "كنت أرتدى أيضا القبعة الرمادية ذات الحافة العريضة كرمز أوربى، الذى يوليه العرب الاحترام المناسب". وكانت الأبحاث مدققة والسجلات شاملة، فأدخلت ليبسيوس التاريخ باعتبارها غيرت طابع الاستكشاف فى مصر، وذلك عن طريق إحلال النظام محل الفوضى. غير أن هذا لم يكن هو هدفها الوحيد. ويسجل ليبسيوس أن هدفها الذى وضعه الملك "البحث التاريخى والأثرى للآثار المصرية القديمة، وجمعها فى وادى النيل وشبه جزيرة سيناء".

لم تهمل الحملة واجبها فى التملك، فأرسلت إلى الوطن ما يصل إلى ١٥٠٠٠ أثر هى التى شكلت مجموعة برلين، بما فى ذلك ثلاثة قبور كاملة من إقليم الهرم الأكبر، أخذت على هيئة قطع حملت مع خمسة عمال تم إرسالهم خصيصا من برلين لهذا الغرض، مثلما حدث بالنسبة لشحن الآثار التى جمعها ليبسيوس من مديريات الجنوب، كذلك تم تزويده بقوارب حكومية من جبل برقال إلى الإسكندرية. وتسبب هذا عن حدوث احتكاك مع المنقبين من البلاد الأخرى، الذين منعوا بموجب القانون من تصدير ما وجدوه، أو حتى ادعاء ملكيتهم لهذه الأشياء. وكان التبرير الذى قدمه ليبسيوس لهذا النهب الواسع غير العادى للآثار القديمة، هو الخط الذى يتمشى مع الأخلاق الجديدة الذى يدعى الإسهام غير الأنانى للنزبه من أجل تحقيق صالح أعم: "لأننا لسنا كغيرنا من المنافسين، لم نقم بالحفر ونقل الآثار التى كانت تقريبا مدفونة تحت السطح، فى سرعة وتحت جنح الظلام عن طريق رشوة من ساعدونا، وإنما فعلنا ما فعلناه بكل يسر وسماحة، وبالتعاون صريح

مفتوح من السلطات... ولم تكن معرضين لخطر يتمثل فى أن تتبدل عقولنا بسبب المصلحة الذاتية، إذ إننا لم نختر الآثار لأنفسنا، وإنما كوكلاء لحكومتنا، ومن أجل المتحف الملكى، فى برلين. لذا كان ذلك لفائدة العلم والجمهور المحب للاستطلاع".

وعين ليبسيوس أستاذا فى جامعة برلين عام ١٨٤٦ ، حال عودته، ثم أمينا على المجموعة المصرية ونشر المقتبسات وغير ذلك من المواد المصورة عن الحملة عام ١٨٥٩، فى المجلدات الاثنى عشر الضخمة: "آثار من مصر وإثيوبيا"، وربما كان هذا العمل هو أضخم ما كتب عن مصر. فأصبحت السمعة أو الشهرة الدولية لبروسيا وإنجلترا فى مجال المصريات فى تصاعد مستمر، بفضل العمل الضخم الذى نشره ليبسيوس، وكذلك أعمال لين ويلكينسون.

وعلى أى حال، ففى الوقت الذى ظهر فيه كتاب الآثار لليبسيوس، كانت السيطرة فى علم الآثار المصرية قد انتقلت بشكل حاسم إلى أيدي الفرنسيين. وأخيرا، استيقظ ضمير قومي ما لبث أن صار عالمى النطاق، يهتم بموضوع تحطيم الآثار، وأخيرا أوجدت منظمة لحماية الآثار والحفاظ عليها؛ وُصف مؤسسها ومديرها بأنه الشخصية العملاقة فى تاريخ المصريات بأسره .

## الفصل السادس

### عين الغيور

كانت مصر حتى منتصف القرن التاسع عشر أرضا مباحة لجامعى الآثار والمتاحف المتنافسة، فكان الأفراد من رواد التنقيب عن الآثار يساومون الفلاحين والتجار فى تنافس مفتوح بينهم. لقد كتب هوارد كارتر، مكتشف مقبرة توت عنخ آمون، عن ذلك الوقت: كانت تلك الأيام هى أيام التنقيب العظيمة، إذ كان فى وسع الشخص أن يمتلك أى شىء يشعر برغبة فى امتلاكه، من الجعران إلى المسلة، وإذا وقع خلاف فى رأى مع أخ من المنقبين، كان المرء يترصد له ومعه بندقية. ثم وقع التغيير بفضل جهود رجل واحد، ذلك أن القانون الذى يحظر تصدير الآثار، والذى بقى مدة عشرين سنة حبرا على ورق، قد وضع موضع التنفيذ، فتم التنقيش على المواقع، وحظر التنقيب بدون ترخيص، وقام هذا الرجل بمفرده بالإشراف على وادى النيل بأكمله، من الدلتا حتى الشلال الثانى، وصار علم المصريات همه الشخصى، الذى لم يكن للباشا ذاته، أن يزعم لنفسه فيه سوى المكان الثانى. إنه أوجست مارييت.

يبدو أن طفولة أوجست مارييت كانت تخلو من النذر والإشارات التنبئية. على العكس من طفولة مواطنه العظيم شامبليون. لقد كان ابنا لمحام بحرى فى بولونى — سير مير. وأظهر موهبة مبكرة فى الرسم ومقدرة على التحصيل الدراسى بشكل عام، غير أنه لم يكن يركز طموحه فى ميدان بعينه، وحين كان يحاول أن يقرر ماذا يريد أن يفعل بحياته، ذهب إلى إنجلترا وقام بتدريس اللغة الفرنسية فى إحدى

المدارس الخاصة، فى ستراتفورد أن إيفون، وبعد ذلك، وجه مارييت مواهبه الفنية نحو الاستفادة التجارية، عن طريق تصميم الأشرطة فى زهريات كوفينترى، لكنه سرعان ما عاد إلى فرنسا فى نهاية عام ١٨٤٠ ليقوم بالتدريس فى كلية بولونى التى كان قد تلقى فيها تعليمه.

تنقل مارييت بين أعمال مختلفة، فصمم ورسم المشاهد للمسرحيات التى كانت تقدم فى الكلية، وكتبت عنه الصحف المحلية بحماس، ثم بدأ فى كتابة المقالات عن التاريخ المحلى، وتشعب اهتمامه إلى الفنون بكتابة المقالات عن موت جيوتو، وتاريخ الأغنية الفرنسية، ومرتبة نثرية عن وفاة دوق أورليان، بل كتب قصيدة احتفالاً بإقامة تمثال لنابليون، أسماها: "فى تأليه نابليون". وفى عام ١٨٤٢، نشر مارييت رواية رومانسية عنوانها: "حسن الأسود"، لم تش بما يدل على وجود أية موهبة أدبية، وفى نفس العام، عضته البطة المصرية، وهى العبارة التى استخدمها لتقديم قصة اتصاله الأول بمصر: "البطة المصرية حيوان خطر، فهى تحببك برقة، ولكن إذا ما انسقت وراء ما تبديه من براءة، وارتبطت بها شكل ودود، فأنت ضائع، ذلك أن ضربة واحدة بمنقارها، سوف تثبت سمها بداخلك، فإذا بك عاشق لعلم المصرىات بقية حياتك".

تصادف أن الرسام نيستور لامينت، الذى صحب شامبليون فى الحملة الفرنسية على مصر، كان ابن عم مارييت، ومات ذلك الرجل بعد أن أصيب بالدوسنتاريا هناك، فأعيدت أوراقه إلى العائلة. وكان الكثير من هذه الأوراق عبارة عن رسوم للآثار تحتوى على كتابات بالهيراوغليفية. ولم يكن مارييت يعرف أى شئ عن هذا الموضوع، ولكن كان يعرف عنه أنه مفكر ناشئ، فطلب منه تصنيف هذه الأوراق، وسرعان ما افتتن بما رأى، فأخذ يعلم نفسه أوليات علم المصرىات، وظل مارييت يعمل وحده لسبع سنوات فى أوقات فراغه، مستخدماً الكتب القليلة المنشورة المتاحة، باذلاً جهده كى يفهم ما بها من كتابات، فواجه عراقيل خطيرة بسبب الكتاب الكبير "وصف مصر" الذى اشتراه متحف بولونى، لأنه كان يفترض أن اللوحات الرائعة التى يحتوى عليها تعد نقلاً دقيقاً للهيراوغليفية، ومن الطبيعى أنه وجد بها تناقضات واختلالات، فكاد أن يتخلى عن محاولة التعلم. وبعد مرور

العديد من السنوات، أدرك مارييت أن فنانى حملة نابليون ثقة منهم أن أحدا لن يستطيع ترجمة هذه اللغة، كانوا يرتجلون، من آن لآخر، وألفوا أقساما من الكتابات الهيروغليفية بحيث تلائم تصميماتهم.

وفى عام ١٨٤٧، وصف مارييت ما يمتلكه المتحف فى بولونى من الآثار المصرية فى "الكتالوج التحليلى للآثار التى تكوّن القاعة المصرية فى المتحف فى بولونى"، فلفت هذا الانتباه إليه بحيث اتسعت دائرة قرائه فصارت أكبر ممن يقرءون الصحيفة المحلية، وكان أكثر هؤلاء القراء نفوذا شارل لينورمان، الذى كان قد زار مصر مع شامبليون، وكان أستاذا للآثار المصرية فى الكوليج دى فرانس، وبلغ من إعجاب لينورمان بمارييت حدا جعله يحصل له على عمل أدنى أهمية فى اللوفر، فانتقل مارييت إلى باريس عام ١٨٤٩.

كان فى ذلك الوقت، قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره، وعلى الرغم من أن المنصب الذى أسند إليه كان خطوة إلى أسفل، إذ كان أدنى من عمله كمدرس بالكلية وأقل من الشهرة المحدودة فى بلده، إلا أنه كان يشعر بالسرور لأنه قد خرج من الأقاليم أخيرا، وأصبح فى خضم الدراسات المصرية. فأُسندت إليه وظيفة تسجيل؛ أى عمل كتالوج المقتنيات المصرية الجديدة، وإلصاق أوراق البردى على اللوحة بحيث يمكن التعامل معها دون إتلافها، وتم تحذيره بأن عمله هذا عمل مؤقت، كما كان يتلقى راتبا ضئيلا. على أى حال، فإن خطاب تعيينه، مع التعبير عن الأسف لهذه المنغصات، ذكره بأنه سوف ينال بهجة فى حضرة الآثار المصرية، كما أنه سوف ينال الرضا من كونه فى خدمة مؤسسة عظيمة (يقصدون اللوفر)، وحاول زيادة راتبه — فى ذلك الوقت كان قد تزوج وصار لديه ثلاث بنات — وذلك بأن عرض وضع كتالوج مجموعة أوراق البردى والقيام بتنظيمها فى وقت فراغه، فرُفض هذا العرض، على أساس أنه لن يكون من الملائم للمتحف أن يدفع له المزيد من النقود بما أنه بالفعل يتلقى راتبا شهريا، كما أن الموظفين المدنيين ليس لديهم وقت فراغ.

كان مارييت قد أحضر أسرته كى تعيش معه فى باريس، وزاره أحد أصدقائه فوجده يقيم فى شقة غير كاملة التأتث، أمام منضدة كبيرة تغطيها الكتب، وإحدى بناته تجلس على ركبته، وهناك ابنتان أخريان تلعبان حول قدميه، وأعلن مارييت

"هذا أفضل وضع أعمل فيه، ذلك أنى أحب أن أحس بأن عالمى الصغير لصيق بى". وكان، بقية حياته يحيط نفسه، فى خضم الأخطار، والمتاعب — "عالمه"، وأثناء عمل مارييت الشاق من أجل فهم أوراق البردى التى طلب منه وضع كتالوج لها، اكتسب الخبرة التى مكنته من الحصول على أول مهمة كلف بها فى مصر، وكان الدافع من وراء هذه المهمة ما قام به اثنان من جامعى الآثار الإنجليز من أعمال نهب بشعة.

كان روبيرت كيرزون بارون زوتش الرابع عشر، عالما رحالة. وقد قام بجولة فى مصر وسوريا وفلسطين عام ١٨٣٣ — ١٨٣٤ بحثا عن المخطوطات فى مكاتب الأديرة. وفى الإسكندرية، استضيف فى أحد الأديرة القبطية، فرد على كرم الضيافة بأن أمد الرهبان بكميات كبيرة من خمر الراكى، وبعد أن غيبت الخمر عقول مضيفيه، ترك المكان آخذا معه مجموعة طيبة من المخطوطات، وبعد ذلك بخمس سنوات، وجد صاحب النيافة هنرى باتام ما يكفى من الوقت بحيث يترك واجباته الرعوية كي يزور نفس الدير، وكان هذا الرجل من كبار المختصين فى الدراسات القبطية، كما أنه كان عميدا لسينت كثررت Cuthbert وبيدفور، وولستون. وبعد أن استخدم نفس الوسيلة، وهى تخدير الرهبان بحيث يغفلون عن واجبهم فى حراسة ما لديهم، غادر المكان ومعه بقية المكتبة. وبالرغم من أن هذا تسبب فى نوع من الفضيحة فى الدوائر الأكاديمية، إلا أن سمعة صاحب النيافة باتام ظلت طيبة كما كانت حتى إنه عين قسا خاصا بالملكة فيكتوريا، كما أنه تلقى درجات دكتوراه فخرية من جامعات دبلن وجوتينجين وليدين.

كانت لدى مارييت تعليمات بالبحث عن المخطوطات فى نفس الأماكن، وإن لم يكن عليه بالضرورة استخدام نفس الطرق الفنية فى الاستحواذ على تلك المخطوطات. ولما كان صوت المال عاليا تماما كخمر الراكى، فقد تم التصويت على تخصيص مبلغ ٦٠٠٠ فرنك من أجل تمويل حملة لجمع المخطوطات. واقتراح مارييت هدفا فرعيا، وهو أن يقوم بالقليل من التنقيب فى الموقع "من أجل إثراء متاحفنا". وتمت الموافقة على ذلك، لكن ما حدث هو أن الهدف الفرعى من الحملة أصبح هدفها الرئيسى، إذ سرعان ما نزل مارييت إلى مصر فى سبتمبر من



عام ١٨٥٠، واكتشف أن جميع المخطوطات قد أرسلت من الأديرة القبطية إلى القاهرة بناء على أوامر من البطريك (البابا)، وتم وضعها في حجرة واحدة كبيرة بعيدا عن أيدي المغامرين الأجانب. وكإجراء احتياطي أشد، قيل إن الأبواب المؤدية إلى تلك الحجرة قد سورت.

استقبل البطريك مارييت استقبالا ساعرا، فهو في نهاية الأمر ممثل رسمي لحكومة فرنسا، وقدم له وعودا غامضة بالمساعدة في المستقبل، فأدرك مارييت على الفور بأنه يبعد عن الحقيقة، فتخلّى عن أى أمل فى الحصول على المخطوطات القبطية. استضافته الجالية أو المستعمرة الفرنسية في القاهرة، وكان من بين أفرادها أرنو ليموان، والقنصل العام ليناى دى بيلفون، وهو مستكشف وفنان كان يبحث عن الذهب في خدمة محمد علي فأنعّم عليه بلقب بيه (بيك)، وستيك أنطوان، وهو أيضا بيه (بيك)، كان محمد علي قد عينه كبير جراحه في مصر. ولاحظ مارييت أن في حديقته تعرض مجموعة من تماثيل أبى الهول من نوع كان قد رآه في الإسكندرية، وحين وجد تمثالا لأبى الهول مشابه في منزل تاجر الآثار سولومون فيرنانديز وأدلى بملاحظة عنه، قيل له إن جميع تماثيل أبى الهول جاءت من نفس المكان: سقارة، فقرر مارييت أن يبدأ أعمال التنقيب هناك، وسجل كيف أنه ذات يوم عثر على الرأس نصف المدفون لتمثال لأبى الهول يشبه تماما ذلك الذى رآه في القاهرة والإسكندرية: "في تلك اللحظة مرت بخاطرى فكرة من سترابو"(\*) : يجد المرء في ممفيس أيضا معبدا لسيرايبس(\*\*) في بقعة مليئة بالرمال، حتى إن الرياح تكس الرمال في أكداش، رأينا تحتها تماثيل لأبى الهول مدفونة جزئيا، بعضها مدفونة حتى الرأس، أمكننا أن نخمن منها أن الطريق المؤدى إلى المعبد لا يمكن أن يخلو من خطر إذا ما فاجأتنا هبة شديدة من الرياح، ألا يبدو أن سترابو كتب هذه الفقرة كي يساعدنا على أن نجد مرة أخرى، بعد مرور ثمانية عشر قرنا، المعبد الشهير الذى شيد لتقديس سيرايبس؟". لذا اعتقد

(\*) سترابو (٦٤ق م - ٢٣م) مؤرخ وجغرافى يونانى، يعتمد الباحثون في التاريخ القديم على كتاباته.

(المراجع).

(\*\*) إله استعار له البطالسة بعض خصائص أوزوريس ليشترك المصريون والإغريق في عبادته.

(المراجع).

أن التماثيل التي كان قد رآها في حدائق أصدقائه وتلك التي وجدها مدفونة في سقارة، يمكن أن تكون جزءاً من طريق تماثيل أبي الهول المؤدية إلى السيرابيوم في ممفيس.

إذن كل ما كان عليه فعله هو تتبع صف التماثيل كي يكشف المعبد: "نسيت، في هذه اللحظة، مهمتي. نسيت البطريك، والأديرة، والمخطوطات القبطية والسورية، بل ولينان نفسه". وهكذا كان، في الأول من نوفمبر، ١٨٥٠ "في واحد من أجمل أوقات الشرق التي رأيته في مصر، وجد ثلاثون عاملاً أنفسهم موحدين تحت قيادتي، بالقرب من أبي الهول الذي كان مقدراً له أن يحدث تحولا تاما لإقامتي في مصر".

لقد كان مارييت يجازف بالكثير من أجل شعور حدسي بحت، إذ كان المال الذي أعطى له هو بالتحديد من أجل شراء أوراق البردي؛ ولم تكن أعمال التنقيب التي خطط لإنفاق ذلك المال عليها شيئاً عارضا فحسب — وإنما كانت مكلفة وغير مشروعة. وكان الأمر الصادر عام ١٨٣٥ ما زال ساري المفعول في مصر، وبموجبه تحظر جميع أعمال التنقيب بدون فرمان، وأن جميع الآثار التي تكتشف على تراب مصر هي ملك للحكومة. على أي حال، فقد كان هذا القانون يعامل باعتباره مجرد تزويق عديم الفاعلية. ففي سقارة وحدها كان هناك في ذلك الوقت أعمال تنقيب متناثرة في ذلك السهل يقوم بتمويلها قنصل النمسا العام، وتاجر الآثار فيرنانديز، والمبشر الألماني صاحب النيافة رودولف ليدر، ونصف دسنة ممن هم أقل شأنًا. ولم يكن أي منهم لديه إذن رسمي. ولم يكن من المعقول أن يرحبوا بمنافس في الموقع، ولم يكن هناك ما يجعلهم يتحملون مارييت إلا إذا ظل يواجه الفشل.

وكان مارييت، من ناحية أخرى في حاجة إلى نجاح سريع يخطف الأنظار كي يقنع المسؤولين في فرنسا بأن أموالهم لم تتبدد وإن تغيرت وجهتها. وكشفت أعمال التنقيب، كما كان يأمل، صفا من التماثيل المدفونة يبعد كل منها عن الآخر بعشرين قدما. وظل العمال يكافحون الرمال المتحركة لمدة شهرين للكشف عن هذه التماثيل، ومع مقدم منتصف ديسمبر، كانوا قد وجدوا ١٣٤ منها في طريق يتجه نحو الغرب، بدا أنه يقود حتما إلى المعبد الخفي، ثم فجأة حدثت فجوة، إذ حفر

العمال إلى عمق خمسين قدما، لكنهم لم يعثروا على شيء، وبدأ أن الطريق انقطع، ولم يؤد إلى أى مكان، وخسر ماريبت ما قامر عليه.

وفى ليلة عيد الميلاد، اكتشف ماريبت أن صف التماثيل استدار فجأة إلى زوايا يُمنى (أى إلى اليمين)، واتجه إلى الجنوب. وكانت هناك مفاجأة أخرى، فبدلا من أن يظهر أبو الهول على المسافة المعتادة وهى خمسون قدما اكتشفوا التمثال الجالس للشاعر الإغريقى بيندار، وبالقرب منه كان هناك جماعة من الفلاسفة الإغريق المحطمين يتأملون وهم يجلسون على مقعد نصف دائرى. لقد كان مما يصيب المرء بخيبة الرجاء أن يصل إلى تماثيل إغريقية عندما بدا أنه ذروة الوصول إلى درب من تماثيل أبى الهول المصرية، غير أن ماريبت واصل العمل بجد، وسرعان ما تمكن من اكتشاف معبدين، أحدهما إغريقى، والآخر مصرى. كان اسم المعبد الثانى هو نختنبو<sup>(\*)</sup>، أحد آخر الحكام المصريين الأصليين القدماء، لكن معبد سيرابيس العظيم لم يكتشف.

وأخذت نقود ماريبت فى النفاد، فأمل ماريبت فى أن تقريرا عن الأشياء التى اكتشفها ربما يساعد المسؤولين فى وزارة الداخلية على تقبل النبأ حين يعرفون أن المال الذى قدموه لشراء المخطوطات قد ابتلعه رمال سقارة، وأن يرسلوا المزيد. وبناء على ذلك، أعد رسوما متقنة بأعمال التنقيب وأرسل بها ومعها تفاصيل كاملة إلى باريس، فى رعاية القنصل الفرنسى فى الإسكندرية، إذ إنه كان ذاهبا فى إجازة. ولكى يظل العمل مستمرا، باع ماريبت بعض قطع المجوهرات التى كان قد وجدها فى المعابد، وأخذ قروضا من تجار الإسكندرية، وقنصله أرنو لى موان.

وعندما انتشرت أخبار نجاحه بسرعة بين منافسيه، بدأت الدسائس تحاك. فقدم صاحب النيافة ليذر شكوى رسمية إلى الباشا بأن القانون قد اخترق، وكان من المعروف عنه أنه يعقد مساومة ملحة من أجل مشترياته غير المشروعة من الآثار، وكان يقوم بذلك فى الفترات التى تتخلل محاولاته الفاشلة فى تحويل الأقباط إلى البروتستانتية، وأشيع أن الباشا على وشك التدخل. وكان ماريبت قد بنى لنفسه منزلا صغيرا من حجرتين فى سقارة، وشرع فى رفع العلم الفرنسى عليه كى لا يمس. فى إحدى المرات، اقترب منه أربعة من راكبي الخيول يعملون لدى أحد

(\*) Nectanbo / الأسرة ٣٠ .

الزعماء المحليين، وطلبوا منه أن يسلم كل ما اكتشفه باسم الحكومة المصرية، لكنه دفعهم "بضربات من الكرباج".

فى باريس جلست لجنة المتاحف الوطنية بوزارة الداخلية كى تستمع إلى تقرير عن أنشطة مارييت تدعيما لمطالبته بالمزيد من المال. وعلى الرغم من الخل فى تصرفاته إلا أنهم مالوا بقوة إلى ما به من منطق، وعلى الرغم من الحيلة والحكمة التى سادت عمليات هذا المستكشف الفرنسى، إلا أن أجراس الخطر بدأت تدق بين الأجانب، إذ قد يصعب منعهم من الاقتراب من المعبد، "إن تعليق أو وقف الأبحاث التى أجريت بكل هذا القدر من النجاح، يعنى تسليم المتاحف المنافسة ذلك الشيء الذى ينبغى علينا الحفاظ عليه لمجموعتنا الطونية من الآثار"، لذا فإن هذه الحوافز حسمت الأمر أمام لجنة التمويل، فاقترحت مبلغا اثنتاينيا بـ ٣٠٠٠٠٠ فرنك. وتمت الموافقة على الائتمان وأخطر به القنصل الفرنسى فى القاهرة، كما أخطر بالغرض المحدد الذى ينفق عليه: "من أجل التنقيب عن معبد مكرس لسيرايبس، الذى اكتشف بين الحطام فى ممفيس، ولنقل الأشياء الفنية التى تأتى منه إلى فرنسا".

لقد كان مارييت يشعر بالحرية فى الإنفاق على أعماله، غير أنه كان يشعر بالضيق لأن الأشياء الفنية التى دُفع له المال كى يرسلها إلى فرنسا تخص الحكومة المصرية بحكم القانون المصرى. وكان عباس باشا، حفيد محمد على<sup>(\*)</sup>، والذى أسند إليه حكم البشالك Pashalik كان أقل مرونة من عمه ويصعب التأثير عليه حين يتعلق الأمر بإصدار فرمانات. وقرر القنصل الفرنسى أن النقل وكذلك العمل الواضح الذى يشتغل به مارييت فى سقارة، يجعل من الضرورى التقدم بطلب من أجل الحصول على تصريح رسمى، حتى وإن جاء ذلك الطلب متأخرا. ففعل ذلك بطريقة حسب فيها حسابا لاسترضاء الباشا "إن السيد مارييت لا يعمد بأى حال إلى منازعة حقوق ملكية نائب الباشا<sup>(\*\*)</sup> فى جميع الآثار التى توجد على التراب المصرى، ويتعهد مقدما ألا ينقل أى شيء اكتشفه بالفعل أو سوف يكشفه فى

(\*) النص: Nephew لكن عباس باشا هنا هو عباس حلمى الأول بن أحمد طوسون بن محمد على باشا.

(\*\*) كان محمد على لا يزال على قيد الحياة لكن صحته كانت متدهورة.

المستقبل". فمنح عباس باشا فرمان، وكان خاضعا لشروطين تم النص عليهما بالتحديد في قانون(\*) ١٨٣٥، ولكن لم يكن هناك إصرار عليهما في السابق: تسلم جميع الأشياء التي يمكن حملها والتي يكشفها مارييت للمسؤولين، وأن يوضع خمسة حراس في مواقع التنقيب للإشراف على العمليات.

أصاب هذا الوضع مارييت بالإحباط التام، فهو واقع بين توجيهات حكومته والحكومة المضيفة، ذلك أن فرمان معناه أنه يمكنه الاستمرار فيما يقوم به من تنقيب، لكن وزارة الداخلية الفرنسية لا يمكن أن تتظر بعين الرضا على إنفاقه لمبلغ الـ ٣٠٠٠٠ فرنك الذي قدمته من أجل الحصول على كنوز للبasha. فأوقف مارييت العمل كي يعطى انطبعا بالطاعة، وفي مقابل ذلك، تنازل البasha بأن حكم بأن الفرنسيين يمكنهم أن يحتفظوا بكل ما اكتشفوه حتى تاريخ صدور فرمان، طالما سلمت جميع المكتشفات اللاحقة لموظفيه، طبقا للقانون.

عند هذا الحد، كان الموقف أشد تعقيدا بسبب الاكتشاف الذي جرى في سقارة، في حين أن المفاوضات كانت لا تزال قائمة بشأن ضريح أبيس الضخم تحت الأرض، إذ إنها فاقت جميع التوقعات، ذلك أنه خلف باب رائع من الصخر الرملي كانت توجد جبانة جماعية تدفن فيها العجول التي كانت تجسيدا لأبيس، إذ وجد مارييت أربعة وعشرين من التوابيت في قاعة طويلة بها دهاليز وحجرات تتفرع على كل جانب. وكانت التماثيل المكسورة والأحجار المنقوشة والكنوز من كل نوع تتناثر في القاعة. ومن حسن الحظ أنه تصادف أن مفتشى البasha كانوا بعيدين عن الموقع حين تم اكتشاف المدخل، فأمر مارييت بأن يتم دفن ذلك المدخل ويحتفظ به سرا لا يذاع.

ورأى مارييت أن يرتب أموره أيا كانت الاتفاقية الرسمية النهائية بين الدبلوماسيين والبasha. فأقام حجرة عمل في معبد نخنتبو، وبدأ أثناء النهار وتحت أعين المفتشين الرسميين ووجود القوائم التي وافقوا عليها، يحزم الأشياء التي ووفق على إرسالها إلى فرنسا. وكان هناك ممر ضيق مخطط بالخشب يوصل من هذه الحجرة إلى حجرة في أعلى، وحين يحل الليل، كانت كنوز السيرابيوم يتم إنزالها عبر ذلك الممر كي تحزم وتنقل خلسة إلى الإسكندرية على ظهر الحمير.

(\*) الصادر في عهد محمد علي أثناء توليه السلطة الفعلية.

ومع الانتهاء من رفع ما يوجد بكل مقبرة، كان مارييت يعد تقريراً رسمياً عن اكتشافها، ويقود الموظفين في حجراتها الفارغة وقد علاهم الإحساس بخيبة الأمل. وظلت عملية الخداع هذه لعدة أشهر، تمكن أثناءها مارييت من أن يرسل إلى اللوفر مجموعة رائعة، اشتملت على ذهب ومجوهرات خيمويز<sup>(\*)</sup>، ابن رمسيس الثانى وشريكه فى الحكم. وكانت هذه الأشياء قد اكتشفت فى إحدى المقابر، وسجل مارييت عنها قوله بأن الرمال ما زالت تحمل بصمات وآثار عمال الجنازة.

ولكن لأنه صار من المستحيل على مارييت أن يحافظ على ادعائه بأن المقابر جميعاً فارغة تماماً، فقد عين زميلاً، يسمى بونفوا Bonnefoy، اسماً على غير مسمى، كى يعد نسخاً بالأحجار المنقوشة والتماثيل الصغيرة التى وجدت فى السيرايوم من أجل المجموعة الأثرية الخاصة بالباشا، بل إنه أعمل يده فى القليل من الكتابات الهيروغليفية. كذلك دعم مارييت صناعة الآثار المقلدة الزائفة التى كانت صناعة مزدهرة، وذلك بالقيام بعمليات شراء حصيفة من أجل المتحف الوطنى فى القاهرة، مما أدخل الرضا على قلب طبقة الموظفين وضمن تعاون المفتشين. وأظهر الباشا رضاه الشخصى وذلك بأن أمر بتقديم المساعدة الرسمية للبحارة على ظهر سفينة لابرادور والألباتروس فى شحن صناديق وحاويات من الكنوز المحظورة المهربة إلى اللوفر.

وانقسم الأوروبيون فى القاهرة فى رأى حول ما يقوم به مارييت من أنشطة. وكان من مؤيديه كلوت بيه ولينان بيه، والقنصل، والرسام الإيطالى فاسالى، الذى كان يحاول أن يكسب قوته عن طريق رسم الباشوات، وبرونر، وهو طبيب وعالم أنثروبولوجيا وأحد مساعدى كلوت بيه. أما من وقفوا ضده فكان منهم التجار — صاحب النيافة ليدر وفيرنانديز — بالإضافة إلى القنصلين العاملين لإنجلترا والنمسا، تشارلز أوجستس مارى، وبارون فون هوبر، الذى كرر على أسماع كل من استمع إليه أن الرجل الفرنسى الموجود فى سقارة ما هو إلا لص. وكانت هناك مشكلات فى الموقع، ففى إحدى المرات دس أحد الخدم السم لمارييت فى طعامه، وكاد أن يموت، كما كانت تجرى محاولات من آن لآخر لنصب كمين له. لقد كانت هذه،

(\*) Khaemwese ولم نستدل على اسمه بين أسماء أولاد رمسيس الثانى كما أوردها سليم حسن فى موسوعة مصر القديمة، ج ٦ (المراجع).

على أى حال، هى المخاطر العادية التى يواجهها أى تنقيب ناجح. وقد كان يتمتع بمرتبة فارس ويحمل وسام الشرف الذى كان قد رقى إليه اعترافا بالكشف الذى قام به فى ١٦ أغسطس ١٨٥٢.

انضم العالم الألمانى، هينريش بروجش، الذى أرسلته الحكومة البروسية إلى مصر، انضم إلى مارييت فى سقارة كى يساعد على فك رموز الكتابات الموجودة فى السيرايبوم، وصار الرجلان صديقين حميمين، وعاش بروجش مع أسرة مارييت ووصف ظروف الحياة هناك: "كان هناك ما يقرب من ثلاثين قردا تعيش حول المنزل أو فوق السطح، وكانت الثعابين تزحف على الأرض، وكانت العناكب الكبيرة والعقارب تزحف من خلال شقوق فى الجدران، وتتدلى من السقف أنسجة العنكبوت الكبيرة كالأعلام. وما إن يحل الليل، كانت الخفافيش التى يجذبها الضوء إلى داخل حجرتى الصغيرة من مصارع النافذة، تزعج راحتى وهى تطير كالأسباح، فكنت قبل النوم أحشر ناموسيتى تحت الحاشية وأسلم نفسى لرحمة الله والقديسين، فى حين كانت الذئاب والضباع وبنات آوى تعوى، حول البيت".

كان مارييت يضحك من تلك المنغصات التى يتسم بها وضعه، كما قال بروجش، وكان الشئ الوحيد الذى يكدر حياته هو أنه يوما قد يكون عليه أن يغادر كوخه الصغير ويعود إلى فرنسا. وجاء ذلك اليوم مع مرور الوقت، فبعد أن تمكن من شحن ما يزيد قليلا على ٧٠٠٠ قطعة أثرية إلى باريس، قرر أن يلحق بها، ويستمتع بالشهرة التى جلبتها اكتشافاته وعمليات الناجحة المحظورة. ومع ذلك، كان هناك التزام عليه القيام به قبل مغادرته، إذ إن دوق لوينز قد انخدع بنص فى كتابات بلينى يذكر فيه الشاعر أن المصريين كانوا يعتقدون أن أبا الهول مقبرة لملك قديم يدعى هارميز، معتقدين أنه مكون من المواد التى نقلت إلى الموقع. ولم يكن بلينى<sup>(\*)</sup> يصدق هذه القصة لأنه كان يعلم أن أبا الهول قد نحت من صخر طبيعى. أما الدوق، فكان يتساءل عما إذا كان من الممكن أن تكون مقبرة الملك إما بداخل جسم أبى الهول أو بالقرب منه. إن مقبرة غير مكتشفة لملك مصرى تستحق

(\*) بلينى (٦٢ - ١١٣م) عالم رومانى. صاحب موسوعة التاريخ الطبيعى. (المراجع).

القليل من الإنفاق، فأرسل الدوق ٦٠٠٠ فرنك لمارييت وطلب منه العثور على هذه المقبرة.

واكتشف مارييت علامات تدل على وجود طريق حجري يؤدي إلى الجنوب، بعيدا عن الخط الطبيعي لجسم أبي الهول. فقرر اتباع هذا الطريق، ووصل إلى موضع جرانيتي مغلق، بداخله جدران معبد. فرأى أنه قد يكون قد بناه الملوك الذين بنوا الأهرام، وأخذ ينظفه حتى الأساس، أملا في العثور على كتابة. لكن أرض المعبد الممهدة كانت تهبط إلى سبعة وعشرين قدما، وكانت الرمال متحركة، كما كانت هناك كمية هائلة من الحطام يلزم إزالتها. ونفذ المال مرة أخرى، فكتب مارييت لأكاديمية المخطوطات أو النقوش، طالبا مساعدة حكومية. فقدم السكرتير طلبا لوزير الدولة الذي تتبع الطلب على الأرجح، كي يحصل على النقود اللازمة. إنه الزهو الوطني. لقد ذكر الوزير المسؤولين بأن اكتشاف رأس السيرابيوم يعنى تجديدا لمجد فرنسا في مصر، تماما في الوقت الذي حمل فيه عضو بأكاديمية برلين اسم بروسيا إلى هناك بنجاح مدو. والآن مارييت على أعتاب اكتشاف آخر، "ومما يزعج الأكاديمية أن تعلم مدى عظم الكنز الأثري الذي تتعرض فرنسا لخطر خسارته لحاجتها إلى القليل من المال. كم سيكون حزننا شديدا إذا أصبح منجم الذهب هذا، الذي اكتسبته فرنسا بالقانون عن طريق اكتشافه، ملكا لغيرها من الأمم التي لن تتردد في امتلاكه واستغلاله كي تربح منه".

لم يكن الوزير سعيدا بتقديم المزيد من الأموال الحكومية للحملات العلمية، إذ بدا أنهم وجدوا أنه من المستحيل الحفاظ على حسابات سليمة، ومن المؤكد أن مارييت لم يكن استثناء من هذا الوضع. وحول الطلب إلى المدير العام للمتاحف الذي وافق على "آخر مبلغ بالتأكيد"، وهو ١٠٠٠٠ فرنك. وحين وصل هذا المال إلى مصر، كان مارييت قد أنفق بالفعل هذا المال من خلال مبالغ مقدمة رتبها القنصل، فكان عليه أن يوقف العمل، في حين ظل المعبد نصف مكتشف. اكتشف مارييت فيما بعد، أنه تحت الرمال، وعلى بعد عشرة أيام من حيث توقف عن الحفر، كان يرقد التمثال الرائع للملك الذي بنى الهرم الثاني "كان الأمر يحتاج إلى بضع مئات من الفرنكات كي يكون تمثال خفرع اليوم في فرنسا" كما كتب مارييت.



رحب اللوفر بعودة مارييت وعينه مساعد أمين في قسم الآثار المصرية عام ١٨٥٥، ومنح الإذن بزيارة المتاحف الأوروبية الأخرى، من أجل فهم وتصنيف مكتشفاته، وبدأ بزيارة ألمانيا حيث رد بروجش كرم الضيافة المتواضع الذي تمتع به في سقارة. وكان الملك فريدريك وليم الرابع قد أظهر اهتمامه بمصر ومول حملة ليبسيوس، كما أنه، دون علم من مارييت، أرسل مع بروجش إسهاما مجهول الشخصية من أجل العمل الذي كان يجرى في سيرابيوم. فحين زار مارييت ألمانيا دعاه الملك على العشاء، وأنعم عليه بوسام النسر الأحمر من الطبقة الثالثة.

وحين عاد مارييت إلى باريس، كتب دراسة عن الديانة المصرية كما تكشف عنها الكتابات التي اكتشفها في سيرابيوم. حاول في هذا العمل أن يبين أن المصريين كانوا يؤمنون بإله واحد، وأن أبيس هو التجسيد، ولد من أم عذراء حملته حملا إعجازيا دون إله أرضي؛ كان أبيس هو الكلمة، في حج لوقت معين إلى الأرض في هيئة عجل. وكان تطبيق مفاهيم مثل الميلاد العذري على الديانة المصرية يشتمل منه رائحة الكتابات الصوفية التي كانت موجودة في منتصف القرن التاسع عشر، أكثر من كونه نتاج فكر عالم مصريات جاد. فلم يسر هذا رئيس مارييت في اللوفر، دي روجي، الكاثوليكي الورع. فنصح مارييت بأن يوجه اهتمامه إلى مناطق أقل إثارة للجدل فيما سيقوم به من أعمال في المستقبل.

وفي مايو ١٨٥٧، قام بزيارة لتورينو لفحص المجموعات الأثرية هناك، واحتفى به من جانب المتحف والملك، إذ خلع الملك عليه وسام القديسين موريس ولازاروس، وانتخبته أكاديمية العلوم في تورينو مراسلا. وكان مارييت من قبل مراسلا لأكاديمية الفنون الجميلة في ريو دي جانيرو، وانتخب في جمعية الآثار في لندن. لقد أصبح، في الحقيقة، واحدا من أشهر علماء المصريات الفرنسيين وأكثرهم احتراما في الخارج.

على أية حال، فإنه لم يجد في باريس أية فرصة للتقدم المهني، إذ كان المنصب الرئيسي هو أن يكون أمينا في اللوفر، ولقد أوضح المتحف بجلاء أن مارييت لن يستطيع أن يرقى إلى هذا المنصب إلا في حالة وفاة أو نقل الأمين الحالي، دي روجي الذي لم يُبد أي دليل على التحرك إذ لم يكن يكبر مارييت إلا بعشرة أعوام، كما كان يتمتع بصحة وعافية. ولم يكن مارييت يملك سوى راتبه،

كمساعد أمين للمتحف وهو ٤٠٠٠ فرنك. ولم يكن ذلك كافيا لإقامة أود أسرة بدا أنها تتزايد مع كل عام، فكان أحد الحلول هو ترك الحياة المكلفة في باريس والاتجاه إلى مصر. ومع مرور الشهور، كان مارييت يفكر في المثل العربي القائل: من شرب مرة من ماء النيل فسوف يتعطش إليه دائما. وأخبر أصدقاءه أنه يجد أن من الصعب عليه التركيز في عمله في اللوفر، وسوف يقبع في مكتبه كى يعكف على ترجمة كتابة وجدها على قطعة أثرية كان قد أحضرها. وبينما كان يتناول ذلك الشيء، انتقل بوجدانه إلى الموقع الذى وجده فيه، وشعر أنه يتنفس من جديد هواء الصحراء النقى ويسمع صيحات العمال. وفجأة شعر بالكره لعملية الترجمة تلك، وكذلك دى روجى، واللوفر، وكل ما حوله، وشعر أنه يتوق إلى العودة إلى مصر.

وبسبب كل تلك الاحباطات واثت مارييت فكرة، وهى ألا يعمل من أجل اللوفر، وإنما فى خدمة مصر، بل حلم بإنشاء مصلحة لحماية الآثار هناك، لفائدة العلوم — مصلحة سوف يكون هو بالطبع رئيسا لها. وسنحت له الفرصة فى أوائل عام ١٨٥٧، لقد كان الأمير نابليون ابن عم الإمبراطور يشكل نوعا من الحرج للإمبراطورية الثانية. إذ كان يعبر عن قلقه وبغضه وسخريته لتسليم نابليون الثالث سدة الحكم. ولحسن الحظ، كان الأمير محبا للسفر، وكان الإمبراطور دائما مستعدا لتشجيعه على أن يكون فى الخارج بأية ذريعة. فحين عبر الأمير عن اهتمامه بمصر تم عمل كل شيء لتحقيق نزوة يمكن أن تخرجه من فرنسا لخمس أو ستة أشهر. ولقد اغتيل عباس باشا، عدو مارييت القديم، على يد قواته، وكان سعيد باشا، خلفه، راغبا رغبة حادة فى تحسين العلاقات مع القوى الأوروبية، كما أنه كان واقعا تحت تأثير الدبلوماسى الفرنسى فيردينان دى ليسيبس، إذ كان يعرفه منذ شبابه، وعلى هذا عادت فرنسا إلى الخطوة، لذا كانت زيارة ابن عم الإمبراطور سوف تلقى كل ترحيب. لقد أخبر دى ليسيبس الباشا بأن الأمير محب للأشياء الجميلة والتاريخ القديم، لذا فسوف يتوقع أن يتجول فى أعمال التنقيب فى وادى النيل، وأن يقوم بذلك شخص قادر على شرح مغزاها، كما أن الأمير سوف يتوقع أن يغادر مصر ومعه مجموعة من الآثار تليق بمقامه.

كان كبير الدوقات فيرديناند ماكسيميليان النمساوى قد زار مصر قبل ذلك بعامين، وأصر على مغادرة مصر ومعه أفضل جزء من مجموعة القاهرة، إذن فهناك سابقة فى إغداق أروع آثار مصر على الزوار الملكيين. والأمير يعرف ذلك، ومارييت هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يصحب الأمير نابليون فى جولة، ويمتلك الطاقة والقدرة التنظيمية لتكديس مجموعة مناسبة له كى يأخذها معه. فطلب سعيد من دى ليسيبس أن يعود مارييت إلى مصر. كان فى هذه الدعوة بعض القلق. إذ دعى مارييت للعودة إلى مصر، ليس مديرا لمصلحة للحفاظ على الآثار القديمة كما كان يتمنى، وإنما كرئيس بحرى لباخرة أمير يقوم بجولة فى مصر. فبدلا من تطبيق القانون الذى يحظر تصدير الآثار، اشتغل فى خرق هذا القانون. لقد كان دى ليسيبس يعلم طموحات مارييت، فكتب له شارحا مدى صعوبة أن يدخل فى رأس سعيد باشا أنه — أى الأمير — قد أتى إلى مصر من أجل الآثار. ومع ذلك، استطرد يقول، إنه إذا تمكن من أن يجعل زيارة الأمير ناجحة، فيمكنه أن يطلب ما يشاء من الوالى.

ومنح مارييت إجازة من المتحف لمدة أربعة أشهر، ووصل إلى مصر فى أكتوبر ١٨٥٧، واستقبله سعيد باشا استقبالا حارا، ووضع سفينة بخارية تحت إمرته، هى الباخرة سمود، وبها طاقم مسلح. وأعطيت التعليمات لمارييت بأن يبحر فى وادى النيل، ويخبر الحكام فى المديرىات بأن الباشا يحظر عليهم مس أى حجر أثرى، وأن يسجنوا أى فلاح يجرؤ على أن يخطو بقدمه داخل أى معبد. فكانت واجبات مارييت ذات وجهين: منع أى شخص من نقل الآثار من المواقع القديمة، وجمع أفضل القطع من أجل الأمير الزائر. وبأشر عمله بنشاط، إذ إنه ضمن وضعا لم يكن ينعم به أكثر سابقيه طموحا، أعنى الحق فى أخذ ما يشاء، بالإضافة إلى سلطة منع أى شخص آخر من أخذ أى شىء على الإطلاق.

وفجأة وُضع حد لسطوع نجم مارييت، وذلك بوصول نبأ فى يناير عام ١٨٥٨ بأن الأمير قد غير رأيه وألغى الزيارة. وصل هذا النبأ إلى القاهرة ومعه خطاب من اللوفر يخبر مارييت بأنه ما دام لم يعد مطلوبا منه الإعداد للزيارة الملكية، فإن إجازته قد ألغيت، وعليه العودة فورا إلى المتحف، حيث ينتظره عمله فى مكتبه. بدا هذا وضعا يائسا إذ كان اهتمام سعيد باشا بآثار بلاده ينبع من رغبته فى نيل

الخطوة عند الإمبراطور، فلم يعد لديه أى سبب فى إبقاء مارييت فى خدمته، بعد أن ضاعت منه هذه الفرصة.

إن شعور مارييت بما ينتظره من العودة إلى الحياة الباردة المضجرة غير المشمسة فى حياته العملية غير المبشرة فى باريس، ألهمه بأن يكتب اقتراحا يمكن أن يبقيه فى مصر: "بما أن طموح الأمير إلى زيارة مصر هو وليد حبه للأشياء الجميلة، واهتمامه العميق بفجر تاريخ الإنسان، ألا يحب الأمير أن تكون لديه مجموعة من أبداع آثار البلاد تذكارا لرحلة لم تكتمل، وإن تعلق بها مثل تلك الآمال البراقة؟". ورد السكرتير الخاص معبرا عن سرور سموه باقتراح مارييت، وطلب قائمة من الحلى والتماثيل الصغيرة وعينات من الفن المصرى، التى يمكن أن تضاف إلى مجموعة الأمير نابليون الجميلة أصلا، دون أن يكون فى ذلك أى شىء غير ملائم. وتم إرسال القائمة ومعها اقتراح يتعلّق بخدمة صغيرة قد يحس الأمير بالميل إلى إسائها فى مقابل الوصاية المستقبلية على مثل هذه الكنوز فى مصر. وكان رد السكرتير الخاص هو كل ما كان يمكن أن يأمل فيه مارييت: "لن يتردد الأمير فى أن يعلم الوالى، أنه إذا كانت عظمته تطلب من فرنسا مساعدة أحد العلماء لإنشاء متحف لمصر، فمن المؤكد أن الحكومة الفرنسية لن تختار أى شخص سواك".

فى ١ يونيه ١٨٥٨، عين مارييت مديرا للآثار فى مصر، ومنح مخصصا شخصيا سنويا قيمته ١٨٠٠٠ فرنك، وكذلك سلطة تعيين زملاء وإمكانية استخدام البخارة. وتم تصنيف الأعمال التى يقوم بها على أنها أشغال عامة، ويمكن قانونا جمع العمال له عن طريق التجنيد. وأصبح مسئولا مسئولية مباشرة أمام الوالى، ولم تخصص له ميزانية، ولكن لديه الحق فى تقديم الطلب من أجل الأموال عند الحاجة إليها. كان واجب مارييت الأول هو إعادة إعمار وتجديد متحف القاهرة، الذى جرده كبير الدوقات، ماكسميليان، مما به، فكان طلبه الأول هو إنشاء أبنية لوضع مجموعات الآثار الحاضرة وما يجد من مجموعات فى المستقبل. فخصصت له المخازن الموجودة فى ميناء بولاق، التى كانت تخص شركة السفن البخارية العاملة بين القاهرة والإسكندرية، والتى كانت قد توقفت عن العمل حين افتتحت السكك الحديدية. وهنا عين مارييت صديقه بونفوا أميننا على ما سيأتى من آثار. وكان هناك منزل منخفض رطب فى الموقع، أحضر إليه أسرته. كان منزلا مظلما

مليئاً بالحشرات، غير أن السعادة عادت إلى قلب مارييت، بعد أن ضم إليه عالمه الصغير.

وبينما كانت الجالية الفرنسية تشعر بالسرور، شعر آخرون بالحقد على ذلك الوصولى الذى أخذ على عاتقه منع جميع أعمال التنقيب ما عدا ما يقوم هو به، مهدداً بذلك أرزاق التجار والمزيفين على حد سواء. ونشر مارييت مجال عمله فى كل ربوع الوادى، وفى وقت من الأوقات كان لديه سبعة وثلاثون موقع تنقيب تعمل من الدلتا حتى الشلال الأول. فتم إفراغ أكثر من ٣٠٠ مقبرة فى الجزيرة، وسقارة. وفى إدفو، نقل مارييت قرية بأكملها من سطح المعبد المدفون، كاشفاً عن البناء الرائع لأول مرة فى العصر الحديث. وفى طيبة، أزال جزءاً من الصرح الرائع لمعبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى، مكتشفاً الجدار الذى يصور "حتنتوت فينوس (Hottentot Venus) الشهير". لقد أعجب هذا الجدار مركز دفرين وآفا and Ava الذى تصادف أنه كان يزور المكان إعجاباً شديداً، حتى إنه أخذ قوة صغيرة من العمال ليلاً وحطم الجدار، أملاً فى شحن الكتل مع أعمال نحت أخرى امتلاكها إلى مقر عائلته فى كلاندبوى بأيرلنده. لكنه اكتشف، وتمت مصادرة الكتل وأرسلت بدلاً من ذلك إلى متحف القاهرة.

وعبر النهر، فى الكرنك، كشف مارييت عن معبد آمون العظيم، ونقل من هناك ١٥٠٠٠ قطعة آثار صغيرة. وفى أبيدوس، وبعد دراسة قصيرة للسطح، أذهل مارييت العمال حين أشار إليهم على الخط الذى ينبغى أن يحفروا نحوه للكشف عن جدار حدودى، وحين ظهر الجدار فى المكان الذى تنبأ به بدقة، تجمع القرويون كى يشهدوا المعجزة. تقدم أحد العرب وقال له: "لم أترك هذه القرية أبداً، ومع ذلك لم أسمع عن وجود جدار هناك، فكم عمرك حتى تتذكره؟"، فأجاب مارييت بكل هدوء وثبات: "ثلاثة آلاف سنة"، فرد الشيخ: "حسناً، لقد بلغت كل هذا العمر، وما زلت تبدو شاباً، لا بد أنك ولى عظيم، دعنى أنظر إليك". وظل لمدة ثلاثة أيام، يحضر كى يحملق فى الولى، عمره ثلاثة آلاف من السنين، يسدد الضربات الكثيرة بعصاه للعمال الذين لا يعملون كما يريد.

أثناء تلك السنوات، كان مارييت يتمتع بسلطة مطلقة فى مجال التنقيب عن الآثار. وكتب أنه، يعتبر مصر القديمة ملكاً خاصاً له، إقطاعية يمكنه أن يورثها

لأحفاده. كان يسافر فى كل مكان مع زوجته وابنه الأكبر أوجيست، الذى كانت لعبه من التماثيل الصغيرة والتماثيل المأخوذة من المقابر القديمة، وكان يطلق على التماثيل الكبيرة فى طيبة "عرانس بابا الكبيرة". ومع ذلك، كان هناك ما يهدد وضع مارييت. فلم يكن سعيد باشا يهتم أقل اهتمام بالآثار أو التماثيل الحجرية القديمة. إذ إن دى ليسيبس والأمير نابليون كانا قد أقنعا بإنشاء مصلحة للآثار غير أنه كان فى مقدوره، فى أى وقت، أن يغير رأيه. وكانت الأموال التى جعلت عمل مارييت يسيرا، يمنحها الباشا عند الطلب، ويمكن سحبها بسهولة؛ ومجموعة الآثار التى كانت تتزايد ببطء كان من الممكن التخلص منها تلبية لنزوة من زائر بارز.

ولكن إذا كان الوالى يفتقر إلى الإحساس بما يحتاجه العلم، فيمكن إشعال جذوة الرغبة فى قلبه باكتشافات تشتمل على الذهب أو الحلى؛ فكان مارييت واقعا تحت ضغط مستمر كى يخرج هذه الأشياء، فلم يتردد فى استخدام الديناميت للإسراع فى العمل. فى فبراير عام ١٨٥٩، سمع مارييت من عميله فى الأقصر أن تابوتا حجريا ثمينيا بشكل غير عادى قد اكتشف، وأنه يزدان بالذهب، وأن كتابة حددت أنه تابوت الملكة عوحتب A- Hotep. إلا أنه لسوء الحظ، فإن الحاكم المحلى قد نهب التابوت وأخذ كمية من الذهب والحلى يخطط لإرسالها هدية للوالى كى يحسن من وضعه. وحال سماع مارييت بالنبأ، ركب الباخرة سمبود وانطلق عبر النيل كى يتصدى لمركب ذلك الحاكم.

لقد وصف شاهد عيان اللقاء بين المركبين: رأينا السفينة التى تحمل الكنز تتقدم نحونا، وفى خلال نصف ساعة كانت الباخرتان متجاورتين. وتلت ذلك مناقشة حادة. وحين أدرك مسيو مارييت أنه لا يصل إلى شىء، وأنه يفقد صبره بسبب عنادهم، استخدم الطرق الوحيدة الفعالة التى يعترف بها هنا؛ سدد بضغ لكلمات قوية، وقال إنه سوف يلقي بأحد الرجال فى النهر، ويكسر رأس آخر، ويرسل بثالث إلى مطبخ الباخرة، ويشنق رابعا، وسوف يعامل الباقين بنفس الطريقة. وبفضل هذا قرروا أن ينقلوا جميع الآثار إلى سفينتنا فى مقابل إيصال. واستطاع مارييت أن ينال عرفان الوالى بإهدائه صندوقا من الحلى الرائعة كى يتزين هو وزوجاته بها؛ واتخذ ذلك العرفان هيئة صدور أمر ببناء متحف قومى جديد، إذ كانت المجموعات الموجودة تستحق مكانا أفضل.

كان جورج هوبكينز، الرحالة الإنجليزي، قد زار القاهرة عام ١٨٣٣، وزارها مرة أخرى عام ١٨٦٠، فكتب: "إن متحف الآثار المصرية الذى جمعه سينيور ماربيت والمرتبة ترتيبا جيدا فى بولاق، جدير بالزيارة". ومع ذلك، فقد كان هناك القليل جدا فى مجال المصريات، سواء فى إنجلترا أو فرنسا هم الذين أحسوا بالفرح. إذ بدا أمرا بغیضا أن يشعر حاكم مصرى بالطموح فى التمسك بالكنوز التى أخرجتها الجهود الأوربية؛ فلم يعتقد المتحف البريطانى أو اللوفر أنه مما يمكن تحبيذه الاحتفاظ فى القاهرة البعيدة حتى ولو بشكل مناسب، بكنوز يعجب بها العالم بأسره.

فى ذلك الوقت، كانت كل من إنجلترا وفرنسا تتوددان لسعيد باشا، وكان هو حريصا على الموازنة بينهما فيما يقدمه من مجاملات. وكان قد منح صديقه القديم دى ليسيبس الامتياز لشق قناة السويس — على الرغم من أن لورد بالمرستون تمكن من تأخير التصديق عليه فى الباب العالى لمدة عامين. ومن ناحية أخرى، وافق على أن يدع البريطانيين ينشئون شركة التلغراف الشرقية وبنك مصر<sup>(\*)</sup>. كان كلا البلدين يقدم القروض لسعيد، وقدمت كل منهما الدعوة له كى يقوم بزيارة رسمية. وبدا أن فرنسا بزت إنجلترا فى الصراع الدبلوماسى حين بعث الإمبراطور بدعوة خطية للباشا، بيد ماربيت. لقد بلغ من فرط سرور سعيد بالشرف الشخصى حدا جعله يقبل الرسول بحرارة ويعرض أن يحقق له أعز أمنیه. فأجاب ماربيت بأن كل ما يريده هو أن يكمل بناء متحفه الجديد. وصدرت الأوامر.

وكان ماربيت فى المعية حين زار الباشا باريس فى سنة ١٨٦٢، وأحس ببعض السرور حين استقبل فى الأماكن الراقية، وإن كان ذلك قد أفسد قليلا حين أجبر على مصاحبة سعيد للحفاظ على التوازن الدبلوماسى، فى امتداد لزيارته الرسمية إلى لندن. وعادت المجموعة عن طريق بولونيا، وهى مسقط رأس ماربيت، حيث ابتهج الباشا من الاحتفالات حتى إنه أنعم بلقب البكوية على ماربيت ومنحه معاشا، كما أعلن أنه سوف يكون مسئولا شخصيا عن تعليم أبناء ماربيت، وأخيرا أصبح المستقبل آمنا.

(\*) من المفهوم أنه ليس بنك مصر المعروف الذى أسسه طلعت حرب فى سنة ١٩٢٠. (المراجع).

على كل حال، مات سعيد فجأة بعد ذلك بستة أشهر، وتعرضت حياة مارييت العملية في مصر مرة أخرى للخطر. ولم يبد إسماعيل باشا، الذي حل محل سعيد، أى اهتمام بعمل مصلحة الآثار، واشتهر بأنه في حاجة إلى كل النقود التي يمكنه الحصول عليها من أجل إنفاقه الباذخ. ومع كل، فقد كان إسماعيل أيضا حريصا على التحديث وإقامة علاقات طيبة مع القوى الأوروبية، لذا أخبر مارييت بأن شيئا لن يتغير - سوف تقدم الأموال كي تستمر المصلحة في العمل، وسوف يستمر العمل في بناء المتحف الجديد. لقد استغرق الإشراف على العمل في البناء، معظم وقت مارييت بقية ذلك العام. أما ما تبقى له من وقت قصير فقد كان يقضيه في المرور بالزوار البارزين على مواقع التنقيب. وكان من بين هؤلاء الأمير نابليون الذي حقق طموحه في رؤية الاكتشافات الكبرى التي قام بها أبناء بلاده في وادي النيل. ولما كان الطقس شديد الحرارة بشكل غير مريح، فإن الأمير لم ير سوى القليل، إذ قضى كل وقته في قمرته الفاخرة على ظهر المنشية ولم يظهر خارجها سوى عند فيلة، حين اشتد حنقه لدى سماعه بنبا إتلان أحد السائحين للكتابة الفرنسية التي وضعها هناك الجنرال ديزي، فأمر الأمير بأن تتحت الكلمات مرة أخرى، وأضاف تعليقه الشخصي: "لا ينبغي للمرء أن يلطخ صفحة من صفحات التاريخ".

حين اكتمل بناء المتحف أخيرا في أكتوبر ١٨٦٣، كان واحدا من أبهى المباني في القاهرة. لقد كتب فريدريك دي سولسى، عضو الأكاديمية تقريرا عن زيارته هناك للرفيقو أركيولوجيك، المجلة الأثرية: "... فناءان متصلان بحدان النيل، تفصلهما بوابة حديدية. الأول تزرع به أشجار جميلة، وهو يضم المقار السكنية، بما في ذلك مقر مارييت بيه (بيك) نفسه، وهنا تتمشى بحرية غزالة لطيفة تسمى فينييت وهي تبحث بلهفة عن أعقاب السيجار، فهي من الملذات المبهجة بالنسبة لها. وهناك بعض القردة الصغيرة تلعب في صحبتها. أما الفناء الثاني فهو جزء لا يتجزأ من المتحف لأنه يحتوى على اثنين من أبى الهول من الكرنك، وثلاثة توابيت رائعة من البازلت".

كانت هناك بعض الصعوبة في إقناع إسماعيل بأن يعلن عن افتتاح المباني. وشك مارييت في الدسائس التي يحيكها أعداؤه في القاهرة، غير أن حماس الباشا



كان دائم الفتور بالنسبة لهذا المكان، إذ إنه مهما كانت الموميאות ذوات أهمية تاريخية، إلا أنها تظل، في نهاية الأمر جثثا، وهو لم يكن يشعر بالراحة في حضرة الموت. وأخيرا افتتح الباشا المتحف في ١٦ أكتوبر ١٨٦٣، لكنه كان حريصا على ألا يعبر العتبة. وكان من عادته اصطحاب كبار الزوار إلى البوابات ثم ينتظر في الفناء، في حين يتجول معهم مارييت في المباني.

وفي عام ١٨٦٧، انعقد المعرض الدولي في باريس، وكان مارييت هو القائم على الجناح المصري فيه. وكان انتصارا كبيرا. فازدحم المعبد المصري (المقصود الجناح المصري) بالزائرين، وكتب أحد النقاد أن الكثيرين منهم جاءوا من قبيل الفضول البحث، غير أنهم غادروه مفعمين بالشعور بالدهشة من تلك الحضارة التي أنتجت الآثار الرائعة التي كانت معروضة. وتلقى مارييت تشجيعا له وسام نسر بروسيا الأحمر من الطبقة الثانية، ووسام قائد كتيبة الشرف.

على أية حال، فلقد شكلت روعة المعرض انعطافا في أحوال مارييت. إذ إن الإمبراطورة أوجيني قد بلغ اندهاشها من المعروضات من الحلى حدا جعلها توصل إلى علم إسماعيل أنها سوف تكون في غاية الغبطة إذ ما تلقتها كهدية. وحين أخذ الباشا على حين غرة، لم يستطع إلا أن يجيب بأن هذا سيكون موضع بهجته إذ يلبي رغبتها، لكنه أضاف بأن "هناك رجلا أقوى منى في بولاق، ويجب أن تتقدمي بطابك إليه". وأوكلت لمدام كورنى، أخت الإمبراطورة في الرضاع مهمة شراء موافقة مارييت. وقدمت الطلب إليه بالفاظ غاية في الدقة حتى إنه لم يستطع أن يدعى أنه لم يفهمها. ذلك أنها عرضت عليه، مقابل ذلك إدارة مكتب الطباعة الإمبراطورى، أو إدارة المكتبة الإمبراطورية، وهو مقعد يشبه مقعد عضو مجلس الشيوخ<sup>(\*)</sup>. لكن مارييت رفض العرض، شارحا السبب لمدام كورنى بأنه رغم كل اعتزازه بأن يرى أبدع ما فى الآثار المصرية فى أمان فى فرنسا، إلا أنه مكلف بالحفاظ عليها فى التراب المصرى، وأن يحميها فى مواجهة كل المطالبات الأجنبية، حتى لو جاءت من أبناء وطنه. فلو أنه أذعن لمطالبات فرنسا اليوم،

(\*) وردت بعد ذلك فقرة غير واضحة كالتالى:

A place among scholars credited with supplying materials for the Emperor's Life Caesar.

وهو منصب يحظى شاغله — بين الباحثين — بمكانة لأنه يجعل حياة الإمبراطور كحياة القيصر.

فكيف له أن يعارض مطالبات إنجلترا غداً، ومطالبات ألمانيا والنمسا. لقد كان هذا قراراً شجاعاً، لأن مارييت كان يعلم تمام العلم أن هذا سوف يجلب عليه العداوات في فرنسا، دون أن يكسب احترام إسماعيل. فإسماعيل كسابقيه، كان يظن أن أهم فضل لكنوز مصر، يكمن في قدرتها على شراء صداقة الأجانب.

والخدمة التي تؤديها الآثار، والتي كانت تعمل عملها في مناح مختلفة، ها هي أخذت تنزلق بعيداً عن الخطوة. ووجد مارييت أن العمال الذين جندهم أمروا بالسفر بعيداً عن مواقع التنقيب للعمل في حفر قناة السويس. بل إنه فقد إمكانية استخدام السفينة البخارية، التي نقلت لأداء واجبات أخرى ولم تعد إليه إلا حين هدد بالاستقالة. ولقد أشاع أعداء مارييت في القاهرة، أنه في حلف مع الإمبراطور كي يخضع مصر للتحكم والسيطرة الفرنسية، وأن تودده لإسماعيل باشا له دافع سياسي خبيث. وانتهاز من كانت الغيرة تأكل قلوبهم بسبب النفوذ الذي كان مارييت يتمتع به أو أولئك الذين فقدوا دخلاً بسبب تطبيقه الحظر على التجارة في الآثار، انتهز هؤلاء جميعاً كل فرصة لإثارة الشك فيه. كما أن عجزه عن تدبير المال جعل من السهل الإيحاء بأنه يسيء استخدام أموال الحكومة، وكان هو دائماً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه أمام المحاسبين الذين يقومون بالمراجعة. في ذلك الوقت، كتب لأحد أصدقائه: "مع تقدمي في العمر، أحول نفسي إلى فيلسوف مع تحول لحيثي إلى اللون الأبيض. فقبل ذلك، كنت أمر بفترات من اليأس المظلم يعقبه الغضب الأسود. أما اليوم فإنني أفكر في الحياة على أنها رحلة في قارب تتخللها فترات من دوار البحر. وحين يكون الجو جميلاً، أصعد إلى سطح السفينة، وأتنسم نسيم البحر. وحين يكون الجو سيئاً أستسلم وأذهب إلى فراشي وأتقيأ".

بالرغم من أن حفر قناة السويس جعل مارييت يفقد إمداده من العمال مؤقتاً، إلا أن القناة اتضح أنها هي المناسبة التي تعيد لمارييت مكانته في نظر إسماعيل باشا، إذ كان من المقرر أن يكون افتتاح القناة مهرجاناً دولياً، دعى إليه ملوك وسادة العالم المتحضر وعلماءه. وكان الباب العالي قد رقى إسماعيل إلى مرتبة الخديوى، فعزم على استخدام أمجاد مصر القديمة كي يلفت أنظار عليّة القوم في أوروبا إلى مصر، مما يقوى من مكانته لدى السلطان. فاحتاج إسماعيل إلى مارييت لإمضاء هذه الخطوة، لذا قدمت الأموال فجأة من أجل أعمال التنقيب عن الآثار

وكذلك لنشر الكتب. وكلف مارييت وحده بمسئولية وضع برنامج لقيام الضيوف بجولة فى الصعيد، بل قدمت الأموال لنشر كتاب إرشاد سياحى كى يرشد هؤلاء الضيوف.

كانت المناسبة مثالية براقه. افتتحت الإمبراطورة أوجينى القناة على اليخت الملكى النسر فى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩، ثم أبحرت من بور سعيد إلى السويس فى أربعة أيام، تتبعها ثمان وستون سفينة من جنسيات مختلفة. لمدة شهرين، استضاف الخديوى كبار الضيوف استضافة تتسم بالإسراف، ثم أوكل لمارييت أن يصحبهم فى جولات فى المعابد. كتب مارييت لابنه: "لقد عدت نوا من جولة فى الصعيد، وفى السويس، وفى سقارة، فى صحبة العديد من الإمبراطورات والأباطرة والأمراء والوزراء، ولم أعد أعرف أين أنا. فى حقيقة الأمر لقد اضطرب عقلى وخارت قدمائى..." لكنه نال مكافأته، إذ كانت الإمبراطورة أوجينى فاتنة ومتنبهة متيقظة، فهى قد غفرت له رفضه إعطاءها الحلى. وقد عينه الخديوى قائدا على ميدجديه the Order of Medjidieh، وصرح علنا أنه سوف يدفع له ٤٥٠٠ فرنك سنويا للإنفاق على أبنائه، ومبلغا ضخما ١٠٠٠٠٠ كى تقسم بين بنتيه الكبيرين. كان هذا وقتا للجو الصافى إن لم نقل المشرق فى حياة مارييت.

ثم كلف الخديوى مارييت بتقديم قصة لأوبرا من المقرر أن تفتح فى مسرح القاهرة، الذى بنى احتفالا بافتتاح قناة السويس، وأنه سوف يتم الاتصال بأحسن مؤلف موسيقى وأعلام أجرا، فسيتم الاتصال بفيردى أولا، وإذا ما فشلت الاتصالات فسيتم الاتصال بجونو، ثم فاجنر. عاد هذا التكليف بمارييت مرة أخرى إلى أيام التلهى المسلى العابث حين كان يصمم المشاهد المسرحية، وأعادته إلى أيام الرواية الرومانسية. وخرج بالفكرة الأساسية (عايدة)، وقبل فيردى الملخص. وظل مارييت لمدة عام تقريبا منشغلا بالأوبرا. سافر إلى فيلة كى يعد الرسوم للمباني التى يبنى على أساسها تصميماته الثابتة، ونسخ تفاصيل الأزياء والأسلحة من جدران المعابد والمقابر والتمائيل. وسافر برسوماته إلى باريس كى يستوثق من أن الديكور والأزياء حين تجمع مع بعضها البعض تكون حقيقية، فوجد أن المحترفين قد تولوا الأمر. وقام كامبى دى لوكل بمراجعة القصة الأصلية التى كتبها. وتمت ترجمتها إلى الإيطالية بناء على إصرار فيردى. وكانت تجرى عليها تغييرات فى

كل مرحلة. وكانت الديكورات والأزياء فى أيدي مصممين مسرحيين لم يكونوا يرحبون بتدخلات مارييت، كما كانت لفيردى أفكار ثابتة عن الموسيقى لا يجب أن تفسدها أية خواطر تتعلق بالصدق. ترك مارييت الديكورات والأزياء فى باريس، التى طالتها الحرب الفرنسية البروسية التى بدأت فى يوليو ١٨٧٠ حين أصبحت المدينة واقعة تحت الحصار.

إن افتتاح عايذة فى القاهرة، الذى حدث فى ليلة عيد الميلاد عام ١٨٧١، كان مناسبة رائعة. وشارك مارييت فى هذا المجد. بدأ هذا المجد فى آخر عقد من حياته عند نقطة سامقة، أخذ ينحدر منها ببطء بسبب اعتلال صحته، وفقده لأولاده، وكذلك معاركه كى يحمى مصلحة الآثار من الوقوع ضحية لإسراف الخديوى. لقد حقق مارييت مكانة كشخصية شهيرة فى الخارج، وكان الرحالة البارزون المهتمون بالمصريات يزورونه فى متحف بولاق. عندما زاره فيكونت دى فوج، الدبلوماسى والمؤلف عام ١٨٧٢ كتب عنه قائلا: "إنه رجل قوى البنيان، عريض المنكبين، يمكن القول إنه طاعن فى السن، أكثر من كونه مسنا. يتمتع بجسم رياضى، كأنه قد من كتلة كتلك الأشياء الضخمة التى كان يشاهدها. وكان وجهه الذى ينطق بالصحة به تعبير حالم حزين.. يمكن أن يعتبره من يشاهده أحد الباشوات الأتراك. حين كان أحد الزائرين يعبر الحديقة، كان هذا المالك يقطب جبينه بغضب وعجرفة، واعتاد أن يتتبع ذلك الشخص المتطفل وكأنه عاشق يرى شخصا غريبا يدخل بيت محبوبته، أو كأنه كاهن يرى شخصا غير مؤمن يدخل المعبد".

لقد كان مارييت شديد الغيرة على المصلحة التى أنشأها والمتحف الذى أوجده، حتى إنه حينما مات دى روجى فجأة فى ديسمبر ١٨٧٢، وعرض عليه، أخيرا، منصب أمين اللوفر، رفض هذا العرض. وجاءت مع هذا العرض عروض أخرى بمقاعد شاغرة فى أكاديمية المخطوطات والكوليج دى فرانس، بالإضافة إلى عرض بإجازة مفتوحة تسمح له بإجراء الترتيبات الضرورية فى بولاق قبل الالتحاق بهذه الوظائف. على أى حال، كان مارييت يعتقد أن الترتيبات الضرورية فى بولاق تتطلب أن يكون موجودا بصفة مستمرة. ولم يكن ذلك للحفاظ على المصلحة التى أسسها، ولكن كى يحميها من السقوط تحت سيطرة أمة أو دولة

أخرى، وكان ذلك الهدف على نفس الدرجة من الأهمية بالنسبة له. فرد على العرض الذى جاءه من باريس قائلا: "هل تسمحون الآن، لعلم المصريين الذى يمثلته حتى الآن رجل فرنسى، بأن يمثلته فى مصر فى المستقبل رجل ألمانى؟ نحن الآن نكافح بقوة فى مصر ضد نفوذ ألمانيا، ذلك النفوذ الذى يفرض نفسه فى اتجاهات عدة، فهل تعتقدون أنى أكون الوسيلة التى يستطيع بها الألمان أن يمتلكوا أحد المناصب التى يتشوقون لامتلاكها فى مصر؟".

لقد بقى مارييت كى يحتفظ بآثار مصر فى البلاد وتحت السيطرة الفرنسية. بل إنه أقنع الخديوى ألا يرسل كنوز متحف بولاق إلى فيينا، للمعرض الذى أقيم عام ١٨٧٣، محتجا بأنه إذا ما لفتت إحداها نظر إمبراطور النمسا، فإن إسماعيل سوف يجد أنه من العسير عليه أن يرفض طلبا إمبراطوريا. وحين قدم القنصل العام الأمريكى طلبا رسميا بأن يسمح له بتصدير مسلة، وحول الطلب لمارييت لدراسته، بين رده أن عزمه لم يُلن منذ رفضه لطلب الإمبراطورة أوجينى: "هناك متحفان فى مصر أحدهما متحف بولاق، أما المتحف الآخر فهو مصر كلها، فهى تشكل بآثارها المنتشرة على ضفتى النيل من الدلتا حتى الشلال الثانى أجمل متحف وجد فى العالم بأسره... فلم نحطم أهمية هذا المتحف الثانى حيث يحضر العالم كله، كل شتاء هنا كى يعجبوا به! هناك مبدأ عالمى معمول به فى جميع المتاحف، وهو أن المتحف يمكن أن يتلقى لكنه لا يعطى أبدا، فلتطلب مصر فينوس دى ميلو من اللوفر، أو حجر رشيد من لندن، أو أى أثر من مجموعة الآثار الموجودة فى نيويورك. لن يسلم أحد مثل هذه الهبة. فلم يجب أن تعامل مصر معاملة مختلفة عن تلك التى تعامل بها المتاحف الأخرى؟!".

ومع تردى مصر فى الفوضى المالية، ناضل مارييت نضالا مريرا من أجل بقاء متحف بولاق، ومصلحة الآثار. انعقدت أولى لجان التحقيق فى أحوال البلاد المالية بشكل مشترك بين بريطانيا وفرنسا عام ١٨٧٥، وبعد ذلك بعامين، أصبح نظام الرقابة الثنائية سارى المفعول، وبموجبه كان موظف إنجليزى يقوم بالتفتيش على دخل البلاد، ويقوم موظف فرنسى بالتفتيش على المنصرف. فلم يطبق إسماعيل التدخل المباشر. فأدى هذا به إلى تنظيم شغب عسكرى فى القاهرة،

فناشدت القوى الأوروبية سادته الأتراك من أجل تقديم المساعدة. وفي ٢٦ يونيه، تلقى إسماعيل برقية من السلطان يسميه فيها "خديوى مصر السابق"، وعين ابنه توفيق محله.

وفجأة طوّل ماريت بإعداد ميزانية للمتحف والاحتفاظ بحسابات. وبينما خفضت الأموال المتاحة، إلا أنها، على الأقل، كانت تدفع بانتظام، جنيهاً حقيقية، وليس كمبيالات أو سندات، فاستطاع ماريت أن يسير مركبة المنشية. وقل العمل في التقيب، كما أن صحة ماريت المتدهورة جعلت من الصعب عليه القيام بالإشراف. لقد قضى أشهره الأخيرة في إعادة تنظيم المتحف، ومحاولته أن يضمن أن نفوذ فرنسا على علم المصريات لن يضعف بعد وفاته، وبدا من المؤكد أن هنرى بريجش صديقه الحميم وزميله سوف يحل محله، لذا وافق ماريت بتردد على إنشاء بعثة أثرية فرنسية في القاهرة، تضم علماء المصريات والمستعربين للإبقاء على النفوذ الفرنسى في هذا الميدان، إذا ما فقدت فرنسا منصب المدير.

وصلت البعثة إلى القاهرة في أوائل يناير ١٨٨١. وتوفى ماريت في ١٨ يناير ١٨٨١. أقيمت له جنازة رسمية، ودفن في حديقة متحف بولاق، تماماً بجانب الباب الأمامى. ويرجع الفضل كل الفضل في أن المتحف أصبح أكبر وأشمل مجموعة أثرية من الكنوز المصرية في العالم إلى ماريت؛ وحرصت الحكومة على أنه إذا ما أقيم المتحف في مكان آخر، فإن رفات ماريت سوف تنتقل معه. وهى اليوم ترقد في مقبرة من الجرانيت والرخام الأبيض، وبجانب هذه المقبرة، يوجد تمثال من البرونز مكتوب عليه: "ماريت باشا، عرفانا من مصر".

## الفصل السابع

### علم الآثار لا يعرف العواطف

أثناء السنوات التي تمتعت فيها فرنسا بالسيادة في ميدان التنقيب على طول وادى النيل، كان أوجيست مارييت، مدير مصلحة الآثار يتأمل مجموعة آثاره المتنامية، ويقود الشخصيات الملكية ويرشدها لمشاهدة مواقع التنقيب. فى ذلك الوقت، كان مؤسس علم المصريات البريطانى يقضى يوم عمله فى حجرة صغيرة فى الزاوية الجنوبية الغربية فى قاعة نينوى فى المتحف البريطانى. لم يكن مزاج صامويل بيرش مزاجا عصبيا، لكن كان يستحوز عليه الاقتناع بأنه يعمل فى وضع يتسم بالمخاطرة الدائمة، شأنه فى ذلك شأن الرواد من الأثريين الذين عملوا فى مواجهة المناخ القاسى فى مصر وتربثها المستعصية. وبالرغم من هذا الشعور بعدم اليقين، فقد اكتشف مجموعة كبيرة من الآثار، مسجلا كل أثر منها بيده، فنشر ٣٠٠ عمل، وحاضر على نطاق واسع عن المصريات، وتراسل بنشاط مع العلماء فى جميع أنحاء العالم.

فى ميدان دراسته، لم يتلق صامويل بيرش أى تعليم رسمى أكثر من خمس سنوات قضاها فى مدرسة تيلر التجارية، التى غادرها عام ١٨٣١ وهو فى الثامنة عشرة من عمره. وبعد هذا أمرا مثيرا للدهشة إذا ما علمنا أن أباه كان عالما فى الرياضيات والدراسات الكلاسيكية، وأنه انتخب زميلا فى كلية سينت جونز، بأوكسفورد، قبل أن يلتحق بالوظائف الكنسية. ومن الممكن أن يكون صامويل قد تحول ذهنه عن متابعة دراسته بسبب اهتمامه باللغة الصينية، التى اهتم بها فى

وقت مبكر من حياته. وقد يكون أمله فى تولى منصب فى الصين هو الذى جعله ينحرف عن الطريق الذى يوصله إلى الجامعة.

استخدم صامويل مهاراته أول ما استخدمها فى وظيفته فى المتحف البريطانى، واضعاً فهرساً لما يملكه المتحف من عملات صينية. إذ تولى ما كان يسمى حينئذ وظيفة مساعد، فى إدارة الآثار التى كانت تحت رئاسة أو أمانة إدوارد هوكينز، وكانت تحتوى تقريباً على تشكيلة المجموعات التى يتألف منها المتحف البريطانى بأكملها الآن، فهى مخزن شاسع من المواد المنوعة، وكانت المجموعات الإغريقية والرومانية تعتبر أقيم ما فيها. أما الآثار التى جاءت من مصر فلم تكن تعد من الفنون الجميلة، كما أنها ليست من البدائية بحيث تعد مجرد دراسة أثنية أو عرقية. وكانت المشكلة تكمن فى أنه لا يوجد من يملك المهارة للتعرف عليها وتصنيفها على نحو جيد؛ فقرر هوكينز أن يوجه طاقات بيرش الشاب فى هذا الاتجاه بالتحديد، ووجد فيه تلميذاً نجيباً.

وفى عام ١٨٣٨، كان بيرش لديه علم بالهيروغليفية يكفى لكتابة مقال عن قطعة من تابوت قدمها فيز وبيرنج للمتحف، بل قدم تصوراً لإعداد قاموس للهيروغليفية. وظل لبعض الوقت يشك فى أن المنهج الذى اتبعه شامبلين هو المنهج الصحيح، غير أنه أصبح، بالتدريج، مقتنعاً بصحته وذلك بمواجهة خطأ المعارضين. ومن أقيم الأعمال التى انشغل بها بيرش فى ذلك الوقت هو نشر البرديات. لقد كان أوصياء المتحف يصرون فى الأصل على أن البرديات تخص قسم المخطوطات لأنها وثائق مكتوبة باليد، مع أنه لا يوجد من يفهمها فى ذلك القسم. ولما كان بيرش الذى يعمل فى قسم الآثار يتوق إلى أن يضع يديه عليها، فقد انتقلت البرديات، الهيرغليفية والهيراطيقية والديموطيقية، إلى قسم الآثار فى مايو ١٨٤٠، وظهر الجزء الأول من "المختارات من البرديات بالأحرف الهيراطيقية" عام ١٨٤١ مطبوعاً، حيث قام بيرش بجمع هذه المختارات وتحريرها. وهذا الكتاب يمثل بداية نضاله على مدى حياته كى يجعل النصوص الموجودة لدى المتحف متاحة لعالم الدارسين.

وصارت شهرة بيرش فى ذلك العام شهرة دولية لا ينازعه فيها أحد. وعلى الرغم من أن قدميه لم تطأ أرض مصر، إلا أن محررى الصحف والمجلات



العلمية كانوا يستشيرونه فى الأبحاث التى تتعلق بعلم الآثار المصرية، وكان مطلوباً دائماً للمساعدة فى الترجمة وإعداد المحاضرات وتصحيح المخطوطات. وفوق هذا كله، كان تجار الآثار ينجسون على بيرش حياته دائماً سعياً إلى شهادة منه على قيمة بضائعهم. فى السابق، كانت أفضل طريقة لضمان أصالة وصحة قطعة أثرية مصرية هى التنقيب عنها واستخراجها من الأرض، فكانت المتاحف والملوك والحكومات والأفراد على حد سواء يقومون بتمويل الحملات بهدف وحيد، هو اقتناء الكنوز التى لا يرقى الشك فى أصلها لأنها استخرجت من الأرض.

وفى منتصف القرن التاسع، انتشرت أعمال التنقيب، فوجدت الكثير من الكنوز طريقها إلى السوق، حتى إن أيسر السبل للحصول عليها كانت عن طريق شرائها من التجار، ويتطلب هذا خبرة من نوع يختلف عن تلك التى كانت تتوافر لدى المنقب الميدانى، إذ إن الحاجة لم تكن للاكتشاف وإنما للتمييز، وأصبح المزيفون المقلدون فى ذلك الوقت، يتمتعون بمهارة فائقة وحذق يبلغ حداً كبيراً من الدقة. فكانت "الجعارين" على سبيل المثال تنتج بالمئات فى حجرات خلفية فى محال الأقصر، وكان يتم إخفاؤها بحذق بطلاء رقيق مصنوع من الخرز المهشم الذى يوجد بين أربطة المومياءات، وكانوا يضيفون إليها مسحة الزمن والقدم عن طريق إطعامها للديوك الرومية، إذ يبدو أن جهازها الهضمى يؤثر فى لون هذه الجعارين أو الآثار فتبدو وكأنها قد دفنت تحت الأرض لمدة ألفى عام.

ويبدو أن بيرش كانت لديه غريزة فى التعرف على الأشياء المزيفة (الفالصو) ربما جاءت من عشرته الطويلة مع الأشياء الأصلية، قبل أن تغرق الأشياء المزيفة الأسواق. فكان من الصعب معارضة آرائه، لذا فإن التجار والعملاء على نطاق واسع كانوا يتقبلونها باعتبارها أموراً مسلماً بها، وأصبحت الحجرة الصغيرة خلف قاعة نينوى مصدر التحقق الذى لا غنى عنه فى سوق آخذة فى الازدهار، وكثيراً ما كان بيرش محاصراً من الناس الذين يزدحمون لمعرفة رأيه.

كذلك كانت آراؤه تُلتمس فى أمر كان النقاش العام يشد حوله. إذ إن الدعاية التى أعطيت للاكتشافات التى حدثت فى مصر كان يواكبها اهتمام شديد من جانب أولئك الذين يعنون بإلقاء الضوء أو إظهار صدق الكتاب المقدس الذى لا يرقى إليه الشك، فأثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر، تسلس النقد الذى كتبه الدارسون

الألمان إلى إنجلترا. وكان هؤلاء يتساءلون عن (أو يشككون في) الدقة التاريخية للعهد القديم. ولم يكن لذلك أثر كبير في البداية. وكان هذا يرجع، جزئياً، إلى أن جمهور المترددين على الكنيسة لم ينشغلوا أو يهتموا بالحدقة التعليمية لدى المفكرين الأجانب، كما كان يرجع في جزء منه أيضاً، إلى الاقتناع الثابت المستقر بأن الكتاب المقدس أسمى من النقد.

وفي ١٨٣٠، وعظ د. توماس أرنولد قائلاً بأن "العقيدة المسيحية التي هي مرشد وملذ حياتنا، لا ينبغي أن تُرهبها جميع مسائل العلم والتاريخ والنقد". وأضاف أنه لا يمكن فهم الكتاب المقدس فهماً صحيحاً إذا ما نظر إليه في جميع أجزائه بوصفه متساوياً من حيث قوة الحجة.... والنظر إليه باعتباره كقرآن المسلمين.

أحدث هذا الكثير من القلق لدى إيرل بريджوتر، مما حدا به إلى أن يوصي بمبلغ كبير من المال في عام ١٨٣٩ للجمعية الملكية. وكان هذا المبلغ مخصصاً لكتابة سلسلة من المقالات أو الرسائل، يكتبها خبراء في اللاهوت والعلوم، تبين أن الديانة المسيحية تتماشى مع المكتشفات الجديدة التي حققها العلم. ومن بين الدارسين الذين كتبوا إحدى رسائل بريджوتر، كان هناك عالم الجيولوجيا ويليام بكلاند، الذي أعلن أن الكتاب المقدس لم يشتمل على "معلومات تاريخية تتعلق بجميع أعمال الخالق، فعمر الأرض، كما أقره علم الجيولوجيا، وكذلك التطورات التي حدثت فوقها، تبين أن قصة الخليقة كما جاءت في سفر التكوين لا يمكن التوفيق بينها وبين مكتشفات العلم".

وانضمت دور النشر التي تنشر كتباً دينية إلى ذلك الجدل المستعر، وذلك بإنتاج رسائل أو مقالات كبيرة تطالب بإيجاد أدلة أثرية تدعم سلطة العهد القديم المتداعية.

في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، نشر ويليام أوزبيرن وهو عضو بمعهد الآثار، ثلاثة كتب. في هذه الكتب ضرب مثلاً بالصور الموجودة على جدران المقابر في مصر القديمة، معتبراً أنها دليل على أن بني إسرائيل قد عاشوا بالفعل هناك. كذلك كان هناك كانون جورج رولينسون الذي أصبح، فيما بعد، أستاذاً للتاريخ القديم بجامعة أوكسفورد. كتب هذا الرجل كتاباً عن تاريخ مصر

القديمة من ثلاثة مجلدات. فى هذا الكتاب أشار إلى أن علم التاريخ الحديث جعل من المستحيل معاملة حملات قيصر على نفس المستوى الذى نعامل به أعمال رومولوس. وأضاف أن هذا لا ينطبق على سفر التكوين، إذ يتضح من الترتيب الزمنى أنه لم تمر خمسة أجيال بين آدم وموسى، لذا "فإن موسى ربما، عرف عن طريق التراث الشفهى تاريخ إبراهيم، بل إنه ربما قد علم عن الطوفان معرفة من الدرجة الثالثة، أى من مصدر فى الدرجة الثالثة من حيث الترتيب؛ كما عرف عن قصة التغيرير (يقصد إغراء آدم وحواء) والسقوط (يقصد الخروج) من الجنة معرفة من الدرجة الخامسة"، وختم كلامه قائلا: "نحن لا نملك فى الأسفار الخمسة الأولى (التوراة) أصدق سجل وصل إلينا عن الأزمنة القديمة فحسب، وإنما نملك أيضا تاريخا صادقا صدقا مطلقا فى جميع جوانبه".

فى نفس العام، ظهر فى إنجلترا الجزء الأخير من عمل يتكون من خمسة مجلدات، وكان هذا العمل تحديا لما جاء فى كتاب رولينسون من أحكام تتسم بالثقة، وهذا العمل هو: "مكان مصر فى تاريخ العالم"، ألفه بارون كريستيان بانسين. لقد كان لهذا الرجل تأثير كبير على ملك بروسيا فريدريك حتى إنه أرسل بليسيون إلى مصر. فى هذا الكتاب شرع فى إعادة وضع "الترتيب الزمنى الصحيح لمصر"، وهدف إلى أن "يعيد لتاريخ العالم القديم الطاقة الحيوية التى حرم منها لزمان طويل". كانت هذه المجلدات ثقيلة الوزن ومطوية وكان من الجائز أن تغرق وألا يكون لها أى ذكر، لو لم تكن تتحدى صدق ما جاء فى الكتاب المقدس من معلومات تاريخية وما به من ترتيب زمنى.

ولقد لقيت أفكار بانسين قدرا هائلا من السخرية من جانب رجال الكنيسة، مثلما لقيت من إعجاب غير المؤمنين. ونالت تلك الأفكار مصداقية إضافية فى إنجلترا بسبب الدعم الذى قدمه بيرش، إذ كان سخيا بنصحه للمؤلف، بل إنه كان قد كتب له "تحو ومعجم اللغة المصرية" الذى ظهر فى المجلد الخامس. وعلى الفور، اهتزت أركان الكنيسة المستقرة، من الخارج عن طريق الهجمات التى شنت على مذاهبها باسم الداروينية، ومن الداخل باسم التقدم.

وفى ١٨٦٠، ظهرت نشرة أو مطبوعة من المقالات والمراجعات، وهى عبارة عن مجموعة من سبع مقالات تنادى بالحاجة إلى البحث الحر حتى فى

الثوابت الدينية المسلم بها، مما جعل المسيحيين ينقسمون إلى معسكرين متعارضين تعارضا عنيفا. لقد عبرت تلك المقالات عن الاعتقاد بأن كنيسة إنجلترا يجب أن تتصالح مع المناهج النقدية التي استقرت منذ وقت طويل في ألمانيا، إذ كانت هذه المناهج تفحص نص الكتاب المقدس مستخدمة أحدث طرق التحليل الأدبي على ضوء الاكتشافات الأثرية.

لا غرو إذن، مع إثارة مثل هذه المسائل، أن نتجه جماعة المؤمنين وجهة أخرى نشدانا للطمأنينة. وكان الدليل التاريخي القاطع الملموس يقف أصم في الحجرات المضربة في المتحف البريطاني، وأخذ طوفان الزوار يطالب بأن يهدئ بيرش شكوكهم، وذلك بأن يعرض عليهم العشرين فضة التي بيع بها يوسف وصار عبدا، أو المكتبة المليئة بالكتب، التي أشيع، أنه تم الحفاظ عليها من سفينة نوح. ومع تزايد التهديد الذي شكلته تواريخ الأشياء التي اكتشفت في مصر، للتواريخ الموجودة في النسخة المعتمدة للكتاب المقدس، أصبح الترتيب الزمني في الكتاب المقدس هوسا يشغل الناس، وأصبح غرباء الأطوار يزدحمون حول بيرش يطلبون منه شرحا لكل حادثة سجلت في الكتاب المقدس.

في ١٨٦٠، رقى بيرش إلى منصب أمين الآثار الشرقية، كما كان هذا العام هو العام الذي ظهرت فيه المقالات والمراجعات ومناقشة أوكسفورد حول نظريات داروين، وبداية عقد من الزمان استعر فيه الصراع بين العلم والدين في إنجلترا بشراسة غير مسبوقة، فلا غرو إذن في أن يطلب الجانبان من بيرش أن يدعم حججهما. ولأن الكتاب المقدس أشار إشارات محددة إلى مصر والتاريخ المصري، كان أولئك الذين يدافعون عن القضية القائلة بأن الكتاب المقدس منزّه عن الخطأ يتطلعون إلى أعمال التنقيب عن الآثار كي تؤكد ما كتب في الكتاب المقدس، في حين أن معارضيهم كانوا يسعون إلى ما يدحض ذلك. كما كان هناك ميل لدى علماء المصريين لتسجيل هذه الكلمة أول ما سجلت عام ١٨٥٩ للدعوة إلى ثقافة مصر القديمة، باعتبارها سمّا سامقا في الرقى الإنساني، سقطت البشرية من عليائه.

وكان هناك رأى عن المصريين القدماء أكثر استساغة بالنسبة لدارسي الكتاب المقدس. قدم هذا الرأى زميل بيرش الأصغر ريجينالد ستوارد بول، في إسهامه

فى معجم سميث الشهير عن الكتاب المقدس، والذى نشر عام ١٨٦٣ أن قدماء المصريين يتسمون بأنهم شديدو التدين، ويميلون إلى التأمل، غير أنهم يميلون إلى الخرافات الوضيعة، والنزعة الوطنية، واحترام المرأة، ويتصفون بكرم الضيافة، والاقتصاد فى العيش، لكنهم أحيانا ما يميلون إلى الترف. وهم حسيون، كذابون ولصوص، غادرون وهيابون. كما أنهم شديدو التحامل أى يؤمنون بالأفكار المسبقة، وذلك من خلال زهوهم بجنسهم وعرقهم، فى مواجهة الأعراب، وإن كانوا يعطفون عليهم. كانت ديانتهم نوعا من العبادة غير السوية (الفيتيشية) التى تقدر الأشياء كرموز جنسية، وهى أحط أنواع عبادة الطبيعة.

ويستطرد بول فيقول، لم يكن فى نظامهم الاجتماعى أى شىء يتعلم منه بنو إسرائيل، "والفكرة القائلة بأن القانون هو ابتكار مصرى تعد إحدى أسوأ الأمثلة على النقد الحديث الطائش غير المسئول".

يبدو أن بيرش كان مقتصدا متحفظا فى إسهاماته فى هذا النزاع . فبالرغم من كونه ابنا لأحد القساوسة، إلا أنه "ظل حصيفا بالنسبة لما يعتقد به. إذ كان هناك الكثير مما يخسره بمعارضة الكنيسة معارضة صريحة، على الرغم من أن آراء أعضائها الأشد رجعية لا بد أنها قد أصابته بالكآبة. وفى نوفمبر من عام ١٨٧٠، اتخذ خطوة لا بد أنها أدخلت الطمأنينة فى قلوب أولئك الذين كان يداخلهم أى شك فى ولائه، وذلك بأن دعا إلى اجتماع مع بونومى، الذى كان فى ذلك الوقت، أمين متحف سلوين، ويقوم بتأسيس علم آثار الكتاب المقدس. وكانت أهداف هذا الاجتماع البحث فى الآثار والترتيب الزمنى أو الكرونولوجيا والجغرافيا والتاريخ القديم والحديث لآشور وبلاد العرب ومصر وفلسطين وغير ذلك من الأراضى التى ذكرت فى الكتاب المقدس. وكذلك تطوير دراسة آثار هذه البلاد، والحفاظ على سجل مستمر للاكتشافات، الآن وفى المستقبل. وأصبح بيرش أول رئيس للجمعية. وضم مجلس الجمعية ستة ممن يرتدون المسوح الكنسية. وقدر له فيما بعد، أن يضم الرئيس جلدستون، ولورد هاليسبورى، ودين ستانلى. وحين كانوا يلحون على بيرش للإفصاح عن معتقداته الدينية، كان يكتفى بالقول: "أؤمن بكل ما فى العلم، وكل ما فى الدين".

وفى الخطاب الذى ألقاه فى ٢١ مارس ١٨٧١، كرئيس للجمعية، استعرض التقدم الذى أحرز فى ميدان الآثار، مشيراً إلى أن مجاله هو نشر معارف العلماء فى ميدان الآثار السامية: "ليس بالنسبة للموضوعات الخاصة بالكتاب المقدس فحسب، وإنما أيضاً بالنسبة للتاريخ الأعم لتلك الأمم العظيمة فى آسيا الوسطى التى لعبت دوراً فى غاية الأهمية فى بداية تاريخ الحضارة، والتى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتراث أوروبا الغربية وتاريخها. لقد جاءت كل المعلومات السابقة عن هذه الأمم من الكتب المقدسة أو نقلت عن الكتاب الإغريق الأقدمين، لكن اكتشافات علم الآثار، وعلى الأخص فقه اللغة، مكنتنا من التوغل فى أبعد الآماد وفحص الآثار المترامنة لهذه الأمم العظيمة".

ويبدو أن بيرش يميل إلى جانب الكتب المقدسة، وإن كان ذلك ببعض الحذر، وهو أمر إلى حد ما مثير للدهشة بالنسبة لأمين الآثار الشرقية. بعد فحص الآثار، كما يقول، من الممكن أن "تقارن المعلومات التى تقدمها الآثار بما نعرفه من صفحات المجلد المقدس والتواريخ الإغريقية والرومانية". ولا يوجد ثمة شىء هنا يقلق الأساقفة المحافظين، حتى حين استمر كلامه زاعماً أن تقدم التنقيب فى مصر كان من العظم حتى إنه "سيكون من المستحيل من الآن فصاعداً أن نصور تاريخ العهد القديم تصويراً كافياً دون الإشارة إلى الآثار المعاصرة له فى مصر"، ربما شعروا بقدر قليل من القلق لاستخدامه لما يشير إلى أهمية الآثار مع أهمية الكتاب المقدس. وربما استشعر النقاد التفسيريون (أى الذين يشرحون النص) والذين ترايدت قوتهم فى البلاد، ربما يكونون قد استشعروا بعض الراحة فى تلخيص بيرش لنوايا أو مقاصد جمعية علم الآثار فى الكتاب المقدس: "إن مجالها هو علم الآثار، وليس علم اللاهوت، غير أنها ستكون عوناً مهماً لعلم اللاهوت". فالجمعية لم تسع إلى إثبات صحة أو خطأ الكتاب المقدس؛ إذ إن إجراءاتها وموادها المنشورة كانت تتناول مباحث جغرافية ولغوية وأثرية، وكانت موعلة فى التفاصيل الدقيقة إلى حد جعلها لا تقدم أى شىء يصلح للدفاع أو الهجوم لأى من الجانبين. وبينما كانت الأبحاث المهمة عن مصر القديمة تتم فى إنجلترا، كان الرحالة والمقيمون إقامة مؤقتة من غربيى الأطوار يحافظون على الوجود الإنجليزى فى وادى النيل، ولم يكن ذلك يتم عن طريق مخيمات يقيم فيها الأثريون.

وفى ١٨٦١، سافرت ليدى داف جوردون إلى مصر. قامت برحلة في النيل، حتى طيبة، وقالت إنها صارت "بحيرة إنجليزية إذ توجد الآن تسعة قوارب، والهدف الكبير هو السفر في النيل بأسرع ما يمكن". ودأبت ليدى لوسى داف جوردون على قضاء الشتاء في كل عام في الأقصر، حيث كانت تستأجر الميزون دى فرانس (المنزل أو الدار الفرنسى). كان هنرى سولت قد بنى ذلك المكان عام ١٨١٥، وكان بيلزوني يستخدمه أثناء أعمال التنقيب التى كان يقوم بها في طيبة. بنى المنزل جزئيا على قمة أحد المعابد ثم بيع للفرنسيين عام ١٨٢٠، كى يستخدمه فيما بعد شامبليون وروسيليني في حملتهما المشتركة. كان ذلك المبنى يؤمه كبار الشخصيات، غير أنه لم يكن مبنى فاخرا بأى حال؛ إذ ذكرت لوسى فى خطاب كتبته عام ١٨٦٧ أن نصف المنزل قد انهار على المعبد الموجود تحته. على أية حال، فقد صار هذا المنزل مكانا للسياح البريطانيين، خاصة بعد أن نشرت خطابات لوسى التى كانت ترسلها إلى الوطن عام ١٨٦٥. وفى هذا المنزل زارها ضيوف بارزون، فحضر إدوارد لين الذى كان يضع رسما تخطيطيا للمنزل الفرنسى من أجل زوج لوسى، وفى ١٨٦٩ زارها هناك أمير وأميرة ويلز.

كانت مواهب ليدى لوسى تكمن في ملاحظة ووصف المشاهد المعاصرة، أكثر من الاهتمام بدراسة مصر القديمة. لكنها لعبت دورها الصغير في توزيع الآثار، إذ كانت تشتريها كهدايا وترسل بها إلى عائلتها. ومع مقدم عام ١٨٧٠، كانت هناك خدمة منتظمة تقوم بها سفينة بخارية بين إيطاليا والإسكندرية، ولم تكن الرحلة تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ونصف، في حين كانت الغليونات الرومانية تستغرق ستة أيام.

في ذلك العام، سجل ٣٠٠ سائح أمريكى أسماءهم في القنصلية بالقاهرة، لا شك في أنهم انجذبوا إلى هناك حين قرءوا كتاب مارك توين "الأبرياء في الخارج" الذى كان قد ظهر توا، فكان فندق شبرد يزدهر في القاهرة وينظم رحلات منتظمة إلى الأهرام. كانت هناك سائحة عابرة في السبعينيات من القرن التاسع عشر، كان مقبضا لها أن تكون الأم المؤسسة لعلم المصريات البريطانى، إنها إميليّا آن بلاندفورد إدواردس. هى ابنة ضابط فى الجيش البريطانى كان قد خدم تحت قيادة ويلينجتون في حرب شبه الجزيرة. منذ طفولتها كانت تتمتع بموهبة في الكتابة؛ إذ

نشرت أول قصائدها حين كانت فى الثامنة من عمرها، وكانت تسهم بالمقالات والقصص القصيرة فى الستردى ريفيو، وتشيمبرز جيرنال، وهاوسهولد ويردس، والمورنينج بوست، والأكاديمى. فكانت غزيرة الإنتاج حتى إنها كانت قادرة على السفر بارتياح كى تجد مادة لقلمها، إذ إن عائد ما كتبتة — من كتب ذائعة فى التاريخ والفن وحفنة من الروايات التى كتبتها فى وقت مبكر — مكنها فى ذلك.

وفى عام ١٨٧٣، شرعت إميليا فى رحلة فى أوربا، لكن المطر كان غزيراً، فقررت أن تتجه جنوباً بحثاً عن الشمس، ووصلت إلى مصر بالصدفة، وسجلت فى كتابها "ألف ميل فى أعالي النيل": "الحقيقة البسيطة هى أننا وجدنا أنفسنا هناك بالصدفة، لم يكن لدينا، حتى الآن، أى عذر من صحة أو عمل أو أى هدف جاد من أى نوع؛ ولذا بمصر مثلما ينتحى المرء فى ظل بيرلينتون، أو بساج دى بانوراما (أى ممر البانوراما) كى نبتعد عن المطر". وصار الملجأ هوسا وإدمانا، فى البداية انشغلت إميليا بالجرى وراء الآثار. فى سقارة، وجدت الأرض مبدورة بنتف الفخار المكسورة، والرخام والمرمر والحجر الجبرى، وأخذت تنبش الرمال بحثاً عن الكنوز، ولم تجد سوى رأس مجدوع الأنف بين ركام من العظام التى حال لونها، ثم بصدمة، لن تنساها إميليا بسرعة بأى حال "اكتشفنا أن هذه العظام هى عظام بشر، وأن هذه النتف من الكتان هى نتف من قماش الأكفان، وأن تلك الكتل الغربية بنية اللون هى ما كان، فى وقت ما، لحم بشر".

لقد اندهشت من تلك السرعة التى تغلبت بها على مشاعر الاشمئزاز، وسرعان ما وجدت نفسها تنبش بين الحطام دون أن تحس بأى وخز من ضمير، وكأنها خاطف جنث محترف. ذلك أن الرغبة العارمة فى اصطيد الآثار لم يكن يعدلها شىء فى عدواها سوى القسوة التى صاحبت تلك الرغبة، فهى تسجل أن الخلق السائد بين الرحالة فى مصر فى ذلك الوقت هو تصيد الآثار دون مراعاة لأية مبادئ، وإذا ما سئل معظم الرحالة فى مصر لاعترفوا اعترافات متشابهة، فهم فى البداية يشعرون بالصدمة، ويستكرون فى دعر نظام التنقيب فى الأضرحة بأكمله، القانونى منه والوحشى. عموماً، هم يكتسبون تذوقاً فى جمع التماثيل الصغيرة التى تمثل الجنازات، ثم يشغفون بشراء غنائم الموتى، وينتهى بهم الأمر



بنسيان جميع ما كانوا يؤمنون به من مبادئ فى السابق، ولا يطلبون شيئا أعز من اكتشاف ومصادرة المقابر بأنفسهم لأنفسهم.

فى طيبة، لم تكن إمبليا فى حاجة إلى النيش، إذ كان التجار يحضرون الكنوز إلى قاربها، وكذلك حفارو القبور الذين يرتدون أثوابا طويلة سوداء. كانوا يخرجون من جيوب خفية أكياسا مليئة بالجعارين أو كميات من التماثيل الصغيرة التى تدفن مع الموتى. وكانت معظم النذور من الأعمال المزيفة، لكن حفارى القبور والتجار، والمزييفين كانوا يعملون معا. إن التجار والحفارين فقط هم الذين كانوا يعملون بشكل غير قانونى، ومادام أن الحظر القانونى على التنقيب والتجارة كان ينطبق فقط على الآثار الحقيقية، فلم يكن ثمة ما يخيف المزييفين سوى غضب السائحين، إذا ما اكتشفوا ما يفعلونه هؤلاء المزييفون.

وفى الوقت الذى زارت فيه إمبليا مصر، كان الاكتشاف أو معرفة الأشياء المزيفة أمرا مقصورا على الخبراء. كانت الحياة فى طيبة مليئة بالتناقضات، إذ كان السائحون يقضون الصباح فى دراسة المعابد دراسة جادة، أما المساء فكان ينفق فى تصيد الكنوز الممنوعة "يمكننى أن أقول بحق إن الحياة هنا كانت لذة متصلة من ملاحقة الآثار. صحيح أن اللعبة كانت محظورة؛ إلا أننا استمتعنا بها على الرغم من ذلك لأنها كانت غير قانونية، وربما زاد هذا من استمتاعنا بها".

كانت أعمال التنقيب التى يقوم بها مارييت تتم فى الوقت الذى زارت فيه إمبليا مصر. وصدر أمر بأن جميع صناديق المومياوات التى تكشف يجب أن ترسل، دون أن تفتح، إلى المتحف فى بولاق. وذات صباح، سمعت إمبليا بأن مقبرة جديدة على وشك أن تفتح عبر النهر، فقفزت داخل أحد القوارب كى تشهد الاكتشاف. وكانت المقبرة بالقرب من الرمسوم. وحين وصلت كان الحكماء يراقب الحفارين فى الحفرة وهم يزيلون الرمال عن صندوق مومياء مدفونة جزئيا. ورأت إمبليا التابوت الحجرى وهو ينكشف ببطء قديما. امتدت أياد إلى الصندوق وكتبت بالهيروغليفية. وسقط الغطاء.

بالداخل، كان هناك صندوق خشبى صغير يقع عند قدم المومياء، فسلم هذا إلى الحكماء الذى نحاها جانبا، دون أن يفتحه. ورفع صندوق المومياء إلى السطح "بعث ذلك فى المرء شعورا بالصدمة، إذ يرى التابوت لأول مرة وقد وضع كما

تركه المشيعون الذين شيعوا جنازة صاحب الموميا؛ ثم ترفعه أياد قاسية، فيفتش ويكشف وربما يتم كسره باعتباره شيئاً غير جدير بإشغال ركن فى مجموعة بولاق. وما إن تستقر تلك الأشياء وتصنف فى أحد المتاحف حتى يأتى المرء للنظر إليها باعتبارها "عينات"، وينسى أنها كانت فى وقت من الأوقات بشرية تثير الشفقة وهى ترقد فى أعماق قبرها ذات صبح مشمس".

وبينما لم تكن إميليا تطمح إلى الحصول على إحدى المومياوات، كانت هناك رغبة طاعية فى تلك المومياوات بين الرحالة فى وادى النيل فى ذلك الوقت. ففى ذلك الشتاء، هُرِّبَتْ خمس عشرة موميا من الجمارك فى الإسكندرية. وعلى الرغم من أن إميليا قد اكتوت بحمى الآثار بعد وقت قصير من وصولها، إلا أنها أنهت جولتها فى مصر وقد أحست بالتزام بالحفاظ على تلك الآثار، وإعجاب بمتحف بولاق ومؤسسيه. إذ أعجبت بمارييت، وأسفت على إهمال الباشوات الذين سمحوا بأن تنقل كنوز مصر إلى متاحف أوربا وأمريكا.

كانت الثروة المتبقية فى بولاق، فى معظمها، صوراً شخصية لأفراد، ولوحات جنائزية، وتمائم وآثاراً شخصية، لذا فإن متحف بولاق أقل ثراء من حيث التماثيل الضخمة التى تملأ القاعات الكبرى فى المتحف البريطانى أو متحف تورينو، أو اللوفر. ذلك أن تلك التماثيل الضخمة تم الاستيلاء على معظمها منذ وقت طويل وتم نقلها إلى أوربا، لأنها كانت مقامة فوق سطح الأرض وأقل عدداً إذا ما قورنت بغيرها. أما التماثيل الموجودة فى بولاق فهى نتاج المقابر.

لقد كتب مارييت فى كتابه الإرشادى الذى نشر للزوّار الذين جاءوا من أجل افتتاح قناة السويس، أن مقبرة تى فى سقارة أصابها قدر من التلف الذى تسبب فيه السائحون فى السنوات العشر منذ اكتشافها، يفوق ما لحق بها فى الستة آلاف عام السابقة. وطلب من قرائه أن يحجموا عن ذلك السلوك الطفولى المتمثل فى كتابة أسمائهم على الآثار. وتعترف إميليا بأنها جعلتهم يرسمون اسمها فى مدخل أبو سمبل؛ لكنها شعرت بالخل من هذه الهفوة، وندمت على الضرر الذى تسببت فيه. هذا هو حال الآثار المصرية كبيرها وصغيرها، يحفر فيها السائح الأسماء والتواريخ بل وأحياناً الرسوم الكاريكاتيرية. فطالب المصريات يأخذ ورقة مبتلة "يعتصرها" فيمتص أى أثر للون الأصلى، و"جامع الآثار" يشتري وينقل كل شىء

ذى قيمة تقع عليه يدها، والعربى يسرق من أجل ذلك الجامع. وأثناء ذلك، تجرى عملية التدمير على قدم وساق. ولا يوجد من يمنع ذلك؛ ولا يوجد من يردع ذلك. ففى كل يوم يكون هناك المزيد من تشويه النقوش ومهاجمة القبور بقصد سرقتها. وتتلّف المزيد من اللوحات وأعمال النحت.

لقد كانت مصر مهياة لعمل إحدى البعثات العلمية، وكانت إميليّا إدواردس لديها الجذوة والعناد والتوجه القوى للقيام بهذا الدور. وعند عودتها إلى لندن عام ١٨٧٥، بدأت فى التراسل مع كبار الشخصيات فى المصرىات، كى تزيد من معلوماتها فى هذا الموضوع، وكذلك كى تزيد من نفوذها على مستقبل ذلك العلم.

وتشمل الملفات الموجودة فى المتحف البريطانى التى ترجع إلى ذلك التاريخ، رسائل منتظمة من إميليّا إلى صامويل بيرش. أما ردود بيرش عليها، فليس هناك ما يدل على أنها حفظت، ولكن لا بد أنها كانت فورية وبها ما يكفى من العون للتشجيع على مراسلات ممتدة. ولم تكن جميع تساؤلات إميليّا ذات طابع أكاديمى. إذ إنها أيضا كانت تلح على بيرش للحصول على البردى كى تضيفه إلى المجموعة الصغيرة من المصنوعات والمنحوتات التى قامت بتهريبها من مصر. وسرعان ما اتضح أن إميليّا كانت تريد إنقاذ الآثار المصرية من يدى مصطفى على (غادرت إميليّا مصر سنة ١٨٧٥، أى فى عهد محمد سعيد باشا، الذى خلفه إسماعيل بن إبراهيم ابن محمد على)، وريث العرش، وكذلك من المتحف البريطانى. ومما لا يدعو للدهشة أنها لم تجد حماسا من صامويل بيرش، ونقل عنه قوله إنه لا يوجد لديه وقت لما أسماه بـ "علم الآثار العاطفى" بمعنى أى شىء لا يكون هدفه الأول الحصول على الأشياء من أجل المتحف البريطانى. وحين كتبت إليه إميليّا طالبة دعمه فى إنشاء صندوق استكشاف مصر، الذى قصد منه الحفاظ على آثار مصر فى وطنها مصر، رفض تقديم ذلك العون: "لقد أخرت ردى بسبب الصعوبة الكبيرة التى أشعر بها دائما فيما يتعلق بأن أوصى الجمهور بالإسهام فى القيام بأعمال تنقيب ستؤول نتيجتها إلى أن تصبح تلك الآثار ملكا للحكومة المصرية وتشرى متحف بولاق، لذا فإنى لا أستطيع توقيع الورقة التى أرسلت بها إلى".

غير أن هذا لم يفت فى عضد إميليّا، وواصلت طريقها، وجعلت من ريجينالد ستيوارت بول حليفا وثيقا لها، ويقول البعض إنه أبو المشروع. وكان هذا الرجل

قد أسهم في إعداد معجم الكتاب المقدس لسميث، وبول هو ابن أخى إدوارد لين، مؤلف كتاب "سلوك وعادات المصريين المحدثين". وكان لين مسئولاً جزئياً عن تعليم بول، وقد أثار فيه منذ وقت مبكر اهتماماً بالآثار المصرية والعملات الشرقية. وبعد أن أخرج بول كتاباً عن الترتيب الزمني لمصر القديمة، عين في إدارة الآثار في المتحف البريطاني عام ١٨٥٢ حين كان في العشرين من عمره. وحين انقسمت الإدارة عام ١٨٦٦ وأصبح بيرش مسئولاً عن الآثار الشرقية، انتقل بول إلى الإدارة المنشأة حديثاً وهي إدارة العملات والقلاند، مع أنه واصل إلقاء المحاضرات والكتابة عن جوانب أكثر اتساعاً في التاريخ المصري، بما في ذلك علاقته، أى التاريخ المصري، بالأبحاث الخاصة بالكتاب المقدس.

كان بول يدرك أن ما تعلم الآثار المصرية من جاذبية في ذلك الوقت يكاد يكون كله راجعاً إلى قدرته على إلقاء الضوء على مناطق الجدل في نقد الكتاب المقدس. ذلك أن التاريخ المصري لم يكن بعد قد استحوذ على خيال الجمهور، ولم يكن قد استقر في الدوائر الأكاديمية كميدان للدراسة في حد ذاته. وكتب بول وإميليا للكثيرين من ذوى النفوذ من الناس العاديين أو رجال الدين. ومن أهم من استطاعا كسب دعمهم سير أرازموس ويلسون، الجراح المرموق الثرى. وكان سير أرازموس قد أنفق حديثاً ما يربو على عشرة آلاف جنيه في تمويل نقل مسلة من الإسكندرية إلى لندن، كي يتم نصبها على الجسر. وتصادف أن قرأ كتاب "ألف ميل في النيل"، فأنجذب إلى هذا الموضوع، وعلى الفور عبر عن حماسه لاقتراح إميليا إذا كان هذا سوف يساعد إنجلترا على استعادة موقعها الذى خسرت أمام منافسيها الأوربيين. وكتب لإميليا يقول: إن فرنسا وألمانيا دائماً ما كانا عاملين نشطين غيورين في هذا الميدان، والطابع العلمى لإنجلترا يتطلب أن تكون هى أيضاً ممثلة عن جدارة، وربما يكون من العبث أن يأمل المرء فى أن لجنة أثرية مثل لجنة فرنسا المصرية، ولجنة ألمانيا وإيطاليا، سوف ترسل بها حكومات هذه البلاد لاستكشاف كنوز وادى النيل والكتابة عنها فقط؛ غير أنه يجب أن تكون هناك رغبة جادة أن تقوم المبادرة الخاصة بعمل شئ فى سبيل تحقيق هدفنا القومى فى احتلال مكان بين علماء أوربا وأثريها.

فى أول أبريل، ١٨٨٢، ظهر إعلان فى كبريات الصحف بأن إنجلترا قد خطت خطوة مهمة نحو احتلال مكانة لنفسها كأمة رائدة فى استكشاف مصر فى المستقبل: "يسرنا عظيم السرور، أن نعلن أن الجمعية التى طالما رغبنا فى إنشائها من أجل النهوض بالتنقيب فى دلتا النيل قد تشكلت أخيرا كأفضل ما يكون". كان الغرض من الجمعية هو القيام بأعمال التنقيب فى دلتا النيل، حيث "لا شك أنه ترقد أو توجد وثائق مختفية عن الفترة المفقودة فى تاريخ الكتاب المقدس، إنها وثائق نأمل فى أنها سوف تقدم مفتاحا لسلسلة كاملة من المشكلات المحيرة". وقام رعاية الجمعية بتشكيل فريق يثير الإعجاب والانبهار والاحترام، وكان منهم كبير أساقفة كانتربرى، بالإضافة إلى العديد من الأساقفة؛ والحاخام الأكبر؛ ولورد كارنارفون، ورئيس جمعية الآثار؛ بالإضافة إلى روبرت براونينج؛ وسير هنرى ليارد، الذى قام بالتنقيب عن نينوى؛ والأستاذ توماس هاكسلى. لقد انعقد عزم إنجلترا واشتد حماسها ونظم التمويل، وتبقى معرفة مدى استعداد مصر لاستقبال هؤلاء.



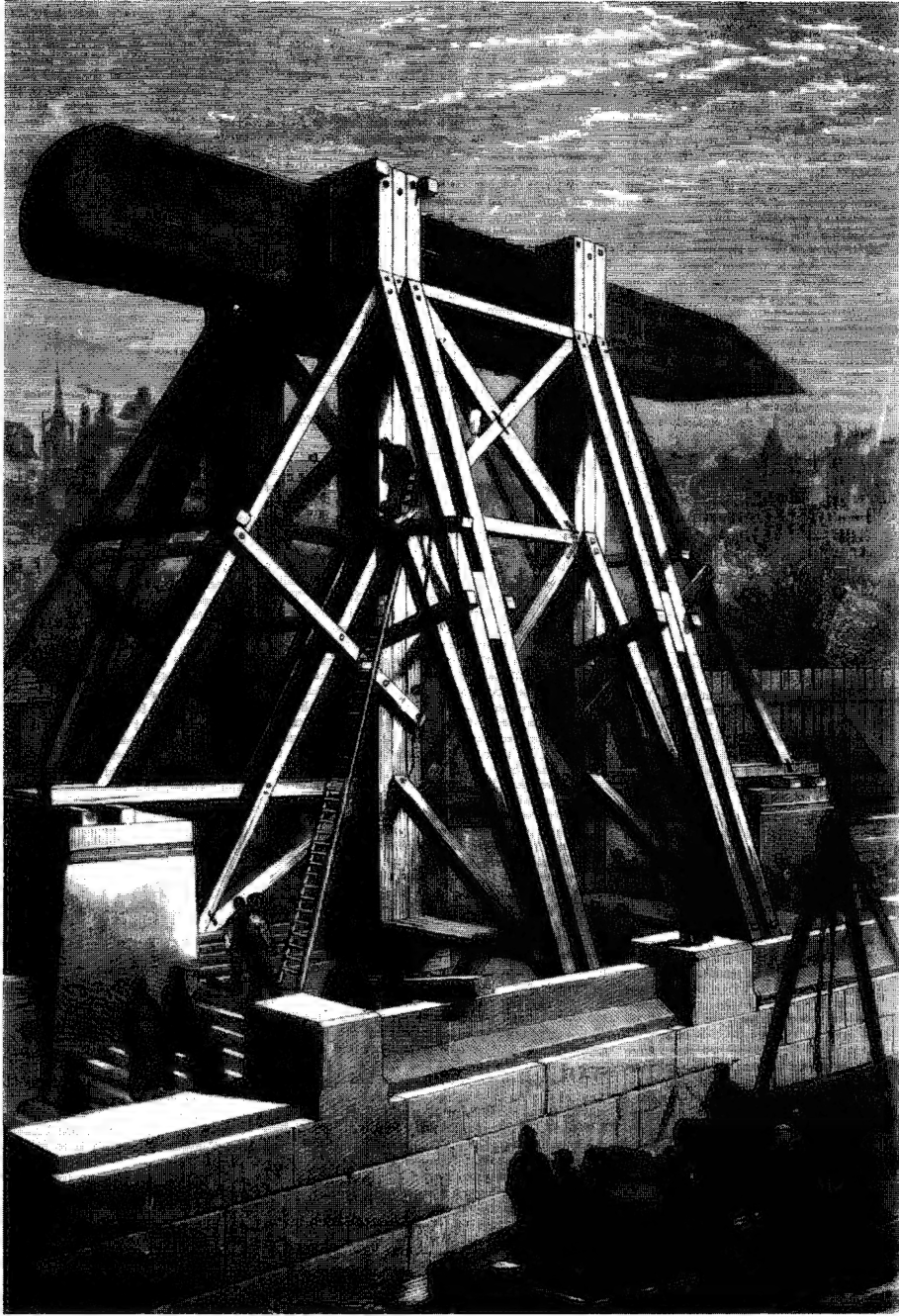
MARIETTE EN 1861

Il s'agit d'une photographie d'un portrait d'Auguste Mariette en 1861.

أوجست ماريت، رسم منقول عن صورة  
فوتوغرافية التقطت له في سنة ١٨٧٤، قبل  
ست سنوات من وصوله إلى مصر لأول مرة.



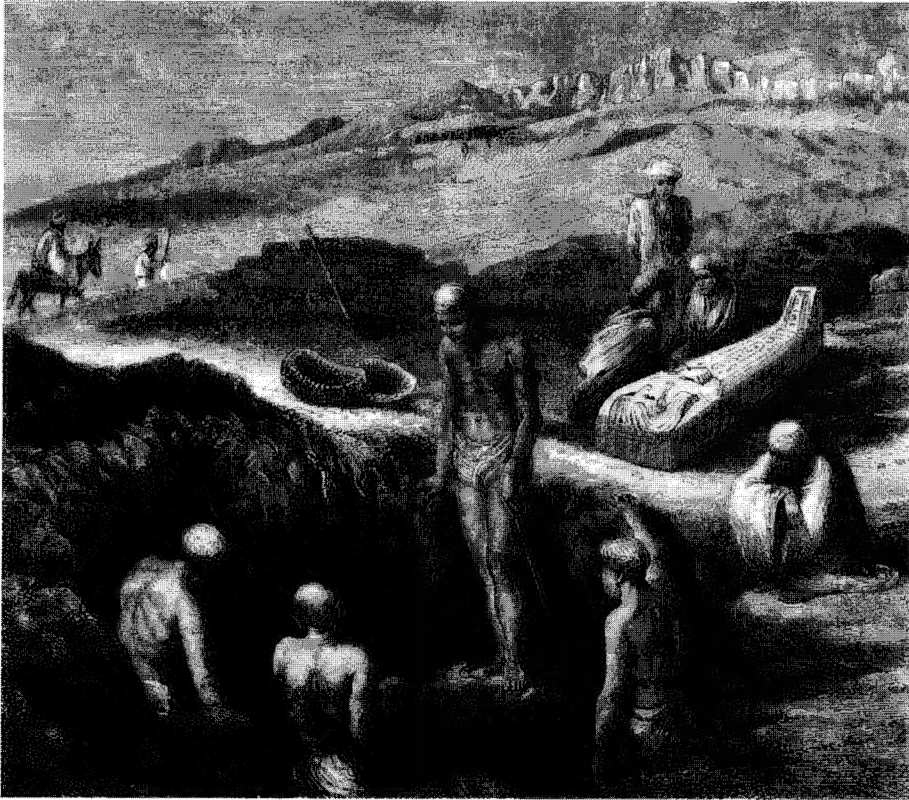
السير جيمس اسكندر يتفحص مسلة كليوباترا - هدية محمد علي.



الأعمدة الخشبية المستخدمة في محاولة وضع مسلة كليوباترا في موضعها على جسر في لندن



إميليا إدواردز التي أصبح كتابها  
(ألف ميل صُعُداً في النيل) من  
الأعمال الكلاسيكية.

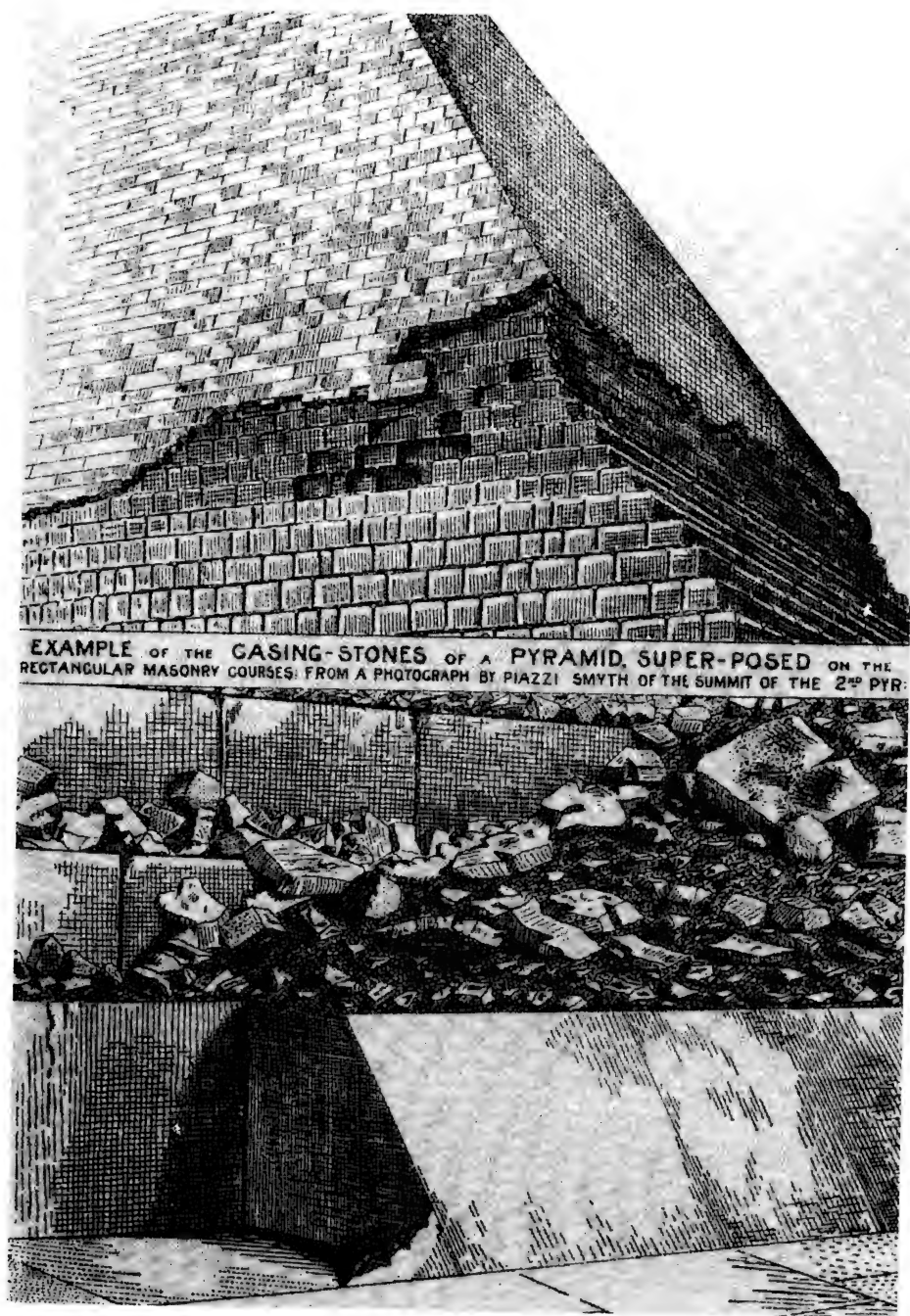


رسم رسمته إميليا إدواردز يظهر الحفائر في طيبة.



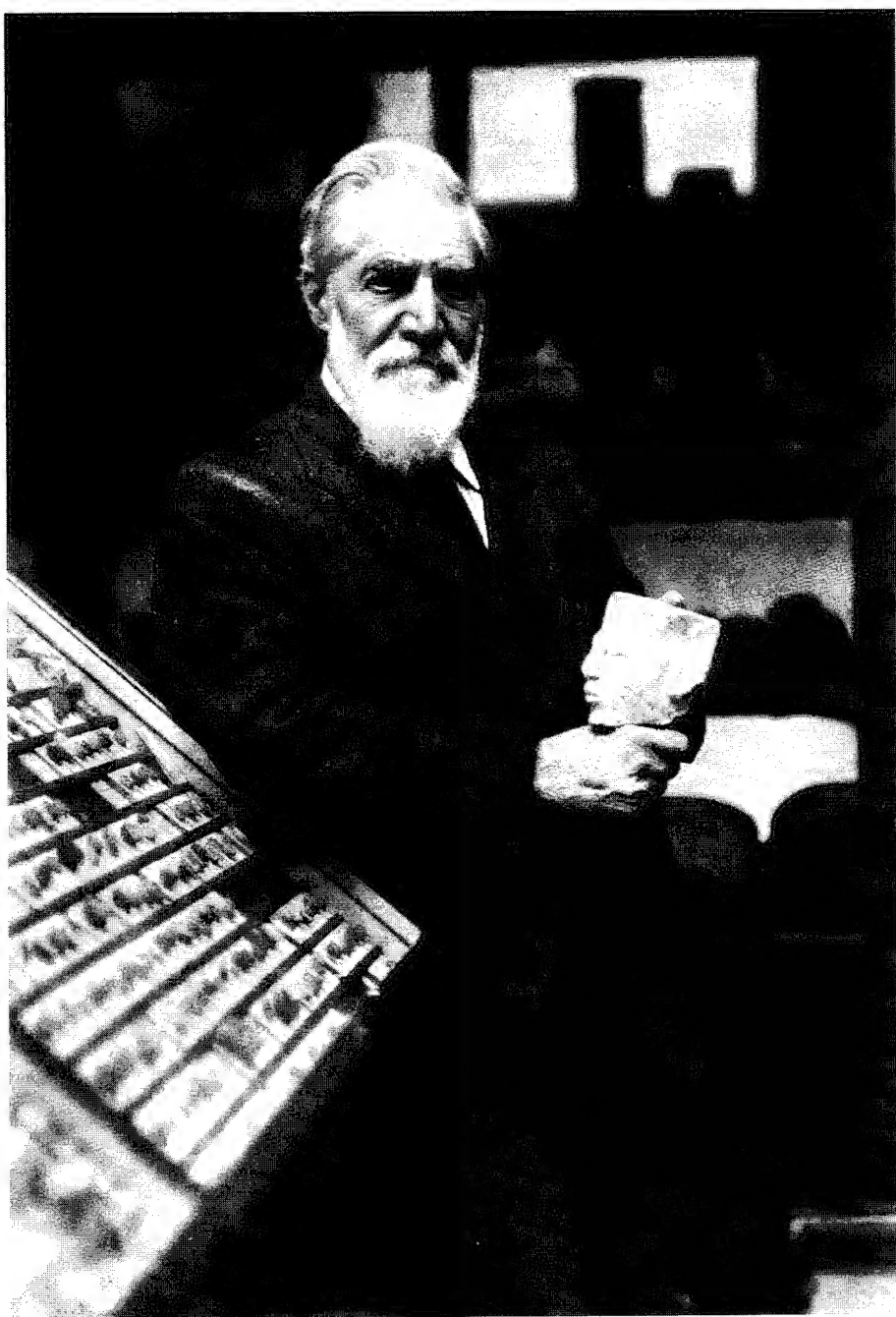


السير إقبالين بارنج، الوزير البريطاني في مصر.



EXAMPLE OF THE CASING-STONES OF A PYRAMID, SUPER-POSED ON THE RECTANGULAR MASONRY COURSES: FROM A PHOTOGRAPH BY PIAZZI SMYTH OF THE SUMMIT OF THE 2<sup>ND</sup> PYR.

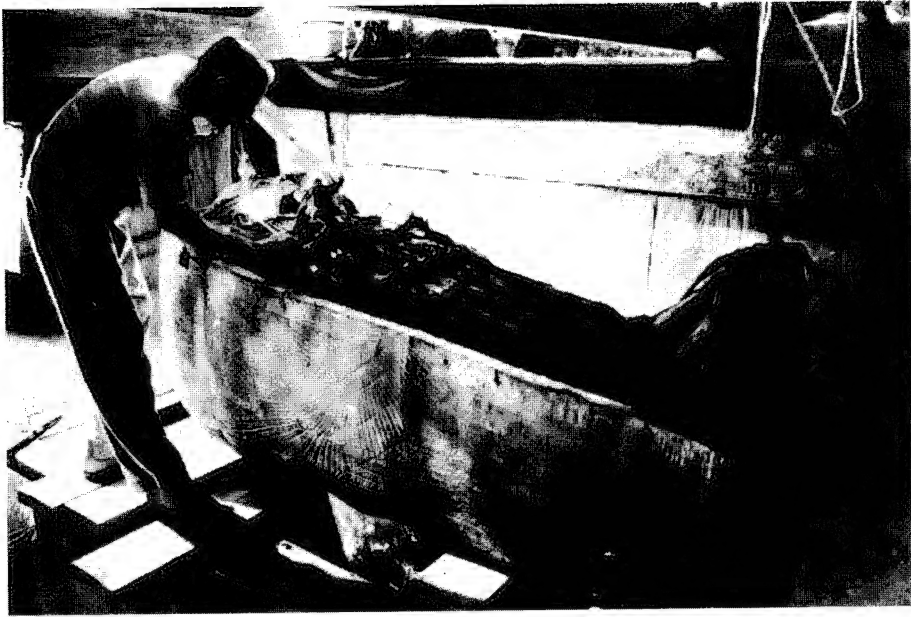
الصورة المواجهة لصفحة العنوان في كتاب شارلز بيازى سميث ( ميراثنا فى الهرم الأكبر ).



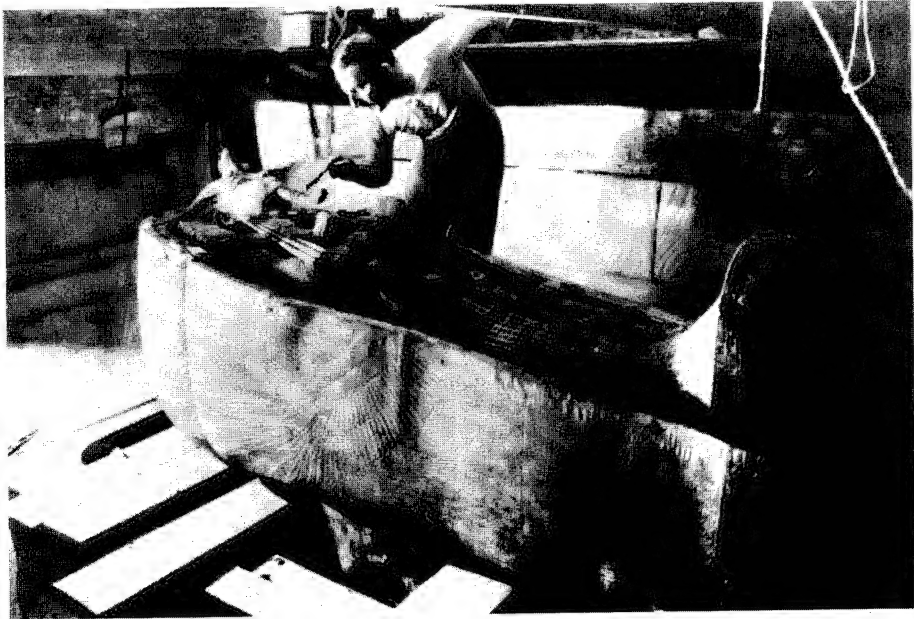
السير ولیم فلندرز بتری، ۱۹۲۳.



مؤارد كارتير (إلى اليمين) ولورد كارنارفون يزيران في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ الأحجار الأولى من الباب الثاني المختوم إلى قبر توت عنخ آمون.



هوارد كارتير يبدأ في إعادة الكفن الذي يغطي الكفن الثاني بعد فتح التابوت.



هوارد كارتير ينفخ التراب عن لفافة المومياء التي لا زالت في تابوتها.

## الفصل الثامن

### سياسات الآثار

كان عام ١٨٨٢ عام أزمة أثرت على علاقات الأوروبيين بمصر، فأتثناء السنوات الأولى لاستقرار الأوروبيين في مصر كانوا يعيشون بوصفهم أغرابا في بلاد أجنبية، متلاصقين معا في مناطق مغلقة في القاهرة والإسكندرية. وكانوا دائما معرضين لخطر الاضطراب إلى دفع ضرائب خاصة، ومن حين لآخر كانوا يتعرضون لأعمال النهب.

وعلى أى حال، فإن إصلاحات محمد على، التي تبعتها سياسات سعيد باشا وإسماعيل باشا، التي كانت تستهدف جعل مصر جزءا من أوروبا، غيرت من وضع الأوروبيين في مصر، فتحولوا من طبقة مقهورة إلى طبقة ممتازة. أصبح الأوروبيون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم فوق قوانين البلاد العامة، فمثلا كانوا يدعون لأنفسهم الحق في ألا يُحاكموا إلا أمام محاكم قنصلية، وعُينوا في مناصب عليا في الحكومة، وأخذوا يزدهون برقي ملابسهم وعاداتهم. وبينما كان الرحالة الأوروبيون يتسلون بمحاولة العيش كالمصريين، كان المصريون الذين ارتقوا إلى الدوائر الحكومية في القاهرة يتباهون بالملابس الأوروبية.

ومنذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٨٤٦، كتب إدوارد لين: "إن الموظفين المصريين يرتدون الفراك (المعطف) الذي يصل حتى الركبة، والصدري

والبنطلون (السروال) الضيق، مثل تلك التي نرتديها". إنه صدام الحضارات الذى ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر، حينما تم استيراد المصنوعات والتكنولوجيا الأوربية إلى البلاد الأقل نمواً.

وتسبب هذا الصدام فى مصر، كما حدث فى كل مكان آخر فى العالم، فى الضغينة التى تحولت مع مرور الوقت إلى المعارضة الصريحة. وتحت قيادة ضابط من الجيش هو أحمد عرابى أسمى نفسه "المصرى"، نشبت حركة احتجاج كانت فى البداية تعارض محاباة الضباط الأتراك، لكنها امتدت فصارت تمرداً على الوضع المتميز الذى يلقاه جميع الأجانب فى مصر، بما فى ذلك الأوربيون. وكانت حكومة الخديوى أضعف من أن تقمع هذا التمرد، بل إنها بدلا من ذلك، حاولت الترفل إلى الناس عن طريق ترقية عرابى، ثم جعلته وكيل نظارة الحربية، وأخيراً جعلته عضواً فى مجلس النظارة. وكانت هناك مفاوضات عاجلة بين بريطانيا وفرنسا وتركيا، غير أن كلا منها كانت تتبع اتجاهاً مختلفاً بالنسبة للموقف، كما كانت شديدة الشك بالنسبة لغيرها، مما جعل هذه الدول تعجز عن التوصل إلى اتفاق للقيام بعمل منسق.

وعلى الرغم من أن توفيق ظل يسيطر سيطرة اسمية فى مصر، فقد ازداد غضب الجيش، ونودى بعرابى بطلا وطنياً، ولم تكن لديه فى ذلك الوقت أية أهداف واضحة أو محددة، بل إن كل ما كان لديه هو موقف عام معاد للأوربيين، سرعان ما فسرته الصحافة على أنه صيحة من أجل بعث الإسلام والدعوة إلى مبدأ مصر للمصريين. لقد كان جلاستون يبغض فكرة التدخل، إذ إن مصر لم تقدم نفسها فى أعين الجمهور باعتبارها جديرة بالنفقات والمجازفة بالتدخل العسكرى، كما كانت هناك مسألة حتمية — إذا ما احتل الإنجليز مصر — هى إغضاب الفرنسيين. فأعلن جلاستون: "إن اعتقادى هو أن اليوم الذى يشهد احتلالنا لمصر سوف يكون يوم وداع طويل لأى علاقات سياسية ودية بين فرنسا وإنجلترا". وكان محقاً فى ذلك.

على أى حال، كان هناك رأسمال بريطانى مستثمر فى مصر، ولم يكن الرأسماليون راغبين فى خسارته؛ ذلك أن ديزرائيلى كان قد أقحم الحكومة



البريطانية بشكل مباشر فى الشئون المصرية بشرائه لعدد من أسهم شركة قناة السويس، فلما تسربت إلى لندن أنباء التهديد الذى يتعرض له المواطنون البريطانيون فى القاهرة والإسكندرية، خرج الأمر من يد جلادستون. فأرسل فى ٢٢ مايو أسطول البحر المتوسط بقيادة سير بوشامب سيمور، للرسو قبالة الإسكندرية، وانضم إليه عدد قليل من السفن الفرنسية. لم يكن هذا الوضع غريبا أو جديدا بالنسبة للمصريين، ذلك أنه منذ غزو بونايرت، كانت البوارج ترسل من جانب القوى الأوروبية كى ترسو قبالة الإسكندرية فى كل مرة تقع فيها قلاقل أهلية، وكان وجود تلك البوارج يساعد على تهدئة الأحوال، ومع ذلك، فإنه فى هذه المرة بدا أنها تشكل تهديدا أجنيا واضحا، بدا أنه يوحد ما أصبح يرى باطراد على أنه انتفاضة وطنية.

كان الناس فى شوارع القاهرة والإسكندرية يدفعون الأوربيين ويبصقون عليهم. وفى ١ يونيه عام ١٨٨٢، نشبت الاضطرابات فى ثلاثة أماكن فى نفس الوقت، وقتل خمسون أوربيا، كما جرح الكثيرون جروحا خطيرة، من بينهم القنصل البريطانى سير تشارلز كوكسون. وحدث خروج كبير من أرض مصر وهلع عظيم. فمع حلول ١٧ يونيه، كان ١٤٠٠٠ مسيحي (أوربي) قد فروا من البلاد، (\*) وكان ٦٠٠٠ غيرهم ينتظرون السفن كى تأخذهم بعيدا.

واستجذبت الحكومتان الفرنسية والإنجليزية بالسلطان للتدخل، فانعقد مؤتمر فى القسطنطينية على عجل؛ ولم يرسل السلطان ممثلا عنه، وبدا أنه غير راغب فى تأييد التدخل المسلح. ثم سحب الفرنسيون دعمهم، ورفض الإيطاليون تقديم المساعدة. وأخيرا صدر الأمر بضرب الإسكندرية بالمدافع وإنزال قوة غزو دون حلفاء. انسحب عرابى إلى كفر الدوار على بعد بضعة أميال عن الإسكندرية. ونزلت قوة تتكون من ٢٠٠٠٠ رجل، وانهزم المتمردون فى معركة التل الكبير فى ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢ (\*\*)، وتقدمت قوة صغيرة من الفرسان نحو القاهرة، التى تم

(\*) يلاحظ أن الكاتب يشير إلى المسيحيين باعتبارهم غير المصريين. (المترجم).

(\*\*) من المفهوم طبعاً أن معركة التل الكبير كانت فى مديرية الشرقية قرب الزقازيق، ولا علاقة لها بما حول كفر الدوار. (المراجع).



الاستيلاء عليها دون مقاومة. فوجد البريطانيون أنفسهم، دون أن تكون لديهم مطامح استعمارية في المنطقة، يسيطرون على مصر.

لقد أصبح من الواضح أن موقع مصر المفصلى (المحورى) لن يكون من الممكن تأمينه تأميناً جيداً إلا إذا وضع تحت إدارة شخص مؤهل يتمتع بالكفاءة. لذا، فإنه إزاء معارضة الفرنسيين، الذين طلبوا انسحاب بريطانيا من البلاد، أو على الأقل، تحديد موعد لذلك الانسحاب، وضعت مصر تحت الرقابة غير الرسمية لموظف يتمتع بقدرة غير عادية على الانضباط النفسى، وهو سير إفلين بيرينج.

ولد بيرينج لعائلة من كبار رجال المال، وتعلم تعليماً يليق بطفل من عائلة القوم، وكانت النية منعقدة على أن ينخرط في الحياة العسكرية، وأرسل إلى كورفو حين كان ضابطاً شاباً. وفى ١٨٧٢، قبل بيرينج تعيينه سكرتيراً خاصاً لابن عمه لورد نورثبروك، الذى كان قد عين نائباً للملك فى الهند، وهناك أكسبه نشاطه الذى لا يكل واستعداده لإعطاء الأوامر اسم الشهرة وهو نائب الملك. وفى ١٨٧٧، تم إرساله إلى مصر كمراقب للدين العام أثناء عملية الانتداب الثنائى، فأكسبته مهاراته المالية فى ذلك المنصب سمعة محلية فى الإدارة السليمة، وكذلك العضو المالى لحكومة الهند.

وحين وجد الإنجليز أنفسهم يتحكمون فى مصر بعد معركة التل الكبير، كان بيرينج الاختيار الذى طرح نفسه. وفى أغسطس ١٨٨٣، وبعد أن نال لقب فارس، أبحر إلى مصر. كان منصب بيرينج الرسمى هو الوكيل البريطانى والقنصل العام فى مصر. وكان التفويض العام الموكل به هو استعادة سلطة الخديوى، وبعد أن وجه لبعض الوقت فى الاتجاه الصحيح، ورمم أوضاع البلاد المالية، للترتيب لانسحاب القوات البريطانية من مصر، أثناء ذلك، كان من اللازم حماية قناة السويس، والإبقاء على الطريق المؤدى إلى الشرق الأقصى مفتوحاً.

تمثلت منجزات بيرينج الرئيسية فى مصر فى سيطرته على الشؤون المالية، خفضت الضرائب وألغيت الجمارك الفادحة. مع ذلك ظل العجز السنوى مرتفعاً، وقل رأسمال الدين العام، وتم إلغاء نظام السخرة، ومع ذلك تم تنفيذ مشاريع الري مما فتح مناطق واسعة من وادى النيل للاستزراع. ولم يكن بيرينج مدفوعاً فى كل

ما فعل، بالرغبة في حماية مصالح حَمَلَة السندات البريطانيين في مصر بقدر رغبته في تعزيز مصالح المصريين. وكان مما يشقيه أن هذا الاتجاه بدا بعيدا كل البعد عن فهم المصريين. كما كان يشعر بالمرارة، بصفة خاصة، حين يكتشف أن الفرنسيين الذين كانوا موجودين في مصر — كما كان يرى — لا يهتمهم إلا تدعيم مصالحهم القومية، وكانوا مع ذلك، دائما يلقون شعبية أكثر من تلك التي يلقاها البريطانيون، ذلك أن المصريين لم يكونوا قد تبينوا بعد "التفوق" القومي للبريطانيين، إذ كانوا منبهرين بالفرنسيين. فكتب بيرينج، في مذكراته، بشيء من الإطالة تحليلًا عن النفسية والثقافة المتناقضة بين الإنجليز والفرنسيين، وكان دائما ما يؤكد قيمة الإنجليز الواضحة في مقابل ما للفرنسيين من عوامل جذب سطحية.

وتستفيض المذكرات في التحدث عن الوكيل البريطاني والقنصل العام العاقل الذي استطاع أن يدير ظهره للمتحف البريطاني ويمنح دعمه لمدير الآثار في القاهرة، إيمانًا منه بهذه الآراء، رغم أن ذلك المدير كان فرنسيا. لقد كان واليس بادج، هو أشد وكلاء المتحف البريطاني عدوانية، إذ كلفه المتحف بالقيام بإضافة المزيد إلى المجموعة المصرية بالمتحف (البريطاني). وحين زار بيرينج ومعه خطابات توصية، استقبله بيرينج، كما يتذكر، بعداء وفتور، وإن كان قد عامله معاملة مهذبة، ذلك أن سير إقليد أوضح بجلاء أنه لن يدعم أى مشروع للتتقيب يقوم به أى وكيل عن أوصياء (أمناء) المتحف البريطاني، سواء كان ذلك الوكيل يعمل بالنيابة عن نفسه أو نيابة عن أى شخص آخر: "لا يجب أن يكون الاحتلال البريطاني لمصر مبررا لسرقة الآثار من البلاد، سواء من أجل إنجلترا أو غيرها". ثم أوصل بادج إلى الباب بأدب ولكن أيضا بحزم.

تلقى جاستون ماسبيرو Gaston Maspero المدير الفرنسي للآثار في مصر، تعليمه في باريس. وهناك، شأنه شأن أى عالم قُدِّر له في المستقبل أن يكون عالم مصريات، أصبح مفتونا بالكتابة الهيروغليفية منذ كان تلميذا، وأحرز في ذلك تقدما كبيرا، حتى إنه عند وفاة دى روجى عام ١٨٧٤ تسلم وهو في الثامنة والعشرين من عمره منصب أستاذ لغة المصرية والآثار في الكوليج دى فرانس، ذلك المنصب الذى كان مارييت قد رفضه.

وكان ماسبيرو ينظر إلى الآثار باعتبارها منهاجا رومانسيا وليس نهجا علميا يسعى إلى بعث الشعوب الغابرة؛ ذلك أنه كتب فى إحدى المرات، أن الروائى الألمانى الشهير وعالم المصريات جورج ابيرز قدم لعلم المصريات أكثر مما قدمته المذكرات العلمية التى كتبها ليسبيوس، وذلك عن طريق روايته غريبة الأسلوب، وهى (الأميرة المصرية)، وهذه الرواية قد حققت نجاحا مدويا فى كل أنحاء أوروبا. لقد كان ماسبيرو يطمح إلى كتابة تاريخ جامع مانع لمصر، غير أن هذا المسعى قد انقطع حين قررت الحكومة الفرنسية إنشاء البعثة الأثرية فى القاهرة عام ١٨٨٨، وتعيينه رئيسا لها. وبعد أن ضمن الموافقة على هذا المشروع، وصل ماسبيرو إلى القاهرة مع مجموعه من العاملين معه، استعدادا لإنشاء المدرسة الجديدة. غير أنه، على أية حال، اضطر إلى التخلي عن ذلك لدى وفاة مارييت، لأنه فوجئ بتعيينه مديرا بدلا منه. كانت النقود المتاحة قليلة، وكذلك كان هناك عدد قليل من العاملين. ويبدو أن ماسبيرو تعامل مع هذا الأمر بهدوء واسترخاء، وأخذ السفينة الشراعية ذات الصاريين، وكان بها محرك من القدم حتى إن ماسبيرو قال عنه إنه "يستحق مكانا فى متحف الفنون والصنائع".

وكان من عادة ماسبيرو أن يسحب القارب إلى أعلى النهر حتى أسوان فى ديسمبر من كل عام، ثم يترك نفسه للمجرى ويتجه إلى منزله. وكان هذا يمنحه ميزة زيارة المواقع الأقل أهمية والتفتيش عليها، إذ لم يكن ليتوقف عندها لولا تقلبات الرياح والتيار. وكان يلتقط الآثار التى كان من الممكن — لولا ذلك — ألا تلفت الأنظار. ففى كل ربيع، كان يصل ومعه كم من الآثار من أجل المتحف المصرى، ثم يسافر لقضاء أشهر الصيف فى باريس، ويعود للقيام بواجباته فى الخريف.

فى صيف ١٨٨١، تم العثور على أكثر الاكتشافات إثارة فى حياة ماسبيرو العلمية كمدير للآثار، إذ كان قد تلقى أنباء بأن عددا من الشارات الملكية ظهرت للبيع فى الأقصر، وكانت تظهر بشكل غير منتظم وعلى فترات طويلة، مما بدا أنه يشير إلى أن شخصا ما لديه مكان يخبئها فيه، وأنه يقوم بعرض قطع معينة منها فى السوق حتى لا يثير الشكوك، وحتى يبقى على السعر مرتفعا. فأرسل بمساعدته،

إميل بروجش Emile Brugsch متذكرا في هيئة أحد السائحين الأثرياء للتحقيق في الأمر.

وقبل أن يمر وقت طويل، عُرض على بروجش تمثال صغير تمكن من معرفة أنه تمثال حقيقي من مقبرة ملكية تنتمي إلى الأسرة الحادية والعشرين، فدفن بروجش ثمنه وطلب المزيد، فأخذ إلى منزل عبد الرسول، وشاهد مجموعة من أشياء تخص المومياوات تنتمي إلى مقابر الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، فأمر بروجش بالقبض على عبد الرسول، ومثل أمام المدير المحلي للتحقيق معه. وهنا تدفق فيض من الشهادات شهد بها أهل قريته وأسرته، بل حتى من موظفين صغار، كلها تفيد بأنه رجل صالح لا تشوبه شائبة.

وعذب عبد الرسول وإخوته، غير أنهم تمسكوا بروايتهم، وأغلقت القضية. وبعد وقت قصير، أفشى أحد الإخوة أن أسرة عبد الرسول متواطئة مع المندوب القنصلي لبريطانيا وبلجيكا وروسيا. وكان هذا المندوب يدعى مصطفى أغا عيات Ayat (ربما كان عياد)، وكانوا يبيعون ما يجدونه تحت حمايته. وعرض مصطفى أن يرشد بروجش إلى المقبرة في مقابل عدم المحاكمة وكذلك مبلغ ٥٠٠ جنيه. وذهبوا إلى الدير البحري، وتسلقوا شعبا منحدرًا يرتفع عن السهل بمائة وخمسين قدما، ثم وصلوا إلى فتحة في الصخرة تؤدي إلى فوهة عمقها خمس وثلاثون قدما، فأنزل بروجش بواسطة حبل إلى القاع، حيث وجد دهليزا يمتد مسافة ١٥٠ قدما داخل الجبل، وفي نهايته، كانت هناك حجرة للدفن، وعجائب تفوق تصوره.

ويقول التقرير الرسمي الذي كتبه ماسبيرو: كشف العرب سردابا كبيرا يضم قبورا فرعونية، من حيث لم أكن أتوقع أن أجد سوى ملك أو ملكين صغيرين غامضين (قليلي الشأن). وبإلهم من فراعنة، ربما كانوا أشهر الفراعنة في تاريخ مصر، منهم تحتمس الثالث، وسيتي الأول، وأحمس المحرر، ورمسيس الثاني المنتصر الغازي، فاعتقد مسيو إميل بروجش إذ أتى هكذا فجأة إلى هذه المجموعة، أنه لا بد أنه يحلم، وكذلك أنا، مثله، ما زلت أتعجب هل أنا لست بحالم، حين أرى وألمس تلك الأشياء التي كانت أجسادا لشخصيات كثيرة شهيرة كهذه. لم نتوقع أن نعرف أي شيء عنها أكثر من مجرد أسمائها.

استطاع ماسبيرو أن يرى ويلمس الفراعنة، لأن بروجش ومساعديه استخدموا ٣٠٠ من العرب لشحن أربعين من ملوك الفراعنة وكبار الشخصيات فوق ظهر القارب البخارى المتهالك، ثم اتجهوا أسفل النهر، تودعهم جماعة كبيرة من النساء النائحات، والرجال الذين كانوا يطلقون الرصاص على سبيل التحية، من شدة العظمة والجلال، إنه الماضى، أو إنهم ربما كانوا ينعون من فقدوهم. لقد عاون ماسبيرو إمبليا إدواردس فى إنشاء صندوق استكشاف مصر؛ إذ إنه كان دائما على استعداد لمصادقة أى منظمة يمكن أن تساعد فى أعمال التنقيب دون أن تحمل معها ما تستكشفه. وفى أبريل عام ١٨٨٢، كان قد علم بحقيقة وضعه السياسى حين رفض التعاون مع شليمان Schliemann الذى عرف عنه السلوك العدوانى، وأنه قد اختلف مع الباب العالى بسبب أعمال التنقيب التى قام بها فى طروادة. فأدرك ماسبيرو أن الموقف الحساس فى مصر يتطلب رجلا له شخصية أميل إلى التراخى، لا يسىء إلى المصريين. فكتب إلى بول فى المتحف البريطانى، مطالبا بشاب إنجليزى يمكنه أن يقوم بتدريبه، وذلك فى ظروف كان فيها "الغرور القومى" مستثارا بعنف بسبب الأحداث الأخيرة.

من المسلم به أن مصر هى أولى بلاد الدنيا، وأم الحضارة القديمة والحديثة، وأن الأجانب حين ينفقون المال لفائدة الحكم المصرى هم بذلك فقط يقدمون الاحترام اللائق لوضع مصر الرفيع، ويتم قبول المال باعتباره عملا من أعمال الفضل ليس إلا. من المفهوم أن اعتناق هذه الآراء، يثير حساسية الوزير الموجود فى الحكم أو من سوف يأتون بعده. لقد أصر ماسبيرو على أنه غير راغب فى إنفاق المال الإنجليزى فى ملء قاعات المتحف الموجودة فى بولاق، وأنه سوف يعمل دائما على ضمان أن يظل أكبر عدد ممكن من الآثار فى الموقع نفسه دون نقله إلى متحف بولاق. لقد طبق هذه القواعد، فى الواقع، بمرونة كبيرة، وعرف عنه أنه كان يسمح للحفارين والتجار بالاحتفاظ بجزء من الأشياء التى يكتشفونها، طالما أقرروا بأحقية المتحف (فى بولاق)، أما إذا كان أحد المنقبين من سوء الحظ بحيث إنه لم يخرج شيئا ذا قيمة، فقد كان ماسبيرو يسمح له بأن يأخذ شيئا من المخازن المصرية كعطية.

ربما كانت البراجماتية المتراخية أو الطريقة العملية غير المتشددة التي كان ماسبيرو يؤدي بها واجباته، بالإضافة إلى اهتماماته الأكثر اتساعاً وإعجابه بالأدب الإنجليزي، قد أكسبته رضى سير إفلين بيرينج، فنشأت بين الاثنين علاقة ودية وإن لم تكن شخصية. فاستطاع ماسبيرو، بمساعدة الوكيل البريطاني، أن يطور مصلحة الآثار إلى أن تم تقسيم وادى النيل إلى خمس مناطق إدارية. وقام عدد صغير من المفتشين بجعل الناس يعلمون أن عهد المشروعات غير المقيدة قد انتهى.

انقطع تفتيش ماسبيرو على الآثار في مصر فجأة في صيف عام ١٨٨٦، إذ مرضت زوجته لبعض الوقت، ومنعت لأسباب طبية صحية من العودة إلى مصر، فاستقال ماسبيرو من منصبه كمدير للآثار وعاد إلى باريس، وفاته أن يشهد وصول أكثر الشخصيات تنوعاً وإسرافاً في تاريخ علم المصريات في مصر، ألا وهو إيرنيست ألفريد تومسون وليس بادج.

كان إيرنيست وليس بادج هو القرصان بين علماء المصريات. وكان يعمل بتمويل وتشجيع من المتحف البريطاني نفسه. ومن حيث المظهر الخارجي، كان رمز الاحترام، فاستطاع أن يضايق ويخدع موظفى مصلحة الآثار، وأن يشحن إلى بلاده غنائم ثمينة على الطريقة التي سلب بها دريك الغالين الإسبانية. أثناء عمل بادج مساعداً لبيرش في المتحف البريطاني، كان يلاحظ تدافع التجار والعملاء بحثاً عن الأصالة، ويعلم أن للآثار قيمة تجارية إلى جانب قيمتها الأثرية. وكان من المهم بالنسبة له، كخادم للمتحف البريطاني أن يعلم السعر الحالى للآثار بالإضافة إلى مكانته في التاريخ. وبعد أن اكتسب الخبرة اللازمة، أصبح من الأيسر والأرخص له أن يضيف المزيد إلى مجموعة المتحف خلال التمييز بين المشتريات عن أن يقوم بذلك عن طريق التنقيب. ومن أجل هذا الهدف، كرس بادج مواهبه القوية وطاقاته الجبارة.

كانت زيارة بادج الأولى لمصر نتيجة للأنشطة التي يقوم بها جنرال بريطاني بارز أثناء أوقات فراغه. ذلك أن سير فرانسيس جرينفيل قائد القوات البريطانية في أسوان قد دأب على كسر ملل الحياة في الحامية وذلك عن طريق الحفر في المنطقة. وكان سير فرانسيس قد قام ببضعة اكتشافات صغيرة، وكان راغباً في معرفة قيمتها، وعرض أن يتبرع بها للمتحف البريطاني إذا ما قاموا بإرسال

شخص يقوم بتقييمها، ف جذب ذلك الاقتراح أمناء المتحف غير أنهم لم يكونوا راغبين فى تمويله، لذا قدموا طلبا للخزانة طلبا للمال لإرسال ممثل فى زيارة رسمية لأسوان. فاستشارت الخزانة وزارة الخارجية، واستشارت وزارة الخارجية رجلها فى الموقع أى فى مصر، وهو سير إفلين بيرينج. وإذا ما أخذنا فى الحسبان معارضته لتصدير الآثار لكان من الممكن أن يتوقف الأمر عند هذا الحد، لكنه كموظف جيد أحال اقتراح الزيارة الرسمية لأسوان إلى ممثله هناك سير فرانسيس جرينفيلد، فألح جرينفيلد فى رده بأن متاحف روسيا وفرنسا وألمانيا كلها لها رجالها فى مصر والذين يخدمون بلادهم كأفضل ما تكون الخدمة، ومن غير المتصور أن يسمح للمتحف البريطانى بأن يبقى متخلفا.

إضافة إلى هذا، فإن أعمال التنقيب لم تكلف الحكومة المصرية أى شىء، بما أنه هو نفسه قام بتمويلها، كما أنه على استعداد للاستمرار فى ذلك. ووافق بيرينج على البعثة، ومنح بادج أربعة أشهر كإجازة، و ١٥٠ جنيهها. كذلك أعطيت تعليمات بالاتصال بالتجار من أهالى البلاد بغرض القيام بمشتريات من أجل المتحف البريطانى. وحين سمع نائب مستشار جامعة كيمبريدج بالمشروعات، أمر بمائة جنيهه أخرى تقدم لبادج، من أجل القيام بمشتريات من الآثار لمتحف فيترويليام.

كانت مقابلة بادج الرسمية الأولى فى القاهرة مع سير إفلين بيرينج مقابلة غير مبشرة، إذ أوضحت تلك المقابلة له منذ البداية أن الأمل الوحيد أمامه هو خداع النظام. ومن حسن الحظ أن بادج غادر إنجلترا فى صحبة رجل دين واسع الحيلة، فهو جامع آثار وأثرى هاو، كان على استعداد لأن يريه من أين يبدأ. ذلك أن صحة ويليام لوفتى المبجل المعتلة أجبرته على قضاء الأشهر الأكثر برودة من كل عام فى مصر، حيث نما لديه تذوق للجعارين، وأصبحت له عينان تميزان الأشياء المقلدة. عُرف بأنه أجنبى غريب الأطوار، وكان نادرا ما يتعرض للغش. وفى مساء اليوم الذى رأى فيه قنصلا بريطانيا حاد الطبع، أخذه صاحب النيافة لوفتى إلى ملحق بهوتيل دى نيل (فندق النيل) كثيرا ما يتردد عليه أفراد الطبقة الراقية من الرحالة من أبناء بلاده. وتم تقديمه إلى كبار تجار الآثار، وتلقى أول دروسه فى "السياسة الأثرية".

وإذا كانت لدى بادج أية وخزات من ضمير أو خلق تتعلق بخداع العالم السفلى السرى الذى التقى به فى ذلك المساء، فلقد تبددت فى النهار التالى، حين زار متحف بولاق. ذلك أنه وجد الموميאות الملكية راقدة عارية فى صناديق هزيلة مغلقة بأرخص أنواع الزجاج البنى، وثمة شبورة بيضاء ترتفع من سطح مياه النيل، فتتكثف على الزجاج وتسقط على السطح الداخلى للصناديق. أما أرضية المتحف فتتشع منها المياه، ولا يبدو أن أحدا يعرف أو يهتم بما تحتويه من كنوز.

وحين طلب بادج رؤية المخازن التى تحتوى على الأشياء التى لا تصلح للعرض، جعلوه يرى عددا من الحظائر تسمى المخزن، كدست فيها التوابيت والموميאות والصناديق الجنائزية وأثاثات المقابر، والعديد من الآثار الصغيرة من جميع أرجاء مصر. هذه الأشياء لم يتم تسجيلها، وبما أن أحدا لم يكن يعرف تماما بما كان موجودا، فكان فى إمكان أى شخص أن يسرق ما يشاء دون خوف من أن يكشف أمره. كان المخزن يوجد فى الحى الصناعى وتحيط به الورش، وكانت هناك مخاطر وقوع أى حريق، ولم تكن هناك أية أنابيب لضخ الماء فى أى من المباني، فاتضح لبادج، على الفور، أن الآثار المصرية سوف تكون أفضل حالا فى المتحف البريطانى.

وبدأ بادج بالقيام بجولة مع مرشد فى المنازل الخاصة التى تخزن بها الآثار. وكان مرشده رجل دين أجبرته صحته المعتلة على قضاء الشتاء فى وادى النيل.

وبعد جولته الأولى فى مصر، اكتشف صاحب النياقة جريفيل تشيستر أن أمين الآثار المصرية فى المتحف البريطانى كان يريد شراء معظم التذكارات الصغيرة التى كان صاحب النياقة قد أحضرها معه إلى لندن، وكان على استعداد أن يعطيه ربحا، لذا فإن تشيستر المبجل زاد حمولته منها فى زيارته التالية. وأصبح بعد عدد من السنوات مصدرا منتظما لبيرش والمجموعة المصرية فى المتحف البريطانى. وكان المتحف البريطانى قد شجع رغبته فى الامتلاك، فرد هو هذا الجميل بأن قدم بادج لدائرته من التجار، وجال به بين مجموعاتهم حتى إن بادج قبل أن يبحر فى النيل كانت لديه فكرة عما هو متاح له فى القاهرة.

فى أسوان، طالب بادج نيابة عن المتحف البريطانى بنصيب سير فرانسيس جريفيل من نتائج أعمال التنقيب، فقليل له إنه لم يتبق سوى بضعة أشياء صغيرة



ذات أهمية، أما البقية فقد اختفت نتيجة انعدام المسؤولية، وما بقى من أشياء صغيرة أخذها ممثل مدير متحف بولاق المقيم فى أسوان، وتم إرسالها إلى مدير مصلحة الآثار فى القاهرة، ولم تصل هناك أبداً، فعول بادج على ذكائه الشديد. وبعد أن عرف أن المجموعة الموعودة قد تلاشت، قرر الحفر من أجل العثور على مجموعته بنفسه.

وعلى مدار الأسابيع التالية قام رجال بادج بإفراغ خمس عشرة مقبرة فى منطقة أسوان. ولما لم يكن لديه المال الذى يدفعه من أجل هذا العمل، استطاع إقناع الجنرال صاحب السعادة ر. هـ. دى مونتورينسى قائد القوات البريطانية فى أسوان، بأنه من حسن عمل وظيفة الجيش البريطانى فى الخارج أن يعين المتحف البريطانى، فقام الجنرال بالترتيب من أجل المعدات، والسكك الحديدية، والجنود الذين يمكن أن يستخدموا من آن لآخر كى يجعلوا أهل البلاد لا يتوقفون عن العمل. ومرت بهم التجربة المؤسفة وإن كانت شائعة لجميع المنقبين فى ذلك الإقليم فى ذلك الزمان، إذ إن كل مقبرة قاموا بالكشف عنها كانت قد انتهبت بالفعل، فلم يجدوا أى شىء ذو قيمة سوى النصف السفلى لتمثال لا بد أنه كان جميلاً.

من حسن الحظ، أن طرقاً أقل مدعاة للشدة فى جمع الآثار كانت مفتوحة أمام بادج. ففى رحلته فى أعلى النهر، كان يتبعه ممثل عن متحف بولاق لديه معلومات تفصيلية بتتبع تحركاته ومنعه من الشراء من التجار. فأشاع الموظف أن بادج وكيل منعدم المبادئ يمثل مؤسسة أجنبية لا تتوقف عند حد، ويمكن أن تفعل أى شىء، وأن لديه أموالاً غير محدودة بغرض تجريد مصر من كنوزها. وما إن عرف الناس أن بادج شخص نذل ومدلس ولا يعبأ بالقانون ولديه مال ينفقه، لم تعد لديه حاجة للبحث عن الآثار، فهذا هو بالتحديد الرجل الذى يحب التجار التعامل معه، فجاءوا إلى النهر فى القوارب ليلاً، يلحون عليه فى الشراء.

كانت الأقصر، للعديد من السنوات، هى مركز تجارة الآثار. فقرر بادج القيام برحلة إلى هناك كى يجرب مهاراته فى المساومة، وكان ذلك ينطوى على مجازفات، حتى لو تمكن من مراوغة موظفى مصلحة الآثار. كتب مارييت فى كتابه الإرشادى عن الأقصر يقول: "إن الأقصر تعد تقريباً مركزاً للتداول المشروع

فى الآثار. تمتلك الأقصر مصانع معينة تصنع بها التماثيل الصغيرة والجعارين والأعمدة الحجرية المنقوشة بحذق ومهارة كثيرا ما تدفع أكثر الأثريين خبرة، وقد تربصت جماعات من التجار لإميليا إدواردس أثناء زيارتها هناك، كان بعضهم من العرب، وكان البعض من الأقباط، جميعهم مهذبون طيبون مريحون من حيث المظهر ومخادعون... الجميع يبيعون أشياء مقلدة أكثر مما يبيعون من الأشياء الأصلية. ومهما كان طلبك، فهم مستعدون للوفاء به، فتحتس ليس شديد الثقل! لا، ولا كليوباترا بخفيفة بالنسبة لهم! أما عن الجعارين الأصلية من أعرق طراز، فهي متوافرة فى كل موسم، ذلك أنها تنقش وتصلق بالزجاج على هيئة مضغ أو أقراص صغيرة تبتلعها الديكة الرومية، فإذا بها تكتسب عن طريق عملية الهضم البسيطة درجة من الجلال والقدم فتصبح ساحرة حقا".

وهكذا يصبح بادج فى حاجة إلى كل ما لديه من قدرة على التمييز التى أكسبتها إياه تلك الخبرة التى تشربها عبر السنين من صامويل بيرش، لكى يخرج من الأقصر ومعه كنوز أصلية. كان التجار فى الأقصر يقدمون له تقديرهم عن الموقف فى سوق الأشياء الأثرية فى مصر، ورغم أن كل الآثار سواء كانت فوق سطح الأرض أو تحتها تخص الحكومة المصرية بحكم القانون، ومن غير المسموح به قانونا لأى مصرى أن يمتلك أو يتجر فى الآثار، فلم تحاول أية حكومة أن تطبق هذا القانون، بل إن كلا من مارييت وماسبيرو كانا يشتريان من التجار بشكل صريح، بل هما استخدمتا نفوذ الحكومة ليفعلا ذلك. وكان المقيمون المحليون الحاذقون الذين تمكنوا من أن يصبحوا قناصل أو وكلاء للقوى الأوربية يشعرون أنهم فوق القانون، وكانوا كثيرا ما يخرطون فى أعمال التنقيب أو يتاجرون على المكشوف، حتى إن بعضهم بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يلقون بموظفى مصلحة الآثار بعيدا إذا ما حاولوا التدخل.

كان مصطفى أغا الوكيل القنصلى البريطانى فى الأقصر يمتلك مجموعة جميلة فى داره؛ ولما كان يكن أعرق العواطف للشعب البريطانى ويطمح إلى أن يجعل المتحف البريطانى "خير متاحف العالم"، فقد منح خير ما لديه فى هذه المجموعة لبادج. كما قدم بادج مالا لأعضاء عائلة عبد الرسول التى كانت قد اكتشفت ما كان مخبأ فى الدير البحرى، والذين تمكنوا من سرقة وإخفاء برديات

وأوان من المرمر، وزهريات زرقاء مطلية بطبقة من الزجاج، وأشياء مصنوعة من العاج، وكانوا على استعداد لبيع تلك الأشياء للمتحف البريطانى، ويبدو أن هذه الرغبة كانت ترجع جزئيا إلى رغبتهم فى أن يبذوا مصلحة الآثار، ذلك أن عائلة عبد الرسول كانت تقول إنه حين كانت تسلم القطع الأثرية طبقا للقانون لمتحف بولاق، كان الموظفون هناك يرفضون دفع نفقات التتقيب أو أية نفقات كما ينص القانون. وبدلا من ذلك، كانوا يزعمون أن تلك الآثار أعمال مقلدة، ثم يقومون بتسليم كمية ضئيلة ثم يبيعونها للسياح الأجانب. فقدم بادج نفسه باعتباره الرجل العادل النزيه الذى أنقذ التجار، وذلك بأن كان يعرض عليهم أسعارا منصفة، كما كان يظهر أنه حريص على الآثار وذلك بنقلها إلى ملاذ آمن. لذا فقد غادر الأقصر وفى حوزته مجموعة رائعة.

فى ذلك الوقت بالذات، كلف بروفيسور أليجزاندر مكليستر، من جامعة كيمبريدج، بادج بمهمة غير عادية. ذلك أن مكليستر كان يستخدم الأنثروبولوجية الفيزيائية للبحث فى تاريخ الجنس البشرى. لذا كان البروفيسور فى حاجة إلى بعض الجماجم المصرية القديمة، وكان يتساءل إذا ما كان فى مقدور بادج أن يمهده ببعض منها. وحدث فى ذلك الحين أن اكتشفت حفرة عميقة تحتوى على موميאות لكهنة من الطبقة الثالثة والرابعة. وبما أن هؤلاء الكهنة كانوا من طبقة أدنى من المسؤولين، فلم يتم تحنيطهم تحنيطا جيدا، ولم تكن رؤوسهم متصلة اتصالا جيدا بأجسادهم. فأمر بادج بأن توضع مجموعة من الموميאות فى حاوية وتشحن إلى الإسكندرية للتصدير، وهنا واجهتهم مشكلة. ذلك أن تصدير موميאות البشر ضد القانون المصرى، وبما أن بادج كان قد أعلن عن محتويات الحاويات فقد احتجزت فى الجمارك فى الإسكندرية. ورفض مسئول الجمارك فى الإسكندرية ادعاء بادج بأن الجماجم لها قيمة علمية؛ وقال إن القيمة الوحيدة التى يمكن أن تكون لها هى أن تكون سباخا عظمية، وأصدر توجيهاته بأن يتم تصنيفها على هذا الأساس. وأخيرا غادرت العينات التى طلبها بروفيسور مكليستر مصر بالتوصيف الرسمى: "سباخ عظمى".

وبعد أن دفع بادج الرسوم الجمركية السليمة للسباخ وهى واحد فى المائة، واجهته المزيد من المصاعب فى نقل كنوزه، إذ إن إحدى الطرائق الفنية التى كانت

مصلحة الآثار تستخدمها لإحباط الاتجار غير المشروع هي احتجاز المراكب التي يشك في أنها تحمل الآثار، وهي طريقة كان يستخدمها مارييت وماسبيرو كى يضيفا المزيد إلى المجموعة الموجودة فى بولاق. ومن حسن طالع بادج أن صديقه الجنرال دى مونت مورينسى كان لا يزال على حرصه على أن يبذ المتحف البريطانى مصلحة الآثار المصرية، فقام بأخذ جميع حاويات بادج ببساطة وأمر بأن يأخذها مركب رسمى مع الأمتعة العسكرية إلى الإسكندرية. فاستشاط سير إفلين بيرينج غضبا، ذلك أن واجبه لم يكن مقصوراً على وضع القانون المصرى فحسب، بل يضمن أن أبناء وطنه يذعنون له، فأرسل إلى بادج، وذكره بشدة بأن تصدير الآثار المصرية محظور قانونا، وأمره بأن يعيد إلى التجار جميع الأشياء التى قام بشرائها، فأجاب بادج بأنه قد أرسل إلى مصر على نفقة المال العام، وأن المجموعة التى كان عليه أن يحوز عليها من سير فرانسيس جرانفيل قد تلاشت دون معرفة مصيرها، لذا فإنه شعر أن من واجبه أن يقدم بدلا منها أشياء أخرى من مصادر أخرى، فنشأ عن ذلك موقف متجمد، ذلك أن بيرينج أمر بادج مرة أخرى بأن يمتنع عن القيام بالشراء وأن يعيد كل ما قام بشرائه؛ وأصر بادج على أنه ليس موظفا من موظفى بيرينج، وعلى ذلك فهو لا يخضع لأوامره. وأضاف بأنه سوف يستمر فى بذل كل ما فى وسعه لزيادة المجموعة الموجودة فى المتحف البريطانى، الذى يواجه منافسة من القوى الكبرى الأخرى، والكثير من "القوى الصغرى فى أوربا" كما قال، فهذه القوى لديها وكلاؤها فى مصر، وهم يقومون بالشراء من أجل مجموعاتهم الوطنية. وكتب بادج أن المقابلة انتهت فجأة. ثم كتب القنصل العام، رسميا، لبادج بأن يضع فى السجلات أن تصدير مشترياته أمر محظور بحكم القانون، وأوعز إلى مصلحة الآثار فى الإسكندرية بأن تكون على أهبة الاستعداد لمنع شحن تلك المشتريات.

على أى حال، فقد صادف بادج حسن الحظ مرة أخرى؛ ذلك أن صديقه دى مونت مورينسى كان قد نقل من أسوان إلى الإسكندرية وتمكن من التغلب على أى معارضة. ويتذكر بادج هذا الموضوع قائلا: "لقد رفض دى مونت مورينسى أن يحركه سواء الترهيب أو الترفيق، ووقفنا، ذات يوم أنا وهو على الرصيف، وشاهدنا الأربعة والعشرين صندوقا التى تخصنى وهى تغادر الميناء تحت رعاية

ضابط صديق من أسوان". وبعد ذلك بثلاثة أيام، لحق بادج بها إلى إنجلترا ونعم بتلقى التهاني الرسمية من أوصياء المتحف البريطانى على ما قام به. وفى ٢ أبريل ١٨٨٧، كتب السكرتير: "أعد الأمناء، هذا الصباح، محضرا يعبرون فيه عن إعجابهم الحار بذكائك وما تتمتع به من طاقة فى تنفيذ المهمة التى أوكلت إليك، وكذلك قيامك بها فى مثل هذا الوقت القصير".

لقد كانت موافقة الأمناء على ما قام به بادج من نشاط موافقة شديدة حتى إنه عاد إلى مصر فى ديسمبر. وكان قد سمع عن وجود كمية كبيرة من البرديات قد اكتشفت فى غرب طيبة، فنبه رؤسائه إلى أهمية شرائها قبل أن تكتشف ذلك المتاحف الأخرى. وفى الإسكندرية، التقى بادج بالقنصل العام البريطانى، تشارلز كوكسون الذى قال إنه علم من رسالة من القاهرة أنه قد تم اكتشاف عدد مهم من البرديات فى الصعيد، وأن المتحف البريطانى قام بإرسال موظف للحصول عليها. فإذا كان بادج هو ذلك الموظف نفسه، إذن، كما قال كوكسون، فهو لا يمكنه أن يعول على أى مساعدة رسمية فى مشروعه غير القانونى بتصدير الآثار، وأن الأفضل له أن يشغل وقته فى الاستمتاع بالشمس، وكرم ضيافة صديقه الطيب جنرال دى مونت مورينسى. وقال كوكسون محذرا بأنه إذا ما قام بادج بأى محاولة للقيام بمهمته فى الحصول على البرديات، فإن القنصل سوف يعارض بكل ما أوتى من وسائل تصدير الآثار التى ينبغى أن تحفظ فى مصر "كى تعلن للمصريين المحدثين مجد بلادهم القديم". فأخبر جنرال دى مونت مورينسى بادج بأن يواصل العمل الذى أرسل للقيام به، وإذا ما واجهته أية مشكلة فهو يعرف إلى أين يتجه.

وكانت أعقد المشكلات التى لا مفر منها والتى واجهت بادج تتمثل فى شخص يوجين جريبوت. إنه ذلك الشخص الدقيق المتمسك بالقواعد الجامدة، وكان هو مدير مصلحة الآثار الذى تولى هذا المنصب بعد رحيل ماسبيرو. فبعد النظام اليسير الذى اتبعه ماسبيرو، عزم جريبوت على إصلاح مصلحة الآثار وأن يجعل منها مؤسسة تلتزم بالقانون الذى تشكلت على أساسه التزاما حرفيا. وقام بزيارة بادج فى الرويال هوتل فى القاهرة. وبدا فى اللقاء الأول أن رغبة جريبوت فى اكتساب الشهرة تغلبت على غيرته فى أداء مهام وظيفته، إذ أكد على طموحه فى أن يراه الناس باعتباره خلفا صالحا لماسبيرو، وذكر بادج أن المتحف البريطانى

كان قد أهدى أستاذه مجموعة كاملة من منشورات المصريات كاعتراف علنى بتميزه فى مجال العلم، فهل يستطيع بادج أن يرتب الأمر بحيث يمكن للأوصياء أن يكرموه بنفس الطريقة؟ "فألمح بادج بأن هذا ربما يتوقف على ما يبدیه جريبوت من تساهل مع ممثلهم فى مصر، وكان فى ذلك يتلمس لحظة تكون له فيها اليد العليا، ولكن فى تلك الليلة وضع جريبوت الشرطة لمراقبة الفندق الذى يقيم به بادج.

لاشك فى أن رواية بادج الغريبة الهزلية عما حدث بعد ذلك رواية يلونها خياله النشط وكذلك رغبته فى تصوير نفسه كوغد واسع الحيلة، ينقذ كنوز النيل من تخريب جريبوت ذلك الموظف البيروقراطى. وتمكن بادج من مراوغة الحرس الذى نصبه جريبوت واتجه إلى الأقصر، حيث استطاع أن يؤثر فى السكان المحليين تأثيراً قوياً حتى إنهم دلوه على مجموعة كبيرة ومهمة من البرديات. وفى اليوم التالى قبض عليه رئيس الشرطة المحلى، بناء على أوامر صادرة من جريبوت، الذى كان يبحر وراءه فى مركب بخارى. واتفق أن قبطان المركب البخارى كانت له ابنة كانت ستتزوج فى ذلك اليوم ذاته فى إحدى القرى على ضفة النيل، وحدث أن رست المركب عند الشاطئ فى الليلة السابقة، وصار من المستحيل تحريكها إلى أن انتهى العرس. فأمر جريبوت بإحضار حمار كى يتمكن من الاستمرار فى ملاحقته لبادج، ولكن حين سمع القرويون بأن الركوبة من أجل رئيس مصلحة الآثار الذى يكرهونه، ساقوا جميع الحمير إلى الحقول، وادعوا بإصرار أنهم لا يمكنهم الإمساك بأى من الحمير.

وبينما كان بادج يشعر بالابتهاج لسماع هذا النبأ الذى أبلغه به شخص ذهب إليه عدوا، كانت تواجهه مشاكل أخرى. إذ كان تأخر جريبوت معناه أن بادج لديه يوم بأكمله كى يخفى فيه ما وجد. على أى حال، كانت هذه الأشياء مخزنة فى منزل تحت الحراسة، إذ يوجد رجال شرطة فوق السطح وكان هناك شرطى عند كل ركن. فى البداية، لم يظهر أن هذه مشكلة لا يمكن التغلب عليها، فالتجار الذين كانوا متحالفين مع بادج استخدموا طريقة فنية بسيطة لها تاريخ طويل من النجاح. وهى أن يغرقوا الحرس فى الخمر ويقدموا لهم المبال. على أى حال رفض الحرس

الكونياك. وبعد أن امتدح التجار الحرس على ما يتمتعون به من أمانة ونزاهة، غادروا المكان مظهرين قدرا كبيرا من خيبة الأمل.

والذى حدث فى واقع الأمر، أن التجار ذهبوا إلى المبنى المجاور، أى إلى مدير فندق الأقصر، الذى كان جدار حديقته ملاصقا لجدار الدور السفلى (البدروم) الخاص بالمنزل. وفهم المدير المشكلة على الفور، وجعل بستانيه يحفرون نفقا خلال الجدار. وبما أن الجدار كان مبنيا من الطوب الطينى الذى يمكن إزالته دون إحداث الكثير من الجلبة، لم يبد من الضرورى إلهاء الحرس إلا حين جاء دور وضع ألواح خشبية للنفق. وكمكافأة لهم على روحهم الصافية فى أداء الخدمة العامة، أرسل لهم المدير صينية نحاسية كبيرة يعلوها الأرز والزبيب وفوقها نصف خروف، كل هذا مغمور بشحم الضأن. وبينما كان الحرس يتناولون الوليمة وهم يقومون بعملهم فى الحراسة فى مواقعهم، أخرج البستانيون جميع الآثار بهدوء، من النفق إلى الفندق، لكنهم لم يتمكنوا من إخراج مومياء وكفن، فما كان من بادج إلا أنه خلف تلك الأشياء وراءه كى يجد جريبوت شيئا يصادره حين يصل أخيرا.

إذا اشتم المرء من وراء هذه القصة رائحة العمل الأوبرالى، فإن خاتمتها تتسم بما يحدث فى النهايات الهزلية طبقا لرواية بادج، فقد اتجه إلى القاهرة ومعه الصناديق التى تحتوى على آثاره التى حصل عليها بشكل غير قانونى. تصحبه عن بعد جماعة من رجال الشرطة بأوامر من جريبوت. وقطع الجزء الأخير من الرحلة بالسكة الحديدية، فوصل إلى محطة القاهرة فى منتصف الليل. فلما لم يجد حمالين يساعدونه على حمل الصناديق جلس بجانبها فى المحطة، فى انتظار طلوع النهار حين يحضر الحمالون للقيام بعملهم. وجلست جماعة الشرطة على مسافة قصيرة ووضعوه تحت المراقبة. وعند بزوغ أول خيط من خيوط الصباح، رأى بادج ضابطين بريطانيين كانا قد خرجا من أجل القيام بجولتهما الراكبة الصباحية، فحياهما وكأنهما بعض معارفة. فلما رأى الضابطان سيذا إنجليزيا يواجه بعض الصعوبات، أمرا رجال الشرطة الذين كانوا يحرسونه بأن يرفعوا صناديق الممنوعات ويحملوها إلى المدينة. وحين رأى ضباط الجمارك الموجودون فوق كوبرى قصر النيل صفا من رجال الشرطة تحت قيادة ضابطين بريطانيين راكبين، ما كان من رجال الجمارك إلا أن أدوا التحية وأشاروا لهم بالمرور.

أما المعضلة الأخيرة، فقد تم التغلب عليها عن طريق ميجر هيبير من سلاح المهندسين الملكى، إذ إنه قد سمع أن محتويات تلك الصناديق تم شراؤها بأموال المتحف البريطانى، وأنها جاءت من الخزانة البريطانية. لذا فقد أعلن أن هذه الأشياء تعد ملكية عامة من واجبه حمايتها، فشحنها إلى خارج مصر مع أمتعته الشخصية. وشعر بادج بالرضى من أن مصلحة الآثار كانت تفتقر إلى الذكاء والكفاءة، وأن موظفيها يتسمون بالفساد.

وربما يكون مما يبعث على الدهشة تلك السهولة التى استطاع بها أن يفوز بدعم الضباط البريطانيين فى مواجهة نفوذ سير إفلين بيرينج، فقد أهان القنصل العام بطريقته الطاغية المتعالية أبناء وطنه، فكان هناك دائما شعور بالتعاطف بين أفراد جيش الاحتلال مع رأى القائل بأن القوانين التى تسبب ضيقا لمواطنى القوة المحتلة لا يجب أن توضع موضع التنفيذ، كما أن بادج كان مؤيدا للرأى القائل بأنه إنما كان يقوم بتهرب كنوز مصر لصالح تلك الكنوز. وبما أن مصر هى مهد الحضارة، إذن فإن آثارها هى آثار العالم المتحضر، ولا يمكن تركها نهبا لنزوات التجار المحليين وعوامل تعرية الرياح وأثر الرمال، كما لا يمكن أن تترك تحت وصاية مصلحة الآثار الهدامة عديمة الكفاءة، لذا فإن المكان المناسب لتذكارات مصر هو المتحف البريطانى، لأنها تكون هناك فى مأمن حتى من المصريين، ذلك أنه من قديم الزمان، كان المصريون ينهبون قبور موتاهم، فمصريو العصر الحجرى المتأخر كانوا يسرقون الصوان والحجارة والأباريق الفخارية، وفى عصر الأسرات حين كانت الحلى وأدوات الزينة والخواتم والتماثم تدفن مع الموتى، كان اللصوص يهاجمون المقابر ويسرقونها... وسواء بنى أحد الملوك هرما كى يغطى جسده، أو حفر قبرا فى بطن الجبل، فإن النتيجة واحدة. إذ كان اللص يجد طريقه إلى حجرة التابوت الحجرى ويسرق الموتى.

أما فى الأزمنة الحديثة فإن الكنوز تؤخذ كى تتعفن فى متحف بولاق، حيث تحترق مياه النيل الجدار، كما كتب بادج، وتتكدس الشبورة المتصاعدة فوق الصناديق الزجاجية التى تحمى المومياوات، فكيف يمكن للأرواح الملكية من موتى مصر أن تستريح حين تعامل رفاتهم بهذه الطريقة المزرية؟! "كان الكثيرون من أولئك الذين يعملون بالروحانيات يزورون المومياوات فى المتحف البريطانى، ويؤكدون أنهم



فى كل ليلة تزورهم أرواح الراحلين. إن الظروف فى المتحف من الملاءمة بحيث تسمح بقيام التزاوج الحر بين أجسادهم وأرواحهم الحرة". ولم يكن التواصل مع المومياوات الملكية فى القاهرة ممكناً، لأن أجسادهم قد عوملت بإهمال وعدم احترام من جانب مصلحة الآثار.

وبهذه الطريقة، استطاع بادج ضمان تأييد قدماء المصريين أنفسهم. ومهما كان، فإنه لا يمكن أن يوجه من لوم للأثريين كأفراد على نقل المومياوات من مصر، إذ إن أى شخص غير متحامل لديه أية فكرة عن هذا الموضوع، يقر بأنه ما إن تنتقل المومياوات إلى رعاية الأمناء وتوضع فى المتحف البريطانى، فإن لديها بذلك فرصة أفضل للحفظ من تلك الفرصة التى قد تكون لها فى أية مقبرة، أو فى أى مكان فى مصر.

## الفصل التاسع

### علم آثار التوافه المهمة

أعلنت أول نشرة يقوم بتوزيعها صندوق استكشاف مصر التزامه "بعلم الآثار العاطفي" (\*)، فجعله هذا الإعلان على الفور متوافقا مع سياسات سير إفلين بيرينج Evelyn Baring أكثر من توافقه مع ممارسات واليس بادج Wallis Budge. تشكلت جمعية استكشاف مصر بهدف التعاون مع الأستاذ ماسبيرو، مدير المتاحف وأعمال التنقيب في مصر فيما يقوم به أعمال الاستكشاف. وتتعهد الجمعية بإجراء أعمال التنقيب خاصة في المواقع ذات الأهمية الكلاسيكية وتلك التي تتصل بالكتاب المقدس، دون التعدي على القانون المصري، الذي تؤول بموجبه الأشياء التي يتم العثور عليها لمتحف بولاق. ويوافق ميسيو ماسبيرو، من جانبه، على نشر النتائج عن طريق الجمعية. ربما يبدو من غير الحكمة لجمعية تسعى إلى جذب المساهمين أو المشتركين بأن تعلن عن نيتها بالإحجام أو الامتناع عن أن تحضر إلى البلاد نتائج ما تنقب عنه؛ على أى حال، فقد ارتأى مؤسسو الصندوق، عن حق، أنهم يستطيعون أن يعولوا على المساندة طالما كانوا يسهمون في النقاش العام الدائر حول الكتاب المقدس. ومع مقدم الثمانينيات من القرن التاسع عشر، كان علماء

(\*) بالمفهوم الوارد ذكره في الفصل السابق. (المراجع).

الكتاب المقدس من المحافظين لا يزالون قادرين على التطلع والأمل في انتصار الآراء التقليدية.

وحين نشر الأستاذ ويليام روبيرتسون سميث بعض الأفكار الأكثر تحررا في محاضراته الشهيرة الرائجة وكتبه، قدم للمحاكمة أمام كنيسة بريستري الحرة في أبردين، وتم فصله من منصبه عام ١٨٨١، وتسببت المحاكمة في فضيحة عامة. ذلك أن موضع النقاش هو مدى الاعتماد على العهد القديم كسجل لأحداث التاريخ، لقد مر ما يقرب من قرن منذ أن فتح معهد مصر أبواب البلاد للبحث في ماضيها؛ وتم التنقيب عن المواقع من الدلتا حتى الشلال الثاني؛ وتم نشر مجلدات ضخمة تسجل ما تم العثور عليه بالتفصيل، وتفسر التاريخ القديم لوادي النيل. لكن كانت هناك فجوات، ذلك أن جمعية بيرش لعلم آثار الكتاب المقدس، نفسها، أخفقت في أن تضع أمام الجمهور أى برهان أثري على الأحداث المسجلة في العهد القديم. لذا فقد احتاج صندوق استكشاف مصر إلى أن ينطلق ببحث تكون له جاذبية وأن يستحوذ على اهتمام الجمهور بحيث يهتم بهذا الجدل. كما أن الصندوق كان في حاجة إلى أن يستخدم رجلا مؤهلا للإسهام في هذا باعتباره أول منقبى الصندوق.

كان إدوارد نافيل Naville عالم مصريات سويسرى وأحد دارسى الكتاب المقدس. وتوافر له تعليم شامل رسمى غير معهود في مجال بحثه، إذ إنه درس في جامعة جنيف، والكلية الملكية في لندن، وجامعات بون وباريس وبرلين. كما كان تلميذا لليسبيوس Lepsius وساعد في نشر كتابه العظيم دينكاميلر Denkmäler. كانت اهتمامات نافيل Naville اهتمامات فلسفية بشكل رئيسي، وكان محافظا من حيث توجهاته الدينية. جاء إلى الصندوق ومعه اقتراح بإجراء بحث يتناسب تناسبا تاما مع المعهد، ففي الإصحاح الأول من سفر الخروج، نقرأ أن بنى إسرائيل تكاثروا في مصر وصاروا أقوياء لهم كثرة عددية، حتى إنه حين تولى ملك جديد لم يكن يعلم أى شيء عن يوسف، رأى أنهم يشكلون تهديدا. فعين هذا الملك سادة على هذا الشعب، فجعلوا منهم (أى من بنى إسرائيل) عبيدا، وأجبروهم على تشييد

مدينتين كمراكز تموين سُمِّيَا بِيَتْحُوم<sup>(\*)</sup> Pithom ورمسيس Rameses. لقد تمكن ليسبيوس من التعرف على مدينة رمسيس، ولكن ريجينالد ستوارد سميث جادل في صحة هذا التعرف في معجم سميث للكتاب المقدس.

وحين تقدم نافيل للصندوق باقتراح بالتقيب عن موقع بديل، بدا ذلك مشروعاً مثالياً يثير خيال الجمهور. إذ لو أن المدن المخازن كانت قد بنيت حقاً، لكانت من الكبير بحيث تبقى آثار تدل على ما بقي منها. وإذا أمكن الكشف عنهما وتم التعرف على الملك المسئول عنهما، لكان هناك، أخيراً، دليل علمي مستقل يشهد على صحة سفر الخروج. وقدم الكتاب الكلاسيكيون إشارات ساعدت على تحديد مكان المدينتين، إذ وصف هيرودوت القناة الموصلة بين البحر الأحمر والنيل، بأنها تعبر (باتوموس Patumos) وهي مدينة مذكورة في التراث العربي. وتم تحديد باتوموس على أنها مدينة با - توم أو بيتورن ومعناها دار تورن؛ وتورن هو إله الشمس المصري القديم بعين شمس (هليوبوليس). وقد أشار العالم الفرنسي شاباس في ١٨٦٤ أن بيتوم Pi-Tum عند المصريين لا بد أنها بيتحوم في العهد القديم، وأوحى بأنها ربما تقع إما في أبو كيشد Abu- Keshed، أو في تل المسخوطة على بعد ما يقرب من عشرة أميال جنوب غرب الإسماعيلية، لكنه تراجع عن هذا الرأي فيما بعد. على أي حال، فقد رجع نافيل للنصوص الجغرافية ولاحظ أن آثار الإسماعيلية خصصها رمسيس الثاني لتورن. لذا رأى إعادة إحياء تلك الفكرة، وأن يبحث في موقع تل المسخوطة. وكان عليه، أولاً، أن ينتظر إلى أن تضع حرب ١٨٨٢ أوزارها، كما كان عليه أيضاً أن ينتظر إلى ينحسر فيضان النيل بشكل كاف، بحيث يكون من الممكن القيام بالتقيب في الدلتا.

وفي يناير من عام ١٨٨٣، بدأ في التقيب مزوداً بتبرع من أرازموس ويلسون قدره ١٥٠ جنيه، وقد وعد بالتبرع بمبلغ آخر قدره ١٠٠ جنيه إذا دعت الحاجة. وكان هدف نافيل الرئيسي هو ومسانديه، اكتشاف صلة أثرية ملموسة بالكتاب المقدس، وقد نجح في هذا نجاحاً تاماً، إذ أماط اللثام عن بقايا مدينة،

(\*) أو بيت أتوم (إله الشمس العظيم الآتي من هليوبوليس) عن معجم الحضارة المصرية القديمة، بوزنر وآخرون. (المراجع).

ومعسكر بتحصيناته، وعدد من الهياكل الأخرى من الممكن أن تكون مخازن. وكان هناك ما يدل على أن رمسيس الثانى هو الذى أنشأ هذه المدينة، غير أنه لم توجد أية علامات تقيم صلة بينها وبين بنى إسرائيل. ومع ذلك وضعت مجلة لندن المصورة عنوانا رئيسيا للخبر الذى ذكرته عن الاكتشاف، يقول: "مدينة مدفونة تشير إلى الخروج"، وأنهت الموضوع قائلة: "لقد تحققت الحقيقة الجغرافية الأولى فى الإقامة فى أرض مصر فى الاكتشاف الذى تم فى بيتحوم. إن التطابق التاريخى لرمسيس الثانى مع الفرعون الظالم هو أيضا نتيجة للدليل القوى. إن اكتشافا بسيطاً لم يستغرق وقتاً طويلاً أفسد مئات النظريات، وقدم تصويراً مدهشاً للطابع التاريخى لسفر الخروج".

ولم يقنع "التصوير المدهش" جميع الأطراف المهمة بهذا الموضوع: إذ لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعتمد فيها تفسير الأدلة على الولاء الدينى للمفسرين، فالذين كانوا شديدي الحرس على إثبات تاريخية العهد القديم كانوا راغبين أشد الرغبة فى أن يجدوا ذلك فى أعمال التنقيب التى قام بها نافيل، فى تل المسخوطة. غير أن هناك آخرين ممن كان يداخلهم الشك. فنجم عن ذلك الجدل دعاية ممتازة للصندوق، مما زاد من عضويته.

وكان هناك انتصار آخر أقل أهمية فى تل المسخوطة، ذلك أن ماسبيرو قد أقنع الخديوى بأن يهدى اثنين من أفضل التماثيل التى عثر عليها هناك إلى سير أرازموس ويلسون، الذى قام بدوره بإعطائهما للمتحف البريطانى. هذان التمثالان هما نسر من الجرانيت، وآخر يمثل كاتبا يجلس القرفصاء. لقد نجح انطلاق عمل الصندوق فى مصر نجاحاً عظيماً، إذ إن نفس الجدران التى بناها بنو إسرائيل فى أسر العبودية تم اكتشافها. كذلك تم أخيراً تحديد الفرعون المذكور فى سفر الخروج؛ وتحقق قدر كبير من الدعاية لنقاش حامى الوطيس؛ كما حمل الصندوق أثمن ما اكتشف من كنوز معه مكافأة له على قراره الجرىء غير المسبوق فى الالتزام بالقانون الذى كان يمنع تصدير الآثار.

وكان هدف نافيل التالى هو المقر الملكى القديم للفرعنة—مدينة زوعان Zoan التى يوحى الكتاب المقدس بأنها كانت عاصمة مصر القديمة، والتى وقعت فيها

الأعاجيب فى زمن موسى. لقد كان هناك اتفاق عام حول موقع المدينة، وهى بقعة من الأرض الجرداء تسمى الحمى فى شرق الدلتا أسماها الإغريق تانيس Tanis، وأسماها العرب صان. وبدأت إمبليا إدواردس فى العمل ودق الطبول من أجل جمع المال، بحماسها المعهود، فأخذت تتراسل مع أحد رجال الدين فى أمريكا، هو صاحب النيافة ويليام كوبلى وينسلو، الذى شن حملة فى الصحافة للحصول على "جواريف (جمع جاروف) من أجل زوعان Zoan".

كذلك انضم الشاعر وكاتب الترايم جرينليف هويتير Whitter وإن فعل ذلك بتردد، فكتب إلى مسئول الخزانة: "يسرنى أنك لفت نظرى إلى ما يجرى فى زوعان Zoan. إن المشروع يزكى نفسه بالنسبة لكل من يقرأ الكتاب المقدس، وكل طالب يدرس التاريخ وعجائب مصر الكبرى. وأود أن أشارك فيه. وأحس بقليل من التردد فى إزعاج مومياء ربما كانت تتبادل الكؤوس مع فرعون، أو ربما ألقى صاحبها نصف بنى half penny (عملة نقدية صغيرة) فى قبعة هوميروس، أو رفع قبعته احتراماً حين كانت تمر الملكة ديدو ملكة قرطاج، غير أن الفضول يستولى على نفسى وأنا فى ذلك أقتدى بمثال د. هولمز أوليفر وينديل هولمز وذلك بأن أرفق أمر اللقيتانت الحاكم إيمز Ames من أجل أحد أفضل جواريفه". وعد سير أرازموس ويلسون، الذى انتخب رئيساً للصندوق، بمبلغ ١٠٠٠ جنيه، ومسترو. هاولر أحد الأعضاء، قدم ٥٠ جنيه، من أجل تانيس إذا ما أمكن العثور على تسعة عشر شخصاً آخرين يقدمون نفس المبلغ.

كان نافيل قد زار المكان، وكان على ثقة من أنه سوف يكرر نجاحه الذى حققه فى تل المسخوطة من حيث التحقق من الكتاب المقدس، إلى جانب تدعيم المجموعة الأثرية فى المتحف البريطانى. على أى حال، فقد انسحب نافيل Naville فجأة، زاعماً أن ضغط العمل منعه من الذهاب إلى مصر فى ذلك الوقت. وقال أعداؤه إنه شديد الشغف بوسائل الراحة فى بيته؛ ومن المؤكد أن وصف ويلكينسون لتانيس باعتبارها "موطناً للصيادين، وملجأً للوحوش الضارية، وكونها مليئة بالزواحف وأنواع الحمى الخبيثة" لم تكن كل هذه الأشياء لتروق للعالم الذى بلغ منتصف العمر. مهما يكن من أمر، فقد عاد نافيل إلى الطبعة التى كان يمتلكها من "كتاب الموتى" مخلفاً فراغاً فى مؤسسة صندوق استكشاف مصر. وأصبح الرجل

الذى وقع عليه الاختيار لملء هذا الفراغ أشهر عالم آثار مصرى وأكثرهم نفوذا فى الزمن الحديث، فهو رائد المنهج الأثرى الحديث، وأول أستاذ فى علم المصريات فى إنجلترا، إذ كتب كاتب سيرة حياته أنه "وجد الآثار فى مصر مجرد عملية تصيد للكنوز، فلم يتركها إلا بعد أن صارت علما".

لم يتمكن ويليام فليندرز بيتري من الحصول على تعليم رسمى، لأن أبويه كانا يلتزمان بمبادئ حركة الأخوة للمسيحية الأصولية، الذى يؤمنون بفصل أنفسهم عن "مفسدات" المجتمع العلمانى. كان أبوه سبتيا أى يتشدد فى عدم العمل فى يوم الأحد كمسيحى، لذا فقد كتب لأحد جيرانه ذات مرة عن "جعل ببعائهم يلتزم الهدوء يوم الأحد". لقد قدم هذا الرجل لابنه دروسا فى التفسير الحرفى للكتاب المقدس، لكنه تركه وشأنه فى أمور التعليم العلمانى. كان وهو صبى، يكن شغفا بالكيمياء والجيولوجيا وجمع العملات. وكان هذا الحب لجمع العملات هو الذى أقام صلة بينه وبين المتحف البريطانى، حيث أصبحت لديه عين مدربة على كشف الأشياء الزائفة.

وفى عام ١٨٨٦، قرأ الأب والابن كتاب "تراثنا فى الهرم الأكبر" Our inheritance in the Great pyramid فأشعل فى قلوبهما حماسا جديدا. مؤلف هذا الكتاب هو تشارلز بياتزى سميذ Charles Piazzi Smyth الذى يعد من أبرز علماء الفلك وزميلا بالجمعية الملكية. وقد تصادف أنه صديق للعائلة. وربما كان هذا السبب بالإضافة إلى ورعه الشديد هو الذى جعل آل بيتري يهتمون اهتماما خاصا بما فى هذا الكتاب من نظريات شاذة غريبة. قامت هذه النظريات على أساس كتاب جون تيلر المسمى "الهرم الأكبر — لماذا بنى، ومن بناه؟"، الذى نشر عام ١٨٥٩. فى هذا الكتاب أصر تيلر على أن الهرم لا يمكن أن يكون قد بناه بشر. فهو مكتمل الأبعاد، كما أنه غاية فى الدقة من حيث التوجيه نحو نقطة فى البوصلة إذ يكاد يقع على خط العرض ٣٠، ولم يكن من الممكن أن تصل البشرية إلى تلك المرحلة من التقدم التكنولوجى اللازمة لتشييد الهرم دون عون، فى تلك الفترة الوجيزة منذ خلق الدنيا عام ٤٠٠٤ ق.م. لذا لا بد أن يستنتج من ذلك أنه قد تم بناؤه تحت إرشاد إلهى. فما إن يتم تفسيره تفسيراً صحيحاً، فإن توجهه وأبعاده تنقل رسالة الله للبشرية. وحين استخدم تيلر مقاييس فيز وبيرينج لاحظ أن ارتفاع الهرم يحمل نفس

العلاقة مع محيطه كما يفعل قطر دائرة مع محيطها. لذا، فإن المصريين القدماء، بإرشاد من الرب، ربعوا الدائرة. وتأسيسا على هذه النظرية افترض تيلر أن "بوصة من الهرم" مؤلفة من ١٠٠١ من بوصة كبرى، كل خمس وعشرين منها تكون "ذراعا مقدسة". لقد بنى بياترى سميذ على مقاييس تيلر، فأكد سميذ أن أبعاد الهرم الأكبر قائمة على هذا المقياس. وعلى هذا فإن تقدم الحضارة بأكمله منذ أوائل زمان الكتاب المقدس ترمز إليه الممرات والدرجات وتغير الانحدارات المؤدية إلى قاعة الهرم العظمى.

اشتعل حماس آل بيتري، الأب والابن بهذه الأفكار، التي بدا أنها تقيم زواجا بين المنهج العلمي وما سجله الكتاب المقدس. وكتب ويليام إلى سميذ معبرا له عن حماسه ومشيرا إلى أن المسافة بين الشمس والأرض هي بالضبط "١٠ إلى ٩ مرات الارتفاع الرأسي للهرم الأكبر". ويعد هذا مزيدا من التأكيد على أصله الإلهي. في ١٨٧٠ حين كان ويليام في السابعة عشرة من عمره، كتب إلى صحيفة الميكانيكي الإنجليزي وعالم العلم مدافعا عن نظرية الهرم في وجه نقادها. وبعد ذلك بأربع سنوات ظهر كتابه الأول: "أبحاث عن الهرم الأكبر"، عام ١٨٧٤. وكان الكتاب يرمى إلى التأكيد "على تلك المبادئ المميزة في تصميمه وتشيدته التي أعلن عنها لأول مرة ذلك الرجل الحكيم جون تيلر والأستاذ بياترى سميذ".

حصل ويليام بيتري على فرصته الأولى لزيارة مصر عام ١٨٨٠، وكان ينتوى القيام بتنفيذ مسح للهرم الأكبر بحثا عن المزيد من الأدلة التي تؤيد نظرياته. وبالرغم من أن عمله كان مقتصرًا على الهرم، إلا أنه لاحظ بنقزز، النتائج المدمرة لأعمال التنقيب التي تقوم بها مصلحة الآثار في المقابر المجاورة: "ليس ثمة ما يفوق الوحشية وعدم المبالاة التي يتسم بها العرب الذين أقدموا حتى على تجريد معبد الجرانيت من المرمر منذ اكتشفه مارييت، والذين لا يجدون من يراقبهم هنا. ليس أبشع من هذا، سوى ذلك النوع من الهمجية في التعامل مع الآثار من جانب من بيدهم السلطة، إذ لا يبدو أن هناك ما يتم عمله بأى قدر من التنسيق؛ أو الخطة المنظمة. فالعمل يبدأ ويترك دون إكمال.... ما يبعث على السقم أن يرى المعدل الذى يتم به تدمير كل شيء، والقدر القليل من الاهتمام الذى يولى للحفاظ عليه. لو أن جميع ما يوجد هنا فى النل قسم على جميع المتاحف الحكومية الأوروبية وأطلقت



لتلك المتاحف كل الحرية فى أن تأخذ ما تشاء، وأعطيت السلطة للاحتفاظ بما تستولى عليه هنا، لربما أمكن عمل شىء أكثر بعثاً على الرضى. ذلك أن أى شىء يعد أفضل من ترك الأشياء تدمر بالجملة؛ فمن الأفضل إفساد نصف الموجود من أجل الاحتفاظ بالنصف الآخر من ترك كل شىء يتحطم".

قام بىترى بجمع عدد من الأشياء الأصغر حجماً. ومع اقتراب الموسم السياحى من نهايته، كان التجار الذين كانوا يتجرون حول الأهرام على استعداد أن يبيعوا ما لديهم بأسعار رخيصة. وكانت لدى بىترى معرفة كافية بالأعمال المزيفة تمكنه من شراء ما يوثق به. فاشترى أعمالاً من البرونز والعملات والجعارين، وكذلك اشترى قطعاً صغيرة من الفخار لا يلتفت إليها أحد، كان د. بيرش قد طلب منه جمعها حين كان فى المتحف البريطانى. ويبدو أنه شعر بالدهشة وقدر من الصدمة من أن ماسبيرو مدير الآثار نصحه بالأى يعلن عما معه فى الجمر، وإنما يحمل تلك الأشياء فى جيبه.

كانت العروض التى تكتب عن كتاب بىترى تلقى القبول بوجه عام، وعلى الأخص من جانب التايمز والساتردى ريفيو اللتين كانتا أشد تحمساً. وكتبت إميلي إدواردس بإسهاب عن الكتاب وانتهت إلى القول: "لا يمكن أن يكون هناك جدال حول الأهمية الخاصة سواء فى العمل الذى قام به مستر فليندرز بىترى، أو الكتاب الذى قام بتأليفه؛ غير أن الكتاب يخلو تماماً من أى نزعة إلى المظهرية، حتى إن القراء ربما يعجزون عن إدراك أهمية الخدمات التى أداها للتاريخ والعلوم". وعرض بىترى الكتاب على بول فى المتحف البريطانى، فلم يتردد بول فى أن يثنى على الرجل عند صندوق استكشاف مصر حتى يحل محل نافيل، ومنحت إميلي تلك التوصية تأييدها الحار، فتم تعيين بىترى براتب مقداره ٢٥٠ جنيهاً شهرياً، لتغطية تكلفة أعمال التنقيب بالإضافة إلى نفقاته الخاصة. وأصر بىترى على أن تكون شروط تعيينه مختلفة عن شروط نافيل فى جزئية معينة، إذ أصر على أن يسمح له بشراء الآثار الصغيرة التى يمكن أن يعثر عليها عماله أو يحضرها التجار إلى مكان الحفر، والتى يرى بىترى أنها مواد أساسية يمكن استنباط التاريخ القديم منها.

وصحيح أنه كانت هناك تلك المشكلة المتعلقة بالقانون، الذى ينص على أن أية قطعة أثرية مهما كانت صغيرة إنما هى ملك لمتحف بولاق، ولكن بىترى قد

توصل إلى حل: فلسوف يقدم نفسه لماسبيرو ويطلب أن يعمل في مصر كوكيل للمتحف، ولديه تفويض بأن يشتري الآثار نيابة عنه، وفي النهاية سوف يقدم المجموعة بكاملها لماسبيرو، ولا يطلب إلا أن يسمح له بأن يأخذ معه إلى بلاده تلك الأشياء التي لا يريدها ماسبيرو، وعندها تكون تلك الأشياء متاحة للصندوق كى يقوم بتوزيعها على المتاحف البريطانية والأمريكية، مع إشارة إلى "أن التبرعات تلقى كل الترحيب". وبدا هذا مشروعاً ممتازاً، مادام وافق ماسبيرو عليه. وقيل لبيترى أن يسافر إلى مصر عن طريق باريس، حيث زار مدير الآثار كى يطالب موافقته، وأعطى ماسبيرو موافقته في الحال، بشرط أن تظل الاتفاقية سرا إلى أن يعود هو إلى القاهرة. وانتقل بيترى من باريس كى يستقر في تانيس.

وحين زار نافيل المكان من قبل كان قد وصفه بأنه مكان بشع، وتأكد بيترى من هذا بناء على تجربة شخصية: "يمكن عبور الخلاء الفسيح المسطح من الأرض، على مستوى البحر، والذي تغطيه برك من الملح تجف ببطء، يمكن عبوره لمسافة أميال، دون أن يرى المرء سوى تغيرات موحشة من التراب والطين الأسود والماء، ثم الطين الأسود مرة أخرى... ولا يكسر تسطح الأفق المجذب سوى تلك الروابي الخفيضة من مدن الموتى. فهذه وحدها هي الباقية التي تبين أن هذا الإقليم كان في وقت ما أرضاً حية عاش شعبها حياة مرفهة على وجه الأرض... وأول ما تراه العين في صان أكواخ العرب البائسة... على أحد الجانبين، هناك جدول يغطيه الطين يلقون فيه جواميسهم الميتة، ومنه يشربون. وإلى الجانب الآخر، يوجد مستنقع ملئ بالقبور المتعفنة والقذارة، ولكن الروابي العالية التي ترتفع خلف هذه الكتلة من السمك الميت التي تصيب المرء بالغثيان والأطفال الأحياء والذباب، هي بقايا تانيس الإغريقية والرومانية، وهي مدينة منظمة جيدة البناء".

بنى بيترى لنفسه كوخاً خشبياً صغيراً، واستخدم ما يقرب من أربعين من الرجال والنساء والصبية كى ينظفوا المنطقة، وأصر على أن يدفع لهم أجورهم بنفسه ليتأكد من أن النقود وصلت إلى أياد رآها تعمل. واعتاد أن يبدأ العمل بنفسه فيرى من يقومون بالحفر في موقعهم في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، بأن ينفخ في صفارة حتى ينطلقوا في العمل. وكان يعود إلى كوخه بين الثامنة والتاسعة

للتناول الإفطار، ولكنه كان ينظر إلى العمال من خلال تليسكوب من بابهِ الأمامي. وكان يعمل بجد كما كان يقظاً دائماً لأى تراخ ولا يتسامح إذا ما وجد ذلك. وكان يجلب النعاس إلى عينيه عن طريق تناول الكينين والستريكينين كى يدرأ حمى المستنقعات، ويعيش على الأطعمة المعلبة التى كان يأتى بها من القاهرة.

وكان يكتب يوميات يرسل بها إلى بلاده لأسرته وأصدقائه المقربين. وحين سمعت إميليّا عن هذه اليوميات، رأت فيها فرصة يجب أن تغتنم فاستخدمتها كأساس لسلسلة من المقالات فى التايمز. وكانت تخص بيترى بنصف المصروفات<sup>(\*)</sup>، وكتبت له فى نهاية موسمه الأول بلهجة الشخص الذى يلتهب حماساً.

فى تانىس، عام ١٨٨٤، كشف بيترى عن اثنين من أكبر الهياكل أو الأبنية التى صنعها المصريون القدماء: معبد رمسيس الثانى، وتمثاله العملاق، الذى اعتقد أنه أكبر تمثال تم نحته. كان مصنوعاً من الجرانيت الأحمر من أسوان، وربما كان طوله الأصلى ١٠٠ قدم. كان يتخذ وضعاً هيراطيقياً، أى يشبه كتابة مصرية قديمة أبسط من الهيروغليفية، أو كهنوتياً حيث الذراعان عند الجنبين، والقدم اليسرى تمتد إلى الأمام. شكل جليل وحيد يمكن رؤيته على بعد العديد من الأميال عبر المستنقعات المنخفضة المظلمة. ولم تتبق منه سوى قطع متناثرة. عموماً، لم تكن الأشياء الضخمة هى التى تجذب انتباه بيترى وإنما كان اهتمامه ينحصر فى أصغر الآثار. إذ كانت تنتشر على أرض موقع المعبد المئات من الخرز والتماثيل المغلفة بالزجاج، وقطع من الفخار، وأعمال زينة مصنوعة من الطين المحروق، وقطع أثاث من الزجاج والبرونز والعاج من المنازل التى ترجع إلى الحقبة البطلمية، بالإضافة إلى عملات من منازل الرومان الأثرياء.

لم يكن أحد ممن سبقوا بيترى ليهتم بأى من هذه الأشياء، ذلك أنها لم تكن مثيرة أو مؤثرة أو تحدث لذة جمالية، كما لم تكن مصنوعة من المعادن الثمينة — لكن بيترى كان يشرع فى الوصول إلى طريقة لتفسير المفاتيح (الدلالات) التى تقدمها هذه الأشياء عن التاريخ المصرى. فصنع صناديق من الخشب كى يحفظ

(\*) ربما يقصد ما تتقاضاه عن المقالات. (المترجم).

فيها تلك الأشياء النافهة التي لا يهتم بها أحد، أولاً، كان يجب أن تؤخذ هذه الأشياء إلى متحف بولاق، وهناك حزن بيترى لأن ماسبيرو احتفظ بالكثير منها للمتحف. لقد كان هذا جزءاً من الاتفاقية، لكن بيترى كان يداخله شك في أنها إنما قصد بأن تكون من أجل حانوت المتحف حيث تباع للسائحين. وحتى تلك التي وجدت طريقها إلى المجموعات الدائمة سوف تغرقها جميع محتويات صناديق العرض غير المحددة أو التي لا يكتب ما يدل عليها. على كل حال، فقد سُمح لبيترى بأن يأخذ معه إلى وطنه مجموعة تكفى لأن تعرض في المعهد الأثرى الملكى فى لندن قبل أن يتم توزيعها بين المتحف البريطانى ومتحف الفنون الجميلة فى بوستون.

كان بيترى مثلهفا للعودة إلى مصر فى الشتاء التالى لمتابعة اكتشاف قام به فى الجزء الغربى من الدلتا. ففى أحد الأيام، اشترى، بالصدفة، من التجار فى الجيزة تمثالاً صغيراً من المرمر جيد النحت لأحد المحاربين، وحدده هو على أنه إغريقى وليس مصرياً، فسأل أين وجد، فقليل له عن مكان يدعى نيريب Nerib بالقرب من كفر الدوار فى الدلتا. ووجد بيترى أنه لا وجود لمثل هذا المكان، ولكنه لحسن حظه، التقى باثنين من تجار الجيزة، فأخذه إلى نبيرة Nebeira حيث قالوا إن التمثال جاء من هناك. وكتب فى يومياته: "آه، يا لها من أوليمة من الفخار. إن الأرض تمتلئ بالفخار الإغريقى من الزمن القديم... ويبدو لى أن من أعمال تدنيس المقدسات أن يسير المرء فوق هذه الأكداث حيث المصنوعات السوداء اللامعة تتكسر تحت حذائه... بدا وكأنى أتجول فى حطام حجرات الزهريات بالمتحف. لم تمر بحياتى نصف ساعة مثل تلك".

من الواضح أنه كان موقعا لمستوطنة إغريقية ثرية، فاحتفظ بيترى باكتشافه لها سرا حتى تتاح له الفرصة للتنقيب. فأتاح له الصندوق هذه الفرصة فى شتاء عام ١٨٨٤. وفى نوفمبر، عاد إلى القاهرة وأخذ يشتري خزانات ويضع الخطط. واستأجر بيترى منزلاً ريفياً قديماً حجريا بالقرب من الموقع وبدأ العمل فى تصنيف الفخار وتسجيله. ثم لاحظ وجود قطعة مكسورة من الحجر تستخدم كجزء من عمود البوابة فى مدخل بيته. وكانت عليها كتابة باليونانية. فى بداية الكتابة: "مدينة نوقراتيس Naucratis هذه"... بهذا كان بيترى قد اكتشف أهم مركز تجارى إغريقى فى الزمن القديم. ويذكر هيرودوت أن نوقراتيس كانت المؤسسة

الإغريقية القديمة الوحيدة في مصر، ولقد منحت حق احتكار التجارة في القرن السادس ق.م. وازدهرت حتى صارت أهم مركز إغريقي في مصر قبل تأسيس الإسكندرية. وكان موقعها موضع جدال بين علماء المصريين على مدى جيل كامل. وعلى الفور أرسل بيتري ببرقية لبول يخبره فيها بالنبا، وأخذ يبحث عن أيدي عاملة. وكان عليه الانتصار حتى انتهاء موسم حصاد الذرة، حين يأتي القرويون من أهل المنطقة إلى الموقع بحثا عن عمل، ومرة أخرى أصبح بيتري صرافا ورئيس عمال، يبدأ اليوم بصفارته، ويراقب سير العمل من خلال تليسكوبه. كان هناك شيء واحد يثير القلق في الموقع تمثل في الجيزاوية، أي التجار من الجيزة الذين كان لديهم فضول بالنسبة للاكتشاف الجديد، وكانوا يتسكعون على أطراف المكان يحاولون شراء الآثار. وكان بيتري من آن لآخر، يخف في يوم من أيام الحفر لمطاردتهم عبر الحقول ويقفز فوق الترع ويختفي بين الشجيرات.

وكانت المضايقات الآتية من لندن أقل بعثا على الانشغال، ذلك أن كلا من بول وإميليا إدواردس كانا يكتبان بانتظام إلى بيتري يستفسران عما أحرز من تقدم، وكانا كثيرا ما ينقلان تعليمات متناقضة عن الصندوق. فحين تسلم بول النبا البرقي عن الاكتشاف رفض أن يعطيه أي قدر من الدعاية أو الإعلان، انتظارا للمزيد من التأكيد. لكن إميليا كانت دائما حريصة على تجميع المزيد للصندوق، ففكرت في خدعة دعائية تتحدث عن بيع قطع من الطوب المصنوع بدون قش "مثل تلك التي أجبر فرعون القاسي أبناء إسرائيل العبيد على صنعها". فهل في وسع بيتري أن يرسل لها ١٠٠٠ من هذه القطع من بيتحوم، فأشار بيتري بأن التجارة في بقايا المباني مسألة مشكوك فيها أخلاقيا؛ وأن التكلفة سوف تكون جسيمة؛ ولن يكون من الأمانة ادعاء أن هذه القطع من الطوب قد صنعها بنو إسرائيل من العبيد، طالما كانت قطع الطوب المصرية القديمة غالبا ما تصنع بدون قش، فتم التخلي عن المشروع.

كان اكتشاف نوقراطيس نبأ مثيرا، خاصة في فرع الصندوق الأمريكي لاستكشاف مصر، الآخذ في النمو. كانت مراسلات إميليا النشطة هي التي أخرجت هذا الفرع إلى حيز الوجود. وقالت إن الصندوق يضم هناك ١٧١ مشتركا "من بينهم ثلاثة من رؤساء الكليات، وسبعة وعشرون من كبار رجال الكنيسة، وتسعة

عشر من أبرز أساتذة الجامعة، واثان وثلاثون من أعضاء الكونجرس". ومع ذلك فإن عالم العلم كثيرا ما ينبت الجدال؛ وقد قيل إن دراسة الآثار ليست بعلم؛ وإنما هي ثأر. فكان أعداء الصندوق في إنجلترا يشحذون سكاكينهم. ذلك أن التقارير عن اكتشاف نافيل في تل المسخوطة كانت قد حركت العداوات بالفعل، كما أن ما نشره عن بيتحوم (بيت أئوم) أصبح فرصة لمهاجمة الصندوق، الذى دعمه. فكل من بول ونافيل اشتبهوا فيما أسمته إميليا إدواردس نفوذ بيرش وآريد وبادج، فى المتحف البريطانى الذين ظلوا معادين للصندوق رغم أنهم كانوا المستفيدين الرئيسيين من الآثار التى أحضرها منقبوه بالطرق القانونية. إذ إن بيرش قد أعلن معارضته للصندوق الأمريكى منذ ولادته على الرغم من أنه طلب من بيترى أن يحضر بعض عينات من الفخار؛ فالأولويات التى بدأ واليس بادج يقبلها كمعيار لتقويم الآثار، هى أولويات مشتركة على نحو أكثر مع معايير دلالى الآثار فى القاهرة وبلومزبرى Bloomsbury أكثر من اتفاقها مع معايير فلندر بترى .

كان بادج هو الذى حرر خطابا للصندوق صادرا عن المتحف يشكو فيه من أن الآثار التى تم التبرع بها عديمة القيمة. وقال إنه لا يمكن توصية الأمناء بقبول "كمية كبيرة من الفخار، وأشياء صغيرة هى من وجهة نظرنا عديمة النفع". ومع أن هذا التأكيد تم سحبه فيما بعد، إلا أن بيترى قد استشاط غضبا، وكتب لإميليا يقول: "إن الأقوال الكاذبة فى هذا الخطاب وكذلك الجهل الصارخ الذى يبينه فيما يتعلق بعلم الآثار العلمى الحقيقى يمنعانى من أن تكون لى أية علاقة بهذا المكان". وظلت هذه القطعية بقية حياته.

لقد وقعت هذه الحادثة فى وقت سيئ . فقبل ذلك بشهر، كان بيترى قد استقال من صندوق استكشاف مصر، إذ أغضبه التبيد وانعدام الكفاءة اللذان وجدتهما فى الإدارة، كما أن أملة قد خاب حين تم اختيار نافيل لتنفيذ أعمال التنقيب التى يقوم بها الصندوق فى العام التالى. وترك بيترى كى يعول مؤقتا، على موارد الخاصة. ثم كتبت له إميليا إدواردس، التى كانت له بها علاقة طيبة، كى تخبره بأن مبلغا كبيرا من المال قد وضع تحت تصرفه بواسطة "رجل شديد الثراء والذكاء من طبقة التجار، سافر إلى مصر وهو شديد الشغف والحماس للآثار المصرية". لم تلتق بالرجل سوى حديثا، لكنها تشعر بالفعل بأنه ربما يصبح "شيئا أشبه بسير

أرازموس ويلسون" وأنها سوف تعجل بالتصرف فقط إذا ما أعطى بيتري موافقته، فإذا كان هذا الأمر يروق لك، فلسوف أبدا في استخدام وسائلى وأعمل قوة نيرانى". وقامت إميلييا بمحاصرة جيسى هاويرث (رجل أعمال ثرى من مانتشيستر). وعلى الفور وضع هاويرث مبالغ من المال تحت تصرف بيتري، دون شروط مسبقة، وكتبت إميلييا تقول إنه "رجل متدين، فإذا استطعت أن تلقى أى ضوء على الكتاب المقدس... فلسوف يسره هذا ويرضيه. لكنه لا يريد أى نهب ويرغب فى ألا يكون ظاهرا، وألا يذكر اسمه بأى شكل".

وانطلق بيتري فى حياته العملية التى لا يكون فيها موظفا عند أحد أو هيئة فى صحة أكثر رجال الدعاية تأثيرا وتوفيرا للرعاية فى تاريخ علم الآثار. فلما استراح بيتري من القلق المالى، كانت العقبة الرئيسية أمامه هى مصلحة الآثار. واصطدم مع جريبوت، كما فعل بادج، ولكن لأسباب مختلفة، إذ إن بيتري كان يتطلع إلى التقيب والتسجيل وليس للنهب؛ فكان قلقا من أن موظفى المتحف يزيّدون من الانهيار الذى كلفوا بمنعه، فكتب: "إن أفعال متحف بولاق فى مصر تذكّرنى بذلك الشحورور فى حديقتنا الذى اعتاد النقاط كل عناقيد العنب البناتى الجميلة ويأكل واحدا منها ويدع بقيتها تتعفن على الأرض".

كان على بيتري أن يتواصل مع أو يتعامل مع جريبوت للحصول على تصريح بأن يقوم بالحفر كوكيل مستقل. فأشار جريبوت إلى أن الإنجليز قد منحوا تصريحاً بالحفر فى الدلتا وفى أسوان؛ وهو يريد أن يحتفظ ببقية مصر للفرنسيين. وكتب بيتري شاكيا: "إن النقود موجودة، والعامل موجود، لكن الكلب فى الحظيرة ولديه فراش لطيف دافئ فى القش، ولا يريد من أحد أن يزعجه".

ومما يدعو إلى السخرية أن الإشاعات انتشرت بأن بيتري كان يقوم بتهريب صناديق من الآثار. لقد كان حريصا على أن يجعل كل شىء واضحا مع ماسبيرو، وجاء خطاب من المدير المتقاعد أوضح فيه الأمور، لكن بيتري كان يمتعض من أن يربط الناس بينه وبين ما كان بادج يتبعه من وسائل، إذ كان يرى أن ذلك مسيء. فكتب إلى إميلييا إدواردس: "حين يعلم جريبوت كيف تصرف البعبع — وهى الكنية التى كانا يكتنيان بها بادج — فلسوف يجن جنونه، لأخذ ذلك الشخص المهذب ستة صناديق والمرور بها فى بولاق، لكنه ترك ١٧ صندوقا أخرى كى يتم

التعامل معها باعتبارها متاعا عسكريا مما أذهل أصدقاءه من العسكريين. وبعد أن رحل، سافرت هذه الصناديق السبعة عشر فى النيل، وتم إخراجها من البلاد؛ كان أحدها عبارة عن كتلة تبلغ ثلاثة أرباع طن، ولما تعذر وجود طريقة لتغليفها ونقلها، وضعوها فى أسوان، فى دواوين النوم فى القطار، وربطت معا بستة مسامير طول الواحد منها ست بوصات، وكانت هذه لقمة أكبر من أن تعد متاعا عسكريا؛ لكن مجر باجنولد، وهو الذى قال لى، وضعها فى الخيش الذى دهن كله، ونقش عليها توجيهها رسميا جميلا، وهكذا ذهبت".

بلغت معارضة ببترى لنقل الكنوز من مصر حدا جعله يساعد فى تنظيم لجنة فى لندن ازدهرت إلى أن صارت جمعية من أجل الحفاظ على آثار مصر القديمة. وكان أعضاؤها الأول يتكونون من الدوائر الفنية والفكرية فى العاصمة، من بينهم، بالطبع، إميليا إدواردس، والرسام هولمان هانت، وبيرن جونز، وج. وف. واتس، أستاذ الدراسات الآشورية بجامعة أوكسفورد، والأستاذ أرشيبولد سيس، وسير هنرى ليارد، الذى صار السفير البريطانى إلى القسطنطينية (إستانبول). وأقنعت الجماعة سلطات مصلحة الآثار بجباية ضريبة قدرها مائة قرش على كل سائح. وهذه الضريبة مع تذكرة دخول متحف بولاق وبيع الآثار فى حانوت المتحف، تستخدم فى إصلاح بعض معابد طيبة وصيانتها، وكذلك الأبواب المؤدية إلى مقابر الملوك. ومارسوا ضغطا من أجل تعيين مفتش إنجليزى للاطلاع على الأضرار وتقديم التوصيات. وتم إقناع لورد ساليسبورى وزير الدولة للشئون الخارجية بالكتابة لسير إفلين بيرينج طالبا منه وضع هذه الاقتراحات أمام حكومة مصر.

وعلى الرغم من تعاطف بيرينج مع أهداف الجمعية، إلا أنه كان ما يزال يشعر بالحساسية إزاء الازدراء الذى يبديه الفرنسيون، فقد تخلى عن آماله السابقة فى الترتيب من أجل انسحاب مبكر للكتيبة البريطانية فى مصر، وفى الثمانينيات من القرن التاسع عشر قرر أنه ليس من الحكمة تحديد تاريخ لرحيل البريطانيين، إذا كان لا يراد للبلاد أن "تنزلق عائدة إلى الهمجية الشرقية المسترخية، التى سادت فى غابر الأيام". وكانت هناك إمكانية ماثلة دائما وهى أن يدخل الفرنسيون فى حين يخرج البريطانيون. لقد كان مدى وطبيعة التدخل البريطانى فى الشئون المصرية هو الشغل الشاغل لبيرينج فى كل يوم — ولم يتم الإفصاح عن ذلك فى الاتصالات



الرسمية — غير أنه كان على وعى بأن أى قرار يتخذه كان موضع تفحص ونقد من جانب الفرنسيين الذين صنفهم باعتبارهم مصابين بمرض الخوف من الإنجليز، حتى لو كان الإنجليز ممثلين فى رجل واحد.

وفى فبراير ١٨٨٨، كتب إلى لورد ساليسبورى "إنهم غير معقولين تماما، ولديهم كره مزمن لإنجلترا يجعلنى أخشى من أى استعراض براق لسيادتكم فى مصر فى هذه اللحظة". كما كان بيرينج يعى بقلق أن الفرنسيين هم أول من اهتم بآثار مصر القديمة؛ فهم وحدهم الذين أوجدوا المتحف ومصلحة الآثار فى وقت كانت فيه بريطانيا تفضل ترك هذه الأمور لعمل الأفراد. كانت المصلحة هى تقريبا المعقل الأخير للنفوذ الفرنسى فى مصر، فكان بيرينج مترددا فى التدخل فيها، على الأصح لأنها كانت تسعى إلى الحد من رغبة مواطنيه فى الاستحواذ، فأدت به رغبته فى الإقلال من الضرورة الملحة لاقتراحات الجمعية إلى ألا يكون مصرا فى تأييد مطالبها، فأنتهى المشروع الذى يعارضه جريبو إلى لاشىء.

تمكن بيرينج من تشكيل لجنة لتقديم التوصيات بشأن تحديد تصاريح التنقيب، ولكن فى معظم الحالات يبدو أنه سمح لجريبو بأن يتبع طريقته الخاصة أو يكون مطلق اليد فى المنافسات. وفى إحدى المرات، زار بىترى بيرينج كى يشكو من المماطلات وقصور مصلحة الآثار، فوجد أنه متعاطف ولكنه عاجز. فقال إن بيرينج "كان منفتحاً تماماً ومسروراً بالنسبة لهذا الموضوع ولكن، من الواضح، أنه ليس حراً فى اتخاذ موقف قوى، إذ قال: "الصعوبة كلها تتجسد فى ذلك الرجل الوحيد، جريبو"، قال ذلك مرة مرة واضعاً قبضة يده على المنضدة".

وفى ١٨٩٢، أعيد جريبو إلى فرنسا، وانتعشت الآمال فى مستقبل أكثر سهولة. ومع كل، فقد تمكن جريبو، قبل رحيله، من تمرير نظم جديدة عن طريق مجلس النظام. صدرت هذه القواعد فى ١٧ نوفمبر ١٨٩١ بمرسوم خديوى، وهى تنص على ألا يسمح بأى أعمال تنقيب فى مصر دون تفويض صريح بواسطة "مدير المتاحف والتنقيب، وبعد قيام اللجنة الدائمة للمصريات بالفحص، وأن جميع الأشياء التى يتم العثور عليها تخص الدولة بحكم القانون، ويجب أن تودع فى المتحف".

وبالنظر إلى النفقات التى ينفقها المنقب، اقترحت الحكومة طريقة مبتكرة للتعويض تقسم الأشياء إلى قسمين متساويين فى القيمة ، يجرى من أجلها المنقب والإدارة قرعات عليها، وتحتفظ الإدارة بالحق فى أن تشتري من المنقب أى قطعة مشمولة فى الجزء الذى يقع تحت طائلته. تقدم الإدارة عرضا، ومن حق المنقب أن يرفضه، ويقترح ثمنا أعلى .عندئذ يكون للإدارة حرية الاختيار إما أن تشتري القطعة بذلك الثمن أو أن تبيعها للمنقب بثمن عرضها الأصلي. وبينما تبدو هذه القواعد معقولة، أدرك بىترى أنها أكثر انطباقا على الأثريين متصيدى الكنوز من انطباقها عليه، مادام سيكون مجبرا على تسجيل كل شئ عن الموقع، إذ إنه لن يكون على علم بما سيسمح له بالاحتفاظ به، ثم يفقد نصف ما وجده لصالح المتحف. رأى أن فرض القواعد يعبر عن عجز الدبلوماسية البريطانية عن حماية المصالح البريطانية. وأخبر أصدقاءه بأنه يفكر فى التقدم بطلب من أجل الحصول على المواطنة الفرنسية أو الألمانية حتى يمكنه الحصول على الدعم الذى يحتاج إليه، غير أن أصدقاءه نهوه عن هذه الفكرة. كان من حسن طالع علم المصريات البريطانى أنه بقى ، فلم يوسع بىترى من مجال هذا الموضوع فحسب، بل إنه أحدث ثورة فى منهجيته، بعد ثلاثة أيام من فرض القواعد الجديدة.

وفى ٢٠ نوفمبر ١٨٩١، بدأ بىترى الحفر فى تل العمارنة، التى بناها الملك الهرطيق أخناتون حين هجر طيبة ونقل عاصمة مصر إلى هذا الموقع، حيث عبد هو وزوجته نفرتيتى إله الشمس آتون. وكانا محاطين بموظفين منتقنين من بين المخلصين. وتل العمارنة هى أشبه بالمسرح الإغريقى القديم (الأمفيثيتر المفتوح)، يقع فى الشعاب على مسافة متساوية تقريبا بين المدينتين المرفوضتين، طيبة وممفيس. وجد بىترى أن هذا الموقع شئ يثبط الهممة: "إنه موقع مهيب كبير يصعب التعامل معه" حسب ما كتب . واستمر يقول: "تخيل أنك تبدأ فى استكشاف آثار بريتون (مدينة بريطانية) ذلك أن هذا الموقع هو فى حجم هذه المدينة". وسرعان ما وجد بىترى فى منطقة القصر ما وصفه بقوله: "أهم اكتشاف وجد من الناحية الفنية منذ تماثيل المدينة التى اكتشفها مارييت"، كان هناك الرصيف المرسوم، فهو ٢٥٠ قدما مربعا، حيث توجد به حدود رسمية من باقات زهر اللوتس بالتبادل مع أطباق الفاكهة. وهناك ممر يعبر الرصيف به بحيرة مرسومة

على كل جانب تحتوى على السمك والنباتات، وحول كل بحيرة هناك مشهد ريفي، صور العجول وهى تلعب بين الشجيرات، وبطة من نوع الببلول تنهض من بين أكداس من البوص والبردى.

قام بيتري بتصميم وبناء ممشى يرتفع عن الرصيف بتسع بوصات، حتى يمكن للزائرين أن يمشوا دون إلتافه، وغطى السطح بكامله بالتابيوكا Tapioca وهى مستحضر نشوى لصنع الحلوى إذ وضعها برفق بإصبعه الوسطى إلى أن جفت فصارت طبقة رقيقة واقية. وأصبح ذلك الرصيف مكانا رئيسيا لجذب السياح، وظل لبعض السنوات على جدول الرحلات النيلية التى تنظمها سفن كوك البخارية<sup>(\*)</sup>، وللأسف، مع أن جمعية الحفاظ على آثار مصر قدمت مظلة لحماية الرصيف إلا أنه لم يجر تمهيد ممر للوصول إليه، فكان السائحون يتعثرون فى الحقول المنزرعة وهم فى طريقهم إلى الموقع، وفى إحدى الليالى، حطم القروى الذى يملك الحقول الرصيف تحطيا إذ إن هذه كانت الطريقة الوحيدة لإنقاذ محاصيله.

ماتت إميلي إدواردس بعد عام من قيام بيتري باكتشافه أى عام ١٨٩٢، وتركت هبة فى وصيتها لتأسيس كرسى أستاذية للآثار المصرية فى يونيفرستى كوليدج، بلندن. ونصت الوصية على أن أى شخص يحتل منصبا فى المتحف البريطانى لا يسمح له أو يباح له احتلال هذا الكرسى، مما استبعد بادج. كما نصت على ألا يزيد عمر الشخص المعين عن أربعين سنة مما محا إمكانية تعيين معظم المرشحين الآخرين الذين يظن أن لديهم تميزا كافيا يجعلهم لائقين. وفى واقع الأمر، كان هناك مرشح محدد فى ذهن إميلي، وأطلعت منفذ الوصية على ما ترغب فيه. فتم تعيين بيتري عن استحقاق. وأقرت شروط تعيينه بحاجته المستمرة لأن يكون منشغلا "بأعمال البحث والاستكشاف الفعلى"، فسمحت له هذه الشروط بأن يكون حرا فى أشهر الشتاء للاستمرار فى عمله فى مصر. فأتخذ هذا العمل اتجاه عمل الأبحاث فى ثقافات النيل فى عهد ما قبل الأسرات. ذلك أنه لم تكن هناك الكثير من الأدلة على أصول الحضارة المصرية، لأن أعمال التنقيب السابقة

(\*) يبدو أن هذه نوع من شركات السياحة. (المترجم).

كانت تركز على الأعمال الفنية القيمة التى يمكن بيعها. لذا شاعت النظريات بين علماء المصريات، وأكثرها شيوعا هى أن حكام مصر أحضروا ثقافتهم معهم من بلاد النهرين وفرضوها على الشعب المغلوب.

وفى قفت Quft وهى بلدة صغيرة شمال الأقصر، اكتشفت ببيتري تماثيل من الحجر الجيرى غير جيدة تمثل الإله الأبوى مين Min. ومن الواضح أن هذه التماثيل كانت أكثر بدائية من أية تماثيل سبق اكتشافها. ثم استخرج، فى نقاده إلى الجنوب قليلا، مقبرة كبيرة تحتوى على الآلاف من القطع البدائية، كسكاكين من حجر الصوان، وبالتات حجرية Palettes أى أداة الرسم، ورؤوس صولجانات، بالإضافة إلى فخار لم يكن مصنوعا بواسطة الطاحونة، ولم يكن هناك أى أثر يدل على وجود الكتابة فى أى مكان. فعرف ببيتري أنه على اتصال بثقافة أقدم من أى ثقافة سبق التعرف عليها. وظن فى البداية أن هذا لا بد أن يكون جنسا جديدا من الغزاة قد يكونون من ليبيا. على أى حال، أظهر التصنيف الدقيق لأساليب الفخار أن هذه الثقافة تطورت بالتدريج عبر فترة طويلة من الزمان. واتضح أن فترة ما قبل التاريخ فى مصر يمكن دراستها فى وادى النيل دون حاجة إلى اللجوء إلى نظرية "الهجرة".

مع بداية القرن ( يقصد العشرين) حدث تغير فى فرص علم المصريات الإنجليزى. إذ إنه فى ١٨٩٩، تم إقناع ماسبيرو بالعودة إلى القاهرة مديرا للآثار. فأحكم الإجراءات فى وجه التنقيب غير القانونى، وأجرى الترتيبات بحيث تقوم إدارة الأشغال العامة بتعيين مفتشين، كلاهما إنجليزى، واحد لمصر الوسطى حتى أبيدوس، والآخر للجنوب. كما دفع ماسبيرو بتقديم علم المصريات وذلك بأن منح امتياز التنقيب فى أبيدوس لبيتري. تشتهر أبيدوس باعتبارها مدفن ثينيس Thinis أقدم عاصمة أسر فى مصر، كما تعرف بأنها موقع مقبرة أوزيريس، حيث كانت تمثل الطقوس السرية السنوية لموت الإله وبعثه. وفى الأزمنة القديمة، كانت مكانا للحج، وكان معظم المصريين يتمنون إما أن يدفنوا هناك أو أن تؤخذ موميائاتهم إلى هناك لبعض الوقت كى تقدم الاحترام للإله قبل أن تدفن نهائيا.

قام كل من مارييت وماسبيرو بالحفر فى هذا الموقع، وحملوا تماثيل من أجل متحف بولاق . وكان بيتري قد حاول عدة مرات الحصول على تصريح بالحفر، لكن طلبه دائما كان يقابل بالرفض لصالح الفرنسيين. ذلك أن إميل إميلينو قد منح الامتياز عام ١٨٩٥، واستخدم قوة عاملة كبيرة للبحث عن تحف يمكن تسويقها، وزعم أنهما قد حملا كل شىء ذا قيمة، وفتتا كل ما لم يأخذه. أما بيتري فقد وجد أن الفئات ذا قيمة، ذلك أنه عن طريق التعرف على أسماء الملوك من كسارة الأوعية الحجرية وأختام الجرار، وعن طريق المقارنة بينها بواسطة التشابه الأسلوبى وكذلك أوجه الاختلاف، تمكن من وضع تتابع تاريخى. وحين عرضت مكتشفات بيتري فى لندن، لاحظ أن التوافه التى لم ينتبه إليها أحد كانت تربى الذوق العام "ظهر شعور عام جديد، فبدلا من مجرد الاهتمام بالأشياء الجميلة أو الأشياء ذات المظهر اللافت للنظر، كان الناس يتعلقون بالمناضد مقتونين بكسارة من آثار الأسرة الأولى. وكان بعض النساء يقضين كل الساعة المخصصة لتناول غذائهن فى الحجرة".

استمر بيتري فى القيام بأعمال التنقيب السنوى فى مصر لمدة أربعين عاما. ولا يوجد من عمل فى كل هذا العدد من المواقع، أو قام بكل هذا العدد من المكتشفات الهامة. كما أسس مدرسة جديدة من الأثريين أكثر مسئولية. استطاعت هذه المدرسة الكشف عن فترة طويلة من التطور فيما قبل التاريخ، وذلك بتركيزها على الأشياء الدقيقة الغامضة أو الغُفْل. فعن طريق استخدام منهج التأريخ التتابعى، أمكن إذن للثقافات التى تتزايد تعقيدا أن يتعرف الأثريون عليها بقدر ما من الدقة. فالتأريخ التتابعى يعمل بمبدأ يرى أنه حين يتم استبعاد الأشياء، فإن ما يلقى به بعيدا اليوم سوف يسقط ويغطى على ذلك الشىء الذى ألقى به بعيدا بالأمس. لذا، فمن المعقول أن نفترض أن الأشياء التى تم العثور عليها بالقرب من سطح الأرض هى أحدث تاريخيا من تلك الأشياء التى توجد أسفلها. وحين طبق بيتري هذا المبدأ على أساليب مختلفة من الفخار الذى تم العثور عليه عند مستويات مختلفة، تمكن من تحديد سبع مراحل متتابعة من فخار ما قبل الأسرات، كل منها متصلة بالمرحلة التى تأتى قبلها، والتى تأتى بعدها على الأقل بملح واحد مشترك.

فالأشياء التى تم العثور عليها والتى هى متصلة بهذا الأسلوب من الفخار يمكن أن نفترض أنها تشترك معها فى عصر واحد.

قام بيتري بشرح طريقته للمساهمين فى صندوق استكشاف مصر عن طريق استخدام تشبيه بسيط: إذا ما افترضنا منزلا ريفيا كبيرا، وأننا أغلقنا كل حجرة منه واحدة تلو الأخرى دون أن نتمس عند وفاة كل مالك لتلك الحجرات بالتتالى، إذن عند مقارنة جميع المحتويات، سوف نرى ببسر أيا من الحجرات لها تواريخ متتالية، ولا يمكن لأحد أن يفترض أن حجرة تنتمى لفترة الوصاية على العرش تقع بين ماري Mary، وآن Ann، أو يفترض أن حجرة تنتمى إلى عهد إليزابيث تأتى بين حجرات تنتمى لجورج الثالث. ذلك أن ترتيب الحجرات يمكن الوصول إليه بدرجة من اليقين بإجراء مقارنة بين جميع قطع الأثاث والأشياء. وكل منها يمكن أن يكون له بعض صلات أسلوبية مشتركة مع تلك التى تليها، ونقاط تشابه أقل مع القطع الأخرى التى تبعد عن فترتها... هذا مبدأ ينطبق على المقابر كما ينطبق على الحجرات، وينطبق على الفخار تماما كما ينطبق على الأثاث.

لقد كانت مناهج بيتري تستهلك الوقت، كما أنها كانت تبعث على السأم، بما أنه كان من الضروري تسجيل الموقع الحقيقى لكل شىء بكل عناية. وهناك من يفضلون الحفر بسرعة، ويخلصون بأثمن الجوائز. فنافيل لم يكن ليقبل أيا من هذا الطرق، بما يتسم به من اندفاع المدرسة القديمة ونفاد صبرها. لذا كتب: "ربما أيضا تضع خريطة لمواقع حبات الزبيب فى قطعة من بودينج القراصية". ومهما يكن من أمر، فإن منهج بيتري هو المنهج الذى بقى وأصبح سائدا فى ممارسة علم الآثار الميدانى. ذلك أن إصراره على ملاحظة وتسجيل كل شىء يتم العثور عليه، مهما كان متواضعا، حل محل اصطلياد الكنوز المندفع السريع المتعجل الذى كان يتبعه أسلافه. كما قام بيتري باكتشافات لها مغزاها، إذ تلت مدينة نقراتيس مدينة كاحون Kqhun، وهى مدينة صغيرة تحوطها الأسوار تنتمى للدولة الوسيطة؛ والمقابر الكبيرة فى نقاده التى تنتمى لعصر ما قبل الأسرات، وكنوز من تل العمارنة، ومواد جميلة قديمة للغاية من المقابر الملكية فى أبيدوس.

فى هذا المكان، ومن خلال ما اكتشفه بيترى، تمكن من ترتيب ملوك مصر الأوائل بالتتابع. فلا يوجد شخص واحد فى تاريخ المصريين برمته تمكن من القيام بكشوف أثرية كبرى مثل ما فعل بيترى. وحين أصبحت طرقه الفنية التقنية أكثر انتشارا وبدأت الدوائر الأثرية تتبناها، تم إقناع بيترى بكتابة كتيب للعمل. ففى كتاب (مناهج وأهداف فى علم الآثار Methods aims in Archqeology) الصادر عام ١٩٠٤، هناك مؤشرات عن السبب، الذى ربما لم يجعل بيترى من العلماء المشهورين. ذلك أنه حين كان يعدد الصفات اللازمة كى يكون الشخص عالم آثار جيدا، وضع بينها الحس التاريخى القوى؛ والتعليم الجيد فى الفنون والعلوم؛ وقوة الملاحظة الحادة والذاكرة البصرية الدقيقة؛ والقدرة على الرسم الدقيق؛ وفهم لغات الحضارة القديمة التى يقوم الشخص بالبحث فيها؛ والقدرة على التحدث بلغة السكان المحدثين فى البلاد التى يقوم الشخص بالحفر فيها؛ وأضاف أيضا: "إن الأثرى يجب أن يكون متمتعا بقوة بدنية قادرا على العمل لساعات طويلة بالمعدات كالجاروف والمعول، والحالة البدنية يدل عليها قصر أظافره وصلابة جلده... إذ لا يوجد ما يعوض العمل بالأصابع فى استخراج الأشياء، وتتنظيف الأرض أى مسحها بركة ورفق؛ وربما يحاول المرء أن يعزف على الكمان بقفازين تأكيدا على الاحتفاظ بأصابع نظيفة وجلد جميل، إلا أنه على الأثرى الذى يكرس نفسه لهذا العمل أن يرتدى ما يمليه الموقف، إن الرجل الذى لا يستطيع أن يستمتع بعمله دون النظر للمظهر، ذلك الذى ليس على استعداد لأن يتجرد من ملبسه وينزل إلى الماء، أو يغوص فى الطين اللزج خلال ممرات مجهولة، أولى به ألا يقوم بالتنقيب".

لقد أعطى بيترى فى كتيبه نصائح تفصيلية فى اختيار العمال، فالسن الأفضل يكون بين الخامسة عشرة والعشرين، إذ بعد هذه السن "يستحيل الكثيرون إلى حمقى"؛ وكذلك يقدم نصيحة عن الطريقة الصحيحة للتعامل معهم: "إن أفضل طبقة من هؤلاء العمال هم أصدقاء المرء الشخصيين، وينظر إليهم كنظرتنا للخدم القدامى فى البيت الطيب". ويستحسن إلى حد كبير الاستغناء عن رئيس للعمال، إذ يجب على الأثرى أن يعول على إشرافه هو، ومن حسن الفطن اتباع نظام "التفتيش المفاجئ الفعال"، والوضع المثالى هو الاقتراب من العمل فى الأراضى الغائرة.

ويعد التليسكوب آلة لا تقدر بثمن كما تشهد على ذلك تلك الطرفة التي يستذكرها بيترى. ففي تانيس شاهد صفا من النساء يخرجن من حفرة عميقة وهن منشغلات، ويملن سلالهن من أعلى ، إلا أن التليسكوب أظهر أن السلال جميعا خالية.

وأصبح أسلوب بيترى فى الحياة مضرب الأمثال، "فكانت أى نقود يتلقاها تنقسم بين احتياجاته الخاصة واحتياجات الحفر، لذا خفض احتياجاته إلى الحد الأدنى. كانت لديه منضدة واحدة يعمل أمامها ويأكل... تضاء بواسطة قليل من الفتحات الصغيرة فى الحائط تحت السقف، وداخل حوض ضيق فى منتصف المنضدة، هناك صفا من علب الصفيح، تحتوى على أنواع الطعام المختلفة، وبالقرب من ذلك الوعاء فتاحة علب. ففكرته عن إشباع آلام الجوع حين تصبح حادة، هى الأكل من العلب المتعددة بشكل عشوائى حتى تصبح تلك العلب فارغة. وكان يعتبر أن من المسلم به أن العاملين معه سوف يفعلون نفس الشيء". هذا ما كتبه أحد الأمريكيين الذين كانوا يراقبون مخيم بيترى، وأضاف أن اثنين من زملاء بيترى تم إلحاقهما بالعمل حين كان يقوم كل منهما بتمريض الآخر من التسمم بالبتومين Ptochin وهى مادة سامة تتكون من تعفن البروتين. وكتب زائر أمريكى آخر: "لا بد أنه (يقصد بيترى) فقد الكثير من دقائق الشعور بسبب هذا الشظف المستمر... كنت جالسا أتحدث إليه حين انخلع حذاؤه أمامى فى حين كان يخرج الحجارة. لم يكن يرتدى جوربا وتعرت قدمه المتربة".

إن أفضل تلخيص لبيترى وهو يعمل نجده فى السيرة التى كتبها جيمز بريستيد. إن بريستيد هو أول عالم أمريكى فى المصريات حقق تميزا فى هذا الموضوع. كان بريستيد يقضى شهر العسل وكان يقوم بزيارته الأولى لمصر حين التقى ببيترى لأول مرة، واستقبل استقبالا ودودا فى مخيم بيترى "أكدت ملبسه سمعته العالمية بأنه ليس قليل الاهتمام بهندامه فحسب، وإنما هو قدر متسخ عن عمد. وكان أشعث الشعر يرتدى قميصا وبنطلون رثين وصندلا بلا جورب. وكان من بين مميزاته الفطرية العديدة أنه كان يفضل أن يحاكى مساعدوه ما هو عليه من إهمال، .... كان يقدم مائدة طعام غاية فى السوء لا يكاد يتحملها سوى من يتمتعون ببنية حديدية، وحتى هؤلاء كانوا يخففون من جوعهم بتناول الفول الذى يعد نسبيا بانخا، والخبز غير المخمر الذى يتناوله الفلاحون من أهل المنطقة.... ولكن يبقى



أنه تحمل بشكل إعجازى، ممارسة ما كان يعظ به بإصرار، و مع كل ما به من غرابة فى الأطوار.... حقق فى النهاية سجلا من الحد الأقصى من النتائج بالحد الأدنى من المصروفات لا يمكن أن يفوقه فيه أحد".

## الفصل العاشر

### فاصل مسرحى قصير وختام فخم

لوحات الفنان الأمريكى جوزيف ليندون سميث Joseph Lindon Smith شديدة الواقعية حتى لتكاد تخدع الأبصار. لقد كانت لوحاته وكأنها صور فوتوغرافية، إنه يمسك بالفرشاة فى يده وهو يقف، مثلا، فى معبد مصرى أمام ما كان يبدو وكأنه صورتان متطابقتان، وكان تصوير سميث من الواقعية حتى إنه كان لا بد من إخبار الناظر أيهما الحقيقة وأيهما اللوحة. قضى جوزيف سميث (١٨٦٣-١٩٥٠) سنوات كثيرة فى مصر وهو يصنع تلك النسخ طبق الأصل. أثناء ذلك الوقت انشغل خياله بحكاية لعنة آتون. حين تولى الملك أخناتون ١٣٥٣ - ٣٥ ق.م. عن ديانة أجداده، محا جميع صور إلههم آمون رع من مدينة طيبة العاصمة، وقام باضطهاد كهنة آمون. وبعد موت الملك، تمت استعادة الديانة القديمة. وكان جوزيف سميث قد استمع إلى الحكاية التى تروى أن الكهنة دعوا باللعنة على أخناتون. وكان مفعول اللعنة هو أن روح أخناتون وجسده محتم عليهما أن يجولا منفصلين فى الفضاء ولا يتحدا إلى الأبد.

وقرر جوزيف سميث أن يرتب تمثيل أو أداء طقس تتوسل فيه الملكة تى (أم أخناتون) لإله العالم السفلى - الذى يمثله حورس ذو الرأس التى تشبه رأس الصقر- من أجل العفو عن ابنها. وأن يؤدى الطقس فى حضرة جمهور فى وادى الملكات. ستلعب زوجة سميث دور الملكة تى؛ وأورتانز فيجال Hortense Weigall، التى كانت متزوجة من مفتش الآثار فى الأقصر، تلعب دور أخناتون،

ويقوم سميث نفسه بدور حورس إله الشمس ذى الرأس التى تشبه رأس الصقر، رغم أن هيئة سميث لم تكن مهيبة، إذ كان صغير الحجم متوسط الطول، بشعر منحسر يكاد يكون أصلع، ويرتدى نظارات، وله شارب غريب يشبه فيل البحر. وكان من المقدر لهذا أن يزيد عن كونه مجرد نوبة درامية انتابت بعض الهواة، ذلك أن هذا الثلاثى كان يريد، بمحاولته التمثيلية القصيرة هذه، إحداث إعادة توحيد روح أختاتون وجسده التائهين. وتم إعداد النص بعناية بمساعدة المفتش فى الأقصر، ويسجل جوزيف سميث أنه كان قائما "على الحقائق الأثرية"؛ فسعوا إلى الحصول على موافقة مدير الآثار، ماسبيرو، وتم لهم ذلك.

كان من المقرر أن يكون الحضور بناء على الدعوات فقط. واتخذت هذه الدعوة شكل وثيقة طويلة زاخرة بالمعلومات، كما يسجل جوزيف سميث، إذ تبدأ باقتباس من كتابة ديموطيقية تروى القصة السماوية للعنة. وقبلت الشخصيات البارزة فى مجال المصريات الدعوة: آل ماسبيرو، وآل بيتري، ولورد وليدى كارنارفون Carnarvon، وآل نافيل، وليجران Legrain، وج. إليوت سميث، وجون جارستانج Garstang، وإدوارد كارتر، وإرنستو شياپاريلي Schiaparelli وآخرون. وكان الممثل والمخرج الشهير، هيربرت بيربوم ترى Beerbohm Tree فى الأقصر، فى ذلك الوقت. فلما أعجب بالنص، طلب دعوة لنفسه.

كان فريق التمثيل فى حالة من النشوة والترقب أثناء التدريبات الأولى والوحيدة التى أجريت قبل موعد الحفل بثلاثة أيام. وبدأت الأمور بداية موفقة، مع ظهور سميث على المسرح لأول مرة فى دور إله حورس، ثم دخلت أورتانز، وبدأ أنها أقل اندماجا فى الدور، وتذكر سميث أن "عدم إتقانها لدورها التمثيلى جعلنى، كمخرج أن أتدخل لتدريبها". إذ انسل إلى خشبة المسرح، ملقيا سطور دورها بحماس. وبلا سابق إنذار، غطت على صوته ضربة رعدية ووميض وبرق وعاصفة مفاجئة. وحين توقف عن الكلام، توقفت العاصفة فجأة كما بدأت فجأة. واستمر سميث. ولما عاد إلى دوره، ترنم بكلمات مقدسة وظهرت كورين Corinne فى تقعر من نار حمراء. وحين بدأت تغنى ترنيمة أختاتون، للشمس المشرقة، هبت حبات حادة من المطر وهطلت قطع كبيرة من الجليد، فاندفع زملاؤها

الممثلون بحثا عن مأوى. وتشجع جوزيف سميث، من القول المسرحى الشهير بأن تدريباً سينا بالملابس يعنى ليلة أولى جيدة من التمثيل.

فى تلك الليلة، حلمت السيدتان البطلتان بحلم متطابق: كانت كل منهما على حدة تقف وحدها فى الرميوم حين دبت الحياة ببطء فى التمثال الحجرى لآمون رع، ونشر ذراعيه وضربهما بألة يدوية لدرس الحبوب — ضرب أورتانز على البطن، وضرب كورين بين العينين. وفى اليوم التالى مباشرة حُملت كورين إلى مستشفى القاهرة وهى مصابة بالمياه الزرقاء (التراكوما)، وأصبح بصرها ميؤوسا منه. أما أورتانز، فكان فى الحجرة الملاصقة بعد عملية فى المعدة اتضح أنها تكاد تكون مميتة. وسجل سميث أنه "بعد التدريبات بثمان وأربعين ساعة، تم نقل كل ممثل وعضو من جمهور التدريبات من الأقصر مصابا بحالة مرضية شديدة".

تعد رواية آرثر فيجال، مدير الآثار فى الأقصر، المنشورة عن هذه الواقعة، إلى حد كبير هى نفس رواية سميث. لقد ظل فيجال غير مقتنع بأنها تشير إلى شر القدماء الموتى (المقصود لعنة الفراعنة). "لا أظن أن إمكانيات هذا العامل — ذى الأهمية القليلة فى أحداث الحياة، التى تحدث بالمصادفة — قد استهلكت فى البحث عن تفسير لمأساتنا... ولكنى فى نفس الوقت، أحاول أن أجعل عقلى مفتوحا بالنسبة لهذا الموضوع".

يُعد الختام الفخم لاكتشاف مصر هو دراما أثرية على صعيد ملحمى "فهى تبدأ مثل مصباح علاء الدين المعجز السحري، وتنتهى كقصة إغريقية طويلة بطولية تتسم بالنصر والانتقام"، هكذا كتبت أخت الممثل الرئيسى جورج إدوارد ستانهوب مولينيوكس هيربرت الرجل الرياضى وجامع التحف الفنية، وإيرل كارنارفون الخامس. إذ بعد أن وقع حادث سيارة خطر أصبح لورد كارنارفون يعانى من صعوبة فى التنفس، فنصحة الأطباء أن يقضى كل شتاء فى الخارج. وكتب ابنه أنه "قرر فى عام ١٩٠٢، الذهاب إلى مصر فى حوالى منتصف يناير حين يكون صيد طائر التدرج (pheasant وهو طائر شبيه بالحجل) قد انتهى". والتقى هناك بلورد كرومر، الذى رشح له الريف، لكنه قال إنه سوف يمل حتى ذرف الدموع إن لم تكن له هواية، واقترح عليه الآثار.

واكتشف لورد كارنارفون أنه يستطيع إشباع تذوقه للمقامرة ولجمع الآثار، وذلك باستثمار ماله وطاقاته في التنقيب. ويصعب التنبؤ بما يأتي به مجال التنقيب هذا، ففي رمال وادي النيل يمكن للهاوى المتحمس أن تتعثر قدماءه في كنز مدفون تماما مثلما يمكن أن يحدث للخبير. ويمكن اختصار المصادفات عن طريق انتقاء المناطق الأكثر احتمالا في الإتيان بالنتائج. وأدرك لورد كارنارفون أنه في حاجة إلى وكيل، على علم بالظروف المحلية. فوقع اختياره على رجل كان يكسب قوته في ذلك الوقت في مصر من الرسم: إدوارد كارتر.

وصل كارتر إلى مصر عام ١٨٩١، وهو في السابعة عشرة من عمره بعد أن ألحق للعمل في المساعدة في وضع رسوم مسح أثري. وعمل مع بيترى فى العمارة، لكن الرجل العظيم لم يعجب به وكتب: "إن السيد كارتر ولد طيب تتركز اهتماماته كليا في الرسم والتاريخ الطبيعى.. وليس من فائدة لى فى أن أجهده كمنقب عن الآثار". عموما، اتجه كارتر للعمل مع نافيل، وجريفيث وماسبيرو قبل أن يعين فى ١٨٩٩ فى مصلحة الآثار كمفتش عام لآثار الصعيد. وأدى نزاع وقع بينه وبين بعض السياح الفرنسيين إلى استقالته من المصلحة عام ١٩٠٥. لذا، فى الوقت الذى التقى فيه بكارنارفون، عاد إلى كسب قوته من الرسم. وفى السنوات الخمس التالية، قام كارتر وكارنارفون بالتنقيب فى خمسة عشر موقعا مختلفا فى منطقة طيبة. وجمعا بالتدريج مجموعة من الآثار، وكانا يسجلان بعناية الموقع الذى يجدان فيه أثرا. وفى ١٩١٢، نشر كارنارفون بالتعاون مع كارتر "استكشافات خمس سنوات فى طيبة" وهو سجل باذخ لعملهما معا.

كانت طموحات كارتر تتركز عبر النهر، فى وادي الملوك. إذ إنه فى هذا المكان، حيث اكتشفت مدافن أعظم ملوك مصر، يكمن أعظم أمل فى تحقيق حلم جميع المنقبين، وهو أن يجدوا مقبرة ملكية لم يمسه أحد. فمنذ أن قام بيلزونى بأفضل اكتشافاته، قام عشرات المستكشفين النشطين بالبحث فى الوادى أثناء القرن التاسع عشر. وقد ترك بيلزونى المكان وهو على ثقة بأنه لم يدع شيئا لأحد كى يكتشفه. وأكد على رأيه هنرى سولت، الذى "أقام هناك لمدة أربعة أشهر وكدح بنفس الطريقة كى يجد مقبرة أخرى، ولكن دون جدوى". وقام ليسبيوس بمسح المنطقة بكاملها بما له من دقة بروسية ألمانية وأعلن أن كل شىء قد تم الكشف

عنه. ومع ذلك، اكتشف الأثرى الفرنسى فيكتور لورى، الذى كان حينئذ، مدير الآثار، مجموعة من تسع موميאות للفراعنة فى مقبرة أمينوفيس الثانى Amenophis فى بداية القرن. وابتداء من ١٩٠٣، كان امتياز الحفر فى وادى الملوك فى يد رجل الأعمال الأمريكى الثرى ثيودور. م. ديفيز، الذى أشرف كارتر على أعمال التنقيب الأولى التى قام بها. وكان ديفيز قد نجح فى الكشف عن المزيد من المقابر، ونشر ما كشفه فى ستة مجلدات ضخمة. ولما كان يحفر لصالح مصلحة الآثار، فإن أجمل الأشياء التى اكتشفها ذهبت إلى متحف القاهرة.

ومع مقدم ١٩١٢، بدا أن الوادى وديفيز قد استفد كل منهما الآخر، لكنه كان مترددا فى تسليم الامتياز الذى يملكه. وكان على كارتر وكارنارفون أن ينتظرا حتى ١٩١٤ للاستيلاء على المنطقة منه. وكان التصريح لهما بالتنقيب ينص على: "أن عمل التنقيب سوف ينفذ على نفقة إيرل كارنارفون ومسئوليته بواسطة إدوارد كارتر"، وينص على أن يكون كارتر موجودا دائما عند موقع الحفر، وأن التصريح قابل للتجديد سنويا حتى ١٦ نوفمبر ١٩٢٣. وتأخر البدء فى العمل بسبب الحرب العالمية الأولى، إذ عاد كارنارفون، على عجل، إلى إنجلترا، وكلف كارتر بالعمل لتنظيم كتائب العمال، وغزا الأتراك مصر فى عام ١٩١٦ بعد غاليبولي Gallipoli، لكنهم سرعان ما دحروا وانحسرت الحرب.

وفى ١٩١٧، كان فى استطاعة كارتر أن يبدأ حملته فى الوادى، وكتب: "إن الصعوبة كانت تكمن فى معرفة من أين أبدأ، لأن جبال القمامة التى كان يلقي بها المنقبون السابقون عرقلت البحث فى الأرض فى كل اتجاه"، وكان معظم هؤلاء المنقبين يعملون برأى منفرد فى بحثهم عن الكنوز الدفينة، ولم يتركوا سجلات بالمناطق التى قتلوها فحسا. وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة أمام كارتر للبحث هى حفر خطوط إلى أسفل عبر الوادى بأكمله، ولم يسفر موسم ١٩١٧ عن أى شىء. وفى السنة التالية، خرج كارنارفون إلى مصر، وأخذ الرجلان يحفران لمدة سبعة أشهر دون أن يعثرا على شىء، وفى ١٩١٩، أتيا على مجموعة مخبأة من ثلاث عشرة جرة من المرمر تحمل علامة رمسيس الثانى. فكتب كارتر: "بما أن هذه كانت الطريقة الأقرب التى وصلنا إليها للعثور على أى شىء فى الوادى، كنا إلى حد ما فى حالة من الإثارة". سحبتهم هذه الإثارة عبر اثنين آخرين من المواسم

المجدبة في ١٩٢٠ و ١٩٢١، إذ لم يسفر الحفر في الوادى ذى الحرارة الرهيبة عن أى شىء على الإطلاق.

وفى صيف عام ١٩٢٢، حين كان إدوارد كارتر يزور لورد كارنارفون فى هاى كليز، أبلغ بإلغاء البحث فى الوادى. وكان كارنارفون قد أنفق ما يقرب من ٥٠٠٠٠ جنيه فى أعمال التنقيب؛ وكان عمره ستا وخمسين سنة وفى صحة معتلة؛ وكانت أحواله المالية متأثرة بالتضخم الذى حدث بعد الحرب؛ كما فقد الثقة فى أن هناك مقابر يمكن العثور عليها فى الوادى، وحتى إذا ما أمكن الكشف عن ضريح ملكى آخر فمن المحتمل أن يكون قد سرق كغيره من الأضرحة، أما كارتر فرفض أن يستسلم، ولم يكن يريد سوى موسم واحد للبحث فى البقعة الوحيدة فى كل الوادى التى لم يتم الحفر فيها بعد، وكان على استعداد للإنفاق على العمل بنفسه، كما قال، لو أن كارنارفون يعطيه الإذن بالحفر فى المنطقة التى حصل على امتياز الحفر فيها. فلو نجح، فلسوف يعود الفضل إلى كارنارفون. أمام هذه الروح التى تتسم بالكرم، وافق لورد كارنارفون على تمويل موسم واحد أخير قبل أن ينسحب من مصر.

كانت المنطقة الصغيرة من الأرض التى عقد عليها كارتر آماله تقع تحت (وإلى) جانب المدخل المؤدى إلى مقبرة رمسيس السادس، وهى منطقة جذب سياحى. لقد اكتشف هنا مجموعة من أكواخ العمال تنتمى للأسرة العشرين، لكنه لم يحاول التنقيب فيما وراء تلك الأكواخ لأن العمل سوف يعوق السائحين الذين يزورون المقبرة. وعلى كل حال، فإن جميع المواقع الأخرى الممكنة قد قُتلت بحثًا وتنقيبًا، وسيكون على السائحين أن يحتلوا المكانة الثانية.

فجمع كارتر العمال فى ٣ نوفمبر ١٩٢٢، وطلب منهم أن يحفروا خندقًا مستقيماً تماماً فى وسط الأكواخ. وفى الصباح التالى، وصل كارتر إلى الموقع بعد الفجر بوقت قصير. وكان العمال يقفون صامتين، وهم ينظرون فى عمق الخندق. وحملق كارتر إلى أسفل فإذا به يرى هناك فى الأساس الحجرى الجبرى درجة بيضاء ناصعة منحوتة مباشرة فى صخرة الأساس، وأدت إلى أخرى ثم أخرى وهكذا حتى تربة الأرض. حين وصل إلى الدرجة الثانية عشرة، انكشف الجزء العلوى من باب مغلق ومختوم، فصنع كارتر ثقباً أعلى الباب ونظر من خلاله

ليرى ممرا مليئا بالحطام من الممكن أن يكون قاعة المدخل إلى مقبرة ملكية، أو مجرد أشياء مخبأة. فقام العمال بتنظيف المدخل أو العتبة، مما كشف عن أربع درجات أخرى. على الباب نفسه كان هناك خاتم كبار كهنة نيكروبوليس<sup>(\*)</sup> ابن آوى مائلا على مجموعة من الأسرى ساجدين. كان هذا مدخلا إلى مقبرة؛ وقد جعل وجود خاتم نيكروبوليس أنه من المحتمل أن تكون هذه المقبرة ملكية، ولم يدخلها أحد منذ تاريخ عمل أكواخ العمال. فيما أن الأكوخ قد تم بناؤها من أجل تشييد مقبرة رمسيس السادس فى الأسرة العشرين، فإن أى شىء يقع خلف الباب لم يمسه أحد لما يزيد عن ٣٠٠٠ سنة. فأمر كارتر بأن يُملأ بير السلم بالركام ووضع حراسة، وأرسل ببرقية إلى كارنارفون: "أخيرا قمت باكتشاف مدهش فى الوادى. مقبرة رائعة بأختام لم تمس. تم تغطيتها حتى تصل. تهاننى".

وبقى كارتر ينتظر لمدة ثمانية عشر يوما حتى يصل السيد الذى ينفق على عمله. أثناء ذلك الوقت أخذ يفكر ويتأمل فيما يمكن أن يوجد وراء الست عشرة درجة. كان ذهنه منشغلا بمقبرة توت عنخ آمون التى لم تكن قد اكتشفت بعد، وذلك بسبب عراو معدنية Clues معينة التقطت فى المنطقة. ففى ١٩٠٧، كان ثيودور م. ديفيز قد اكتشف غرفة صغيرة تحت الأرض. وكان بها تمثال صغير من المرمر ليست عليه كتابة، وكذلك صندوق خشبى مكسور يحتوى على قطع من الأوراق الذهبية مكتوب عليها اسم توت عنخ آمون ومليكته. وبالقرب من هذا وجد ديفيز وعاء طينيا أو فخاريا مزخرفا بالزجاج، عليه أيضا اسم توت عنخ آمون. فظن أن الغرفة الموجودة تحت الأرض لا يد أن تكون مقبرة الملك الفارغة المنهوبة. لكنه وجد أيضا بالقرب من ذلك ما يقرب من دسنة من الأباريق الفخارية البيضاء تحتوى على الكتان عليها علامة اسم توت عنخ آمون، وبعض حقائب تبين أو دريس ونطرون وعظام طيور وحيوانات. فأرسل ديفيز بهذه الأشياء إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك، وهناك تعرف أمين القسم المصرى عليها بأنها المواد التى كان يستخدمها المحنطون حين كانوا يحافظون على جثة توت عنخ آمون، وبقايا الوليمة التى تناولوها بعد أن أكملوا العمل. وبدا أنه من الواضح أن توت

(\*) مدينة الموتى. (المترجم).



عنخ آمون تم دفنه بالفعل فى الوادى، والمحتمل أنه لم يدفن بعيدا عن المكان الذى قام فيه ديفيز باكتشافه.

بدا من غير المحتمل أن تقام مقبرة ملكية فى مكان عديم الأهمية كهذا وقريب جدا من عتبة مقبرة أخرى. لكن الإمكانات الأكثر وضوحا قد بحثت بحثا دقيقا، وكان كارتر يشعر بالتفاؤل. لقد نصب لوحة حجرية على موقع اكتشافه، رسم عليها معطف وذراعى لورد كارنارفون. فى ٢٣ نوفمبر بالضبط تمكن كارتر من تنظيف بير السلم، ترقبا لوصول لورد كارنارفون، وظهرت أختام توت عنخ آمون بلا لبس على الجزء السفلى من الباب. وفى المساء التالى، نزل لورد كارنارفون الدرجات الست عشرة، وانتظر حتى يفض كارتر الأختام. عندئذ داهمتها الخيبة الأولى: كانت أختام توت عنخ آمون على الجص الأصلي، ولكن أختام سلطات نيكروبوليس كانت على السد المرمم. ذلك أن المقبرة قد تم السطو عليها فى الأزمنة القديمة، مما فسر الأشياء التى وجدها ديفيز والتى لا بد أن اللصوص قد نقلوها. لقد كانت تلك نكسة، لكن كون المقبرة قد أعيد ختمها أو إغلاقها يشير إلى أن السلطات كانت ما تزال تظن أنها تحتوى على شىء ذى قيمة، فواصل كارتر وكارنارفون العمل بتفاؤل حذر.

وفى ٢٥ نوفمبر، وأثناء إزالة الحطام من على الدهليز المائل خلف الباب، وجدا قطع فخار صغيرة مكسورة، وأباريق من المرمم وشققات من أشياء مكسورة، وكلها تشير إلى أن المقبرة قد نهبت. وفى مساء اليوم التالى، وعلى بعد ثلاثين قدما من المدخل، اكتشفا بابا آخر مختوما أو مغلقا، يكاد يكون نسخة طبق الأصل من الباب الأول، وكان يحمل خاتم توت عنخ آمون ونيكروبوليس الملكية. ومرة أخرى، كانت هناك علامات تدل على أن الباب قد تم فتحه وأعيد ختمه أو إغلاقه. انتظرت المجموعة حتى يقوم كارتر بالحركة التالية: "وجاءت اللحظة الحاسمة بيدين مرتعشتين، صنعت ثقباً صغيراً جداً فى الزاوية العليا اليمنى. فى الظلام الدامس، والمساحة الفارغة، بقدر ما أمكن للقضيب الحديد الذى أختبر به أن يصل. أمكن معرفة أن كل ما وراء ذلك فارغ، وليس مليئاً مثل الممر الذى نظفناه تواء، واستخدمنا الشموع للاختبار كإجراء احتياطى فى وجه الغازات الخبيثة، ثم بعد أن وسعت الثقب قليلاً، أدخلت الشمعة وحلقت فى الداخل. وكان لورد كارنارفون

وليدى إفلين وكاليندر يقفون فى لهفة بجانبى كى يستمعوا للحكم. فى البداية، لم أستطع أن أرى أى شىء. وكان الهواء الساخن المتسلل من الغرفة يجعل لهب الشمعة يهتز. ولكن، على الفور، ومع اعتياد عينيّ على الضوء بدت تفاصيل الحجرة وبرزت من الغمام، فرأيت حيوانات غريبة وتمائيل وطهب، بريق الذهب فى كل مكان، وللحظة — لا بد أنها بدت كالأبدية للواقفين بجانبى — عقدت الدهشة لسانى، ولم يطق لورد كارنارفون ما كان فيه من إثارة، فسأل: "أستطيع أن ترى شيئاً؟"، كل ما استطعته هو أن أنطق بالكلمات: "نعم، أشياء مذهلة".

كانت بالداخل عربات ذهبية، وتمثالان للملك بالحجم الطبيعى فى خشب مدهون بالقار الأسود، بتتورات ذهبية وغطاء رأس يواجهان بعضهما البعض؛ وهناك ثلاث أرائك مذهبة ذات جوانب منحوتة، وأسرة ومقاعد وخزائن مرصعة، وأوعية من المرمر؛ وكان هناك عرش ذهبى مرصع بأحجار شبه كريمة، تحيطه أوعية من الخزف المزخرف والتماثيل الصغيرة، وأقواس وعصى المشى، وكومة من الأشياء القيمة، أى منها يمكن أن يجعل التنقيب جدير بالمحاولة".

ثم قام كارتر بتوسيع الثقب، وأخذ رفقاؤه واحدا بعد الآخر يحملق فى تلك العجائب فيما وراء الباب. وكتب كارتر: "من المؤكد أنه لم ير أحد قط فى تاريخ التنقيب كله مثل هذا المنظر المذهل الذى كشفه لنا مصباحنا. إن يوم ٢٦ نوفمبر هو يوم من أيام العمر، إنه أروع الأيام التى عشتها، ومن المؤكد أن مثلى لا يمكن أن يأمل فى أن يرى هذا مرة أخرى".

وعادوا فى اليوم التالى، وتمكنوا بفضل الأضواء الكهربائية من فحص الحجرة بعناية. وكان من الواضح أن شخصا قد اقتحم الباب، وأن الأشياء الموجودة فى الحجرة صارت فى حالة من الفوضى، رغم أنه لم يكن من المتصور أن يترك اللصوص مثل تلك الأشياء الثمينة الكثيرة خلفهم؛ إذن ربما أفلقهم شىء ما. ولم تكن وظيفة الغرفة واضحة. إذ بدا أنها مخزن للكنوز، ولكن ليس مقبرة؛ فلم يكن هناك ضريح حجرى أو مومياء.

فى الجدار الشمالى بين تمثالى الملك، وجدوا بابا مختوما به ثقب صغير فى أسفل، تم إصلاحه. وكان يتسع لمرور صبى أو رجل صغير الحجم. كما وجدوا،

تحت إحدى الأرائك، ثقباً صغيراً غير منتظم فى الجدار الغربى لم يتم إصلاحه. لقد تغلغل اللصوص منه، وحين حمله كارتر، وجد أشياء جنازىة فى حالة من الفوضى والاضطراب التام، وكأنما شخص ما قد انتهبها وهو فى حالة من التعجل. فكتب كارتر: "لقد فعل اللص فعلته فى دقة الزلزال". أدركوا أنهم فى حجرة داخل حجرة، وأنه ربما توجد سلسلة من الحجرات فيما وراء ذلك، فكتب كارتر: "رأينا حجرة بعد تلك الحجرة، وكانت مزدحمة بأشياء مثل تلك التى رأيناها، فخلبت ألبابنا وجعلتنا نلهث ونحاول التقاط أنفاسنا".

حين اكتشفوا الغرفة الثانية أسماها كارتر بالملحق. وكانت أيضا مليئة بالأشياء. لذا أصبح من الواضح أنهم فى حاجة إلى المساعدة لتسجيل تلك الأشياء وتصنيفها، ذلك أن الكثير من تلك الأشياء ستكون فى حاجة إلى مهارات شخص متخصص حتى يحفظها من الدمار حين تتعرض للجو. فطلب كارتر مساعدة متحف الميتروبوليتان للفن فى نيويورك، فقدم المتحف له رسامين هما جارى بيرتون مصور فوتوغرافى، و أ.س. ميس، أثرى.

كان ألفريد لوкас هو مدير مصلحة الكيمياء فى الحكومة المصرية. وكان على وشك القيام بعطلة مدتها ثلاثة أشهر، فأجل عطلته حتى يكون موجودا إذا كانت هناك حاجة إليه. وعرض د. ألان جاردينر والأستاذ جيمز بريستيد من جامعة شيكاغو خدماتهما لترجمة الكتابات. لقد نجح أروع ما وجد فى تاريخ المصريين فى جمع شخصيتين دوليتين فى مشروع تعاونى. وقام كارتر بعمل الترتيبات للافتتاح الرسمى للمقبرة فى ٢٩ نوفمبر. سيحضر الاحتفال مجموعة صغيرة من كبار الضيوف، منهم ليدى ألينبى، زوجة المندوب السامى البريطانى، ومدير المديرية أو المحافظ، وعدد من كبار الشخصيات المصرية، ومحرر من اللندن تايمز. فى اليوم التالى، وصل بيير لاکو، المدير العام لمصلحة الآثار، وأخذ فى جولة فى الغرفة الخارجية. وفى ٣ ديسمبر، تم إغلاقها مرة أخرى بأخشاب ثقيلة عبر الباب، وملئ السلم حتى مستوى السطح.

فى لندن، أعلن عدد التايمز الصادر فى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ عن اكتشاف "ما يبشر بأن يكون أكثر الاكتشافات فى المصريين إثارة فى هذا القرن". وفى اليوم التالى، ظهرت مقالة كتبها واليس بادج تقيم أهميته (أى هذا الاكتشاف) لعلم الآثار.

بالنظر لما سوف يأتى من اكتشافات، نجد فى كلماته سخرية معينة، تلك التى قالها على سبيل العزاء: "مما يبعث على الإحساس بخيبة الأمل، بالطبع، أن اللصوص فى الأزمنة القديمة قد نجحوا فى أخذ جميع المجوهرات التى كانت، ولا شك، مدفونة مع الملك؛ ولكن فى نهاية الأمر، هناك الكثير من المجوهرات فى متحف القاهرة. وسوف يسر الكثير من الطلاب باكتشاف الأشياء الجنائزية أكثر مما سوف يسرون بالزينات الذهبية والأحجار الكريمة".

ذهب كارتر إلى القاهرة ليطلب بوابة من الصلب كى تؤمن المقبرة دون الحاجة إلى دفنها مرة أخرى كلما توقفوا عن العمل. كما اشترى مواد كيميائية ومواد للتصوير الفوتوغرافى وسيارة، وعلب تغليف من كل الأحجام ومواد تعبئة للأشياء الرقيقة، بما فى ذلك اثنان وثلاثون بالة من الكاليكو وأكثر من ميل من الضمادات الجراحية والقطن الطبي. وفى ١٧ ديسمبر، تم تركيب بوابة الصلب، وفى الثامن عشر بدأ العمل فى تنظيف الغرفة الخارجية والملحق. تم تنفيذ العمل بدقة بالغة، إذ إن كارتر قد استوعب مثال بيتري استيعابا جيدا منذ أيامه الأولى فى التنقيب، وأصر على أن يؤخذ كل شىء باليد حتى يمكن تسجيل علاقته بالأشياء الموجودة بالقرب منه. وكتب: "كان العمل بطيئا، حتى الألم، وهو لهذا كان مرهقا للأعصاب، لأن المرء كان يحس طوال الوقت بعبء المسؤولية الثقيل. ولا بد أن يشعر بذلك كل منقب، إن كان لديه أصلا أى ضمير أثرى، فالأشياء التى يجدها ليست ملكا له، حتى يتعامل معها كما يشاء.. إنها تراث مباشر من الماضى للعصر الحاضر، وهو الوسيط المميز الذى تخرج على يديه هذه الأشياء...".

لقد تم تصوير كل شىء وتحديد بهناية وتسجيله قبل نقله وحمايته بالضمادات والقطن. كان هناك واحد من أجمل الأشياء التى طُلبت برقة، إنه خزانة خشبية قال عنها كارتر: "إنها تفوق أى شىء من نوعها أخرجته مصر حتى الآن". وكانت هذه الخزانة تحتوى على عدد من الأشياء، ولقد بلغ من شدة حرص كارتر على أداء مهمة الحفاظ وتسجيل التفاصيل أن الأمر استغرق منه ثلاثة أسابيع لإفراغ هذه الخزانة. ذلك أن كل شىء سجل بهناية، وعولج بمواد كيميائية حافظة قبل رفعه من الغرفة الداخلية إلى مقبرة سيتحوس الثانى المجاورة التى كانت تستخدم كورشة. هنا كانت تلك الأشياء تحفظ خلف بوابة ثقيلة من الصلب تزن طنا ونصف طن. وكان آرثر فيجال، مفتش الآثار، يحضر بصفة رسمية فى كل يوم، كان حجم

الجمهور الذى يتجمع لمشاهدة نقل الأشياء المختلفة يتزايد. الآن ينقلون عربة متألثة إلى الورشة؛ والآن درجا أو خزانة مطلية بالذهب، أو صينية تحمل باقات من الزهور أو مجموعة من أشياء مختلفة. وبينما كانت كل من هذه الأحمال تحمل على طول الوادى كان الجنود بالمسدسات يسرون بالخطوة العسكرية خلفها، والصحفيون والزائرون يجرون بجانبها، وهم يضغطون على آلات التصوير ويدونون ملاحظاتهم.

إن وضع علم الآثار فى بؤرة الضوء كما كتب كارتر "تجربة جديدة ومحيرة بالنسبة لمعظمنا"، ذلك أنه فى خلال أسابيع من إعلانه عن اكتشافه، أخذت البرقيات تتدفق من كل أنحاء العالم. وتبع ذلك الخطابات، بل والنصائح التى تتحدث عن كيفية الحفاظ على الآثار ودفع الأرواح الشريرة بعيدا. وكانت هناك نشرات دينية وتنديدات، كما كانت هناك عروض مربة قدمها المسؤولون عن السينما، وحقوق ملكية فكرية من عالم الموضة. لقد كتبت التايمز فى ٢٥ يناير ١٩٢٣: "كل الطرق تؤدى إلى توت عنخ آمون، فى هذه الأيام، ومتى ركب المرء على ضفة الترعة العجيبة، بجانب مقبرة البلد المؤدية إلى وادى الملوك، هناك صف لا ينتهى من الناس الذين يركبون الحمير أو عربات الرمال (سائد كارت) على الطريق أو فوق التل، كلهم يتحركون فى اتجاه المقبرة المكتشفة حديثا أو منها. وترى أولادا فقراء عند كل منعطف يعرضون عليك تماثيل صغيرة من الجص لتوت عنخ آمون، وهو بالمناسبة يمكن أن يكون مثل أى ملك آخر".

جاء موسم عيد الميلاد وجاءت معه زيادة كبيرة فى عدد السياح مما جذب الحجاج بعيدا عن بيت لحم. وافتتحت السكك الحديدية المصرية خدمة جديدة بين القاهرة والأقصر تسمى مخصوص توت عنخ آمون، وتم إصلاح (ترميم) الأشياء بعناية، ووضعت فى حاويات ثم تم إرسالها إلى القاهرة. ولا يوجد سوى القليل من المؤشرات التى تدل على أن دخلاء الأزمنة القديمة قد فروا بالكثير، ولكن كارتر قد وجد بالفعل قاعدة تماثيل ذهبية دون تماثيلها الصغير، الذى كان بالتأكيد ذهبيا. كما وجد قطعة من القماش قد لفت فيها حفنة من الخواتم الذهبية الصلبة، وكان اللصوص قد دُوموا فغادروا المكان على عجل. بل إنه استطاع أن يستنتج أن المقبرة قد اقتحمت مرتين، فى المرة الأولى، لابد أن الممر الواقع بين البابين

الخارجيين قد أخذ منه ما به، لأن كارتر وجد أشياء من المقبرة مدفونة تحت الركام، إذ كان اللصوص الأوائل مهتمين أساسا بالذهب والفضة، أما اللصوص الذين دخلوا فى المرة الثانية، فكانوا يبحثون عن الزيوت الغالية والدهانات المخزنة فى أوعية المرمر، وأفرغوها فى قرب معدة لنقل المياه حتى يسهل نقلها. ولا يزال من الممكن رؤية بصمات أصابع أحدهم على أحد الأوعية الذى أفرغ مما به من دهان.

أما أكثر المكتشفات إثارة، فكان الباب المختوم فى الجدار الشمالى فى الغرفة الخارجية، والذى كان يخفى أسرار المقبرة، إذ تنبأ كارتر بثقة، أن وراء ذلك الباب يوجد التابوت الحجرى ومومياء توت عنخ آمون، فإذا صح رأيه، فإن الملك الشاب الذى خلف أخناتون فى سن التاسعة، ومات فى الثامنة عشرة، والذى دفن فى أقل المقابر الملكية مهابة فى وادى الملوك، هو الملك الوحيد الذى ظل يرقد دون إزعاج حتى القرن العشرين. وللمرة الأولى فيما يزيد عن قرن من الاستكشاف فى وادى النيل، عرف المنقبون بيقين أن ما يوجد خلف الباب المختوم هو ما ترك يوم دفن الملك. لقد أصدر كارتر وكارنارفون بياناً مشتركاً عاماً فى ٣ ديسمبر ١٩٢٢ يعبران فيه عن ثقتهما فى أن "من أختام الباب المفتوح توا هناك كل ما يشير إلى أننا سوف نجد الفرعون توت عنخ آمون". ومع أن المقبرة قد سرقت، فإن إعادة وضع أختام نيكروبوليس (مدينة الموتى) مرة أخرى يعنى: "أنه مهما كان ذلك الذى حدث، للأشياء المعدنية القيمة، فسوف يوجد الملك نفسه دون أن تمسه يد".

لقد كان كارتر يعرف ماذا يوجد خلف الباب المغلق المختوم من دراسته لأوراق البردى، وعلى الأخص مخطط لمقبرة لرمسيس الرابع أعدت فى تورينو، إذ توجد جثة حسب العادات القديمة موضوعة داخل أو ثانياً ثلاثة أكفان، تحميها سلسلة من المظلات الجنائزية. واستمر كارتر فى نبوءته: "سوف نواجه نتيجة أثرية ثرية بشكل يفوق التصور".

فى ٢٦ فبراير ١٩٢٣، أخذت مجموعة من الشخصيات المميزة مقاعدها فى الغرفة الخارجية بعد تنظيفها وهم يواجهون الجدار الشمالى والباب الكبير المختوم أو المغلق. تضم هذه المجموعة عشرين شخصية، منها: آل كارنارفون، ووزير

الأشغال العامة المصرى، وبيير لاکو، مدير مصلحة الآثار؛ وألبيرت م. ليثجو مدير القسم المصرى بمتحف الميتروبوليتان؛ ولقيف من الأثريين؛ والمسؤولون المصريون؛ وممثل عن اللندن تايمز. ونصبت منصة صغيرة فى مواجهة الباب. وخلع النظارة من الرجال ستراتهم توقعاً لحرارة الظهيرة، التى زادت من شدتها المصابيح الكهربائية. أما كارتر — الذى كان مأخوذاً وشاحب اللون مترقباً — فصعد المنصة وقال باختصار: إن كل ما تم عمله، وأى شىء على وشك أن ينكشف، يرجع كلية إلى لورد كارنارفون. ثم استدار إلى الباب وفى يده الشاكوش.

ويتذكر آرثر فيجال أن: "الساعة كانت بالضبط الواحدة والخمسين دقيقة ظهراً ... وبينما ترددت أصدااء الطرقات الأولى عبر الحجرة، سرى فى داخلى شعور بالإثارة وكأن شيئاً ما يشتعل فى أوردتى، وبدا أنى أرى الفرعون، فى الظلام فى الجانب الآخر من الباب وقد استيقظ فجأة من سباته وهو يصغى. كان الاعتقاد المصرى القديم هو أن رقاد الموت يدوم ثلاثة آلاف سنة، وهكذا فقد انتهى الوقت، وربما بدا له أن يوم البعث قد جاء ... بعد عشر دقائق، دق كارتر نقباً من الاتساع بحيث يسمح ليده التى تمسك بمصباح كهربى بأن تدخل. وانعكس ضوء المصباح على سطح لامع فى الجانب الآخر من الجدار، وأينما حرك كارتر الضوء، على كل جانب أعلى وأسفل، لم يستطع أن يرى ما وراء الانعكاس. وكتب: "وقف ما بدا للناس أنه حائط من الذهب الصلب يسد مدخل الغرفة". كلما حرك كارتر جزءاً من الباب، استطاع المشاهدون من الخلف أن يروا جدار الذهب، وكتب: "تمكنا — وكأن ذلك حدث بتيار كهربى — أن نحس باللهفة التى أثارت المشاهدين خلف الحاجز".

فى الثالثة والنصف ظهراً، كان الثقب من الاتساع بحيث يمكن لشخص أن يزحف من خلاله. وحين وجهت المصابيح إليه أمكنهم رؤية ضريح ذهبى تحس الغرفة الداخلية بثلاث أقدام، وكان ارتفاعه سبع عشرة قدماً، وعرضه إحدى عشرة قدماً، يكاد يملأ الحجرة، والذهب يغطيه من أعلى إلى أسفل. وعلى جانبى الضريح كانت هناك لوحتان من الخزف المزخرف البراق الأزرق، عليهما رسوم من الرموز السحرية لضمان قوة الضريح وسلامته.

تمكن كارنارفون وكارتر من المرور بصعوبة بجانب الضريح، عندها استطاع أن يريا بابين ذهبيين في النهاية بمفصلات من البرونز مغلقين، لكنهما ليسا مختومين، فكانت هذه هي اللحظة الصعبة: هل اقتحم اللصوص الضريح المقدس؟ سحب كارتر المزليج، وفتح البابين، فرأى بالداخل، ضريحا مقدسا آخر بأبواب مشابهة عليها مزليج، لكن في هذه المرة، كانت المزليج تحمل خاتما وكان الباب سليما دون مس، فلم يعودا في حاجة إلى التغلغل أكثر من ذلك. وكتب كارتر: "أظن أننا في هذه اللحظة لم نكن حتى نريد أن نفرض الخاتم، إذ انتابنا شعور بأننا نزج بأنوفنا في أمر خصوصي، وكان هذا الشعور ثقيلًا... شعرنا بأننا في حضرة الملك المتوفى وأن علينا أن نبدي التوقير"، إذ يمكن ترك الملك لبعض الوقت إلى أن يمكن تجميع الكنوز الموجودة في الغرف الخارجية بسلام.

أغلق كارتر وكارنارفون أبواب الضريح المقدس، وغادرا الغرفة الداخلية كي يسمحا للضيوف برؤيتها. وكتب كارتر: "كان غريبا ذلك الشعور الذي أحسست به وأنا أقف في الغرفة أراقب وجوههم وهم يخرجون واحدا بعد الآخر من الباب. كانت ترى في عيني كل منهم نظرة زائغة حائرة، وكل منهم بدوره رفع يديه وهو يخرج أمامه، في علامة لا شعورية على العجز عن وصف ما رآه من عجائب". يبدو من المدهش أن كارتر وكارنارفون قنعا بالانتظار لمدة ثلاثة أشهر كي يكتشفا ما يقع خلف الباب. لقد كان لكارتر من قوة الشخصية ما يجعله يقاوم إغراء مسح المقبرة على عجل؛ كان قادرا على الاهتمام بالعمل الضروري الأولى من حفظ ما اكتشفه وتسجيله دون أن يكثر بتسوية مسألة المومياء غير المكتشفة بسرعة.

وثمة تفسير آخر لاتزان كارتر، إذ كان يعلم تمام العلم ماذا يوجد خلف الباب المختوم، لأنه قد دخل منه من قبل. وهذا الافتراض يشرح أيضا دقة تنبؤ كارتر بما سوف يكتشف. ذلك أنه دخل من الأبواب في المرة الأولى في نوفمبر حين دخل الغرفة الخارجية مع لورد كارنارفون وليدي إفلين؛ وأن الثلاثة فحصوا الغرفات الداخلية ثم أعادوا وضع الأختام؛ وأن ما تلا ذلك من عرض المكتشفات علنا قد دبر بحيث يحدث أكبر أثر ممكن في الصحافة العالمية. وليس في هذا الرأي ما هو غير محتمل أو غير لائق، فمن حق كارتر وكارنارفون تماما طبقا لشروط امتيازهما، أن يدخلوا ويفتشا المقبرة التي اكتشفوها. وربما أرادا أن يكونا



حصيفين فيما يتعلق بما يوجد وراء الجدار كى يتحكما فى إمكانية وصول أى شخص، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق الكشف التدريجى عن الغرف على مراحل، وما بها من كنوز.

ثم قرر كارتر وكارنافون أن يطلبوا فترة توقف. وقد أصبح أمرا تقليديا إغلاق موسم الحفر فى فبراير انتظارا للجو الأقل حرارة فى الخريف. لذلك، فى ٢٦ فبراير، أغلقت الأبواب بواسطة بوابة حديدية ودعمت بألواح خشبية. ثم حملت قوة من ثمانين من العمال مئات السلال من الرمل ورقائق الحجر الجيرى، وصبت ١٧٠٠ طن منها داخل ساحة المقبرة. واعتكف كارتر فى حجرات العمل كى يشغل نفسه بوضع التصانيف أو كتالوجات الأشياء وتعبئتها كى تنقل إلى متحف القاهرة.

على أى حال، فقد أصبحت الصحافة بسرعة مشكلة كبرى، إذ إن لورد كارنافون قد تم إقناعه بأن يعطى تغطية منفردة لهذا الاكتشاف للتايمز، على أساس أن هذا سيجعله يتحاشى الاضطراب للتعامل مع الطلبات المتصارعة للصحف العالمية. وكانت بقية الصحف، بالطبع، معارضة لهذا الترتيب، ذلك أن الديلى إكسبريس زارت تقول: "بتسليم ما يمكن أن يسمى حقوق صحفية فى وادى المقابر لتتحكم به التايمز وحدها، يكونون بذلك قد عاملوا الاكتشاف مقدما وكأنه ملك خاص لهم". واستطردت الصحيفة تقول: "لقد قدمت الحكومة المصرية، بإحساسها الوليد بالوطنية، الرأى المعاكس، وهو أن توت عنخ آمون وما يخصه هو كنز وطنى لمصر". وكان هذا يمس منطقة حساسة من الاهتمام، إذ بدا أن كارنافون والتايمز يهنئان مصر على حظها السعيد بأن يستكشفها رجلان إنجليزيان يمتلكان الفضائل الإنجليزية مثل الاستقامة والنزاهة وعدم القابلية للفساد.

لكن لم يكن كل المصريين قانعين بمجرد أداء دور الخدمات فى هذا الاكتشاف. ولم تنظر الصحف المصرية بعين الرضا إلى الاعتماد على صحيفة أجنبية لتقديم تفاصيل ما كان يحدث فى بلادهم. وشكا وزير الأشغال العامة المصرى قائلا: "لم يسمع أحد عن أننا نحن المصريين علينا أن نتوجه إلى صحيفة فى لندن لاستقاء كل المعلومات المتعلقة بمقبرة أحد ملوكنا". وكتبت الإيجيشيان جازيت شاكية: "إن المصريين فى لندن الذين قرءوا مقالة لورد كارنافون يشعرون

بالحنق لأن المصريين لا يُحمدون إلا على الحراسة والخدمة". وكتبت التايمز تقييماً عن الشعور المحلي في مصر عن الاكتشاف: "بين المصريين، عموماً، يتركز الاهتمام بهذا الاكتشاف بصفة رئيسية، على قيمته الذاتية، وكذلك على الخوف من أن الكثير من الأشياء قد تقع في أيادي البريطانيين ... ولا يبدو أن هناك أى قدر من الجدل والشرح يمكن أن يرضى عقل المصرى العادى فى هذه النقطة. ومعظم المصريين، اليوم، مقتنعون بأن لورد كارنارفون قد سرق أغلى ما فى الحجرة من أشياء".

أخذ الوطنيون المصريون يصرون علناً على أن تباع الكنوز لسداد ديون مصر. واختلفت كارتر وكارنارفون حول التصرف فى الكنوز. فكان كارتر يريد أن يتم حفظ محتويات المقبرة سليمة كما هى فى جناح خاص فى متحف القاهرة. وأصر على أنه إذا ما تنازل كارنارفون عن جميع حقوقه، فسوف تكون الحكومة المصرية سخية فيما تدفعه له من تعويض. وصار الخلاف بين الرجلين شيئاً معلناً، وفرحت الصحافة.. إذ "تجتمع النسور حيث توجد الجيفة" كما اقتبست صحيفة اللندون ستار.

لقد مضت الأيام التى كان فيها كما يتذكر كارتر، الخلاف مع منقب منافس يسوى بالترصد له ببندقية. لكن الخلافات بين الرجلين تواصلت، وكان لها أن تسوى فى وهج الدعاية العالمية وتنطوى على سياسات وطنية. ولم يسوى شجار كارتر مع كارنارفون أبداً تسوية تامة. ففي ربيع ١٩٣٢، حسب ما جاء فى مذكرات لورد كارنارفون الحالى: "لدغت بعوضة والذى المسكين، حين كان نائماً، وفى الصباح التالى، وبينما كان يحلق ذقنه بموسى حادة جرح المكان الذى لدغته فيه البعوضة، لكنه اعتبر أنه من غير الضرورى أن يفعل أى شىء أكثر من وضع قطعة قطن مغموسة فى الأيودين على الجرح". وأصيب بتسمم فى الدم، وفى ٥ أبريل، ١٩٢٣، مات لورد كارنارفون فى السابعة والخمسين، ووصف ببيتري وفاته بأنها كارثة، بما أنه كان يمول الحملة بأكملها، ولا يبدو أن هناك أى شخص يمكن أن يستمر فى ذلك. وقال بيرسى نيوبرى، الذى جمع بين الرجلين: "فى تاريخ البحث الأثرى، لم تحدث حادثة مأساوية ك وفاة لورد كارنارفون". وبدأ أن المأساة

الحقيقية هي أن لورد كارنارفون مات دون أن يعرف ما إذا كان طموح حملته قد تحقق أم لا، هل كانت مومياء توت عنخ آمون ترقد في الغرفة الداخلية أم لا".

في خريف ١٩٢٣، بدأ كارتر العمل كي يسوى هذه المسألة نهائياً، بعد أن وافقت أرملة كارنارفون على استمراره في العمل بنفس الشروط السابقة، وبدأ العمل في إزالة الأطنان الآلاف والسبعمئة من الركام من مدخل الدرجات في ٢٣ أكتوبر، واكتمل ذلك في ٢٠ نوفمبر حين ركبت الأضواء الكهربائية وأطلق كارتر عماله في العمل في المقبرة، وبدءوا بإزالة حائط الجص الذي كان يفصل الغرفة الداخلية عن المدفن، وتركيب أدوات رفع لنقل الضريح المقدس. لقد استغرق تفكيك الأضرحة أربعة وثمانين يوماً، إذ كان كل ضريح محاطاً بحبل يحمل أختاماً بعقدة سليمة؛ كانت المقبرة سليمة. كانت أبواب كل ضريح من الأضرحة مغلقة بترابيس من الأبنوس. ومع إزالة كل غطاء أو صدفة أو قوقعة كان الذهب يبدو أشد لمعانا. وأخيراً وصلوا إلى الضريح الرابع والأخير، فانقطع الحبل، فشد كارتر المزالج الأبنوسية، فرأى "تابوتا حجريا أصفر ضخماً، سليماً، غطاءه لا يزال مثبتاً في مكانه، تماماً كما تركته اليد الورعة".

سيكون الاحتفال الأخير هو فتح التابوت الحجري، حين ينكشف جسد توت عنخ آمون لأول مرة منذ ٣٠٠٠ سنة. وتحدد الموعد في ١٢ فبراير ١٩٢٤، ودعا كارتر تسعة عشر ضيفاً: مصريين، المدير المحلي ومسئول من وزارة الأشغال العامة؛ وثلاثة فرنسيين — منهم، بالطبع، بيير لافو، مدير الآثار — وعدداً من الأثريين الإنجليز والأمريكان منهم ممثلون عن متحف الميتربوليتان، وجامعة شيكاغو، ومتحف القاهرة.

اتضح أن غطاء التابوت الحجري المصنوع من الجرانيت الوردى به شق، مما جعل عملية الرفع عملية صعبة. فمررت قطع من الحديد بزاوية في كل جانب من جوانب الغطاء بحيث يمكن رفع الجزأين معاً، ونزل الضيوف — فيما عدا النساء اللاتي كن ممنوعات من الدخول — لمشاهدة رفع غطاء التابوت الحجري، ووصف كارتر هذه اللحظة قائلاً: "وسط الصمت الرهيب، ارتفعت قطعة الجرانيت الهائلة من مكانها، وقد انكسرت إلى جزأين. وكانت ترن طناً وربعاً، وانعكس الضوء داخل التابوت. التفت عيوننا بمنظر حيرنا في بادئ الأمر. إذ كان مخيباً

للآمال قليلا. كانت المحتويات مغطاة تماما بأغطية من الكتان الجميل. ولما كان الغطاء معلقا فى الهواء، فقد لممنا هذه الأغطية الكتانية واحدا واحدا، ومع رفع آخرها خرجت من شفافنا أنة من أنات العجب. فما أروع المنظر الذى صافح أعيننا: تمثال صغير للملك الصبى، هو أبدع ما صنع الإنسان، ملأ داخل التابوت بالكامل".

غادرت الجماعة المقبرة وهى فى ذهول من روعة ما رأوه، وكان غطاء التابوت ما يزال معلقا.

وفى اليوم التالى، كتبت التاييز عن الاكتشاف، معبرة عن فرحتها فى المقال الرئيسى بأن كارتر وزملاءه قد "رأت عيونهم ما لم تره عين اثنين وثلاثين قرنا: كفن ملك ووجهه المنحوت، الذى دفن قبل أن يغنى هوميروس بخمسائة سنة، وحين كان بنو إسرائيل لا يزالون عبيدا فى مصر. لقد أسديت خدمة رائعة للفن والتاريخ، وتم تنفيذ مهمة عظيمة بعناية وحكمة وعلى أعلى درجات المهارة".

عند المقبرة ذاتها، على كل حال، تعكرت الاحتفالات. إذ كان كارتر بعد الترتيبات لأخذ زوجات شركائه إلى هناك فى اليوم التالى. فإذا به يكتشف أن الشرطة أخذت أماكنها عند الموقع ومعها التعليمات بمنع النساء إذا ما حاولن الدخول، فرفض زملاء كارتر الاستمرار فى العمل بعد ذلك ما لم يسمح لزوجاتهم برؤية ثمار جهودهم. وفى حالة من الغضب والإحباط، ذهب كارتر إلى المقبرة، وقطع تيار الكهرباء وأغلق البوابة الصلبة، ووضع المفاتيح فى جيبه. فأمر لأكو، مدير الآثار، كارتر بأن يسلم المفاتيح فرفض. وفى البرلمان البريطانى، وجه سؤال إلى وزير الخارجية إذا ما كان سوف يتصل بحكومة الولايات المتحدة مع التفكير فى تقديم احتجاج مشترك، لكن رامزى ماكدونالد رد بأن هذا الاقتراح ليس صالحا فى الوقت الحاضر.

كان ما يزيد على طن وربع من الجرانيت الصلب، فوق مومياء توت عنخ آمون. وكانت هذه الكمية معلقة بمعدات مصممة لرفع المومياء وليس للإبقاء عليها معلقة لفترة طويلة، خاصة أنها أحمال ثقيلة. وأخذت الصحافة العالمية علما بهذا الموضوع. فطلب، فى باريس، جورنال دى دبا، أن يقوم كارتر بتسليم المفاتيح

للاكو؛ ولم تبطئ التاييمز فى تحديد مسئولية النفوذ الفرنسى فى هذا الأمر: "إن الاحتكاك الذى أدى إلى إغلاق المقبرة، والتوقف الفجائى فى العمل، للأسف يرجع إلى حد كبير... إلى نفوذ قوى خارجية مثيرة للشر الذى لا داعى له". فى ٢٠ فبراير، فوض مجلس الوزراء المصرى لأكو سلطة إعادة فتح المقبرة واستئناف العمل فى أقرب وقت ممكن، وقدم اقتراح إلى علماء المصرىات بمتحف ميتروبوليتان للفن بنيويورك بتولى العمل. وتم رفض الاقتراح، فأعلن لأكو أن كارتر له مطلق الحرية فى الاستمرار فى العمل على نفقة - وتحت رقابة - الحكومة المصرية، فرفض هو أيضا، معلنا أن قدميه لن تطأ المقبرة مرة أخرى.

وفى ٢٢ فبراير، توجه لأكو، ومعه قوة من الشرطة المسلحة، يقودها قائد الشرطة، ومعها جماعة من العمال مزودين بالعتلات والفؤوس ومناشير المعادن، إلى المقبرة، ومروا من السلاسل التى تمسك بالأقفال، فهشموا مزاليج البوابة الداخلية، ومروا من الحجرة الخارجية المغلقة، إلى حجرة الدفن. وكان الغطاء الجرانيتى للتابوت الحجرى ما يزال معلقا فوق جسد توت عنخ آمون، فوضعوا عارضا خشبيا عبر الجزء الأعلى المفتوح من التابوت الحجرى وأنزلوه إليهم.

وعلى الرغم من أن الحكومة المصرية قد استولت على المقبرة بالقوة؛ بقيت مسألة ملكية كنوز توت عنخ آمون. ذلك أن شروط الامتياز الأصلى الممنوح لكارنارفون نصت على أن المقابر "التي تكتشف فى حالة سليمة يجب أن تسلم إلى المتحف المصرى كاملة دون تقسيم"، إذ لم يكن من المتوقع أن مثل هذه المقابر يمكن أن تكتشف. وفى حالة "المقابر التى فتشت من قبل" كما هو الحال بالنسبة للمقابر التى اكتشفت فى السابق، فإن المتحف احتفظ بالحق فى ملكية جميع المومياوات والتوابيت الحجرية، وفى جميع الأشياء ذات الأهمية الكبرى من وجهة نظر علم الآثار والتاريخ. ولم تتحدد بوضوح ملكية بقية الأشياء، ولكن الامتياز نص على أن "تصيب الشخص صاحب الامتياز سوف يعوضه تعويضا كافيا عما تكبده من جهد ومشقة".

لقد كان هناك دليل واضح على أن مقبرة توت عنخ آمون قد "فتشت"، وكان آل كارنارفون لديهم توقعات بالتعويض عن نفقات عمل خمس عشرة سنة، فى الوادى. وأيا كان الأمر، فإن المواد القانونية التى تحكم التنقيب فى مصر منذ

١٨٣٥، لم يكن لها تأثير خطير على أنشطة المعنيين بالأمر. فلم يخالج آل كارنارفون أى أمل فى الحصول على ما كانوا يرون أنه حقوقهم القانونية.

يتذكر وريث كارنارفون أنه اتصل بالمستشار البارز، سير إدوارد مارشال هول، من مجلس الملك، طلبا للنصيحة، ف قيل له إن القضية سوف تنظر أمام محكمة من خمسة قضاة، أحدهم إنجليزى، والثانى فرنسى، والثالث إيطالى، وقاضيين مصريين؛ "سوف تكون لدى القاضيين المصريين تعليمات بخصوص الحكم الذى يخرجون به، وللتأكد من النتيجة سيتم شراء القاضى الإيطالى، وعلى هذا، فقد نسيت هذا الموضوع غير المستحب". لقد رفع كارتر وليدى كارنارفون قضية ضد الحكومة المصرية، وفى ١٢ مارس ١٩٢٤ حكمت محكمة مختلطة فى القاهرة لصالحهما. وعموما، لم تكن المحكمة بقادرة على تنفيذ حكمها فى مواجهة معارضة الحكومة المصرية. واستؤنف الحكم أمام محكمة استئناف فى الإسكندرية. وفى ٢ أبريل أعلنت هذه المحكمة أن "المحاكم المختلطة ليست لها سلطة التدخل فى قرارات الحكومة الإدارية"، ثم أكدت الحكومة المصرية سيادتها وذلك بأن منعت كارتر وأعضاء عائلة كارنارفون من دخول مقبرة توت عنخ آمون .

ونالت القضية دعاية واسعة فى إنجلترا. وقدمت الأسئلة فى البرلمان، ولكن الوزراء الذين كانوا يعرفون روح الوطنية المتنامية فى مصر كانوا حريصين على عدم التورط، إذ لم ير رامزى ماك دونالد رئيس الوزراء العمالى أى داع للتدخل. وفى ١٢ فبراير ١٩٢٤ أبلغ مجلس النواب "أن هوارد كارتر، فى أعمال التنقيب التى قام بها فى مصر، يعد شخصا خاصا ويخضع لمواد القانون المصرى للآثار".

وكان من الممكن أن ينهى هذا المسألة، كما كان من الممكن أن ينهى كارتر مابقى له من عمر فى التنقل فى دائرة محاضراته المربحة فى أمريكا، التى كان قد وجه لها طاقاته، ما لم تحدث حادثة اغتيال سير لى ستاك، قائد القوات فى مصر، وحاكم عام السودان، فى ١٩ نوفمبر فى القاهرة، فاتخذت البوارج الحربية البريطانية موقعها قبالة الإسكندرية، واستعرضت القوات البريطانية نفسها فى القاهرة، وطولبت الحكومة المصرية بالتعويضات، واستقال زغول باشا، وحل محله زيور باشا، وهو سياسى أكثر مرونة مع المصالح البريطانية. فاستدعى كارتر إلى القاهرة، حيث التقى مع رئيس الوزراء الجديد ومجلس الوزراء لمناقشة

شروط البدء مرة أخرى فى العمل، وفى ١٣ يناير ١٩٢٥، حدث تبادل للخطابات بين كارتر ووزير الأشغال العامة. فى هذه الخطابات تخلت كونتيسة كارنارفون عن مزاعمها فى مقبرة توت عنخ آمون. ووعده الوزير، فى مقابل ذلك، أن يسمح لها باختيار ما تريد من المكررات من بين الأشياء المكتشفة هناك.

وفى ٢٥ يناير أعيد افتتاح المقبرة، وكان كارتر، مرة أخرى، فى موضع المسئولية. وفى الخريف التالى نظفت المقبرة وتم تركيب آلات الرفع الضرورية وكذلك الأضواء الكهربائية، كى يمكن رفع غطاء التابوت الحجرى مرة أخرى. كان بالداخل ثلاثة تابوت كل منها بداخل الآخر. وكان التابوت الداخلى فيها جميعا وطوله ست أقدام من الذهب الصلب الخالص، ويحتوى على الجسد المحنط للملك الشاب. كان الرأس مخبأ بواسطة قناع ذهبى يغطى الوجه والرقبة والصدر. وكان على قدم الملك صندل من الذهب، وكانت كل إصبع من أصابع القدم ملفوفة وحدها فى غطاء من الذهب. وكانت المومياء نفسها تحمل إكليلا ملكيا فوق الرأس من الذهب، وأربع ياقات ذهبية، وتماثيل ورموز مقدسة، وثلاثة عشر سوارا مرصعة بأحجار شبه كريمة، وخمس صدریات من الذهب والحلى. كما وجد كارتر فى الأربطة التى تحيط بالجسد ما مجمله ١٤٣ من الأشياء الثمينة من الذهب والحلى. وكان، كالمعتاد، منهجيا ومدققا فى تسجيل كل شىء والحفاظ عليه. لكن لا يمكن القول بأن تلك التجربة لم تحركه: "فى تلك اللحظات، تبتعد الانفعالات عن التعبيرات اللفظية على ما بها من تأثير وتعقيد. مضت ثلاثة آلاف سنة أو يزيد منذ أن حملت عين البشر داخل التابوت الذهبى. إن الزمن الذى يقاس بقصر الحياة الإنسانية بدا وكأنه يفقد منظوره الشائع أمام منظر يعيد للذاكرة بقوة الطقوس الدينية الصارمة، لحضارة قد بادت. ولكن من العبث التفكير فى مثل هذه العواطف، فالجانب العاطفى ليس جزءا من البحث الأثرى".

خلف غرفة الدفن، كان هناك مخزن صغير لم يسد بابيه بالطوب. فأطلق كارتر عليه اسم الخزانة الداخلية. وما إن نظر إلى محتوياتها حتى أمر بإغلاقها حتى لا يتشتت ذهنه أثناء إفراغ غرفة الدفن. وهذه علامة أخرى على صبر كارتر الذى يفوق الصبر الإنسانى، إلى الحد الذى جعله يبقى على الحجرة مغلقة لمدة أربع سنوات. على عتبة المخزن كانت هناك صورة الإله الذى هو على شكل ابن آوى،

أنوبيس، يحرس الكنوز فى الداخل، وعلى الأرض خلف مصباح صغير من القش بقاعدة من الطين أو الصلصال يحمل التعويذة، لصد أعداء أوزيريس الميت فى أى صورة يحضرون فيها. وعلى طول الجدار الجنوبي، كانت هناك الكثير من الخزانات السوداء المختومة. وعلى الجدار المواجه يوجد صف من علب مزينة بالعاج والأبنوس والجبس المنقوش بالذهب.

استغرق الأمر عامين حتى تم إخراج محتويات هذه العلب لإرسالها لمتحف القاهرة؛ فهى مجموعة ثرية من الأشياء بشكل يثير الحيرة. وتم عرض ما يربو على ٢٠٠٠ من هذه الأشياء هناك مما أثار دهشة العالم. وقبل الجميع، أخيراً، أنها مملوكة للحكومة المصرية. ذلك أن الاتفاق الذى توصل إليه كارتر مع زيور باشا ومجلس وزرائه عام ١٩٢٥ أخفق فى الصمود أمام مواجهة الاتهامات الخمسة المتتالية للحكومة، والتي أقيمت فى السنوات الخمس المتتالية. وفى عام ١٩٣٠، أعلنت حكومة النحاس باشا أنها لن تسمح بأن تغادر أى من الآثار البلاد، ووعدت بتقديم النقود كتعويض لآل كارنارفون.

تسبب التخلّى عن مومياء توت عنخ آمون فى قدر من الاحتكاك الدولى، تماماً مثل ذلك الذى حدث مع الكنوز التى كانت تحيط بها، إذ إن كارنارفون كان قد عبر، قبيل وفاته، عن أمله فى أن جثة توت عنخ آمون إذا ما اكتشفت فى مقبرته، يجب أن تبقى فى مكانها. وأصبح الأمر موضوعاً للنقاش الدولى، ففى إنجلترا وأمريكا حررت الخطابات للصحف، كان بعضها يؤيد نقل الجثة، وكان البعض الآخر يعارض ذلك النقل، فهل يجب أن تؤخذ كى تحفظ فى أمان فى المتحف، أو تترك فى سلام فى مستقرها الأخير؟ وفتحت التاييمز أعمدة مراسلاتها لهذا النقاش، فعبر ريدر هاجارد عن امتعاضه من فكرة أن يكون المصير النهائى لتوت عنخ آمون "أن يرقد نصف عار لبتعفن فى صندوق زجاجى فى المتحف فى القاهرة".

ولم يكن فى وسع البرلمان البريطانى أن يتجاهل مثل هذا الموضوع الذى يثير فضيحة دولية. وكانت الأسئلة التى تتكرر فى مجلس العموم يتم تحاشيها بالقول بأن هذا الموضوع يخص الحكومة المصرية. وأدخل ويليام ليتش عضو البرلمان البهجة على الأعضاء حين سأل رئيس الوزراء.. إذا كان قد تلقى أى طلب من المواطنين المصريين بالإذن بنهب مقابر الملوك والملكات البريطانيين فى



ويستمنستر أبى، أو غيرها، إذا كان المتحف البريطانى ينص على أن يتسلم الآثار والجثث والتوابيت إلخ، وإذا تم تسلم الطلبات، فما الإجابة التى يقترح أن يقدمها لهم فى المتحف؟

بل إن الأخبار جاءت من القاهرة بأن الملك جورج كان قد كتب للسلطات المصرية معبرا عن أمله ألا توضع مومياء توت عنخ آمون للعرض فى القاهرة، وهى رسالة استقبلت محليا باعتبارها مثالا آخر على الإمبريالية البريطانية التى تتعدى على الشئون المصرية. وتقرر أخيرا أن تبقى المومياء فى مقبرتها. لقد كانت فى حالة سيئة، بحيث يمكن أن تضر بها الرحلة الطويلة إلى القاهرة أكثر من ذلك؛ كما أن المناخ فى الصعيد من المحتمل أن يحفظها بشكل أفضل من رطوبة الدلتا، وكانت الأقصر، بالطبع، حريصة على الاحتفاظ بمعلم للجذب السياحى. وفى ٣١ أكتوبر ١٩٢٦، أعاد كارتر لف المومياء ووضعها فى التابوت الخشبى الخارجى، الذى كان قد أنزل فى التابوت الحجرى وترك ليبقى حيث اكتشف.

إن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون غير مجرى الآثار فى مصر تغييرا تاما؛ لأنه أوجد اهتماما جماهيريا جديدا بهذا الموضوع، ففى أوروبا وأمريكا انشغل مئات الآلاف بحكاية كشف المقبرة، لأن الصحف أبقت على القصة ساخنة. ونالت المتاحف شعبية جديدة لما فيها من آثار مصرية، وأخذت تفتش فيما لديها عن أى شىء قد تكون له صلة بتوت عنخ آمون. وعرض متحف ميتروبوليتان فى نيويورك الأشياء التى استخرجها ثيودور ديفيز من وادى الملوك والتى أدت به إلى الافتراض بأنه وجد المقبرة؛ وتقاطر الجمهور لرؤية هذه الأشياء. واكتشفت الجمعية التاريخية فى نيويورك بين مجموعة أبوت الأثرية خاتما أزرق عليه علامة توت عنخ آمون ووضعته للعرض؛ واصطف الناس حول المبنى لرؤية ذلك الخاتم. وغمرت مكتب البراءات فى الولايات المتحدة الطلبات من أجل العلامات التجارية التى تضم اسم "توت عنخ آمون"، فكانت هناك قبعات توت عنخ آمون، وبذلات استحمام، وشمسيات، وعصى مشى. فى باريس ولندن ونيويورك، أصيبت بيوت الأزياء بهوس بالموضة المصرية من العباءات والفساتين المقلمة والتصاميم المشغولة من لوحات المقبرة.

لم يكن اكتشاف توت عنخ آمون أكبر وأضخم حدث نال أوسع دعاية فى تاريخ التنقيب فى وادى النيل فحسب؛ بل هو سد الفجوة فى التنقيب بين عالم القرن التاسع عشر وعالم القرن العشرين. فحين بدأ كارنارفون بحثه فى مصر، كان لا يزال فى وسع أرستقراطى إنجليزى أن ينصحه أحد بالاهتمام بعلم الآثار لدرء الملل، فلورد كرومر، الذى قدم هذه النصيحة، كان أقوى شخصية فى البلاد، وكانت مصر تعتبر ممتنة للخدمات التى تقدمها طاقات المنقبين الأجانب. ولكن المناخ قد تغير، أثناء الفترة التى عمل فيها كارتر وكارنارفون فى وادى الملوك.

وفى الوقت الذى أعلن فيه عن الاكتشاف العظيم، كانت مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وغيورا على حقها فى التحكم فى أنشطة الأجانب، وأن تتحدى افتراضاتهم بالتفوق. فقبل توت عنخ آمون، كان من المقبول أن يكون المنقب هو المالك بلا منازع، وإن لم يكن مالك الكنوز، فعلى الأقل، مالك للأسرار التى كشف عنها، ولا يتم الكشف عنها إلا حين يشاء وبالطريقة التى يختارها. وكان عقد كارنارفون الذى يقصر حق نشر أخبار الكشف مع التاييمز والذى دخل فيه بكل براءة، قد أثار تساؤلا عن حقه فى بيع معلومات عن ماضى مصر، وبالتالى التساؤل عن صحة أن يكون هناك حق أصلا.

إن نتيجة التحديات التى ألقت بها الحكومة المصرية فى وهج الدعاية المحيطة بحملة توت عنخ آمون، هى أن التنقيب فى مصر أصبح ينظر إليه على أنه فضل تسبغه الحكومة المضيفة على الخبراء الزائرين، وليس العكس. لم يكن يخالج بونابرت وعلماءه أى شك فى أنهم يقومون بمهمة لإدخال الحضارة فى مصر، فهم كانوا ينقذون أهل البلاد من المماليك، ويكشفون للعالم الدور الرئيسى الذى لعبته ثقافته القديمة فى تطور العالم. أما أولئك الذين جاءوا بعدهم فى التنقيب عن آثارها القديمة، فإنما فعلوا ذلك لإثراء المجموعات الخاصة أو متاحف العالم، وحين أدرك المصريون القيمة الرفيعة التى تعطى لآثارهم، كان رد فعلهم هو تحريك تجارة نشطة فى تلك الآثار. ولقد قدمت متاحف أوروبا وأمريكا نفسها باعتبارها ملاذات آمنة، تكون فيها كنوز مصر القديمة فى مأمن من عبث المصريين المحدثين. وكانت هذه الاتجاهات لا تزال تلقى رواجا حين بدأ كارنارفون بحثه.

وأيا كان الأمر، فإن كنوز توت عنخ آمون حُفِظت في مصر، وتُركت جثة الملك آمنة في مقبرتها، عن طريق حكومة مصرية مستقلة عازمة، أخيراً، على تأكيد ملكيتها للآثار القديمة داخل حدودها، وأن تأخذ بيدها مهمة الحفاظ على تراثها القديم.

## قائمة المراجع

- About, Edmond, *The Fellah* (London, 1870).
- Athanas, Giovanni d', *A brief account of the Researches and Discoveries in Upper Egypt, made under the Direction of Henry Salt Esq.* (London, 1836).
- Baikie, James, *A Century of Excavation in the Land of the Pharaohs* (London, 1923).
- *Egyptian Antiquities in the Nile Valley* (London, 1932).
- Baines, John and Jaromír Málek, *Atlas of Ancient Egypt* (Time Life Books, 1984).
- Belzoni, G. *Narrative of the Operations and Recent Discoveries within pyramids, temples, tombs and excavations in Egypt and Nubia . . .*, 2 vols (London, 1822).
- Bevan, Samuel, *Sand and Canvas* (London, 1849).
- Biblical Archaeology, Transactions of the Society of* (1878 to 1913) (London).
- Birch, Samuel, *Ancient History from the Monuments of Egypt* (London, 1875).
- (ed.), *Records of the Past*, 12 vols (London 1874-81).
- 'Description of an Egyptian Tomb New Preserved in the British Museum', *Archaeologia*, Vol XXIX, 11, 1842.
- Blunt, Wilfred S., *Secret History of the British Occupation of Egypt* (London, 1922).
- Bonwick, J., *Pyramid Facts and Fancies* (London, 1877).
- Bratton, F. G., *A History of Egyptian Archaeology* (London, 1967).
- Breasted, Charles, *Pioneer to the Past, the story of James Henry Breasted, archaeologist* (New York, 1943).
- *A History of Egypt* (New York, 1909).
- *The Dawn of Conscience* (New York, 1933).
- Brugsch, H. F. K., *A History of Egypt under the Pharaohs*, 2 vols (London, 1879).
- Budge, Sir E. A. Wallis, *By Nile and Tigris*, 2 Vols (London, 1920).
- *The Rise and Progress of Assyriology* (London, 1925).
- "Bunsen's Egypt", *British Quarterly Review*, Vol XXIII, 61, April 1856.
- Bunsen, C. C. J., *Egypt's Place in Universal History*, 5 vols (London, 1844-57).

- Caillaud, Frédéric, *Travels in the Oasis of Thebes* . . . (London, 1822).
- Capart, Jean, *The Tomb of Tutankhamun* (London, 1923).
- Carnarvon, The Earl of, *Ermine Tales* (London, 1980).
- Carrott, Richard G., *The Egyptian Revival. Its Sources, Monuments and Meaning* (Berkeley, 1978).
- Carter, Howard and A. C. Mace, *The Tomb of Tutankhamun discovered by the late Earl of Carnarvon and Howard Carter* (London, 1923).
- Ceram, C. W., *Gods, Graves and Scholars* (London, 1952).
- *The March of Archaeology* (New York, 1958).
- Champollion (le jeune), *L'Egypte sous les Pharaohs* (Paris, 1814).
- Charles-Roux, F., *Bonaparte: Governor of Egypt* (Methuen, London, 1977).
- Charmes, Gabriel, *Five Months at Cairo* (London, 1883).
- Clair, Colin, *Strong Man Egyptologist* (London, 1957).
- Clayton, Peter A. (ed.), *The Rediscovery of Ancient Egypt* (London, 1982).
- Clot-Bey, A. B., *Aperçu General sur l'Egypte* (Brussels, 1840).
- Combes, Edmond, *Voyage en Egypte* (Paris, 1846).
- Conder, Josiah, *The Modern Traveller* (London, 1830).
- Connor, Patrick, (ed.), *The Inspiration of Egypt: its influence on British Artists, Travellers and Designers 1700-1900* (Brighton Borough Council, 1983).
- Cottrell, Leonard, *The Mountains of Pharaoh* (New York, 1956).
- *The Anvil of Civilisation* (New York, 1957).
- Cromer, Lord, *Modern Egypt* (London 1908).
- Crook, J. Mordaunt, *The British Museum: a case study in architectural politics* (London, 1973).
- Crow, W. B., *A History of Magic, Witchcraft and Occultism* (London, 1972).
- Curl, James, *The Egyptian Revival*, (London 1978).
- Daniel, Glyn, *A Hundred and Fifty Years of Archaeology*, 2nd edn (London, 1973).
- David, Rosalie, *The Egyptian Kingdoms* (London, 1975).
- Dawson, Warren R. and Eric P. Uphill, *Who Was Who in Egyptology* (London, 1972).
- Denon, D. V., *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte* (Paris, 1802).
- Disher, M. W., *Pharaoh's Fool* (London, 1957).
- Driault, Edouard, (ed.) *Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814): correspondance des consuls de France en Egypte* (Paris, 1925).
- Drower, Margaret S., *Flinders Petrie, a life in archaeology* (London, 1985).
- Drummond, Sir William, *Memoir on the Zodiacs of Esmeu and Dendera* (London, 1821).
- Duff Gordon, L., *Letters from Egypt* (London, 1865).
- Ebers, George, *Richard Lepsius: a biography*, translated by Zoe Dana Underhill (New York, 1887).
- Edmonstone, Sir Archibald, *A Journey to two of the Oases of Upper Egypt* (London, 1822).
- Edwards, Amelia B., *A Thousand Miles up the Nile* (London, 1877).
- *Pharaohs, Fellahs and Explorers* (London, 1891).
- Edwards, I. E. S., *The Pyramids of Egypt* (Harmondsworth, 1961).
- Erman, Adolph, *The Ancient Egyptians* (New York, 1965).
- Evans, Joan, *A History of the Society of Antiquaries* (Oxford, 1956).
- Fagan, Brian M., *The Rape of the Nile* (London, 1977).

- Flower, Raymond, *Napoleon to Nasser: the story of modern Egypt* (London, 1972).
- Gardiner, Sir A. H., *Egypt of the Pharaohs* (Oxford, 1961).  
 – *Egyptian Grammar*, 3rd edn (Oxford, 1969).
- Glanville, S. R. K., *The Growth and Nature of Egyptology* (Cambridge, 1947).
- Gliddon, George R., *Ancient Egypt: monuments, hieroglyphics, history, archaeology, and other subjects ...* (Augusta, Georgia, 1847).
- Greener, Herbert, L. S., *The Discovery of Egypt* (London, 1966).
- Halls, J. J., *The Life and Correspondence of Henry Salt Esq., F.R.S. etc., His Britannic Majesty's Late Consul General in Egypt*, 2nd edition (London, 1834).
- Herold, J. Christopher, *Bonaparte in Egypt* (1962).
- Hoskins, G. A., *Visit to the Great Oasis of the Libyan Desert* (London, 1837).  
 – *Winter in Upper and Lower Egypt* (London 1863).
- Hoving, Thomas, *Tutankhamun: the untold story* (New York, 1978).
- Iversen, E., *The Myth of Egypt* (Copenhagen, 1961).  
 – *Obelisks in Exile* (Copenhagen, 1968).
- James, T. G. H., *The Archaeology of Ancient Egypt* (London, 1972).  
 – (ed), *An Introduction to Ancient Egypt* (London, 1979).  
 – *The British Museum and Ancient Egypt* (London, 1981).  
 – *Excavating in Egypt* (London, 1984).
- Jollois, Prosper, *Journal d'un Ingenieur Attaché a l'Expedition d'Egypte (1798-1802)* (Paris, 1904).
- Kenrick, John, *Ancient Egypt under the Pharaohs* (London, 1850).
- Khater, A., *La Régime Juridique des Fouilles et des Antiquités en Egypte*, Institute française d'archéologie orientale du Caire, Recherches, Tome XII (Cairo, 1960).
- Lane, E. W., *The Manners and Customs of the Modern Egyptians* (London, 1836).
- Legh, Thomas, *Narrative of a Journey in Egypt* (London, 1816).
- Lepsius, C. R., *Letters from Egypt* (1853).  
 – *Discoveries in Egypt* (1853).
- Linant de Bellefonds, L. M. A., *Journal d'un Voyage* (Khartoum 1958).
- Mariette, Auguste, *Voyage dans la Haute Egypte*, 2 vols (Paris, 1878-80).  
 – *Outlines of Ancient Egyptian History* (London, 1892).
- Mariette, Edouard, *Mariette Pacha* (Paris, 1904).
- Maspero, Gaston, *Manual of Egyptian Archaeology* (London, 1895).  
 – *Auguste Mariette, notice biographique et oeuvres diverses* (Paris, 1904).
- Maspero, Sir Gaston, *Egypt: Ancient Sites and Modern Scenes* (London, 1910).
- Mayes, S. H., *The Great Belzoni* (London, 1959).
- Mertz, Barbara, *Temples Tombs and Hieroglyphs: the story of Egyptology* (New York, 1964).
- Michaelis, A. T. F., *A Century of Archaeological Discoveries* (London, 1908).

Osburn, William, *Israel in Egypt: or the books of Genesis and Exodus illustrated by existing monuments* (London, 1854).

Palmer, William, *Egyptian Chronicles, with a harmony of Sacred and Egyptian Chronology* (London, 1861).

Petrie, W. M. Flinders, *Ten Years digging in Egypt, 1881-1891*, The Religious Tract Society (London, 1892).

– *Methods and Aims in Archaeology* (London 1904).

– *Seventy Years in Archaeology* (London, 1931).

Pratt, Ida A., *Ancient Egypt, sources of information in the New York Public Library* (New York, 1925).

Rawlinson, George, *History of Ancient Egypt*, 2 vols (London, 1880).

Rhind, A. Henry, *Thebes, Its Tombs and their Tenants* (London, 1862).

Richardson, Robert, *Travels along the Mediterranean and parts adjacent; in company with the Earl of Belmore, during the years 1816-17-18*, 2 vols (London, 1822).

Richmond, Sir J. C. B., *Egypt 1798-1952; her advance towards a modern identity* (London, 1977).

Roberts, David, *The Holy Land*, 6 vols (London, 1855).

Ruffle, John, *Heritage of the Pharaohs: an introduction to Egyptian archaeology* (Oxford, 1977).

Sayce, Rev. A. H., *The Egypt of the Hebrews and Herodotus*, London, 1895.

– *Reminiscences* (London, 1923).

Sharpe, Samuel, *History of Egypt*, 2 vols (London, 1846).

Smith, Grafton Eliot, *Tutankhamun and the discovery of his tomb by the late Earl of Carnarvon and Howard Carter* (London, 1923).

Smith, Joseph Lindon, *Tombs, Temples, and Ancient Art* (University of Oklahoma Press, 1956).

Spineto, Marquis, *Lectures on the elements of hieroglyphics and Egyptian Antiquities* (London, 1829).

[UPHAM, E.] *Memoranda illustrative of the tombs and sepulchral decorations of the Egyptians; with a key to the Egyptian tomb now exhibiting in Piccadilly. Also remarks on Mummies and observations on the process of embalming* (London, 1822).

Wyse, Richard Howard, *Operations Carried on at the Pyramids of Gizeh in 1837*, 2 vols (London, 1840).

Wakeling, T. G., *Forged Egyptian Antiquities* (London, 1912).

Weigall, A. E. P., *Guide to the Antiquities of Upper Egypt from Abydos to the Sudan Frontier* (London, 1910).

– *Tutankhamun and other essays* (London, 1923).

White, Andrew D., *A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom* (London, 1955).

Wilkinson, J. G., *Manners and Customs of the Ancient Egyptians*, 3 vols. (London, 1837).

– *Modern Egypt* (London, 1843).

Wilson, John A., *Signs and Wonders upon Pharaoh: a history of American Egyptology* (University of Chicago Press, 1964).

- Winslow, William Copley, *The Queen of Egyptology; Amelia B. Edwards* (Chicago, 1892).  
Wood, Alexander and Frank Oldham, *Thomas Young: Natural Philosopher* (Cambridge, 1954).  
Wortham, John D., *British Egyptology (1549-1906)* (Newton Abbot, 1972).





## صدر فى هذا المشروع(\*)

- أولاً: الموسوعات والمعاجم  
ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية  
ويليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية  
ج. كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية  
ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية  
و.د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجى  
المصور فى المعادن والصخور والحفريات  
حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى  
العالمية (ج٢)  
خيرية البشلاوى، معجم المصطلحات  
السينمائية  
دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية  
ر. س. زينر، موسوعة الأديان الحية (ج٢)
- ثانياً: الدراسات الاستراتيجية  
وقضايا العصر  
د. محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز فى  
عالم متغير  
إريك موريس، آلان هو، الإرهاب  
ممدوح عطية، البرنامج النووى الإسرائيلى  
د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات  
المتحدة الأمريكية إزاء مصر  
إزرا. فوجل، المعجزة اليابانية  
د. السيد نصر السيد، إطلاقات على الزمن  
الآتى  
بول هاريسون، العالم الثالث غداً  
أقطاب العلماء الأمريكيين، مبادرة الدفاع  
الاستراتيجى: حرب الفضاء  
و. مونتجمرى وات، الإسلام والمسيحية فى  
العالم المعاصر  
بادى أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر
- ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا  
ميكائيل ألبى، الانقراض الكبير  
فيرنر هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات فى  
مضمار الفيزياء الذرية  
فريد هويل، البذور الكونية  
ويليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع  
د. جوهان دورشتر، الحياة فى الكون كيف  
نشأت وأين توجد  
إسحق عظيموف، الشمس المتفجرة (أسرار  
السوبرنوفا)

(\*) قائمة مصنفة وموجزة بالكتب التى صدرت فى مشروع الألف كتاب الثانى، ولمزيد من البيانات يمكن الرجوع إلى قائمة المشروع بموقع الهيئة المصرية العامة للكتاب [WWW.gebo.gov.eg](http://WWW.gebo.gov.eg)

## تيربوسى (ج٢)

إدوارد إيه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب  
د. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات  
الحياة

د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر  
ى. رادو نساكاي، الإلكترونيات والحياة الحديثة  
جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول  
إيفرى شاترمان، كوننا المتمدد  
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء  
كاتى ثير، تربية الدواجن  
د. محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج  
لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة  
والهندسة الوراثية بالكاركاتير  
جينا كولانا، الطريق إلى دوللى  
دور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة  
على حيوانات أفريقيا

إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة  
د. مصطفى محمود سليمان، الزلازل

بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة  
ويليام هـ. ماثيوز، ما هى الجيولوجيا؟  
إسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل  
ب.س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان  
والزمن

د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى  
عالم الطاقة

باناش هوفمان، آينشتين

زافيلسكى ف.س.، الزمن وقياسة

ر.ج. فوريس، تاريخ العلم والتكنولوجيا (ج٢)

د. فاضل أحمد الطانى، أعلام العرب فى  
الكيمياء

رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان

إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء

ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة

أندريه سكوت، جوهر الطبيعة

إيجور إكموشكين، الإيثولوجى

بارى باركر، السفر فى الزمان الكونى

ديمترى ترايفونوف، ظلال الكيمياء

بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة

جيفرى ماوسايف ماسون، حين تبكى الأفيال

ليونارد كول، السلاح الحادى عشر

و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء

د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون

د. كامل زكى حميد، الاستنساخ قنبلة بيولوجية

فلاديمير سميلجا، النسبية والإنسان

د. محمد فتحى عوض الله، رحلات جيولوجية

فى صحراء مصر الشرقية

ليونيد بونومارييف، الاحتمالات المثيرة للنظرية  
الكمية

جون جريبيبين، الحياة السرية للشمس

تيموثى جولد سميث، الأصول البيولوجية

للسلوك البشرى

## • رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكديول، مجموعات النقود

(صياستها، تصنيفها، عرضها)

د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم

والتكنولوجيا

سامى عبد المعطى، التخطيط السياحى فى  
مصر

جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى

ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية

الاقتصادية

فيكتور مورجان، تاريخ النقود

ليستر ثورو، مستقبل الرأسمالية

د. ناصر جلال، حقوق الملكية الفكرية

## • خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند

المصريين القدماء

فرانسوا ديماس، آلهة مصر

ت.ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة  
ايفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة  
تشارلز نيمس، طيبة (آثار الأقصر)  
رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر  
القديمة

ديمتري ميكس، الحياة اليومية للآلهة  
الفرعونية  
محمد عبد الحميد بسيوني، باتوراما فرعونية  
حمدى عثمان، هؤلاء حكموا مصر  
ميكال ونتر، المجتمع المصرى تحت الحكم  
العثمانى

بربارة واترسون، أقباط مصر  
إيريك هورنونج، فكرة في صورة  
بيير جراندييه، رمسيس الثالث  
محسن لطفى السيد، أساطير معبد أدفو  
د. نبيل عبيد، الطب المصرى فى عصر  
الفراعنة  
بيتر فرانس، أوروبا والآثار المصرية

#### ● سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسيين  
للكون (ج٣)  
أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامة (ج٢)  
إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية  
الرومانية وسقوطها (ج٣)  
ناصر خسرو علوى، سفر نامه  
فيليب عطية، ترانيم زرادشت  
جورج جاموف، بداية بلا نهاية  
د. رمسيس عوض، أبرز ضحايا محاكم  
التفتيش

#### ● سابغاً: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمى ومنطق  
ألويز جرايتر، موتسارت

سيريل الدريد، إخناتون  
موريس بيرايير، صناعات الخلود  
بكتن أ. كتنش، رمسيس الثانى: فرعون  
المجد والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية فى مصر القديمة  
ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر  
جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ فى مصر  
نفتالى لويس، مصر الرومانية  
عبد ه مباشر، البحرية المصرية من محمد على  
للسادات (١٨٠٥ - ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات  
فى مصر الإسلامية  
جابريل باير، تاريخ ملكية الأراضى فى مصر  
الحديثة  
عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة فى مصر  
الإسلامية

ت.ج. هـ. جيمز، كنوز الفراعنة  
حسن كمال، الطب المصرى القديم  
أ.أ.س. إدواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية فى وادى النيل  
كريستيان ديروش نوبلكر، المرأة الفرعونية  
بيل شول وأدبنتيت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنرى برستيد، تاريخ مصر  
د. بيارد دودج، الأزهر فى ألف عام  
أ. سبنسر، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة  
ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة فى  
مصر (ج٢)

روز أليندم، الطفل المصرى القديم  
ج. و. مكفرسون، الموالد فى مصر  
جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد

#### المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتيهيه، حتشبسوت  
مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر  
أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة  
د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم

- هنرى بيرين، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى  
 أرنولد توينبى، الفكر التاريخى عند الإغريق  
 بول كولز، العثمانيون فى أوروبا  
 جوناثان ريلى سميث، الحملة الصليبية الأولى  
 وفكرة الحروب الصليبية  
 د. بركات أحمد، محمد واليهود  
 ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (ج٣)  
 و. بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى  
 فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوروبا الشرقية  
 د. ألبرت حورانى، تاريخ الشعوب العربية (ج٢)  
 نويل مالكوم، اليوسنة  
 جارى ب. ناش، الحمر والبيض والسود  
 أحمد فريد رفاعى، عصر المامون (ج٢)  
 آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم  
 ناجاى متشيرو، الثورة الإصلاحية فى اليابان  
 محمد فؤاد كوبريلى، قيام الدولة العثمانية  
 د. أبرار كريم الله، من هم التتار؟  
 ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية  
 ألبان ويدجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (ج٢)  
 جوسيبى دى لونا، موسوليني  
 جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية  
 هـ.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (ج٤)  
 هـ. سانت موس، ميلاد العصور الوسطى  
 يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى  
 هـ.ج. ويلز، موجز تاريخ العالم  
 لورد كرومر، الثورة العربية  
 و. مونتمجرى وات، محمد فى مكة  
 ألبرت براجو، ثورات أمريكا الإسبانية
- **عاشراً: الجغرافيا والرحلات**  
 ت.و. فريمان، الجغرافيا فى مائة عام  
 ليسترديل راي، الأرض الغامضة  
 رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)

- شوكت الربيعى، الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى  
 ليوناردو دافنشى، نظرية التصوير  
 د. غبريال وهيه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى  
 فى الفن التشكيلى  
 روبين جورج كولنجود، مبادئ الفن  
 مارتن جك، يوهان سباستيان باخ  
 ميخائيل شتيجمان، فيفالدى  
 هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن  
 أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف  
 حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر  
 جيمس جينز، العلم والموسيقى  
 هوجولا يختنترت، الموسيقى والحضارة  
 محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع  
 الأوركسترا  
 د. صالح رضا، ملامح وقضايا فى الفن  
 التشكيلى المعاصر  
 إدموندو سولمى، ليوناردو  
 سيونيد ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية  
 والثقافة المعاصرة

### • ثامناً: الحضارات العالمية

- جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى  
 للإنسان  
 س.م. بورا، التجربة اليونانية  
 جوستاف جرونباوم، حضارة الإسلام  
 أ.د. جرنى، الحيثيون  
 ل. ديلاپورت، بلاد ما بين النهرين  
 ج. كونتو، الحضارة الفينيقية  
 جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة فى  
 الصين  
 ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية  
 سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية

### • تاسعاً: التاريخ

- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى  
 العصور الوسطى

جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين في العصور الوسطى  
 د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟  
 إريك برن، الطب النفسي والتحليل النفسي  
 بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ ج)  
 فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربي الحديث (٤ ج)  
 هنري برجسون، الضحك  
 أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية  
 و. مونتميري وات، القضاء والقدر  
 إدوارد دو بونو، التفكير العملي

إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل  
 رحلات فارتيميا (الحاج يونس المصري)  
 رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ ج)  
 رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر  
 رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ ج)  
 يوميات رحلة فاسكو داجاما  
 س. هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا  
 إريك أكسيلون، أشهر الرحلات في جنوب أفريقيا  
 وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ ج)  
 د. مصطفى محمود سليمان، رحلة في أرض سبأ

• ثاني عشر: العلوم الاجتماعية  
 د. محيي الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار  
 م. و. ثرنج، ضمير المهندس  
 رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع  
 روي روبرتسون، الهيروين والإيدز  
 بيتر لوري، المخدرات حقائق نفسية  
 د. ليو بوسكالبا، الحب  
 برنسلو مالفينوسكي، السحر والعلم والدين  
 بيتر ر. داي، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي  
 بيل جيرهارت، تعليم المعوقين  
 أرنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة  
 رونالد د. سمبسون، العلم والطلاب والمدارس  
 كارل ساجان، عالم تسكنه الشياطين

• ثالث عشر: المسرح  
 لويس فارجاس، المرشد إلى فن المسرح  
 برونو ياشينسكي، حفلة مانيكان  
 جلال العشري، فكرة المسرح  
 جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوي مختارات من المسرح العالمي

• حادي عشر: الفلسفة وعلم النفس  
 جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)  
 سوندراي، الفلسفة الجوهرية  
 جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد  
 سدني هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون  
 إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد  
 رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماسة  
 د. توماس أ. هاريس، التوافق النفسي: تحليل المعاملات الإنسانية  
 د. أنور عبد الملك، الشارع المصري والفكر  
 نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد  
 أنطوني دي كرسبني، أعلام الفلسفة المعاصرة  
 جين وروبرت هاندلي، كيف تتخلصين من القلق؟

هـ. ج. كريل، الفكر الصيني  
 د. السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية  
 برتراند راصل، السلطة والفرد  
 مارجريت روز، ما بعد الحداثة  
 كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل  
 ريتشارد شاخ، رواد الفلسفة الحديثة

سوريال عبد الملك، حديث النهر  
 د. رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة  
 البلشفية وبعدها  
 مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما،  
 الحكاية، القصة القصيرة  
 ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر  
 نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر  
 وقصص أخرى  
 رالف ثى ماتلو، تولستوى  
 والتر ألن، الرواية الإنجليزية  
 هادى نعمان الهييتى، أدب الأطفال  
 مالكوم برادبرى، الرواية اليوم  
 لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة  
 د. جابرييل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار  
 أو (الجنرال فى المتاهة)  
 نيلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى  
 التاريخ  
 د. على عبد الرعوف البمبى، مختارات من  
 الشعر الإسياتى فى العصور الوسطى (ج ١)  
 ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما  
 الإنجليزية  
 ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (ج ٢)  
 جورج ستاينز، بين تولستوى ودستوفسكى  
 (ج ٢)  
 ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية  
 فيكتور برومبير، ستندال (مقالات نقدية)  
 فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى  
 يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية  
 د. نعمة رحيم الغزاوى، أحمد حسن الزيات  
 كاتباً وناقداً  
 ف. برميلوف، دستوفسكى  
 لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل  
 الببليوجرافى: روائع الآداب العالمية (ج ١)  
 محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية: مقال  
 فى النوع الأدبى

د. عبد المعطى شعراوى، المسرح المصرى  
 المعاصر: أصله وبداياته  
 توماس ليبهارت، فن الماييم وانبانتومايم  
 زيجمونت هيبنر، جماليات فن الإخراج  
 أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ ج)  
 ألان ماكدونالد، مسرح الشارع  
 نك كاي، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية  
 بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية  
 أندرية فيلييه، الممثل الكوميدي  
 لى ستراسبج، تدريب الممثل  
 جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى  
 العرض المسرحى  
 أيوجينيو باربا، زورق من الورق

#### • رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف  
 الأعضاء من الألف إلى الياء  
 د. جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى  
 السنة  
 د. ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب  
 م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

#### • خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى  
 ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة  
 جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية  
 والفرنسية  
 أنور المعداوى، على محمود طه: الشاعر  
 والإنسان  
 جوزيف كونراد، مختارات من الأدب  
 القصصى  
 تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من  
 الآداب الآسيوية  
 محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب  
 بالفرنسية

إدوارد مري، عن النقد السينمائي الأمريكي  
 جوزيف م. يوجز، فن الفرجة على الأفلام  
 سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء  
 دوايت سوين، كتابة السيناريو للسينما  
 هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة  
 يوجين فال، فن كتابة السيناريو  
 دانييل أريخون، قواعد اللغة السينمائية  
 كريستيان ساليه، السيناريو فى السينما  
 الفرنسية  
 تونى بار، التمثيل للسينما والتلفزيون  
 آلان كاسييار، التدقيق السينمائي  
 بيتر نيكولز، السينما الخيالية  
 بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكى  
 دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية  
 هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)  
 جان لويس بورى وآخرون، فى النقد  
 السينمائي الفرنسى  
 محمود سامى عطالله، الفيلم التسجيلى  
 ستانلى جيه سولومون، أنواع الفيلم الأمريكى  
 جوزيف وهارى فيلدمان، دينامية الفيلم  
 قدرى حفنى، الإنسان المصرى على الشاشة  
 مولى براح، السينما العربية من الخليج إلى  
 المحيط  
 حسين حلمى المهندس، دراما الشاشة: بين  
 النظرية والتطبيق للسينما والتلفزيون (٢ ج)  
 جان بول كوللين، السينما الإثنوجرافية سينما  
 الغد  
 لويس هيرمان، الأسس العملية لكتابة  
 السيناريو للسينما والتلفزيون  
 موريس إدجار كواندرو، نظرات فى الأدب  
 الأمريكى  
 جوديث ويستون، توجيه الممثل فى السينما  
 والتلفزيون  
 أحمد الحضري، تاريخ السينما فى مصر ج ٢

هنرى باربوس، الجحيم  
 ميجيل دى ليبس، الفئران  
 روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال  
 العلمى  
 يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)  
 ب. إفور ايفانس، مجمل تاريخ الأدب  
 الإنجليزى  
 فخرى أبو السعود، فى الأدب المقارن  
 سليمان مظهر، أساطير من الشرق  
 ف. ع. أدينكوف، فن الأدب الروائى عند  
 تولستوى  
 د. صفاء خلوصى، فن الترجمة  
 بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا  
 اللاتينية  
 بورخيس، مختارات الفانتازيا والميتافيزيقا  
 مايكل كانينجهام، الساعات  
 شيكسبير، سونيئات شيكسبير  
 ثريا عريان، حديقة الياسمين  
 د. عبد الغفار مكاوى، النور والفراشة  
 إميل فاجية، مدخل إلى الأدب  
 ألكساندر سولجينيتسين، يوم فى حياة إيفان  
 دينيسوفيتش  
 لورانس فينوتى، اختفاء المترجم  
 • سادس عشر: الإعلام  
 فرانسيس ج. برجين، الإعلام التطبيقى  
 بيبير ألبير، الصحافة  
 هربرت ثيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية  
 • سابع عشر: السينما  
 هاشم النحاس، الهوية القومية فى السينما  
 العربية  
 ج. دادلى أندرو، نظريات الفيلم الكبرى  
 روى أرمز، لغة الصورة فى السينما  
 المعاصرة



• ثامن عشر: كتب غيرت الفكر  
الإنسانى

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى  
صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى  
ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره  
مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ١٠  
أجزاء.

• تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، أعلام وأفكار  
د. مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى  
ت. كويلر ينج، الشرق الأدنى  
جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا  
للعلم

ابن زنبيل الرمال، آخرة الممالك  
د. محمد عوض محمد، نهر النيل

يعقوب فام، البراجماتية

بلوطرخوس، العظماء

آرثر كريستنسن، إيران فى عهد الساسانيين

أوجست ديبس، أفلاطون

آدم متز، الحضارة الإسلامية (٢ ج)

تشارلز ديكنز، مذكرات بكويك جـ ١

روبرت ديوجراند وآخرون، مدخل إلى علم

لغة النص

محمد كرد على، بين المدنية العربية

والأوروبية

ولفرد جوزف دल्ली، العمارة العربية بمصر

## منافذ بيع الهيئة المصرية العامة للكتاب

- مكتبة المعرض الدائم  
١١٩٤ كورنيش النيل — رملة بولاق —  
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب  
القاهرة ت: ٢٥٧٧٥٣٦٧/
- مكتبة مركز الكتاب الدولي  
٣٠ ش ٢٦ يوليو — القاهرة  
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨
- مكتبة ٢٦ يوليو  
١٩ ش ٢٦ يوليو — القاهرة  
ت: ٢٥٧٨٨٤٣١
- مكتبة شريف  
٣٦ ش شريف — القاهرة  
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢
- مكتبة عرابي  
٥ ميدان عرابي — التوفيقية — القاهرة  
ت: ٢٥٧٤٠٠٧٥
- مكتبة الحسين  
مدخل ٢ الباب الأخضر — الحسين —  
القاهرة ت: ٢٥٩١٣٤٤٧
- مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوي  
الزمالك — نهاية شارع ٢٦ يوليو من جهة أبو  
الغدا — القاهرة
- مكتبة المبتديان  
١٣ ش المبتديان — السيدة زينب أمام دار  
الهلal — القاهرة
- مكتبة ١٥ مايو  
مدينة ١٥ مايو — حلوان خلف مبنى الجهاز  
ت: ٢٥٥٠٦٨٨٨
- مكتبة الجيزة  
١ ش مراد — ميدان الجيزة — الجيزة  
ت: ٣٥٧٢١٣١١
- مكتبة جامعة القاهرة  
بجوار كلية الإعلام — بالبحر الجامعي —  
الجيزة
- مكتبة رادوبيس  
ش الهرم — محطة المساحة — الجيزة —  
مبنى سينما رادوبيس
- مكتبة أكاديمية الفنون  
ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة  
المساحة — الهرم — مبنى أكاديمية الفنون —  
الجيزة ت: ٣٥٨٥٠٢٩١
- مكتبة الإسكندرية  
٤٩ ش سعد زغلول — محطة الرمل  
ت: ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥
- مكتبة الإسماعيلية  
التملك — المرحلة الخامسة — عمارة ٦ مدخل  
(أ) — الإسماعيلية ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨
- مكتبة جامعة قناة السويس  
مبنى الملحق الإدارى — بكلية الزراعة —  
الجامعة الجديدة — الإسماعيلية  
ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨
- مكتبة بورفؤاد  
بجوار مدخل الجامعة ناصية شارع ١١، ١٤  
بورسعيد
- مكتبة أسوان  
السوق السياحي — أسوان  
ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠
- مكتبة أسيوط  
٦٠ ش الجمهورية — أسيوط  
ت: ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢
- مكتبة المنيا  
١٦ ش بن خصيب — المنيا  
ت: ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤
- مكتبة المنيا (فرع الجامعة)  
مبنى كلية الآداب — جامعة المنيا — المنيا
- مكتبة طنطا  
ميدان الساعة — عمارة سينما أمير — طنطا  
ت: ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

• مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد  
عمارة الضرائب سابقاً

• مكتبة دمنهور

ش عبد السلام الشاذلى - دمنهور

• مكتبة المنصورة

ش الثورة - المنصورة  
ت: ٥٠ / ٢٢٤٦٧١٩

• مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية "جامعة منوف"

مكتبات ووكلاء

البيع بالدول العربية

• لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب  
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة -  
بيروت - ت: ٩٦١/٧٠٢١٣٣

ص.ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان  
٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب  
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى

- الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر  
ماربيا ص.ب: ١١٣ / ٥٧٥٢  
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

• سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا  
- دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع  
من شارع ٢٩ أيار. ص.ب: ٧٣٦٦ -  
الجمهورية العربية السورية

• تونس

المكتبة الحديثة - ٤ ش الطاهر صفر -  
٤٠٠٠ سوسة الجمهورية التونسية

• المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص.  
ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع

طريق الملك فهد مع طريق العروبة  
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات  
والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية -  
ش الستين - ص.ب: ٣٠٧٤٦ - جدة:

٢١٤٨٧ ت مكتب: ٦٥١٤٢٢٢ -  
٦٥٧٠٦٢٨ - ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -  
الرياض - المملكة العربية السعودية -  
ص.ب: ١٧٥٢٢ - الرياض ١١٤٩٤

ت: ٥٩٣٤٥١

٤ - مؤسسة عبد الرحمن السديري  
الخيرية الجوف - المملكة العربية

السعودية - دار الجوف للعلوم -  
ص.ب: ٤٥٨ - الجوف -  
هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

• الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع  
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر  
والتوزيع عمان - وسط البلد - شارع  
الملك حسين

ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٢٢٦ +

تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +

ص.ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢

الأردن.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب  
ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدي : ١١٧٩٤ رمسيس

[www.egyptianbook.org.eg](http://www.egyptianbook.org.eg)  
E - mail : [info@egyptian.org.eg](mailto:info@egyptian.org.eg)

